



دين وتمدن

من أدب القرآن والسنة ونهج البلاغة
وهي الكتب الثلاثة التي امتاز بها صدر
الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين

محمد علی الحومانی

دین و تمذین

۱۳۷۷
۱۹۵۸

عَرَفَ اللهُ مُحَمَّدًا وَعَرَفَ مُحَمَّدًا أَيْ عَلِيٍّ

اهراء

أنفق على تخريج هذا الكتاب من ماله ، الوزير السعوى
السيد حسن الشربلى ، وهو الشخصية البارزة فى أعمال البر ،
ولقد وقفت بنفسى على كثير من أعماله الجليلة فى منشآته الدينية
والمدينة ، وعوله كثيراً من الأسر المغمورة بالبؤس ، ولعلنا نفرء
له كتاباً خاصاً فى الكشف عن أعماله الصالحة ونقدمه نموذجاً حياً
لأدعياء الإصلاح من رجالنا .

فالى هذه الشخصية النبيلة أقدم سفرى هذا راجياً من ورائه
الثواب لى وله فى دار الخلود . . .

تَفْهِيمٌ

ليس موضوع هذا الكتاب علماً يرسم جلوده
ويبنى قواعده ويعمن في سرد حقائقه ثم يبعثه إلى
العالم حلقة من سلسلة المجارب في الحياة ..

ولا هو فن يقوم على العاطفة ، شعراً تتغنى به الأجيال أو لحناً توقعه الأنامل
على المعازف والأوتار ، أو أدباً يضيف على الحياة لوناً يستهوى القلوب .

أقول : ليس موضوع كتابي هذا علماً كما يفهم الناس العلم ، يرجعون
إليه في تحقيق العناصر التي تتقوم بها الحياة ، ولا فناً كما يفهم الناس ، يفيشون
إليه كلما حفزهم هم أو هزهم طرب .

ولكنه خليط ، كالإنسان ، من عواطف تتجاوب أصدائها في مجاهل الحياة
الخاصة بي ، ومن عتول تتبارى في مجال السبق إلى تهذيب هذه العواطف بين
يدى تلك الحياة .

فلم أكن منذ فقهت الحياة ، عالماً متخصصاً بمعن ، إذ يكتب ، في تحقيق
ما يكتب وعلى عينيه منظار أحكم العقل العالم توجيهه إلى صميم الحياة في حلود
المنطق والرهان .

ولم أكن ، منذ تأدبت ، أديباً يعني بتصوير الحياة حلوها ومرها كيف
شاء وحيث شاء .

ولم أكن ، منذ شعرت بالحياة ، شاعراً يفكر قبل أن يشعر ثم يعمل إلى
وزن القول وإعراجه وسجعه .

لم أكن شيئاً من ذلك ، ولكني مجروف حيناً في تيار الحياة وجارف حيناً
آخر ، مجروف حين يغمرني نعيمها ، وجارف حين يجرفني بوئسها ، فتمد
أشعر وأنا أنظم ، وقد أنظم وأنا لا أشعر ، قد استلهم الشعر وقد يوحى الشعر
إلى ، وقد أكتب وأنا متأثر ، كما قد أكتب ولا متأثر ، وقد أسجل الأحداث
وأنا مفكر ، وقد أفكر ثم لا أدون .

ليس لي نظام فيما أكتب أو أخطب وفيما أشعر وأدون ، أنا فوضوى في
كل ما يحدث لي من حياة ، لم ألزم أو لا أستطيع أن ألزم نفسي بالجلوس إلى
مكتبي لأدون أو أسجل ، ولا أطيق ارتياد الملاهي والحداث مكرهاً لأشعر

أو أستلهم ، ولا أقوى على إكراه نفسي بالوقوف على منبر أو في محفل أو تحت علم ، ولكنى حين أدعى لأقول أو أكتب أو أنظم ، أسأل نفسي : هل تستجيب لى فألبى الداعى أم تستعصى على فأرفض وقد لا أعتذر ؟؟

أحب أن أكون حراً فى كل ما أقول ، وأن أكون حراً فى كل ما أفعل . فاذا شعرت بالضغط والإكراه قبل أن أقول صمت وارتج على ، وإذا شعرت بأنى مجبر على أن أفعل شيئاً خرجت من دينى قبل أن أفعل ذلك الشيء ، ففى صميم قولى وعلى يجب أن أكون حراً ، وأن أكون مؤمناً بضرورة ما أقول قبل أن أقول وضرورة ما أفعل قبل أن أفعل ، وفى صميم حريقى أن أفعل أو أتترك وأن أقول أو أصمت ، وأنا مؤمن بضرورة ذلك الفعل وهذا القول .

دينى فى أن أوؤمن بضرورة ما أقول أو أعمل وإن تركت قولى وعملى ، وحريرى فى أن أوؤمن بذلك أو أكفر ، ثم قد أفعل أو أقول مالا أو من به من وراء هذه الحرية ، وعلمى فى أن أبحث وأحلل من غير تعليم أو تقليد ، وأدبى فى أن أصور ما تراه عيني ويشعر به قلبي دونما تصور أو تحسس ، وفنى فى أن ألتقط خواطرى وأسجلها دون أن أفكر أو أشعر ، وقد أتعلم وأقلد ، وأنا أبحث وأحلل ، وقد أنتصور وأتحسس ، وأنا أحبر وأصور ثم قد أفكر وأشعر وأنا ألتقط وأسجل .

أنا غيرى وأنا أنى معاً ، أحب أن أتمتع بالحياة كيفما شئت وحيثما شئت ، وقد أراعى فى هذا الحب غيرى أو لا أراعيه ، وفى الوقت نفسه أحب لغيرى الخير وأعمل لهذا الخير ، وقد أؤثره على نفسى فى كثير مما أحب ، وأفرط فى أنانيتى حين يستهوينى جمال المرأة ، كما أفرط فى غيرتى عندما يتنافس لدى القريب والبعيد فى اقتضاء الحق .

أنا شجاع وجبان معاً ، أقدم على ما أعتقده حقاً ولا أفكر فى عاقبته أكانت حسنة أم سيئة ، ولشد ما عرضت نفسى من وراء هذا الإقدام لكثير من الأخطار مادية ومعنوية . وأنا جبان حين أوخذ على غيرة بما يصدع روحى أو بلدى ، إذ لا مجال إذ ذاك لأن أفكر فى الرد على هذا الصدع بروحى أو بلدى ، ولذلك وقعت فى كثير من المشاكل التى نالنى منها ضرر كبير ثم لم أزل

أنحسر على أن نالني هذا الضرر وكنت أستطيع تلافيه لو دفعته عندما فوجئت به .
أنا مريض وصحيح معاً ، حيث أشعر في كل يوم أو أقل أو أكثر بما يقعدني
أو يلجئني إلى الفراش ولو بضع دقائق ربّما أستجم أو أعالج ما ينتابني من
تخاذل في القوة ، أو توتر في الأعصاب ، يوماً أراي في أمس الحاجات إلى
راحة البدن ولراحة الفكر ، ويوماً أشعر أني مدفوع بكل قوتي إلى الإجهاد
بحركتي وتفكيري ، ويوماً آخر لا يفيدني شيء من الهدوء ولا الإجهاد ، إلا
عطف محب أو حبيب يرفه عني .

الأحماض في معدتي ، والتضخم في الكبد والطحال ومسالك البول ، والملاريا
واللوزنتاريا المزمنتان ، والزكام المتوالي يوماً بعد يوم ، كل ذلك يتصافر على
إفلاق راحتي حتى لا أستقر ، وعلى إرهاف أعصابي حتى أكاد أنهار ، وحتى
أصبحت أضعف وأتخاذل بين يدي قسوة البرد في الشتاء وسموم الحر في الصيف ،
وبين يدي كل ما يسوؤني من ضغط على روحي وبدني ، لا يعصمني من هول
ذلك كله إلا الرفاهة في العيش واستجابة الحياة لي بمتعها المادية والأدبية ، وإلا
الاعتدال في كل ما يحقد بي من حياة .

أنا رجعي ومجدد معاً ، أما رجعتي فتأتم على أني قديم بروحي وبدني ،
والقديم بروحه وبدنه لا بد له من رجعي يمن بها إلى مصدره في حاضره ، ويمنّي
عليها إنسانيته في مستقبله ، فأنا رجعي بلحمني ودمي وطعامي وشرابي وسماي
وأرضي ، ومتي كانت هذه كلها قدمة فلا بد من القدم في تفكيري ، وأما
تجددي أو تجديد قدامي فتأتم على سنة التطور في جبلي ، فأنا بكنه جبلي قديم
وتطورها جديد ، فالكنه المعبر عنه « بالحام » في جبلي قديم والتطور المعبر
عنه بالتلوين والتكوين فيما يعرض لجبلي هو جديد .

فالإنسان ليكون إنساناً ، إنما يقوم على قدمه فيما يفكر ويحبر ، ثم يقوم
على جليده فيما يصور ويلون ، فليس لأي إنسان مفكر أن يكون قدماً محضاً
فيكون نسخة ثانية عن أول حلقة في سلسلة كونه ، وليس له أن يكون جديداً
محضاً فينسلخ عن جبلة ويكون الحلقة المفتردة في سلسلة وجوده .
تلك هي شخصيتي التي تملي على القارئ ما أشعر به وأنا أنظم ، ثم تملي

عليه ما أعقل وأنا أكتب ، ففي هذا الكتاب الذى أقدم للقارئ بين يديه سطور هذه المقدمة ، صورة عن شخصيتى هذه التى كشفت عنها باختلاص لمن شاء أن يقرأنى أو يتحسس من وجودى فى هذا العالم ، فليست فى كتابى هذا عالماً كل العالم فياً خلنى قارئى بالتحقيق فيما أثبت أو أنفى من براهين وحجج ، فإنا أنا بمسئول عن تفسير الآية الكريمة فى كتب غبرى ، وإنما أفسرها بما أفهم وأعقل من شخصيتى التى بسطتها أمام كتابى ، ولا أنا بمسئول عن صحة أو عدم صحة الحديث الذى أسوقه مرفوعاً إلى الرسول الكريم ، وإنما أكتفى بكونه مرفوعاً إليه صلوات الله عليه من كتب قدر العلم والعلماء خدمة مؤلفيها للحق ثم أسوق الحديث بين يدي ما أفهم وأعقل من شخصيتى .

فأنا فى كتابى هذا مسلم ، ومسلم فقط لا أعرف قومية ولا عنصراً فيما أحبر وأحرر به عمتينى ، فأنا عربى بلغى فقط ، وأما دى فالله وحده يعلم من أين تحلر لى ، ثم لى أين ينحلر عنى ، وإذا قلت : لى مسلم فأنما أعنى لى إنسان لأنى أعتقد أن الإسلام يعود لى لى إنسانيتى ، وإنسانيتى وقف على خدمة الحق أينما كنت ، وحيثما حللت ، فأنا إذن على مذهب محمد لا أذهب إلا مذهبه ولا أدين إلا بدينه ..

وكم يؤلنى أن يذهب المسلمون بعد محمد لمذاهب شتى ، فينسوا ، وهم يحكمون ثم يفصلون فى الحكم ، ذكر محمد حتى كأن هذا الدين صادر عن شافعى أو حنفى أو غيرهما ممن دان لله بدين محمد ولم يخطر لهم أن فقه ما درسوه عن محمد سيكون حاثلاً بينهم وبين محمد على السنة أناس أمعنوا فى العصبية والجهل حتى نسوا ربهم ونبيهم ، وحتى أوغلوا فى أشياء ليس فيها حكم للعقل ولا رضى عنها لله ورسوله ، فاذا بنا ، ونحن نرقب أن يسود الأسلام العالم بوحدته وعزته وكرامته ، إذا بنا ، فى عصر النور ، نستقبل الظلمة ، وفى عهد العلوم وازدهارها ، نغرق فى الجهالة حتى يبرأ منا الإسلام .

ففى كتابى هذا ، الذى أقدمه بين يدي آثامى وآلامى ، لى الحق المهيمن على الكون ، فى هذا الكتاب قدمى الذى فطرت عليه ، وجد يدي الذى وسمنى به ما أصوره فى حاضرى ، وأما أتصوره فى مستقبل ، ومن أمعن فيما نظمت من

شعر وبعثته للعالم في « حواء » و« فلان » و« النخيل » و« انت انت » ثم ما أخرجت من علم وأدب وقصص في « وحى الرافدين » و« بلاسم » و« من يسمع » و« سلوى » و« المأسى » أقول : من أمعن في دراسة هذه الكتب رآها خليطاً من قديم مهذب وجديد مستطرف في فكرة الأثر وديباجته .

ولا بد لي في هذه المقدمة من أن أشير إلى خبر ما أطمئن إليه في كتبي هذه من تجديد في الفكرة يكاد يكون قاصراً في جماله وجلاله ، كما أعلم ، على موجتين من تفكيرى ، إحداهما : وجودية ما يتصوره الفكر الإنسانى وواقعته وأن ليس في كون هذا الإنسان المفكر خيال نعله نقيضاً للحقيقة وإنما هو حقيقة في عالم الإنسان لم يكشفها العلم ، وقد طغت هذه الموجة على كثير مما كتبت في « بلاسم » . وأما الموجة الثانية فهي ما عاجلت بها إرادة الإنسان وأنه يخلق بها طراز حياته الدنيا عن طريق غير مباشر ، ثم يخلق بهذه الإرادة طراز حياته الأخرى عن طريق مباشر ، والتبسط في هذه الفكرة رهن بدراسة الفصل الأخير من هذا الكتاب وهو « تربية الإرادة » .

فالذى أرجوه ممن يقرأ هذه المقدمة أن لا يقبل على قراءة الكتاب إلا وهو مطمئن إلى أنى وضعته مخلصاً لرسالتى ، ومقبلاً على حياتى الباقية التى أنشدتها في هذه الحياة الدنيا ، فليكن قارئ هذا الكتاب مخلصاً فيما ينشد من وراء ما يقرأ ، فكنتانى هذا هو أنا وأنا هو ، لم أحرر في تجربته علماً ، ولم أحقق أدباً ، ولكنها شخصيتى على علانها فاضت بحياتى فأودعتها كتابى هذا .

الله

... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...
إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ...
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...

كان القائد الأمريكي « بوليفار » بعد تحريره جنوب أمريكا من الاستعمار الاسباني يتألم لعدم استجابة الشعوب اللاتينية لدعوته في الوحدة كما استجابت شعوب أمريكا الشمالية لحررها. واشنطن ، أقول : كان هذا القائد يتألم أو آخر أيامه ويتحسر على أن لم يثمر مسعاه في توحيد الجنوب كما أثر مسعى زميله واشنطن في توحيد الشمال .

ولم يكذب حدسه في أن الجنوب سيكون مستعمراً لغره ضرورة خضوع الضعيف للقوى واستكانة الفقير للغنى ، فقد صدق هذا الحدس إذ تقطعت أسباب ذلك الشعب اللاتيني في مجاهله المرامية من وراء بحر الظلمات كما تقطعت أسباب الشعب العربي في الأندلس من قبله وأصبح دويلات فكان من البديهي أن يخضع لغره وتذهب ربحه ، فالوحدة إذن هي مفزع العالم بأسره إلى الحياة الكريمة الحرة .

ولقد أدرك رسول الحق إلى الإنسانية محمد بن عبد الله سر هذه الوحدة وعظمتها في بناء الكون وتسلسل الوجود فيه فعمد إلى بنائها في نفوس الشعوب وهي شتى الأهواء والنوازع تنافس الحيوان في تنازع البقاء . وكان الوحي القائم فيه أول موجه له إلى أن الدعوة إلى هذه الوحدة يجب أن تبدأ في العقيدة ثم تتعداها إلى اللغة والآداب ، وقد كان ذلك إذ صدع جبريل سمعه بالدعوة قبل كل شيء إلى توحيد الخالق الذي هو مصدر الفكر البشري في كونه .

والعقيدة أكبر موثر في تكوين العقل الإنساني رقياً وانحطاطاً ، فقد كان العربي في الجاهلية كغيره من أفراد الشعوب الضبيعة يشعر من طبعه بضرورة وجود إله يعبده فيصوره في الإنسان أو الحيوان أو الجهاد أو النبات فيتخذ منه وثناً يناجيه ويخضع له ، وقد كانت الآلهة تباع في المعارض وفي الشوارع ، وكان منها في البيت الواحد عدة آلهة لكل فرد من الأسرة إله ، وذلك ما عجز في صميم العقل الواعي ويحول بينه وبين التوجيه الإنساني إلى حياة كريمة تحت هيمنة إله كريم .

أقول : إن محمداً تنبه قبل ألف عام إلى أن الوحدة قوة ، سواء كانت في

الفرد كالإختصاص ، أو في الجماعة كالتضامن والتكاتف ، فما لهؤلاء السفهاء الذين يدعون أنهم أول من فكر في وحدة الفرد فشرعوا له الإختصاص في العلوم والآداب والفنون ، وفي وحدة الجماعة الإنسانية فشرعوا المؤتمرات للتفاهم العالمي ، ثم فكروا في لغة واحدة تهيمن على الوجود الإنساني أسموها «الاسبرانتو» وتباروا في الدعوة إلى وحدة الثقافة والسياسة والاقتصاد في كل أمة ثم تجاوزوها إلى شعوب وأمم تتضافر وتتعاون باسم هذه الوحدة .

ولإذا كان هدف الغربيين اليوم ، فما أنشأوه من مؤتمرات وهيآت دولية ، وحدة أمة أو إقليم أو عنصر ، فإن محمداً كان يهدف بما يستوحيه من ربه ، إلى وحدة العالم تحت بنود إنسانية لا يتقوم بغيرها وجود إنساني ، تلك هي : وحدة العقيدة ، ووحدة اللغة ، ووحدة الآداب ، فعن الأولى ينشأ التضامن والتعاون والمحبة ، إذ يعتقدون أنهم أبناء لأب أزلي واحد ، وعن الثانية ينشأ التفاهم والتخاطب الضروريان في الأحياء لاستجابة الحياة ، وعن الثالث ينشأ التعاون والتعايش ، وفي ذلك كله ناموس أول لرق الإنسان وانصرافه إلى وجهة واحدة في الحياة .

فالقوة إذن في مجموعة الإنسان قائمة على هذه الوحدة وأماننا الشواهد على ذلك من أن أقوى الأمم اليوم ما كانت أكثر وحدة إذ يفضي بها ذلك إلى القوة التي تهيمن بها على من هو دونها وحدة في عالم الأرض شريطة أن يعصمها الدين بالعلم من الجهل المفضي بها إلى الفرقة المفضية بها إلى الانهيار .

أما لماذا تدعو الأديان في مطلع وحيا إلى وحدة الخالق فلأن المفروض في كل نوع من الخلق أن يتجه إلى واحد في تقرير حياته ، فنوع العلماء يتجهون ، وهم في دراستهم الأولى ، إلى معلم واحد ، ونوع الساسة القائمين على رعاية الأمة ، يتجهون ، وهم يحكمون الشعب ، إلى سلطان واحد ، ونوع القضاة القائمين على الفصل في الحكم ، يتجهون إلى قانون واحد ، وهكذا نجد الأمة في تعايشها وتبادلها حقوق الحياة تتجه إلى ملك واحد ، ونجد الجوارح في الجسم تتجه ، وهي تعمل ، إلى العقل الذي هو موجه واحد ، وحتى النمل والنحل في الحيوان نجهده ، في استقبال الحياة ، يتجه إلى يعسوب واحد .

فالوحدة في الحياة ضرورة قائمة في صميم كل حي ، من أجل ذلك دعا إليها العقل والدين عن طريق الوحدة الأولى في الكون ألا وهي الاتجاه فيما يتقوم به ذلك الكون إلى مكون واحد ، وسمو الغاية في نفس كل حي منوط بالاتجاه إلى ما قر فيها منذ الأزل من تحرى الكمال فيما تعمل له ، ولذلك نرى التقليل ، منذ كان هذا الإنسان ، ماثلاً في الصغير تجاه الكبير وفي الجاهل تجاه العالم وفي القوى تجاه الضعيف إذ قر في النفس أن الكمال قائم في الحياة على القوة والعلم ، فاتجاه المخلوق إذن بالوحدة إلى خالقه محض اتجاه إلى الكمال المنشود له ، من وراء طبعه لا يصرفه عنه إلا الجهل ، من أجل ذلك كانت دعوة السماء إلى توحيد الخالق مشفوعة بالدعوة إلى العلم الذي يرفع العقل في فقه الحياة من وراء ذلك التوحيد .

ذلك هو السر في أن الله جعل الدعوة إلى توحيد مرحلة أولى في تهذيب عقيدة الإنسان الكريم على خالقه والذي هو خليفته في رعاية عوالمه الدنيا المسخرة له بفضل العقل ، ثم جعل الدعوة إلى العلم مرحلة ثانية في تعزيز تلك العقيدة وتقريرها ، ان الله تعالى يدعو إلى توحيد ليقر خلقه منه ، ويدعو إلى معرفته ليحيلهم في عظمته المهيمنة على الكون ، ومثلاً على ذلك :

أن أقرب المتعلمين إلى معلمهم من آمن به وأخذ عنه وأحلّه من نفسه مكانة لا يحتلها معلم غيره ، وإن أقرب البنين إلى أبيهم من آمن به وخضع له وتأدب عليه ، وإن أقرب الرعية إلى الراعي من دان للسلطان وأخلص له ونزل على حكمه ، فالمعلم يحيل نفسه في تلميذه وهو يقبل عليه ويتقبل منه ، والأب يحيل ابنه في ذاته وهو يخضع له ، والحاكم يستخلف محكومته في رعيته وهو يخلص له ، ويأتمر بأمره ، سنة الله في خلقه أن يتجاوب القوى مع الضعيف والكبير مع الصغير والعالم مع الجاهل من وراء الوحدة في الكون الجامع بين الضعيف والقوى وبين الصغير والكبير ثم بين الجاهل والعالم في صميم الحياة الصادرة عن باري الكون .

والوحدانية صفة عريقة في نفوس الأحياء منذ كانت هذه النفوس ، فالمعلم يجب أن يكون فرداً واحداً في نفس من يتأدب عليه ، ورب الأسرة يجب أن

يكون وحده محترماً في أسرته ، والمهيمن على الرعية ، زعيماً كان أو رئيساً أو ملكاً ، يحب أن يكون وحده معبود رعيته ، هكذا نجد كل إنسان مفطوراً على هذه الأثانية لأنها صفة خالقه الذي هو مثل أعلى له ، فأكثر صفات الخالق قائمة بالطبع في نفوس مخلوقاته ، وليس الكرم والإحسان والقوة والهيمنة والرحمة واللفظ والعلم والخبرة ، أقول : ليست هذه ونحوها من الصفات العليا إلا صادقة على الخالق والمخلوق معاً في أزليتها ، ولكنها تختلف شدة وضعفاً ، وبقاء وزوالاً ، باختلاف الأرباب والمربوبين ، فالصفات هذه في الرب هي عين ذاته وباقية ببقائه ، وهي في المربوب عارضة عليه زائلة بزواله .
فالله لا إله إلا هو ، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، هذه الآيات الكريمة وأشباهاها هي مرحلة أولى للعقل البشري في اجتياز الحياة إلى الخلود .

محمّد لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ

يكتب إلى محرر صحيفة ما في لبنان ، وقد بعثت إليه بقصيدة أشربتها كثيراً من عواطفى تجاه منزل الوحي في الحجاز ، وجعلتها صلة أولى بينى وبين الوزير السعودى الشيخ محمد سرور الصبان الذى كان صديقى ورفيقى أيام تقلبى في منازل الوحي ومصادر الإلهام .

يكتب إلى الصحفى فيقول : إن المجلة لا تنشر مدحاً لأحد، ولكنها فتحت صدرها لهذه القصيدة عناية بالشاعرية الفذة التى تهب القصيدة قسطاً وافراً من الفن الرائع والأدب الرفيع .

واقراً قصيدة لأحد شعراء سوريا ، يهاجم فيها الشاعر اللبنانى بشارة الخورى المعروف بالأخطل الصغير لأنه مدح الملك السعودى بقصيدة فريدة من شعره عدد فيها مناقبه وأشاد فيها بفضله عليه خاصة وعلى أمته عامة ، يتهم هذا الشاعر الناشئ شاعرنا الفحل بأنه خرج على دولة الشعر العزيزة وتدنّى بشعره إلى الحضيض بمدحه ساسة الأمة في سبيل العيش التافه .

ولكن الشاعر الناشئ هذا وزملاءه من الشعراء المختلئين الماتعنين عملاًون الصحف بمدح الزهرة أو المرأة أو الخمرة ثم يتبعجون بأن الشعر تصوير للحياة ، فكأن الحياة قاصرة على هذا الشكل المهين من النبات والحيوان ، وكأن الحياة بعيدة كل البعد عن الإنسان الكامل الذى يقطع ليله ساهراً على أمته ويقطع نهاره مكباً على مكتبه ، ثم نراه طائراً من بلد إلى بلد ومن أفق إلى أفق يجمع شتات الأمة ويؤلف بين قلوب الساسة من المسيطرين على البلاد .

فاذا شهد الشاعر من هؤلاء الجرايع الذين ابتلينا بهم في عصر يتطلب الفحول من شعرائه — إذا شهد أحدهم ملهى تتلوى على مسرحه الرواقص أمثال تحية كاريوكا وسامية جمال ، واستجاب لشهواته في وصف الجسد العارى ، أو إذا شهد مقهى تدار فيه كوئس الخمر وتعزف القيان على المزاهر ، أقول :

إذا شهد أحد هؤلاء المائعين العضاريط من شعراء الشباب المتحرر بعض هذه المشاهد ثم أمعن في وصفه وأذاعه على الملأ ليعزز به شروداً ناشتتنا ونخروجها على الأخلاق ، فذلك هو الشاعر .

وأما الشاعر الذي يشعر بالحاجة الماسة في الأمة إلى رجال يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الحق وفي سبيل النهوض بالأمة إلى المستوى الذي يعصمها من الانهيار ، أما هذا الشاعر فهو الحرى باللقاب السوء ، على السنة هؤلاء وتعصدهم بذلك الصحافة المارقة ، فتسبغ عليه لقب الرجعي تارة وألقاب السخف والتهافت والاستجداء تارة أخرى .

العجب كل العجب في أن الرجل الغني أميراً كان أو ملكاً أو رئيساً إذا أغدق المال على الصحافة والأندية ورجال السياسة الخرقاء ، حفلت به صدور الصحف تتبارى في عرض صوره واختلاق أعماله ، أما إذا أغدق هذا الثرى على الشاعر والأديب فالويل كل الويل له ولها من الصحف وحتى من الأدباء والشعراء . لماذا ؟؟ أمحق للصحيفة أن تتعزز خلاعتها ودجلها ومجونها بمال الأثرياء ولا يحق للشاعر أو الأديب أن يعزز شعره وأدبه بأموالهم ؟؟ وإذا كانت المدرسة أو أى معهد للعلوم أو الفنون جديرة بمال الأغنياء لتعزيز العلوم والفنون فلماذا لا يكون الشاعر أو الأديب ، وهما المدرسة الخالدة على الدهر ، جديراً بهذا المال ؟؟

مسكين هذا الشاعر ، عليه أن يصور حياته حافلة بالمرأة ولو كانت فاجرة ، وبالخمرة ولو كانت حراماً ، وبالنقمة على قادة الأمة الجائرين ولو حطموا رأسه ، وبالجهد في سبيل الحق ولو كان أعزل ، عليه أن يصور هذه الحياة ويدعو لها ويتفانى فيها ولو كان في ذلك بؤسه وشقاؤه وعلته التي تحرم أجله ، وأما إذا صور حياته حافلة ، إلى ذلك كله ، بشكر ملك عزز أدبه ، وغذى فنه ، وأبقى على حياته ، أو بالنداء على أعمال رئيس أو وزير أو أمير ، أو ثرى كائناً من كان ، ولو كانت هذه الأعمال ملء سمع الدهر وبصره ، أقول : أما إذا صور الشاعر حياته هذه فهو بعيد عن قيم الفن وقريب من لعنات الحق .

كبر على هؤلاء المجان المخانيث من أدعياء الشعر والأدب ، كبر عليهم

أن يروا زميلاً لهم سايغ العيش ، ندى الحياة ، وهذا هو منتهى اللؤم في شركاء
المهن ، هل كان منذ الأزل مفروضاً على الشاعر أن يكون بائساً وعلى الأديب
أن يكون شقيماً ؟؟ وإذا كانت الحياة الغنية تمتع العيش حراماً على الشاعر
والأديب فلمن تحمل ؟؟ أهؤلاء الفسقة المرقمة من ساسة وصحفيين وجلاوزة يلهبون
ظهور الأمة بسياط الجور والحسف ؟؟

وإذا كان الملك سعود الذى رصده من سلطانه مآت الملايين لتعزيز الحرمين
ولإغاثة فلسطين والجزائر وبور سعيد ، ثم لإيفاد البعثات العلمية إلى مصادر
العلوم والفنون في العالم المتمدين . ولإشادة المعاهد العلمية والمصحات في بلاده
الفقيرة من كل ذلك ، وإذا كان الوزير الصبان الذى لم تبق أسرة عاثلة في بلده
وبلده غيره إلا أجرى عليها دخلاً مرتباً ، .. أقول : إذا لم يكن هذان أو
مثلهما في الأمة جديرين بتخليد الشاعر فمن هو الجدير من الأمة بهذا التخليد .
ليس الكريم بماله ونفسه على الخير رجلاً وإنما هو أمة أو عالم ، من أجل
ذلك لم يمدح الشاعر فرداً ولم يخلد بشعره شخصاً وإنما ألهمه الحق بذلك تسجيل
النبوغ الإنساني على صفحات الخلود ، فكلم شاعر لولا مليكه المملوح لما حملة
التاريخ إلينا في إطار من نور ، وكلم مليك لولا شاعره لما تأثرت بأعماله الأجيال .
وفي القرآن كثير من المدح والإطراء لأشخاص بأسمائهم كانوا ملوكاً وأنبياء وحكماء
فليتنبه إلى ذلك كله من ران على قلبه اللؤم والحسد والجهل من هذه الفئة التي
يدعيها الأدب الفجج والشعر الهزيل .

ولقد بلغ بسخف هؤلاء أن صارحوني بأنى كنت مجدداً في ديوان « حواء »
القاصر على وصف المرأة العابثة ، وأنى كنت رجعيّاً في ديوان « انت انت »
القاصر على وصف محمد رسول الحق إلى العالم ، وهذا الناقد الذى صارحني
بذلك يحبر الفصول في الصحف يبعث أبى نواس من خمارته وبعث بشار من
ماخورة ، فهل كان محمد ، وهو صاحب الرسالة السماوية إلى الأرض ، غير
جدير بالهام الشاعر ، وكان بشار وأبو نواس جديرين بعبقرية هذا الإلهام ؟؟
من هم هؤلاء الناس الذين يجب شكرهم على شاكر الله في قول الرسول :
لا يشكر الله من لم يشكر الناس ؟؟ هل هم إلا أمثلة الله وخليفته في أرضه ؟؟

إن العالم ، ليكون خالداً بنوعه البشرى ، يفتقر بعضه إلى بعض ، فالفقير الذى لا بد منه فى سلب الحياة ، يفتقر إلى الغنى الذى لا بد منه فى إيجابها ، وهكذا نجد الضعيف والجاهل مفتقرين إلى القوى والعالم ضرورة امتداد هذه الحياة إلى الأجل المحتوم لها فى عالم الغيب . . .

فلتتقوم الحياة بالقوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، يتنزل وحى السماء على الأرض بالدعوة إلى الحق فى فرض الشكر على كل من هؤلاء لكل منهم ، ثم بفرض هذا الشكر عليهم جميعاً للمنع الأول وهو باعثهم فى هذه الأرض ، والشكر ليس قاصراً على اللسان وإنما هو من قبيل العمل مثلاً هو من قبيل القول ، فشكر الفقير للغنى المحسن إليه ، بلسانه مضافاً إلى العمل على خدمته بجوارحه ، وشكر الغنى للفقير الخاضع له ، بلسانه ، أيضاً مضافاً إلى عونه بالإتفاق عليه ، وهكذا تعلق الصلة بين الجاهل والعالم وبين الضعيف والقوى ، بالشكر المتبادل فيهم .

وقد يكون الفقير بماله غنياً بمقاله كالأديب والشاعر ، وقد يكون الغنى بماله فقيراً بمقاله ، فيكون لكل منهما حق على الآخر وعلى كليهما واجب تجاه الآخر ، فلم يكن المال الذى يجود به الغنى للجاهل على الفقير العالم بأبقى أثراً وأخلد أجلاً فى تقويم الحياة ، كما أن محبة الضعيف للقوى الخافى عليه ليست بأقل تقويماً للحياة من هذا الحنو ، وهكذا نجد أن تقدير الجاهل واحترامه للعالم الخفى به ، لا يقل قيمة فى الحياة عن رعاية العالم للجاهل والحرص عليه . إذن فالشاعر إذا مدح من هو أهل للمدح سواء أجزى على مدحه من مملوحيه أو من الحق المهيمن على هذا المملوح ، فأنما هو قائم بما يجب عليه من الشكر للناس مضافاً إلى شكره خالق الناس ، والملك أو الرئيس أو الأمير إذا رعى بماله أو سلطانه ، شاعراً أو أديباً فأنما هو قائم كذلك بما يجب عليه من الشكر سواء أجزى من شاعره أو لم يجز ، فإن الذى يجب أن نفهمه من فرض الشكر على الإنسان للإنسان ليس مجرد البذل من الغنى للفقير أو الرفق بالضعيف من القوى أو العطف على الجاهل من العالم ، وإنما هو أسمى من ذلك .. انه صلة الرحم الأولى بين الإنسان والإنسان منذ أزلية هذا الإنسان .

سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَأَنْي بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَذْرِي مَنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ

عَلَى

يستكثر بعض الناس على الإمام على أن يقول ذلك لما فيه من الأنانية والدعوى ، وأن إنساناً على هذه الأرض الجامعة بين الخير والشر في بنينا منذ جبلتها الأولى ، لا يقدم على ما يشعر بعصمته وكمالته .

ولكنهم إذا رجعوا إلى قول محمد معلم على هذا حيث يقول : أنا مدينة العلم وعلى بابها ، وإذا رجعوا إلى قول هذا المعلم : من زهد في الدنيا علمه الله بغير تعلم ... ، ثم إذا وقفوا على قول الإمام في غير مكان من هذا الكتاب : إن في السماء مدناً كلدكنكم هذه تربط بينها أعمدة من نور ، أقول : لو رجع هذا المنكر إلى تلك الأقوال ، لأراح نفسه من عناء التفكير في انكار هذا القول على الإمام واستحالة صلوره من إنسان يبحث في السماء وهو على الأرض .

فهل حفظ التاريخ لنا أن سائلاً أفحم علياً بعد أن قال : سلوني قبل أن تفقدوني ؟؟ وعلى العكس يحفظ لنا التاريخ أن كثيراً من السائلين المتعنتين كانوا يتحلون به ، وهو على المنبر ، بأسئلة في العلوم والفنون التي لا تمت إلى الوعظ والإرشاد وأحكام الدين بسبب ، وكان على يجيبهم بما يدهلهم فيما وعوا ويخزيهم فيما أسروا ، ومن شاء الكشف عن ذلك فليرجع إلى شرح العلامة ابن أبي الحديد لنهج الإمام منذ ألف عام .

ولقد نرى اليوم في الصحف أبواباً خاصة في العلوم والفنون ، ونرى فيها باباً للسؤال والجواب يختص به رجل كاحسان عبد القلوس في «روز اليوسف» وكأمينة السعيد في مجلة الهلال ، ونرى عنوان هذا الباب : «سألوني» فهل كان إحسان هذا وهو «صاحب البدائع» ... وأمينة هذه وهي «أم المؤمنين» هل كانا أحق بكلمة «سألوني» من على بن أبي طالب وهو وزير محمد وعصده ووصيه من بعده ؟؟...

ويعني بعض العلماء في تأويل كلمة الإمام هذه على الشكل الذي يحفظ

تواضعه كانسان ، وأن أى إنسان لا يجروء على الدعوى بأنه فى السماء أعلم منه فى الأرض يقول هذا البعض : إن الإمام مع افتراض سموه وعلوكعبه فى العالوم ، لم يخرج عن كونه إنساناً ، وإلا كنا مغالين فى تقديره ، والنبي كان قد تنبأ لذلك بقوله : يا على يهلك فيك اثنان : علو قال ومحج غال « وحمل الإمام على الحقيقة فى قوله : إني بطرق السماء أعلم منى بطرق الأرض » يدعوننا لأن نكون مغالين فى تحديد شخصه .

أقول : بمعن هؤلاء بتأويل قول الإمام فى أنه إنما أطلق العام وأراد به الخاص . وهو من مجاز اللغة فى علم البيان ، فقد أراد بطرق السماء الخطط التى يضعها الله فى السماء لهدى عباده فى الأرض ، وهذه الخطط هى النواميس الدينية التى ينزل بها الروح الأمين على الأنبياء والرسل المصطفين لتبليغ الرسالة الإلهية فى الخلق ، ويريد الإمام ، وفقاً لذلك ، بقوله : سلونى قبل أن تفقدونى « أن يكون السؤال فى حدود هذه الخطط لا أنها فى شتى العلوم والفنون » ذلك ما أراده هؤلاء المتأولون ، وأرأى جريئاً على أن لأحسب حساباً لهذا التأويل ، وإنما يصح التحمل فى ذلك حرصاً على تنزيه الرجل الناقص من أمثالنا ، فأما الرجل الكامل من أمثال على ، فلا يصح أن نتأول عليه ولا له . لأنه ثبت عن طريق النقل كونه معصوماً بقول معلمه محمد : على مع الحق « وعن طريق العقل من أن الرجل الكامل لا يتهافت فى تفكير ولا عمل ، وأن فى وجود الإنسان حقاً يهيمن عليه فيعصمه من هذا التهافت .

ولقد جربت ذلك بنفسى إذ شئت انتقااص من هو فوق وعملت على كسره فحال بينى وبينه حاجز لم يكن فى طوقى اجتيازه ، وأفضى بى ذلك إلى أن أتعظ وأعتبر فغفر لى الله ذلك ثم عصمنى ممن حاول انتقااصى وكسرى . وقد كنت أتعمد الغيب فى دفع ذلك عنى فيؤاتينى بالمعجزات ، أذكر ، وأنا فى دمشق ، دعيت إلى مجلس ضم بعض الأعيان السوريين من رئيس جمهوريتها إلى وزرائها وأعيانها ، وقد كان فى المجلس وزير متقاعد ولكنه متفهم وأنا فى ومتعنت ، وقد تناول البحث هناك شيئاً من علوم اللغة ، وكنت أكثر أهل المجلس قولاً على البحث فى دقائقها ، ولحظت أن إكثارى لا يرضى

أنانية هذا الوزير فعمد إلى تنقيصى بالتدليل على جهلى فى اللغة فقال : ان الأستاذ الحومانى علم من أعلام اللغة فلا تسأله عن شئ إلا ويحيبك عنه بدقة وإحكام ، ثم حور الحديث إلى صيغة الجموع وتناول كلمات شاذة مثل «أضحى» فى عيد الأضحى هل هى مفرد أم جمع ثم وصلها بالتدليل على عراقته فى علم اللغة بأن قال : إن الأضحى جمع أضحاة ، والتفت إلى يستشهدنى سائلا : هل فى اللغة العربية ما يشبه هذا الجمع : ؟؟ فقلت : نعم ان أرطاة تجمع على أرطى فقال : وما الأرطى ؟؟ فلحظت بلمح البصر محاولته لإحراجى ، وكنت أجهل معنى الأرطى أو أنساه ، ولحظت مع ذلك عصمة الحق لى باعتمادى عليه وأجبتة بغير توقف : إنه شجر تأكله الإبل .

وصمت فلم أتكلم بعد ذلك سائلا ربى أن أكون مصيباً فيما أجبت ، أو أن يصرفهم عن تحقيق معنى الأرطى فى قواميس اللغة إذا كنت غير مصيب ، وشد ما كان ذهولى بالغاً ويقىنى بالحق متيناً إذ عدت إلى منزلى وبحثت عن الأرطاة فإذا هى نبات تأكله الإبل ، فليعتبر من شاء بما أنقل عن تجربة وليعمد إلى نفسه فربها على خلدته الحق فانه يعصم من لاعصنة له .

ولقد سألتى ، وأنا فى أمريكا ، بعض الطلبة العرب ، فى حفل جمع ثلة من ذوى الفضل وفهم كثير من المهاجرين ، سألتى هذا الطالب : هل هناك دليل علمى على إمكان حساب الإنسان يوم القيمة فى كل ما فعله ودار فى خلدته منذ كان إنساناً حتى زال به الوجود ؟؟ فقلت نعم دون أن أفكر أو أتوقف لحظة واحدة معتمداً على الحق العاصم لى فيما أخدمه به على الأقل ، ثم تابعت البحث :

انكم تسمعون باسم رجل يدعى «أديسون» خالق الاسطوانة لتسجيل الصوت ، قالوا : أجل : فقلت أيقوى أديسون على تسجيل ما تتفوه به ولا يقوى رب أديسون على تسجيل ما يصدر عنك من قول أو عمل ؟؟ أفلا يمكن أن يكون هذا الأثر الذى يشتمل علينا ، اسطوانة ، تسجل كل ما يصدر عنا من حركة تبقى ببقاء التوة الصادرة عنها حتى يعود بنا الله فى نشأتنا الأخرى ؟؟ فان العلم الحديث يثبت الآن خلود الروح ، وكل قول أو عمل يصدر عنها هو خالد مخلودها .

ولنعد إلى الإمام على الذي كان أزهده الناس بدينه والرسول يقول: من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم ، من هنا نسمع له وعنه إخباره بالمغيبات كقوله ؛ لو شئت لجعلت لكم من الماء ناراً » وقوله : والذي بعث محمداً بالحق لولا خوفاً من أن تكفروا بى فيه لأمليت عليكم علم ما كان وما يجرى ، فوالله ما فارقت حتى مر على سمعى بكل شيء ...

تلك هي آثار محمد وأهل بيته وأصحابه الذين اتبعوه باحسان ، ماثلة أمامنا في أقوالهم وأعمالهم تبعث فينا أقوى الإيمان بأن علمهم قائم على الحكمة الملهمة لأنه وحى ينزل به الروح الأمين على نبيهم من لدن حكيم خبير . وللإمام على شخصيتان عبريتان ، إحداهما إنسانية ترابية تضعف حتى يستسلم لأوهن الأحداث كانهضاعه للتحكيم بالكفر عنه يوم صفين ، وكافتقاده موثقاً يوم تهديد عمر داره بالإحراق ، وثانيهما جبروتية سماوية تقوى حتى لا يصمد أمامها جبروت كجندلته عمرو بن عبدود يوم الأحزاب ودكه حصن خيبر ثم اقتلاع باب الحصن وهو ما تطيقه قوة إنسان ، فشخصيته الأولى هي الصلة بينه وبين البشر وشخصيته الثانية هي الصلة بينه وبين الملكوت الأعلى . وللتدليل على هاتين الشخصيتين وأنهما ركبتا فيه ، قوله لسائل سأله حين رآه يعجز عن كسر قرص يابس من الشعر بيديه فاستعان على كسره بركبته قال له السائل : كيف تضعف عن كسر القرص وأنت داحي باب خيبر ؟ فقال له الإمام : ثكلتك أمك تلك قوة الله وأما هذه فهي قوتي ...

خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَهُ
 الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ،
 إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَالتَّلَايِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .

من جليل ما سمعت على ألسنة بعض الشيوخ البررة ، حديث في العلم مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون أن أثبت منه في كتاب قرأته ، ذلك هو : أنه سئل عليه السلام من بعض أصحابه الأديين إذ بالغ في حثهم على العلم ، سئل : ما هو العلم يا رسول الله ؟؟ فقال : هو أن تسمعوا ، قالوا : ثم ماذا ؟؟ فقال : أن تعوا ما تسمعون ، قالوا : ثم ماذا يا رسول الله ؟؟ فقال : أن تحفظوا ما تعون ، قالوا : ثم ماذا ؟؟ فقال : أن تعملوا بما تحفظون ، قالوا : وهل وراء ذلك شيء ؟؟ قال : بلى : أن تخلصوا بما تعملون »

وسواء صح نقل هذه الكلمة عن رسول الله أم لم يصح ، فإنها تشير إلى عظمة العلم في نفسه وصدور مثل ذلك عنه جدير به كما سيحققه البحث بعد صفحات من هذا الكتاب ، ولسنا الآن بصدد إثبات هذه الرواية ولا نفها ، ولكننا في سياق البحث عن عظمة العلم في الكتاب والسنة بين يدي العقل ، ولما عرضنا لهذه الكلمة إعجاباً بأسلوبها وأشتمالها على أدق تحديد للمعرفة في بيان خليق أن يمثل حرص النبي وأصحابه على العلم وتحديده ، إذ كانوا ممنون في اكتناه بيانه ، وتحديد الهدف الذي يرمى إليه ، من أجل ذلك كانوا يكثر في استفهامهم ، من قولهم : ثم ماذا يا رسول الله ؟؟

ولنعد إلى بحث العلم في ذات الله وذوات خلقه ، إذ يفرضه علينا مطلقاً دونما تقييد فنقول : إن علمه تعالى إشعاع من ذاته على الكون ، وهو علم كلي ، وأما علمنا فجزئي منبثق عنه ، من أجل ذلك ينهانا عن أن نخوض فيها لاطاقة لنا

في خوضه من علم أشياء فطرنا على الجهل بها ، كادراك الروح واكتناه غيها
إذ لم نوث إلا قليلا من العلم وهذا العلم القليل قاصر عن إدراك الغيب الخاضع
لعلمه الكلي المحيط بالكون ونحن جزء منه .

وعلى اعتبار أن صفاته تعالى عين ذاته يصبح معنا أن نقول : إن الله علم
محض ويقابل ذلك أنا جهل محض بالنسبة إليه ، تعالى عنا علواً كبيراً ، فالعلم
المفروض علينا هو هذا الجزئي الذي ندرك به وجود خالقنا والفرق بيننا وبينه ،
ثم ندرك به وسائل الحياة التي ترفعنا عن مستوى العوالم الدنيا التي نهيمن عليها ،
وهذا العلم الجزئي بالنسبة إلى علمه الكلي يعد جهلاً .

فلا يصح أن نغزو علم الخالق وعلم المخلوق إلى مصدر واحد ولا إلى كنه
واحد كما لا يصح أن نعتبر أية صفة يشارك المخلوق بها خالقه في اللفظ كالمصور
والمبدع والكرّم والحسن والمهيمن والمؤمن وغير ذلك من الصفات التي نطلقها
على أعياننا وعلى خالقنا ، أقول : لا يصح اعتبار هذه الصفات فينا صادرة عن
الكنه الذي صدرت عنه صفات الله العليا ، فعلمه إشعاع ذاتي ، وعلمنا قائم في
انعكاس ذلك الإشعاع .

علم الله يتقوم به كيانه وكونه ، وأما علمنا فاقتباس روي مخلوق نعين به
ظاهراً من حياتنا القائمة فينا والمهيمنة علينا ، فاطلاقنا على خالقنا شيئاً من هذه
الصفات محدود بعقولنا ، وعلى مقدار هذا العقل نتصور خالقنا ، فالعقل الأول
أو عقل الإنسان البدائي كان يتصور خالقه إنساناً كاملاً الخلق أو جرمًا خليطاً
من الإنسان وغيره إشعاراً بكونه يغير خلقه .

ثم يتطور هذا العقل الإنساني إلى حد ينكر معه بفضل العلم ، تحديد الخالق
بشكله وعقله ، ثم يترقى هذا العقل ، وبفضل تعزيز العلوم أو الإيمان في
تهذيب الروح أيضاً ، يترقى الإيمان بأن التفكير في كنه الخالق محال على المخلوق
لأن الوسيلة التي يفكر أو يعقل بها المخلوق قاصرة بطبيعتها عن الخوض في هذا
التفكير .

إن الهوة بين علم الخالق وعلم المخلوق حقيقة جداً لأن علمه عين ذاته وأما
علمنا فعراض علينا ومحدود فينا يستحيل عليه أن يحيط بذات خالقه كما يستحيل

على أثر الإنسان أن يفكر في كنهه الإنسان ، وإذا كانت الحكمة من الأثر الذى تخلقه كالطيارة والسيارة هى في صميم حياتنا ولا يشعر هذا الأثر بالحكمة من وجوده ، كذلك نجد الحكمة ، لو كشف لنا الغيب ، في صميم حياة خالقنا أو حياة من كنا له من عالم خفى عنا مهيمن علينا .

نستطيع أن نجد علم الإنسان لأنه في حيزنا نحن عالم الإنسان ، نحده بأنه نفحة قدسية من عالم يفضلنا في كنهه ، إنحدت مع نواة الحياة الأولى ، تنمو تلك النفحة مع هذه النواة بتنمية الحواس فينا على شكل فني خاص بنا ، والعقل الذى يهيمن علينا هو الوسيلة التى يتلوع بها الإنسان إلى تنمية هذه الحواس . والتفاوت الطبيعى في قوى الإنسان الفكرية والجسمية هو الذى يكشف للعقل أسرار العلوم والفنون الكامنة في نواة الحياة الأولى بفضل تلك النفحة اللطيفة التى تتحد معها لتصل عالماً أسفل بعالم أعلى في سلسلة هذا الكون الغامض ، فكما أن فينا هذه النفحة تصلنا بمن فوقنا مما يهيمن علينا ، كذلك نجد فيهم هو دوننا ومسخر لنا نفحة قدسية تصله بنا ، وهكذا دواليك تترقى هذه العوالم بتلك الصلات .

العوالم حلقات تتألف منها سلسلة الوجود، ولكل حلقة كيان خاص بها يهيمن على وجودها الذاتى، ولها كيان عام يهيمن على وجودها الخارجى وهذا الوجود هو الصلة التى تنوطها بغيرها من الخلق ليتقوم بها اتحاد عام ، فهى بكيانها الخاص حلقة ، وبكيانها العام سلسلة ، على أننا إذا فرضنا التطور من أسفل إلى أعلى في هذه الخلق ، يشكل علينا وصل الحلقة الأخيرة بالحلقة الأولى ليصبح معنا إطلاق لفظ السلسلة على مجموع الخلق ، لأن المفروض في أول حلقة أن تنحدر في جوهرها عما يليها من الخلق، إلا أن نعتبر هذه السلسلة ذات طرفين أحدهما بالغ الغموض في الصغر وآخرها بالغ الغموض في الكبر لا يحيط بكنهه الحياة في هذا الغموض إلا الحى الخالد الذى يقصر عن إدراكه كل ما تتألف به هذه الخلق في طريقها إلى كيانها العام من روح نعى وعقل يفكر .

هذا التفاوت بين كائن وآخر في كل نوع من الوجود كالتفاوت في نوع الإنسان بين سمع وسمع وبين بصر وبصر ثم بين فكر وفكر ، أقول : ان

هذا التفاوت هو الباعث الأول للعقل على فتح العلوم والفنون في تقويم الحياة وتنمية كيانها الخاص حرصاً على الصلة التي تؤهلها للاشتراك مع غيرها من أنواع الحياة في تقويم كيانها العام .

إلى هنا نقف في تحديد العلم الذي يشارك به الإنسان غيره من العوالم التي يتألف منها هذا الكون الجبار الخاضع بنواميسه لقوة مبدعه الأول تعالت عظمتها عن أن يحيط بها جزئياً لا يتناهى في صغره ، من كلي لا يتناهى في كبره ، نطلق عليه لفظ العقل تارة ، وألفاظ الفكر والروح والجوهر تارة أخرى ، وهو في حقيقته شيء واحد .

هذا العلم الذي ألعنا إليه بالتحديد الظني ، وهو الشامل لكل ما يحق للإنسان الحي من وسائل الحياة في طريق بقائه فرداً ونوعاً ، أقول : إن هذا العلم هو المفروض على الكائن الحي منا ، وهو المعنى بقوله عز من قائل : خلق الإنسان علمه البيان ، وقوله : الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، وتقرير ذلك ثم تكريره في كثير من فرقانه الذي يفرض به علينا العلم لتدبير كونه القائم فينا فتقوم به ، ونذكر من وراء عظمتها كمالنا المنشود .

وإذا تحرينا السر الذي من أجله فرض الله علينا العلم المطلق حتى علم السحر لصدق العلم عليه ، وقد أطلقه الله ورسوله إذ قال عز من قائل : أفلا يعلمون ؟؟ ، أفلا يتفكرون ؟؟ أفلا يفقهون ؟؟ وقال صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو في الصين ، اطلبوه من المهد إلى اللحد ، طلب العلم فريضة « من هذا وكثير أمثاله في الكتاب والسنة نفهم أنا مأمورون ديناً وعقلاً بطلب العلم وأن العلم المفروض علينا مطلق لا حد له ما لم يفرض بنا إلى فقد الكمال الذي ننشده بالعلم ، أقول :

إذا تحرينا هذا السر ، ورأينا من وراء هذا التحري أن الله قوّم الكون بوحدانيته ، وأن إدراك هذه الوحدانية قائم على الثالوث المقدس : الله وملائكته وأولو العلم من خلقه ، حيث يقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم إذا تحرينا هذا السر من وراء ذلك كله ، علمنا أن طلب

العلم ليس واجباً فحسب وإنما هو الواجب الأول فيما يتلقاه الإنسان من ربه على لسان رسوله والمقرين إليه من خلقه .

وفي قوله صلوات الله وسلامه عليه : النظر في العلم ساعة خير من عبادة ستين سنة ، وقوله : مجلس العالم خير من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعبادة ألف مريض ، وقوله تعالى : « إنما نخشى الله من عباده العلماء » والمفروض في الحشية أنها التقوى وإن أكرم الخلق على الله اتقاهم ، أقول : في هذا كله برهان على أن العلم ليس واجباً أول فحسب وإنما يتجاوز ذلك إلى كونه واجب عين لا واجب كفاية وأنه فريضة أولى في الفرائض العينية .

وأبعد من ذلك تعليلاً في أن ما مر من آيات وأحاديث تفضي بنا إلى اعتبار العلم واجباً عينياً أول ، أقول : أن ما هو أبعد في تعليل ذلك أن نلمس البرهان في تبحر العلوم وأثرها في تقويم العالم ، فلو فرضنا أنه واجب كفائي لسقط وجوب طلبه عن المسلم بوجود عالم واحد في الأمة ، وهل يجزى في رقي الأمة ونهوضها ، وانسلاخ الظلمة عن آفاقها ، وانبعث النور في هذه الآفاق ، هل يجزى في توفر ذلك كله على الأمة وجود عالم واحد ؟؟

اللهم لا ... أن مفهوم التخصيص في قوله تعالى : إنما نخشى الله من عبادة العلماء ، ومفهوم التعميم في قول رسوله : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، أن هذا المفهوم بعيد وبعيد جداً عن واجب الكفاية وأنه لقي صميم الواجب العيني ، ثم هو فوق ذلك كله واجب أول في ناموس الحق الأعلى المفروض على خلقه منذ الأزل .

فهل فكر فقهاء الأمة في المنزلة التي ينزلها هذا الواجب من أحكام الشرع الإسلامي ؟؟ وهل فقهوا أن الحياة ، في سموها ورقها ، منوطة بالعلم ففقهوا آخر الأمر أن العلم واجب عيني ثم نهوا الأمة إلى أنه أول واجب يصدع به الشرع وأولى الفرائض التي يجب على الإنسان أن يلتزمها لتثقيف عقله ثم توجيه نفسه إلى معرفة الله الذي يعبد ؟؟

وبعد ذلك هل فقهت حكومات الإسلام أن العلم إجباري في الأمة ينال الفرد ذكراً وأنثى بنص الكتاب والسنة فعممته قبل كل شيء تأتيه في سبيل

حياة الأمة ؟؟ وهل تربينا ثم ربينا أبناءنا ، على أن العلم أكبر وجوباً من الصلاة: فعملنا إلى نحو الأمية للعمل على نحو الجهل والفقر اللذين هما العنصر الأول في تردينا وانهيارنا ثم استعبادنا آخر الأمر ؟؟

ان التعليم الإجبارى سهل على كل أمة مهما تغلغل الفقر في كيائها لأن بدء العلم هو نحو الأمية ، وهذا تستطيعه الكتاتيب في القرى والساكنة دونما تكليف. بالهض يرهق الحكومات ثم يأتي دور الثقافة جزئياً ينتهى بعد إلى كلى يصبح العلم عنده سبباً في رفع مستوى الأمة سياسة واقتصاداً ، وذلك ما يضمن لها الثروة التى تؤمن العلوم العامة ، وعلى هذه العلوم تبنى المعاهد والمعابد التى تصل الإنسان بخالقه إيماناً وعزة وكرامة .

اللهم انا لم نكن ، ونحن بدائيون ، نفقه أن العلم واجب كفاً فضلاً عن كونه واجباً عينياً بل أول واجب على الإنسان ، من أجل ذلك لم نفق على الحياة إلا ونحن أضعف الناس إذ كنا أجهلهم والتبعة في كل ذلك إنما تقع على عواتق ورثة الأنبياء وحملة الناموس الأعلى .

ففى صميم النص من الكتاب وصحيح السنة: أن طلب العلم على المسلم واجب وأنه واجب عينى يلزم كل فرد بعينه لأن بعضه لا يجزى عن كله ، وأنه واجب عينى أول يتقدم الصلاة لأنه عبادة وزيادة ، وأن تأخر المسلمين كان مسيئاً عن إهمالهم هذا الواجب وجعله كفاً لا عينياً .

مَحَرَّد

إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ
أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ
فَإِنَّا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ عَنْهُ
أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَإِنَّا أْبَعْدُكُمْ مِنْهُ .

لم يتسرب إلى النفوس مريضها وصحيحها ريب في أن القرآن الذي نزل
على محمد هو هذا الذي بن أيدينا نتلوه صباح مساء لم يتغير ولم يتبدل منذ
ألف وأربعمائة عام ، من أجل ذلك لم نحتاج إلى برهان يثبت للقارئ صحة النص
في بدء هذا السفر العابر .

وأما الحديث الذي نتخير طرفاً منه للبحث فقد بدأناه بالحديث السابق
لندل بمعناه على أن رسول الله تلبأ قبل تدوين الحديث عنه بأن الأهواء ستمعن
في الكذب عليه بعد موته ، وأن اختلاف العقول سيتصرف بالصحيح من سنته
خطأ وإصابة ، فعمد صلى الله عليه وسلم ، إلى تنبيهنا في قوله هذا بأن مرد
الصحيح مما يروى عنه إلى القلب .

على أن الغاية من هذا الكتاب ليست وفقاً على صحة السند وإنما هي ناظرة
إلى توجيه النشء الصالح وتقرير الحق في نفوس الأمة من وراء العقل واتزان
الفكر ، مضافاً إلى استنباط ما لم يدر في خلد أسلافنا الذين خلفوا لنا من
جهادهم الفكري ، تراثاً صالحاً يبقى على الدهر .

فلست أعني في كتابي هذا بصحة السند المسلسل ، ولا تفنيد الآراء في
دحض ما يضعف سنده ولو كان معقولاً ، وقبول ما صح سنده ولو كان غريباً ،
أو غير مألوف ، ولكنني أعني بالمعقول مشيراً في أول الكتاب إلى مجمل ما صدرت
عنه من كتب الحديث ، وأعني إلى ذلك بالبيان والمنطق والتطبيق والتجديد .
فالحديث الأول واضح في تقرير هذه المقدمة بصحة ما نظمنا إليه وفساد

ما يشق علينا تخرجه أو يستعصى علينا فهمه ، أو يثقل على قلوبنا الميل إليه والتصديق به ، على أن في مفهوم الحديث وفي صميم الأخذ منه ، أن يكون القلب ، الذى هو ميزان قبول الحديث ورفضه ، على قسط وافر من الثقافة والعلوم التى تربي فيه ملكة الفقه فى الحياة وتطبيقها على الدين ، فالحديث إنما مخاطب الرسول به الثقات من أئمة الفقه وقادة الفكر فى العالم ، فليس فى صدور العامة من أمته قلوب تزن القول فتحكم وزنه ، وتدرك صحته من سقمه ، فتحسن الميل إلى الصرف والإعراض عن الزائف منه ، وإنما يضطلع بعبء هذا التمييز قلوب الخاصة من الأمة فقط .

ويجب أن يكون هذا القلب الواعى فى مأمن من هوى النفس ونزعات الشيطان ، ليكون مخلصاً فى تطبيق الدين على الحياة أو الحياة على الدين بوفائه وهو ينقل الأمانة عن هادى الأمة ، وبصدقته وهو يمعن فى تخرجها وتطبيقها على الحياة ، فان كثيراً من القلوب الكبيرة الواعية يرين عليها هوى النفس الأمار بالسوء ، تؤثر الدنيا على الدين فتزور الباطل فى صورة الحق ، وتعتمد الخطأ فى شفاء ما منيت به من مرض خلقي ، سعياً وراء الشهوات بين يدي حياتها الدنيا .

فالرسول إنما مخاطب بحديثه ذاك فئة من الناس أخلصوا البحث للحق وأمعنوا فى الحيلة والحذر من طغيان الهوى ، وأسلموا قلوبهم ، وهم يتفقهون فى الدين ، إلى التقوى بين يدي رسالة الحق إليهم على لسان أشرف الخلق صدقاً فى القول وإخلاصاً فى العمل .

وانه لغنى عن البيان فى المنطق الحق أن الحديث السابق يرشدنا إلى أن رسول الله كان يتنبأ فى الأجيال بعده أن الحديث عنه سيخرج عن كونه تشريعاً حقاً بالكذب عليه ، وأن صدق الحديث عنه مشروط بعرفان من القلب أنه حق ، وأن هذا القلب الذى يقرره يجب أن يكون مشبعاً بروح الإخلاص للحق

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ
بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وَكَمَالُ
تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَقْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ .

على

معرفة الله أول حجر يرسو عليه بناء الدين ، وبهذا يشير إلى أن العلم واجب أول في الدين كما أشرنا سابقاً ، وعلى هذه المعرفة يبنى المتدين إيمانه الذي هو التصديق بوجوب وجود خالقه الأول ، ثم إذا كل إيمان الرجل كان موحداً ، إذ لا يمكن للإيمان أن يتجزأ بتجزأ المعبود لأن مصدره القلب وهذا القلب واحد ، فإذا رسخ هذا التوحيد في قلبه كان مخلصاً لربه ، وبهذا الإخلاص ينفي عنه الصفات التي تغاير الموصوف ، ويؤمن بأن صفاته عين ذاته .

هذا موجز ما أفهم لهذه الجمل العريقة فيما يكشف للعقل من العلوم ، ويتسلسل هذا الفكر في فقه البيان ، يعطينا أمام البلاغة مثلاً أعلى في ترتيب المقدمات للإحاطة بالنتائج من أوجز طريق يصل إليه الحاذق في فهم ربه . والإيمان به والتعبد له ، ولو شاء الفقيه الملتزم أن يعطى هذه الجمل حقها من البحث والتعليل لخير كتاباً مسهباً فيما تكشف عنه أو ترمز إليه من علم اللاهوت .

على أنني لست ، في القول على هذه الجمل ، متحرياً ذلك التعليل ولا صدق نسبتها إلى خليفة رسول الله وأخيه الإمام علي بن أبي طالب ، كما لأشك في أن الإمام كالرسول بكونه عرضة للاقتراء عليه كرهاً له أو غلواً فيه ، ولكنني أقدم على التصديق بما رواه عنه الشريف الرضي الموسوي لأن بين يدي من آثار الشريف وشهادة معاصريه له ، ما يرفعه في نظري إلى المستوى الذي يحول بينه وبين الاقتراء على الله في تعمد الكذب على وصي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه بإحسان .

أقول : لست في سبيل إثبات ما أنقل عن الإمام لأن الراوي عنه ثقة ، ولكنني ، وأنا أعرض هذه الجمل على الأحفياء بما أكتب ، أحاول تقرير

الحديث القائل : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » تقريراً حقيقياً في نفوس أولئك الأحفاد الذين اتخذوا الصدق في القول والإخلاص في العمل منهاجاً لهم يسرون على هديه ليكونوا شهداء على الناس ، وإذا لم يكن للإمام على مثل هذا القول ، ولم يثبت عند المرقاة من الحق نسبته إليه ، فماذا يتحقق لدينا صدق رسول الله في قوله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ؟ » بينما لم يقل مثل ذلك في غيره ؟
فإن السبب الأول الذي يكشف عن صدق رسول الله فيما يتنبأ لعل من الحكمة والعلم ، هو هذا القول الذي جمعه الشريف الموسوي وصحح لإثبات صلوره عن الإمام ثم أطلق عليه أروع اسم عرف به ألا وهو « نهج البلاغة » بينما نزه الشريف جده عن كثير مما نسب إليه ، كما فعل الثقات من رواة الحديث عن رسول الله بنفي قول وإثبات آخر .

والعجب في أن هؤلاء المنافقين بكرههم علياً ، ينكرون على الشريف صحة ما نسبته إلى الإمام بأمرين ، أولهما خطبته المسماة بالشقشقية التي يغض فيها من ورع الصحابة في تقرير الخلافة بعد رسول الله دون استشارته ، وهو أولى بهم من أنفسهم لأنه مولاهم بشهادة رسول الله إذ قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وثانيهما : ورود بعض الجمل في « النهج » حافلة بصفات بعيدة في أسلوبها عن عهد الإمام وخليفته بما تلاه من عهد ، كوصف الطاووس والخفاش بما اشتملا عليه من جلة في المعنى وبدعة في اللفظ .

والجواب عن تسفيه المنكر للشريف بثقته في نسبة هذين إلى الإمام ، أولاً : غاية ما في هذه الخطبة قسوة في التقرير واللوم على الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما غمطا حقه في المبادرة لعقد البيعة دون استدعائه ومشورته ، وقبل أن يواروا جسد المنتقد الأول لهم وللإنسانية صلى الله عليه وسلم . أقول : إن عملها هذا لا يخضع لبرهان من يحتج بأن الأنصار بادروا لانتخاب رئيس منهم فأعجلهم عن ذلك خشية إفلات الخلافة من قريش ، فمن هم هؤلاء الأنصار الذين يجتمعون دون المهاجرين وقبل تجهيز رسولهم ودفنهم ليستأثروا بالخلافة ؟ وهل كان المسلمون جميعاً في ذلك الوقت غافلين عن مكانة إخوانهم المهاجرين ليبرموا عملاً هو في صميم الرسالة النبوية وهو في عهدتهم

جميعاً ، وفي الأنصار أنفسهم من يخضع للرأى الإسلامى العام فوق خضوع المهاجرين له ؟؟

لقد توسع المعتذرون من المؤرخين في هذه الحجة وهى ضيقة العطن لانقوم برهاناً على مواخذة الإمام بقوله في الخطبة مقرأ وموثباً ، أفما كان بوسع الشيخين ، ساعهما الله وقد أقنعا الملأ من الأنصار بأولوية قريش في الخلافة ، أن يقنعاهم بضرورة الأناة والتريث ريثما ينتهون من مواراة نبيهم ، ويشهد الانتخاب من ليس دونهم في الرأى والسابقة كعلى والعباس وغيرهما من أجله الصحابة الذين تحلفوا عن البيعة للقيام بتجهيز الرسول الأعظم ، فيشهدوا تقرير الخلافة وتحريرها من العبث الذى جراً الأمويين فيما بعد على الاستئثار بها دونما حق إلا المبادرة والغيلة والتهالك على السلطان ؟؟

ان هذا العمل قد ترك على مر القرون وصمة في جنبين الفترة الأولى لبزوغ الإسلام يدركها كل من فقه التاريخ ، ان علياً كان حاقداً على استنبارهم جنازة رسولهم ليستقبلوا أمراً لا يفوتهم لو صبروا فاستمروا محققين بجمان نبيهم حتى يواروه ثم ينصرفوا إلى العمل على الصلح برسالة محمد مؤزرين بالحق ولنا أن نتساءل ، كما تساءل على ونفسه ، إذ بلغه أن أبا بكر احتج على الأنصار بأن الخلافة في قريش ، لنا أن نتساءل : لماذا يجب أن تكون الخلافة في قريش ؟؟ أكانوا أشد إيماناً من غيرهم يومئذ برسالة محمد ؟؟ ثم ألا يكون على محققاً بالرد عليهم في قوله : إذا كانت قريش أولى الناس بعهد محمد فلم لم يكن أهل بيته أولى من قريش بهذا العهد ؟؟ لم تكون قريش أولى الناس بخلافة محمد في الناس ؟؟ أفما قال محمد : ان الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟؟ ألم يقل الله عز من قائل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟؟؟

أفما رجعوها عصبية قبيل أن يفارقهم نبيهم وقد قطع حياته فيهم وهو ينهى عن العصبية الجاهلية ؟؟ وهل كان للأمويين أن يستأثروا بها دون حق ، وللعباسيين فيما بعد أن يغلبوهم عليها ويعبثوا عبثهم في الإسلام ، لولا أن سبقت تلك البادرة من أعيان المهاجرين والأنصار .

لقد برم على يومذاك بهذا العمل السريع المزرى الكاشف عن بادرة قلبت وجه الإسلام الحق إذ ، أفضت بهم آخر الأمر إلى ما رأينا من التهالك على السلطان دون التزام العهد الالهى المفروض عليهم فى كتاب الله حيث يقول : « ولا ينال عهدى الظالمين »

إننا ، ونحن فى عصر التحرر الفكرى ، لانزال نخضع للبدعة السيئة التى سنها السلف المدفوع بهواه من سابقينا فى تدوين التاريخ ، تلك البدعة التى يتجاوز مبدعها عن تمحيض الحق ، والحكم بالصلاح على من عبث برسالة محمد ، والرضى عنهم حتى معاوية بن أبى سفيان ومن سار على نهجه ممن صحب محمداً ثم زاغ عن الحق فاتخذ رسالته القدسية غرضاً يشبع به جشعه من حطام الدنيا .

ان علياً يوم أنكر على صاحبيه عملهما ذاك كان يعلم بعلم محمد أن هذا العمل سيفضى بالمسلمين إلى مالا محمد الإسلام عقباه ، وان علياً يوم قال خطبته الشقشقية وهو يعانى من معاوية فوق ما عاناه من عثمان ، كان مدفوعاً بذكرياته يوم أنكر على صاحبيه فعلهما الذى أفضى بالإسلام والمسلمين إلى الخضوع لعبث الأمويين واتخاذهم دين محمد ألعبوبة يتلقفها آخرهم عن أولهم إبقاء على الشرك العريق فى نفوسهم والذى حملهم على هتك الدين وإخضاعه لشهواتهم وأهوائهم .

أفلا يجمل بشيوخ المسلمين ، إذ طوعوا المهاجرين والأنصار يوم السقيفة بالتنازل عن الخلافة لقريش ، أن يطوعوهم بالتريث فى أمر الخلافة لاستكمال الجمع بعد الفراغ من واجب القيام بوداع رسولهم إلى مقره الأخير ، ثم يستأنفون النظر فى أمور المسلمين وهم جميعاً شهود الانتخاب ؟؟ ان هذا التطويع أسهل بكثير من التطويع الأول ، وأكثر إشعاراً بالخلوص من الريب والإخلاص فى العمل والابراه لما يلهم من الأجيال عن إخلاصهم لمحمد ولرسالة محمد .

أما الأمر الثانى الذى يرتاب المؤرخ القاصر فى صحة نقله عن على واتهام الشريف الموسوى بالتزوير والافتراء على الإمام فيما ينقله عنه ، وهو الإبداع فى الفكرة والأسلوب السائدين كثيراً من عناصر « النهج » كالأسلوب الفلسفى

وكوصف الطاووس والخفاش ونحوهما مما لم يعهد البيان العربي به للجاهلية ولا لصدر الإسلام ، أما هذا فنجيب عنه بما يلي :

إذا كان مقياس كل أدب عصره بحيث لا يتجاوز الأديب بما ينتج ، نواحي الحياة التي تخدق به ، فن أين يجي التطور في الأمة ، وكيف يكون الإبداع في الحياة ؟؟ ألم نطلق على امرئ القيس في الجاهلية أنه كان مجدداً إذ جاء في شعره بما لا عهد للجاهليين به من تشابه واستعارات جدد بها تفكير الشعراء وأخرج الفكر من طور إلى طور ؟؟

ألم بحثنا القرآن ، من الآداب والعلوم ، بما لا عهد لمعاصريه به من فكرة وأسلوب ؟؟ ثم ألم يأت في العهدين الأموي والعباسي شعراء وأدباء بما لا عهد لأهلها به من طرائف وبدع في الشعر والنثر ؟؟ وقد أجمع المؤرخون على أن عمر بن أبي ربيعة كان مجدداً في العصر الأموي ، أي أنه جاء بما لا عهد لمعاصريه به في شعره ، وعلى أن أبا نواس كان مجدداً في العهد العباسي إذ جاء بما لا عهد به لمن سبقه أو عاصره في شعره .

وهكذا نستطيع القول في إبداع مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني ، وفي عبد الحميد وابن العميد وابن المقفع ، ثم في أبي تمام والمتنبي والبحتري وابن الرومي ، نستطيع أن نقول : إن في أثر كل من هؤلاء بدعة لم تكن في آثار من سبقوه أو عاصروه من شعراء وأدباء وكتاب وخطباء ، فلماذا ننكر إذن على باب علم رسول الله وأقضى الناس في عهده وإمام البلغاء أن يكون في أثره الفنى أو العلمى مجاز للعلوم والفنون من عهد إلى عهد ؟؟

أنطلق على الشاعر الملهم والأديب العبقري لقب المبدع والمجدد ، ونحكم على أن القرآن الذى هو مصدر الإبداع والتجديد قد خرج بالعرب من طور إلى طور ، ثم نسلب هذه الصفات عن أئمة الناس بالكتاب والسنة بعد رسول الله ، وننكر عليه ما جاء في نهجه من إبداع ما لم يكن في عهده بين أسلوب طريف وفكرة جديدة ؟؟ إذن فكيف يكون التطور والتجديد ، ومن يحمل عبء التحول بدولة البيان من عهد سام إلى عهد أسمى غير الملهمين من الأمة ، ومن هو هذا الملهم بعد رسول الله غير على ؟؟؟

انا لنذكر قس بن ساعدة في الجاهلية فنقول : انه أول من قال : باسمك اللهم أو قال : أما بعد ، ونذكر امرأ القيس فنقول : انه أول من شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب ، وأول من أبدع تشبيه البنان بالأساريع ، ثم نذكر بعد الإسلام فلاناً وفلاناً وفلاناً بأنهم أول من ابتكر كذا وأبدع في كذا حتى إذا قرأنا نهج البلاغة أكبرنا وأنكرنا على أن يبدع في خطبه وأماله ما لم يكن يعهده عصره من فكرة وأسلوب ، ذلك لنحط من قيمة البلاغة في على ، ونصم الشريف الموسوى بالكذب والبهتان ، سبحانه اللهم هذا هو البهتان

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .

الله

في هذه الآية حكم عام من أحكام الشرع الإسلامي ، وفيها تمهيد لحكم آخر ، أما الحكم العام فهو تحريم ما يزيد ضرره على نفعه من أفعال الإنسان فكل عمل نأثيه لابد أن يتصف بأحد أحوال خمس : إما أن يكون كله نفعاً ، أو كله ضرراً ، وإما أن لا يكون فيه نفع ولا ضرر ، وإما أن يكون متصفاً بكليهما ، وهذا يكون ذا شقين : إما أن يكون ضرره أكثر من نفعه أو بالعكس . يستطيع الفقيه أن يطبق على هذه الصفات أحكامه الخمس التي هي الواجب والمحرم والمستحب والمكروه ثم المباح ، ولنا بصدد التطبيق هنا وإنما نريد أن نشير إلى أن هذه الآية تعطينا حكماً بالتحريم على كل عمل ضرره أكبر من نفعه إذا لاحظنا معها آية أخرى نزلت بعدها ، هي : إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »

ففي الآية الأولى تحريم للخمر وفيها تعليل للتحريم وهو كون ضررها أكبر من نفعها ، وهذا رد على من لا يجزئ تعليل الأحكام ويدعي كونها تعبدية ، وفيها حكم عام وهو تحريم كل ما زاد ضرره على نفعه من أعمال الإنسان إذا أجزنا القياس وهو هنا ضروري كما سنبين .

وأما التمهيد بها ، وهي حكم عام ، للحكم الخاص في الآية الثانية ، فهو ضرورة السر في التشريع العام عن طريق الحكمة ليصل إلى الإقناع بغير عنف ، إذ كانت الخمر عندهم كاليسر من صميم الحياة كما كان الرق فلم يشأ الإسلام أن يفجأهم بمنعه ولكنه اتخذ الأسلوب الحكيم في بيان علة المنع أولاً ، والإقرار لهم بمنافع هذه الصفات اللاحقة بهم ثم بيان الأضرار التي تلحقهم منها والامعان في تجسيم هذه الأضرار ليصل بهم إلى المنع آخر الأمر .

وهكذا استلزمهم الشارع الحكيم بسن الصلاة جزئية في إبان الدعوة واستقبل بهم القبلة الأولى ولم يزل وثيداً حكيماً في تشريعه منسوخاً ثم ناسخاً حتى كانت الخاتمة

يوم حجة الوداع بقوله : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً .

لقد ضرب لنا الذكر الحكيم في هذه الآية عدة أمثال في الحكمة والأناة إذ جاء باثبات أن الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان بعد أن مهد لهذا الحكم بالتصديق على أنهم إنما يتوخون المنافع منهما وهذه المنافع ضئيلة مجتنب ما ينتج عنهما من أضرار ، ثم سن لنا في عرض ذلك حكماً عاماً هو تعليق الحرمة في الحكم على أكثرية ما ينشأ عنه .

من هذا نصل إلى أن الفقه في الدين يجب أن ينتج الاجتهاد ويحد من التقليد في كل عصر لأن التجديد وارد في الدعوة إلى الدين بقوله : يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد أمراً مبيحاً في دينها ، وغنى عن البرهان أن مفهوم هذه الكلمة الجامعة ضرورة التطور في الدين بما لا يمس جوهره ، وضرورة الجمود في العقل من وراء التقليد وإقفال باب الاجتهاد .

وعلى ذلك يجب أن نتصرف بين يدي فقهاء الدين على ضوء الحياة ، أو فقهاء الحياة على ضوء الدين ، والآية التي هي قيد بحثنا الآن تعطينا فكرة هذا التصرف ومدى التجديد فيما ندين به لخالفنا من وراء العلم ، فلو لم يعلل حرمة الخمر والميسر برجحان الضرر فيهما على النفع ، لما وصلنا إلى الفقه الشرعي فيما يجد بين أيدينا من حياة .

فلنضع أمامنا الآن بدعة جديدة لم تكن على عهد رسول الله ثم كانت في عهدنا أو فيما سبقنا من عهود وتقدمها عهد التشريع ، فبعض هذه البدع التدخين الذي جاءنا من أمريكا إبان فتحها ، فانه بدعة لم تكن ، وخاض الفقهاء في الحكم عليها فذهب البعض إلى تجريمها قياساً على الخمر والميسر . لأن علة التحريم ، التي هي رجحان الضرر على النفع ، واردة في التدخين وذهب البعض الآخر إلى الإباحة تمشياً مع السنة : كل شيء لك مباح ما لم يرد يرد نص في تجريمه ، ثم هؤلاء ينكرون أن الإثم في التدخين أكبر من النفع ، فالمحرمون هم الوهابيون من أهل السنة والاختاريون من الشيعة ، وأما المحللون فالعامة من الفريقين ما عدا هؤلاء .

فالأجتهاد إذن هو مناط الحل والحرمة في الدخان وغيره من البدع الحديثة ،
 كالكهرباء والواحي وتسجيل الصوت والتلفنة والتلفزة والسيارة والطيارة وغير
 ذلك ، وإذا كان لنا حق البحث في فقه الدين الخاص بفئة أفنوا أعمارهم في
 دراسة الكتاب والسنة ، وتطبيق الأحكام على الحياة بعد تخرجها من أدلتها
 التفصيلية ، والإنخلاص في هذا التخريج ، أقول : إذا جاز لنا القول في ذلك
 على اعتبار فقهاء الحياة من ناحية العلوم والفنون ، قلنا :
 ان ميزان التحريم والتحليل في هذه البدع وما يتلوهما من نتاج العقول في
 بحث الحياة وتسخير قواها لصالح الإنسان ، هو العقل الفقيه لا دراسة الفقه
 وأصوله ، هذا العقل الناضج إذا أمعن في فهم الكتاب والسنة دونما إيغال فيهما
 واستخفاف بهما ، أمكنه الحكم على هذه البدع واستطاع باخلاصه من وراء
 نضجه أن يميز بين الحسن منها فيجيزه ، وبين القبيح منها فيحكم باجتنابه .
 فالآية الكريمة الجامعة في صدر هذا البحث إذن تفرض حكماً عاماً بأن
 ما زاد ضرره من أعمال الإنسان على نفعه هو حرام ، والآية تمهد لتحريم
 الخمر مباشرة في آية أخرى بعد أن أشارت إلى التحريم ضمناً في نفسها ، والآية
 تعلمنا أن الحكم بالخطر على أى أمر عريق في الإنسان يجب أن يكون في حيز
 الإقناع والتدرج في تشريعه من وراء الحكمة ، والآية بعد ذلك كله تشير إلى
 أن التعليل في التحريم والتحليل جائز .

لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ وَلَا لِيُتَارُوا بِهِ
السُّفَهَاءُ ، وَلَا لِيُتَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسُ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ
فَالنَّارَ النَّارُ .

مَحْذَرٌ

ينهى صلى الله عليه وسلم أن يطلب أحدنا العلم ليفاخر به العلماء ويتعالى به على السفهاء ، أو يتحرقى به المكانة السامية في المجتمع ، ثم يحذر من يفعل ذلك عذاب النار ، فإذا يرى القارئ بعد هذا مما يستهدف له العلم وطالب العلم ؟؟ أن أكثر طلاب العلم ينشدون من ورائه مباحة زملائهم والخيلاء في مجتمعهم ، والتغلب على من هو دونهم ، ثم الطموح إلى المنزلة التي تسمو بهم في مناصبهم أو مجالسهم .

فإذا وراء العلم بعد هذا ؟؟ هنالك فئتان من رواد الحياة في الأدب ، إحداهما تذهب إلى أن الغاية من طلب العلم أو الفن ذاتية ، بمعنى أن العلم أو الفن نفسه يجب أن يكون غاية العالم أو الفنان ، والفئة الثانية تذهب إلى أن الغاية من طلبهما خارجية بمعنى أن العلم أو الفن يجب أن يكون كغفره مما يحجي به الإنسان ، أى وسيلة لا غاية ، فما من عمل يأتيه أحدنا إلا وهو مقدمة لنتيجة واحدة هي نفع الإنسان .

ويكاد يرجع هذا الخلاف بين المذهبين ، في جوهره ، إلى النظرية الفلسفية التي شغلت حيزاً من نزاع الحكماء قديماً ، في أن الجمال والقبح ذاتيان أم عرضيان في الجميل والقبيح ؟؟ بمعنى أن مصدر الجمال هل هو ذات الجميل ، ومصدر القبح هل هو ذات القبيح ؟ أم أن الجمال والقبح فيهما نسيبان يتصل بهما من ذات أخرى خارجة عنهما ؟؟

وحجة القائلين بالذاتية أن في كل جميل أو قبيح ، وفي كل طيب أو خبيث سرّاً يتقوم به تركيبه هو مصدر الجمال والقبح والطيبة والخبث ، بينما يحتاج القائلون بالعرضية أن الحسن والقبح واللذة والألم والطيبة والخبث ، كل ذلك

وأشباهه وليد اصطلاح المجتمع الإنساني الأول واستمراره في كيان الإنسان المتطور حتى يصبح غريزة متأصلة في النفس .

ويدعم الأول حجته في أن الجمال المطلق يستهوى الإنسان المطلق ، والقبح المطلق كذلك فلو كان الجمال أو القبح وليد الاصطلاح لما ساد الأذواق كلياً ، لإجماعها على أن هذا جميل وذلك قبيح ، بينما يدعم الثاني حجته بأن مقياس الجمال المطلق أو القبح المطلق عند الإنسان الكلي يختلف باختلاف أنواعه ، فجمال المرأة الزنجية عند الزنوج قائم على شكل لا يتذوقه الإنسان الأبيض مالم يقرب في شكله من شكل الأبيض الجميل والعكس بالعكس .

فلنعد بعد هذه المقدمة إلى صلب الموضوع القائم على توجيه بغاة العلوم والفنون إلى أن يطلبوها لذاتها أم لغيرها ؟؟ فتساءل : كيف يكون العمل نفسه علة لفعله ؟؟ أيكون حرثك الأرض وإفراغ جهلك في تربية البذر وحصاده ، من أجل الحرث والبذر والحصاد فقط ؟؟ وهل العامل يتقن عمله لسببه إذا كان سيده يستغل هذا العمل أم يكون مكرهاً على ذلك ؟؟

أى عمل يأتيه الإنسان جاهداً مخلصاً دونما غاية من هذا العمل إلا العمل نفسه ؟؟ فإذا كان العمل من ذاته ينتج ما ينفع العامل كانت الغاية غيره ولو لم يقصد العامل تلك النتيجة ؟؟ فكل عامل يتجه بعمله إلى الغاية التي تستهدف عمله ، ومن العبث أن نفرض على العامل فناً أو عالماً أو صانعاً ، أى فن أو علم أو صناعة ، وهو يجهل الغاية من عمله إلا أنها العمل نفسه ، وإذا كانت غاية كل عالم أو فنان عبقرى هي ذات عمله فلماذا يبتئس ويتألم ويشقى وينقم على الإنسانية التي لم تقم لعلمه أو فنه وزناً ؟؟

ولماذا نرى العامل مجيد ويزداد إجادة وإحكاماً كلما رأى عمله مرموقاً من مجتمعه باعجاب ، ثم نرى على العكس كل عامل لا يلقي التقدير والمكافأة من أبناء جلدته على عمله ، ثم لا يتبلغ العيش من وراء ذلك العمل ، نراه عيا في قوله إذ يقول ، وكلا في عمله إذ يعمل ، حتى يحول جريضه دون قريضه ، وحتى يزهد في مهنته فيرى الاحتطاب خيراً من الأدب ، ويرى الشيع في

مسح الأحذية خيراً من الجوع بين يدي علمه أو فته ٢٢٢

كيف أقدم على حرث الأرض إذا لم تكن غايى الخبز وهو غير الأرض ٢٢
وكيف أزرع القطن إذا لم أهدف من ورائه إلى اللباس ٢٢ ثم كيف أبني
البيت ولم أرم به إلى أن يؤننى ويعصمنى من آفات الزمان والمكان ٢٢ انى إذن
لأحمق إذا فعلت ذلك أو إذا أقدمت عليه دون أن أفكر فى الغاية منه ولو كانت
الغاية ~~مهمة~~ فيه .

فالعامل يقوم بغايته ، أى أن حاجتى إلى الخبز هى التى خلقت فى نفسى
فنون الحرث والزرع والغرس ، وأن حاجتى إلى السكن والدفء هى التى خلقت
فى نفسى إحكام فنون البناء والنجارة والحداة والنسج والتفصيل ٢٢ ثم ان
حاجتى الملحة فى التغلب على الفناء بانجاب الولد ليخلقنى فى الحياة هى التى
خلقت فى نفسى الحب والجمال والخير .

إذن ليس العمل إلا وليد الحاجة إليه ، وباعث هذه الحاجة فى نفس العامل
هى الغاية التى تستهدف ذلك العمل ، من أجل ذلك يخطئ من يقول : اطلب
العلم للعلم وللمنهج الفن من أجل الفن ، لأن الله ، وهو خالق العلوم والفنون ،
يعمل العلم ~~والفكر~~ والذكر والنظر والبصر بضرورة البحث عن ذاته ليصل بنا
من ~~أزاه~~ العلم والفكر إلى معرفته ، وبهذه المعرفة نقوى على الحياة التى تؤهلنا
للبقاء فى صميم الخلود .

فالرسول إذ ينهانا عن أن نطلب العلم للمباهاة أو الخيلاء أو الطموح إلى
المناصب ، لم يقصد نفى الغاية من طلب العلم ، ولم يرد لنا أن نطلب هذا العلم
لمجرد العلم ، وإنما يريد لنا غاية أسمى من هذه الغايات كالوصول إلى معرفة الحق
الذى تفضى بنا إلى تنزيه حياتنا عن العبث ، وتطهيرها مما ينحدر بنا عن إنسانيتنا
إلى البهيمية التى أوتينا العقل والعلم لنخلص منها إلى اكتناه الحياة .

لذلك قيل : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، يرمى قائل هذا إلى أن مجرد
العلم الذى لا غاية منه كالجهل ، وماذا أفيد من علوم اللسان إذا لم أفصح به ٢٢
وماذا يفيدنى علم المنطق إذا لم يعصم فكرى عن الخطل فى رأى ٢٢ ثم ماذا

— ٤٥ —

بينفعنى علم الزراعة والصناعة إذا أتقنته ثم لم أزرع ولم أصنع ؟؟
فألغاية التى يرمى إليها الرسول الأعظم من تحذيره إيانا فى كلمته الجامعة
التى هى عنوان هذا البحث ، إذ يندرننا بالنار فى عقبي العلوم التى تستهدف
المباهاة والممارسة والكبرياء ، أقول : ان الغاية التى يدعوننا لأن ننشدها بالعلم
هى العمل القائم على معرفة الحق والتماس الخير والجمال فى الحياة من وراء
ذلك العرفان .

هَلْج لَقَلَّمَا أَذْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

تستلزم هذه الكلمة القيمة أن نقول قبلها أو بعدها كلمة تنشق عنها وهي : لطالما أقبل شيء فأدبر ولقلما أدبر شيء فأقبل « قال الإمام هذه الكلمة في معرض نبؤه عن أحداث تصدر بعد مقتل عثمان ، قالها إذ يبيع بالخلافة في كلام بدأه بقوله :

« ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم ، إن من صرحت له العبر عما بين يدي من المثالات ، حجزته التقوى عن تفحم الشبهات ، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيأتها يوم بعث الله نبيكم ، والذي بعثه بالحق لتبسلبن بلبلة ولتغربلن غربة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم .. إلى أن ختمها بقوله : لقلما أدبر شيء فأقبل ..

ان ما حدا بعلي لأن يقول هذا فيبلغ فيه سمو لهجة وصدق فراسة ، هو ما يحذوني ويحدو كل قارئ لأن يتألم تألمه ويأسف أسفه ، ان هذه الكلمات وما يليها من قوله عليه السلام : ألا وإن الخطايا خيل شمس ، حمل عليها أهلها وتخلعت لجمها فتصحمت بهم في النار ، وان التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمها فأوردتهم الجنة » .

أقول : إن هذه الكلمات لأرجب أفقاً من أن يحدق بها وصف ، وأعلى شأناً من أن ينالها إطرء ، وان على كل قارئ أن يقف موقفى أمام جدث الشريف الموسوى في مدينة الكاظمية ثم ينحنى على ضريحه إجلالاً لتسميته ما جمعه من كلام إمام البلغاء بنهج البلاغة ..

لقد بليت أنا نفسى بصدق هذه الكلمة على إذ طالما كنت أستقبل أشياء ولم أحتفظ بها فسرعان ما تدبر عني ثم لم تقبل على بعد لإدبارها ، إذ لم تتوفر

لدى وسيلة لإقبالها على مرة أخرى ، ولا أزال حتى ساعتي هذه والتي أحبر
فها سفرى هذا بن يدى الفجر ، وأمامى عظمة مصر ونيها يجرى من تحتي ،
لا أزال أعاني صدق هذه العظة فى حياتى ، أتمثل بقول ملهمى أبى الحسن :
لقلم أدير شئ فأقبل ، ثم أردفه بلازمه فأقول : ولطالما أقبل شئ فأدير .

ان حسرة الإمام فى كلمته هذه حسرة رجل أدرك عهد الإسلام الأول بين
يدى رسول الله ، فتطوع مع من تطوع من السابقين الأولين لتذليل الشمس
من جفافة العرب وطبع نفوسها العاتية بطابع الإنسانية ، والعمل على نزع الأنانية
الآخذة فيهم بأسباب الفرقة والتنازع والأثرة والجشع وحب الدنيا والتهالك على
حطامها ، كل ذلك كان من صفات العرب الذين طوعهم رسول الله بمن شد
أزره من أصحابه وذوى قرباه ، وكان على هذا أمضاهم عزماً فى الدفاع المر
عن ناموس محمد ، وأشداهم بأساً فى مقاومة الشرك وطمغيان أهله .

تلك كانت صفات قريش وهذه صفات على ، فلا عجب إذا تنبأ فى
كلمته هذه بعود تلك الصفات إلى قريش ، وأرجف بمصير الإسلام على
أيديهم ، إذ كان ما مر به عبرة له ، وما رآه عثمان كان نذيراً بشؤم يبعث
الذعر فى صدر كل مسلم مؤمن يحرص على الدين ، من أن يعود غريباً كما
بدئ غريباً .

فليمن قارئى ، وهو منصف مخلص ، فى هذه الجمل كلمة وكلمة وفقرة
فقرة ، ثم ليعمد إلى ضميره فيسأله : هل كان على بن أبى طالب ، وهو يقول
ذلك ، عالماً بما يقول وواثقاً بما يتنبأ ، وبصبراً بما يحكم ؟؟ نعم .. ان الأحداث
التي بدأت على عهد عثمان ثم انتهت إلى عهد معاوية ومن خلفه من آل أمية ،
تشير إلى أن علياً كان واثقاً بما يقول وصادقاً فيما يتنبأ .

ألم ينل أمة محمد ، ولما يزل غضبا فى قبره ، أعظم حدث شهده التاريخ
الإنسانى منذ كان الإنسان ؟؟ لقد ثبت أن رسول الله قال : على منى وأنا من
على ، وأنه قال : حسين منى وأنا من حسين ، فانتهاك معاوية حرمة الحق بالبغي
على على ، وانتهاك سخطه يزيد حرمة بالبغي على الحسين ، ثم اجتراح معاوية
قتل حجر بن عدى وزملائه من أصحاب رسول الله غلراً ، وتقتيل ابنه يزيد

خبرة أصحاب رسول الله يوم الحرة وهتك المدينة وإباحتها مالا ودماً وعرضاً لعتاة الشام ، ثم اجترأ معاوية على لعن علي وأهل بيته وإحالة الخلافة ملكاً عضوضاً من بعده ، واستباحة أبنائه وذوى قرياه حرماً الدين بالفسق والفجور يعد أن خلقوه في سلطانه الجائر ، أقول :

ان هذا كله قد حدث بعد رسول الله وكان شاهداً على تنبؤ علي بعده حتى كانت البلبلة والغربة تسوط المسلمين فتجعل أعلامهم أسفلهم بتعالى الطلقاء على المهاجرين والأنصار ، واتخاذ الطواغيت من آل أمية عباد الله خولا ومال الله دولا ، يعيشون بناموس محمد ، وهتكون حرمة محمد ، ويفتئون على فرقان محمد ، حتى لفظ الشاعر المسلم كبده وهو يرى على منابر الإسلام أعقاب تلك الطغمة الدارجين على سنتهم في البغي ، فلا يملك أن يقول :

بكت المنابر إذ نزت فوقها تلك القسود وناحت الأعواد

انظر إلى الإعجاز كيف تصدرت وعمائم السادات كيف تساد

أما صدق محمد بقوله لعلي يوم الحديبية : لتحملن على مثلها وأنت مظلوم ، أو ما صدق الصادق الأمين بقوله لعلي : تقتلك الفئة الباغية ؟؟ أما تحققت هذه النبوءات لمحمد ؟؟ فإذا فعل المسلمون يومذاك ؟؟ ولماذا خنسوا ؟؟ وعلى أى عذر أقاموا أنفسهم في سكوتهم وعدم القيام بنصرة أميرهم وخليفة رسولهم ، وفيهم أعيان الصحابة وكلهم يرى بان علياً على حق وأن معاوية على باطل ؟؟ وعلى أى عذر نقيمهم نحن اليوم في تقاعسهم يومذاك عن نصره الحق والجهد في سبيله ؟؟ ثم على أى عذر نقيم أنفسنا نحن أبناء العصور النيرة المتحررة من كل ضغط على الفكر وحمل على الخضوع والاستسلام لسلطان البغي الجائر ؟؟

على أى عذر نقيم أنفسنا ونحن نجار عند ذكر معاوية بالرضى عنه واستئزال رضوان الله عليه ، كما نفعل لدى ذكر من سبقه من خلفاء رسول الله ، ثم لانحجل من أنفسنا إذ نعده من كتاب الوحي وأصحاب الرسول المجتبيين ، ونغتفر له كل ما اقترف من نقض بنيان الإسلام والعمل على تقويضه ، بأنه مجتهد يخطئ فيؤجر مرة ويصيب فيؤجر مرتين ، فيلزمنا آخر الأمر عرض السفه على أنفسنا بالحكم على أن معاوية مأجور في تقتيل مئات الآلاف من

المسلمين وتعتمد البغى على الحق وقتل نفر من الصحابة صبراً ، وإكراه المسلمين على استخلاف ولده يزيد ثم لعن الإمام وأهل بيته وفرض هذا اللعن على الأمة يعد صلاة الجمعة طوال مائة عام .

هذه نفثة ... فهل كنت على حق في بثها وأنا أقدس علياً وأرضى عن أبي بكر وعمر وألوم عثمان ثم ألعن معاوية ، وأصنّب أضعاف هذا اللعن على من رضى عنه وحيد عمله واستغفر له ؟؟ قد يتشدد بعض المتنافقين الذين لم يؤثروا حظاً من الحكمة في عرض التاريخ واستعراضه فيقولون : مالنا ولنبتش الماضي ، نشر الضغائن ونستخرج الدفاتن ونحن في أمس الحاجات إلى التماسي والتسامح والحرص على العمل صفاً واحداً لتوحيد المسلمين وتعزيز الدين في وجه ما يندرن بالخطر من أعداء الإسلام وطغيان الإلحاد وسيل المادة الجارف ؟؟ نعم قد يتشدد بعض هؤلاء ليحولوا بين الأفكار الحرة وبين تحرير الحق على ضوء التاريخ الذى هو جزء من حياتنا لانستطيع الانسلاخ عنه ، والذي عمسنا في صميم هذه الحياة لتتحرى بتحريره السبب الذى من أجله دهمنا ذلك الخطر ، وطغى علينا هذا الإلحاد ، وجرفنا سيل هذه المادة التى أفسدت علينا تطهير نفوسنا وإنقاذ أبنائنا من التردى فيها والانهيار بها إلى حضيفض من الهون ليس تحته تحت .

فلنعتمد إلى صلب التاريخ ونمحص فيه الحق على ضوء القرآن الذى هو وحده تاموس الله في خلقه ، والذي هو وحده الأثر الخالد في نفوسنا ، والذي هو وحده الكتاب المبرأ من عبث الغواة ، وبغى الطغاة البائسين في كل عهد منذ صلب الإسلام حتى اليوم ، على ناموس الأخلاق الحائل بينهم وبين الساطان القائم على الفسق والفجور والاسترسال في الشهوات .

أقول : لنعتمد إلى صلب التاريخ ونحرر أعجاذنا ومصدر عزنا وكرامتنا على ضوء القرآن ، فنقر من السنة الصحيحة مالا يعترض سبيل الحق الجلى الواضح في صميم الإسلام ، ونمحو منها ما يعترض هذه السبيل من أقاويل دسها وافترى بها على الله ورسوله ، أناس صحبوا رسول الله على دخل في نفوسهم ، ومرض في قلوبهم حال دون تسرب الدين إلى صلورهم واستقراره في كيأنهم ، حتى

إذا آنسوا فرصة من الزمن تخولهم لإظهار ما دفنوه ودفن ما أظهره ، عمدوا إلى الحق الذي غل أيديهم فزقوه ، وإلى الباطل الذي فطروا عليه فعزروه ونصروه . لنضع بين أيدينا كتاب الله ونقرأ قوله عز من قائل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله » ونضع إلى جنب هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر رضى الله عنه : يا عمار تقتلك الفئة الباغية « ثم نحكم على ضوء هذا التخريج ، فيما كان من أمر على ومعاوية ، أيهما الباغى ؟؟ وأيهما المبغى عليه ؟؟

ولنعمد بعد هذا كله إلى السبب في تقاعس المسلمين عن إجماعهم على نصرة على وخذلانهم معاوية ، ثم التضافهم حول معاوية وتخليهم عن على ؟؟ فلا نجد سبباً غير أمرين أولهما : أن الصحابة كانوا بعد رسول الله فئات ، منهم المنافق الذى أسلم كرهاً ، ومنهم الضعيف الذى يؤثر السلامة في سبيل دنياه على التضحية في سبيل آخرته ، ومنهم القوى في إيمانه الذى ثبت على عهد رسول الله واستمر ثابتاً بعده ، أما الأول فقد فتح له عهد عثمان باباً إلى فطرته الأولى ففر من الإسلام والتحق بمعاوية ، وأما الثانى فقد جلس في بيته وأغلق بابيه زاعماً أن بغى معاوية على على فتنه فعليه أن يفر منها ، وأما الثالث فقد ثبت على إيمانه والتحق بعلى .

والأمر الثانى أن علياً قبض يده على الدين فلم يفرض بشئ منه في تأليف القلوب النافرة بعد أن مضى عهد التآلف بانتهاء التشريع ، فانفض أقوى المنافقين شكيمة عنه وناصره العداوة وظاهروا عليه أعداءه ، وأما معاوية فقد فتح بيت المال على مصراعيه ، وراح يغدقه على المنافقين ليلتفوا حوله ، وعلى الضعفاء ليستمروا مع القواعد لا إليه ولا إلى مناجزة .

هذا هو أس البلاء الأول الذى مكن للدل من رقاب المسلمين وسن لهم ، إلى يوم القيمة ، الجبن عن نصرة الحق والتضحية في سبيله ، والاستخذاء لدعاة الباطل والتقهقر بن يديه عن تأثر نبيهم ، والاعتصام بكتابتهم ، والثبات على دينهم ، تلك هى ثمرة الشجرة الملعونة التى غرسها أبوسفيان في صدر الإسلام ،

وغذاها عثمان بتسامحه وضعفه واستخذائه لعشيرته ، ثم استغلها معاوية لهواه وساعده على ذلك الاستغلال نفاق فريق وضعف فريق آخر ، وسن هذا المروق لمن بعده من دعاة الفرقة وعبداء الهوى ، حتى أصبح فعل معاوية نظاماً يعتصم به ، في اقتناص الحكم وانتهاك حرمة العدالة فيه ، كل من لم تؤهله للسلطان الحق ذرة من كرامة أو مسكة من دين .

ان أحط ما بلغ بالمسلمين من درك الجبن والانزهار والضعف ، أن معاوية أثبت في نفوسهم يوم خالج الريب قلوبهم من قتل عمار ، أن الذي قتله هو من جاء به للقتال ، لهذا قال الإمام على عندما بلغه ذلك : إذن فالله هو الذي قتل رسله وهو يوالى بعثهم إلى بنى إسرائيل وطغمة إسرائيل تسفك دماءهم ، ياخذلان الحق في نفوس المسلمين يومذاك ، ويا لموت العزة والكرامة اللتين ضحى في سبيلهما محمد وخلقاه من بعده ، يقضى عليهما الجبن والخزى بين يدي حطام الدنيا في عهد معاوية ، ثم لم يزل يقضى عليهما الجبن والخزى في كل عهد مشى حماته على نهج معاوية ، يستنيحون في سبيل أهوائهم حرمة الدين ، ثم يزعمون أن السياسة شيء والدين شيء آخر ، وأن الوحدة بينهما مستحيلة الوجود ، لما يلزم السياسة من تسامح وتحرر وما يلزم الدين من ورع واستسلام ، حتى كأن محمداً وأبا بكر وعمر وعلياً مجهلون السياسة التي تقم آل أبي سفيان على حق في انتهاجها .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ .

الله

القرى هنا أعم من المدن والديساكر ، ولعل القرى تعني الحواضر عند العرب وتقابلها البوادي ، ولذلك أطلق الله على مكة والطائف لفظ القريتين ، وإيثار أهل القرى بالذكر على البداة إشعار بأن فقه الحياة في العقل المتحضر أسمى منه في العقل البادى ، لأن مجال الفكر ونمو الروح بين ازدحام الأيدي على الصناعات ، وتنافس العقول في ميدان العلوم والفنون ، كل ذلك يجعل اهتمام الخالق بالمتحضر من مخلوقاته ، فوق اهتمامه بالبادى منهم ، من أجل ذلك لم تكن الرسل لتبعث إلا في صميم القبائل المتحضرة لأنها قدوة البادين من بنى الإنسان .

ولننسك بالهدف من تخير هذه الآية الكريمة للبحث وهو كلمة « بركات » ماذا تعني بها اللغة العربية ؟؟ هل هي نمو الرزق وتضاعفه ؟ أم بقاؤه وإطراده ؟ أم هي نفع الطيبة والنعمة في الرزق المبارك ؟؟ ولعلها سر اقتناع المرزوق بما أنعم الرازق عليه به قل أو كثر . ولعل هذا المعنى هو السعادة التي يفتش عنها الإنسان في كل شيء فلم يجدها في شيء ، إذ لا ينشدها إلا بالزيادة في الرزق والنمو في النعم والاطراد في تواليها تمتع الحياة ، فقد تكون السعادة في شيء من هذا وقد تكون بعيدة عنه ، كما قد تكون في شيء من الفقر والعوز وقد تكون بعيدة عنه ، فالميزان الحق للسعادة هو في ذات المرزوق لا في الرزق ، والقناعة هي عنوان السعادة تلك إذا رافقها شيء من التفكير الصحيح في تصريف الأمور وتديبر الحياة .

تلك إذن هي البركات التي تنزل على الإنسان من سماء الله بأن يعمل باخلاص وتقوى ثم يكسب فيحسن التصرف بكسبه ويقنع بما يناله من رزق ، وهذه هي الحياة الطيبة التي وعد الله بها المتقين في قوله : من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة « ان هذه الحياة لا تعدو هبة الله للإنسان

في حدود العلم والعمل ثم الرضى عما يناله من ثمرة علمه وعمله ، ولهذا قيل في
الكلم المأثور : ذكاء المرء محسوب عليه « لأن الذكاء من أشرف أنواع الرزق ،
والبرهان على أن البركات معنى بها ذلك هو أنا كثيراً ما نرى الإيمان يرافقه
الفقر من قلة المال وسوء الحال ، فلو كانت البركة قاصرة على معنى السعة في
الرزق والجلدة في المال ، للزم أن يكون الفقير المؤمن محروماً من بركات الله ،
وهذا غير جائز على الله وهو الرؤوف الرحيم العادل .
إذن يتحقق معنا في تدبر هذه الآية أن نقول : لو أن أهل القرى آمنوا
بربهم واتقوه لأنزل عليهم الفقه في الحياة والصبر على بلائها والرضى بما قسم
لهم منها ، ولكفاهم النصب في كسب الرزق والحرص على المال والتنافس في
التهاكك على حطام الدنيا المفضى بهم إلى الحسد والبغضاء ثم الخصام والنزاع آخر
الأمر ، ولعمري ان هذا هو غاية الشقاء في حياة الإنسان ، كما أن ذلك هو
منتهى سعادته في أولاه وآخرته .

بُدِيءَ الدِّينُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بُدِيءَ ،
فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ : وَمَنْ هُمُ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ
اللهِ ؟؟ قَالَ : هُمُ الَّذِينَ يَصِلُحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ .

محمد

من القول المأثور عن الإمام على قال : الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة وطن . من هذه الكلمة القيمة نفهم معنى « الغريب » وأنه : صفة للمنبوذ من محيط يعيش فيه ، فالفقير غريب في أهله ، وإن كان عريقاً في موطنه لهم ، ويقول الشريف الرضي :

ليس الغريب الذي تنأى الديار به ان الغريب قريب غير مودود
يتجاوز كالأول في معنى الغريب ، ويريد به القريب المكروه . أما الحقيقة اللغوية لهذا اللفظ فهي أن لفظ الغريب يصدق على النازل في قوم لا عهد لهم به ينكرهم وينكرونه ، حتى إذا تعارفوا زالت الغربة عنه وأصبح فيهم معروفاً ، فللغريب إذن معنيان أحدهما لغوي وهو هذا ، والثاني مجازي وهو ذاك .
أذكر ، وأنا في لندن أيام دراستي هناك ، زرت الشاعر الهندي محمد إقبال ، وكان يقدم رسالته للدكتوراه ، في فلسفة الإسلام ، فسألني عن معنى غريب في قوله صلى الله عليه وسلم : بدئ الدين غريباً وسيعود غريباً . ثم عقب السؤال بسؤال آخر هو : هل يصدق لفظ « فقير » على معنى غريب ؟؟ وكأنه يريد تخريج كلمة « فقير » المطلقة في الهند على الرجل المستوحش من الناس والمنكمش على نفسه والرجل الشاذ الغريب في أطواره وأعماله ، كالحروج على النواميس الاجتماعية بخوارق غير مألوفة عادة في مجتمعه تشبه السحر أو الشعوذة ، فقلت :

أرى أن لا صلة بين اللفظين في لغة العرب إلا بالتجاوز كما سبق في قوله : الفقر في الوطن غربة . كأنه ضمن الفقر الذي هو طريد المجتمع المادى ، معنى للغربة التي هي استيحاش الغريب في قوم يستوحشون منه لأنه بعيد عنهم بشكله

وعقله ، ويوضح ذلك قول أبي الطيب في خراسان عندما زارها فأنسته طبيعتها وأوحشه مجتمعا فقال :

ولكن الفتى العربي فيها . غريب الوجه واليد واللسان
يشير إل أن الغربة تتناول اختلاف المغرب عن توطن فيهم بشكله ولونه ثم بلغته وعمله .

فاذا رأينا كلمة « فقير » في الهند تطلق على من يخالف القائم فهم بزي خاص ولغة خاصة ثم عمل خاص به صدق لفظ الغريب عليه ، لأن عمله الخارج به على عاداتهم وتقاليدهم يكفى صدقاً فيه على غربته . أما إذا رجعنا إلى معنى الفقير في لغة العرب فلا نجد يتعدى ذا الفاقة والعوز إلى أى شئ من ضروريات الحياة وهذا لا يصدق على شئ من معنى الغريب .

والحديث الشريف يصدق على غربة الدين فيه كلا المعنيين للغريب ، الحقيقي والمجازي ، فيصبح معنا أن نفس غربة الدين في أوله : بأنه جاء في الناس بعيداً عنهم في العادة واللغة والمعتقد ، فاستوحشوا منه ، وهذا هو المعنى اللغوي ، ويصبح معنا أن نفسها بأنها صفة للدين أوجب تنكر القوم للموصوف بها فيما يأتي مخالفاً لهم ولو كان معتنقه من صميمهم ، وهذا هو المعنى المجازي ، فالغريب في قول المتنبي حقيقي ، وفي قول الإمام وقول الشريف الرضي مجازي ليس هذا التفسير هو المقصود هنا ، ولكنها نظرة عابرة في لغة العرب ، وأما لغة الوحي التي تنزلت على محمد وهو يقول : طوبى للغرباء « فهو المقصود من أمثا هذا السفر ، فن هم الغرباء الذين مدحهم الرسول بقوله : طوبى للغرباء ؟؟ انه فسره بعد أن سأله عما يقصد بالغرباء إذ قال : هم الذين يصلحون عند فساد الناس ، فكشف بذلك عن أنه يريد بمعناه المجاز لا الحقيقة ، إذ لو أراد معناه الحقيقي لنال المدح كل معاني الغريب وهذا يأباه المنطق .

ويقصد هنا بالغرباء معتنقى الدين الذين يصبحون قلة في مجتمع يتنكر لهم في عاداتهم وآدابهم ومعتقداتهم ، فيصمهم بالرجعية حيناً وبالجمود والركود حيناً آخر ، ويصوب إليهم نقده في كل ما يأتونه ، ويتخذ ما يعتصمون به من قول أو عمل هزأً وسخرية ، ثم يحمل عليهم حملاته الإلحادية ويحذر منهم

النشء في تعليمه وتوجيهه ، فيتنكر لهم ويتنكرون له ، فيصبحون ، وهم من صميم ذلك المجتمع ، غرباء عنه بعيدين منه ، تعرفهم بالسنتهم الصادقة فيما تقول ، وأيديهم المخلصة فيما تعمل ، بين أناس مرقوا من الدين ومردوا على النفاق لا تربي في أعمالهم إلا الغش ولا تعي من أقوالهم غير الكذب والزور والبهتان .

ولنضرب الأمثال فيما بين أيدينا من حياة ، على الصالحين عند فساد الناس الذين عبر النبي بهم عن الغرباء ، ثم لنبدأ هذه الأمثال معكوسة لنلدل بما تتمثل على صفحة الأطراد في التشبيه ، وليكن هذا المثل المبلوء به هو الذين يفسدون عند صلاح الناس ، لأن الصالح بين الفاسدين كالفاسد بين الصالحين من حيث غربته فهم وبعده عنهم وهو في صميمهم يحيا بحياتهم ويموت بموتهم . يتحدث إلى أبي أن الصلاح قبل ثمانين عاماً كان شاملاً في البقعة التي نحن فيها وهي المسماة « بحبال عاملة » نسبة إلى عاملة بن سبأ الذي هاجر قبل الإسلام من اليمن جنوب الجزيرة العربية إلى الشام فراراً من القحط على أثر انهيار سد مأرب . يقول أبي : كان في التبطية وهي حاضرة جبل عامل ، وتكاد تكون عاصمة الجنوب من جبل لبنان وتفصل بينه وبين فلسطين ، يقول : كان في هذه البلدة فقيه مطاع محبوب محترم يدعى السيد حسن مكى ، وقد بلغ من طاعته في مجتمعه ذاك أن رجلاً سب الدين في سوق المدينة وعلى مسمع من النظارة فأحرق به الناس وترعزت أركان المدينة من شيوع هذا الحدث وأثره السيئ في سمعتها لدى القرى المجاورة .

ولما خشى الرجل على نفسه لجأ إلى الحكومة بدعوى أن الخير مكذوب عليه ، ثم شكاه سامعوه إلى الفقيه وشهد منهم من هو ثقة في القول ، فأصدر السيد الفقيه فتوى بتحريم معاملته ومخالطته والسلام عليه ، ونهى عن أن يعتمد أحد إنزال السوء به ، وشاع ذلك بين الناس فاجتنبوه حتى لا ينظر إليه أحد ، وبلغ ذلك أهل القرى فاجتنبوا معاملته والسلام عليه ، وأنكره حتى أهله ، فكان يفتح متجره من الصباح إلى المساء لا يدخل عليه أحد ، ولا يكلمه أحد ولا يبيعه أحد ثم لا يشتري منه أحد ، حتى ضاق به العيش ووجد أن لاهية له

إلا أن يهاجر أو يلوذ بفقير البلدة ، وكان الرأى الثانى أقرب إليه فجاء الفقيه وقبل يديه ثم خضع أمامه منيباً مستغفراً فاستتابه ثم أحل للناس معاملته .
أما أنا فقد أدركت قبل أربعين عاماً أن امرأة فى قريتي ثبت عليها الزنا شرعاً ولم تقم الحكومة عليها الحد ، فاجتمع أهل البلدة وأقروا تعزيرها ، فسخموا وجهها بالسواد ثم حملوها على ظهر حمار وأداروا وجهها إلى دبره ، وطاقفوا بها البلدة والصبية وراءها يهتفون بما تقشعر له الأبدان من بذئ اللفظ الذى يسبغونه عليها ، وبقيت بعد ذلك طول حياتها منبوذة ، واستمر ذكرها ، حتى ماتت ، مقصرب المثل السوء فى أهل البلدة .

وأذكر أن أحد شيوخ قريتي الطاعنين فى السن كان يتحدث إلينا عن صلاح الناس قبل مائة عام ، وأن أثرياء الزراع كانوا إذا بلغ عندهم نصاب الزكاة فى الحبوب ، يضعون حق الله فى المساجد ، وترك أبوابها مفتحة ليأتى فقراء القرية فى غيابة الليل ويأخذوا حاجاتهم من الطعام حرصاً على شعورهم أن يسترقه ضوء النهار ، قال : وكان الفقير لا يأخذ إلا حاجته ، ويفيض الطعام حتى يزيد على ذوى الفاقة إليه ، ويبقى فضل البر فى المساجد إلى الشتاء فيلذكه العفن ثم يتصرف به فقيه البلدة فى وجوه أخرى من الإحسان .

وكان الفقيه فى قرية إذا زار قرية أخرى ليس فيها فقيه ليرشد أهلها بضعة أيام ، كان لا يشرف على البلدة إلا ويحتشد أهلها جميعاً على مشارفها للترحيب به . والسلام عليه ، ثم تستمر أيامه أعياداً فى البلدة ويقام هذه الأيام مختلف الأتزال ، كل وجبة فى نزل إلى أن يغادرها فيودعه أهلها بمثل ما استقبلوه به يوم ورد عليها ، وكان منزل المختار هو دار القضاء بين المتخاصمين عند الفقيه ، وكان للفقيه الحق فى أن يحكم ويؤدب من لم ينزل على حكمه ثم يفصل فى الحكم دون رجوع إلى الحاكم المدينى ، حتى كان الراغب عن الحكم الشرعى إلى الحكم المدينى منبوذاً فى قومه ومشاراً إليه بالبنان فى معرض النقد والتسفيه كلما غدا على المحكمة أو راح منها .

هكذا كان الفاسد بين الصالحين ، حتى إذا دار الزمن نصف قرن أو يزيد فاذا بالملحد يغزو المؤمن ثقافة وسياسة واقتصاداً ، فيقلب الحياة رأساً على

عقب وإذا بالفقيه يدخل البلدة فلا يشعر به أحد ، ثم يدخل المسجد فيصلى وحده ، وقد يطرق أكثر من باب فلا يجد من يؤويه ، وإذا بالسوق بن سمع الناس وبصرهم ، يجلس إلى مائدة الخمر في مقهى الشارع وفي رمضان فلا ينكر عليه أحد ما يصنع ، وإذا بالشاب المتعلم يكتب وخطب ساخرًا من الدين وهازئًا بتعاليمه فلا يزجره أحد ، وإذا بالمصلح الملهم يؤلف أو يكتب أو يخطب أمرًا بالمعروف أو ناهيًا عن المنكر فلا يصغى إليه أحد ، ولا يأبه به أحد ، ثم لا يزن عمله أحد ، وقد يرى بالسفاهة والرجعية والجمود .

أعرف رجلا كان وهو يدرس العلم في بلده العربي مأبونا فأصبح رئيس وزراء في بلد عربي آخر ولا يزال كذلك إلى الآن ، وأعرف آخر كان وهو يدرس في باريس يسرق الأخذية في الليل عن أبواب غرف الفندق الذي يسكنه فأصبح بعد عوده إلى وطنه العربي رئيس مجلس التشريع « برلمان » ولا يزال ينتقل من نائب إلى رئيس ووزير حتى الآن ، وأعرف رجلا قطع الشطر الأول من حياته خائناً لبلاده وأمنه يترامى على أقدام الفرنسي تارة وعلى أقدام السكسوني تارة أخرى حتى وصل إلى النيابة ثم الوزارة ثم الرئاسة ولا يزال يتقلب كذلك حتى الآن . وأعرف رجلا ألف عصبة من اللصوص وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق فتحكم بها في رقاب الأمة وهدد ذوى الحكم ، ثم اعتلى مناصب النيابة والقضاء والوزارات بفضل أولئك اللصوص المارقة واستباحتهم حرمة الدين والشرف والإنسانية ، ولا يزال محترماً في الأمة مطاعاً فيها إلى الآن ، وأعرف امرأة في بلد عربي تهتف على « التلفون » المتعدد حولها ، مهيبة بنواب الأمة ووزرائها تأمر وتنهى فتطاع في أمرها ونهيها كما تشاء ويشاء لها عملها الشائن الذي يصل بينها وبين كل نائب ووزير ، وقد بحثت عنها فإذا هي « واسطة خير » ولا تزال كذلك حتى اليوم .

أستطيع أن أعرف وأعرف ثم يعرف معي كل قارئ أو سامع أن هذا الطراز من حكمانا وروئسانا وأعياننا يكاد يكون الطبيعة في كل مجلس من مجالس أمتنا وغيرها ، إلا ما ندر ، يكاد يكون طبيعة كل مجلس يسن القوانين ويشرع النواميس وينفذ الأحكام ، بينما نرى المخلص المتحرر من هواه ونفسه ،

العامل لدينه وقوميته ، المضحى في سبيل مثله العليا في الحياة ، نراه مزوياً في غيابة بيته إن كان له بيت ، أو مشرداً في مجاهل الأرض بائساً مضطهداً ، لا ينظر إليه أحد إلا ازدراه ، ولا يسمع به أحد إلا سلقه بلسان أحد من القولاذ زاعماً أنه خرج على مجتمعه وتقاليده أمته .

بهذا نفهم ويفهم كل من أوتي مسكة من الفهم اليوم ، أن رسول الله قد صدق فيما قال ، إذ حكم على أن هذا الدين جاء أول ما نبع غريباً فتمكن من نفوس الناس باخلاص معتنقيه و تضحية المؤمنين به حتى أصبح أهلاً وأصبح الكفر به والزهد فيه غريباً عنهم ، واستمر كذلك حتى إذا ضعفت نفوس حامله ، وفترت همة الحفي به ، وخبث شعله القائلين عليه ، أحرق به الكفر ، وطنى عليه الإلحاد ، وجرفه تيار الظلم والبغى والعنوان ، إذا به يصبح غريباً في وطنه وشريداً بين أهله ، هكذا نفهم قوله صلى الله عليه وسلم ، بدأ الدين غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء ، وهكذا نفهم قوله بعد ذلك : الغرباء هم الذين يصلحون عند فساد الناس » ..

على إن وراءكم الساعة تحذوكم فتخففوا تلحقوا .

يقصد بالساعة : نهاية العالم في دنياه وبعثه في أخره ، وتحذوكم : تدفعكم للخروج من دار إلى دار ، وتخففوا : تزودوا أخف ما تحملون من عمل يخف بكم ولا يهزلكم ثم لا يحول بينكم وبين سابقكم إلى الجنة ، ذلك هو العمل الصالح ، وأما من تزود من السيآت فيثقله وزره ويقعد به عن اللحاق كمن قعد به حمله الثقيل دون أن يبلغ الغاية وهو أشبه « بالراكب المنبت لأرضاً قطع ولا ظهراً أبقي » .

في كلمة « تخففوا تلحقوا » إشارة إلى أن من لا يتخفف لا يلحق وإذا لم يلحق أدركه العجز فرسب في مكانه ، فهل هذا العجز هو الجحيم المعبر عنه بالعقاب ؟؟ وهل ذلك اللحاق هو النعم المعبر عنه بالثواب ؟؟ إذن فالنفاذ من هذه الحياة هو الفوز والبقاء فيها هو الخسران ، ويشير هذا أيضاً إلى أن السير في الحياة له نظام كنظام الدراسة ، فالتلميذ الذي يفلح في أداء فرضه يجتاز صفه إلى أعلى منه وهو نعيم له ، والذي يخفق في أداء ذلك الفرض يرسب في صفه وقد يهبط إلى ما دونه ، وذلك هو الجحيم المطبق عليه الذي لا يتزحزح عنه كابوسه إلا بأن يجتازه من قابل أو يبقى معذباً طوال حياته .

وهذا الاجتياز بعد الرسوب يشير إلى تعدد الحياة الدنيا وأن الحى إنساناً وغير إنسان ، يتقلب فيها مختلف الأطوار حتى يخرج منها مصفى يؤهله تطوره من حسن إلى أحسن ، لحياة أخرى هي أسمى من حياته الأولى ، فان لم يتوفر على هذا التطور خلد في جحيمه الذي هو وجود وانحلال ثم بعث وانحلال إلى ما شاء له باعث الكون الأول ، فهل في ذلك مسخ أو حلول كما يذهب إليه بعض من الناس ؟؟

إن السباك وهو يعالج عجينة الحديد أو النحاس أو الرصاص أو الذهب أو الفضة أو غير ذلك مما يصهر ليصنع تماثيل أو حلياً أو آلات ، ثم يفرغ عليها فنه

فستقيم كما شاء فتبقى خالدة في نعيم الفن ، وإن لم تستقم وفق رسالة الفن أعادها إلى البوثة للصهر جزاء عصيانها ثم عرض عليها ناموس الفن مرة أخرى ، وهكذا هي بين حل وسبك حتى تستقيم آخر الأمر ، أقول :

أن هذا السباك يشير بعمله ذاك من قريب أو بعيد إلى فكرة انحلال الكائن الحي ثم سبكه ابتغاء استقامته في سبيل تطوره القائم على حكمة المبدع الأول حيث يشاء من حيث نخضع لحكمته ثم لانسأله العلة في فرض هذا النظام علينا وهو القاضي بأن نستقيم لنخلد في نعيمه ، وإلا بقينا نتقلب من حياة دنيا لأخرى في جحيمه ، تلك هي فكرة مبدعى هذا المذهب من قبل يطلقون عليه التناسخ طوراً والحلول أو الرجعية أو المسخ تارة أخرى .

وعلى ضوء هذا البحث نستطيع أن نعتصم بقول الإمام : « تخففوا تلحقوا » في إثبات ذلك المذهب إلا أن نتأول له غير ما يدل عليه من تجوز في لفظه أو معناه ، ولا يلجئنا إلى هذا إلا أن يعارض فحواه نص من كتاب أو حديث صح سنده واتضح مدلوله .

والتجوز إما أن يلحق « تخففوا » على اعتبار أن العمل الصالح خفيف لإفضائه بالروح إلى الخفة والمرح وإن أجهد الجسم ، وأن العمل السيئ ثقيل لإفضائه بالروح آخر الأمر إلى الهم والندم وإن رفه عن النفس الامارة بالسوء ، وإما أن يلحق التجوز « تلحقوا » على اعتبار أنه سلام الله عليه ، أراد اللحاق بالصالحين لا مطلق اللحاق ، وهنالك وجوه أخرى في صحة اعتبار اللفظ على مجازه لا حقيقته وقد تركنا الخوض فيها لتفكير القارئ واجتزأنا بما هو أقرب إلى البيان في كيان التجوز .

ولا بد ، قبل ختام هذه الكلمة ، من أن نتبسط في بحث التناسخ المشار إليه في توجيه جملتي « تخففوا تلحقوا » إلى الدلالة عليه دلالة لزومية لا ذاتية ، فنقول : ان الدين لا يحول دون العقل أن يميز تطور الحي جزئياً لا كلياً قبل انتهائه إلى الغاية التي من أجلها كان حياً ، ومثال ذلك واضح في العجينة التي ضريناها مثلاً لتأهيل الإنسان بالنسخ والبعث مراراً في سبيل خضوعه لقبول الكمال ما دامت المادة الأولى ، المعبر عنها لدى الحكماء الأقدمين بالهيوولي ،

ثابتة لا تتغير وإنما التغير ينال الصورة التي تعرض لها في طريقها إلى الهدف القائم على حكمة الخلاق الأول .

فالأخبار الماثورة عن سلفنا الصالح مرفوعة إلى الكتاب والسنة أو غير مرفوعة ، تشير إلى هذا المذهب ، إذ جعلنا الله خليفة لخلق سابق في الأرض من سنخنا ، وهددنا بأن يستخلف غيرنا فيها إذا لم نستقم له ونخضع لإرادته ، وفي الكلم الماثور أن الله خلق أكثر من آدم قبلنا ، في هذا وما سبق شيء من برهان على صحة هذا التطور المعبر عنه بالتناسخ أو الحلول قبل انتهائنا من هذه الحياة الدنيا لنخرج منها في كمال يتقوم به عالم هو فوقنا نطلق عليه عالم الخلود ، ويكون النسخ أو المسخ ثم البعث في الحياة الأولى هو العذاب المعبر عنه بالجحيم . ولعلنا نعود إلى بحث مشكلتنا هذه مرة أخرى في سبيل الإيضاح خشية أن يتأول قولنا جاهل في أننا نريد من الحلول أو التناسخ إلحاداً أو عبثاً ، فإن توجيه الرأي الذي يراه غيرنا نحو الحق شيء ، واعتناقه أو توجيهه نحو الباطل شيء آخر ، إذ لم نرد بنسخ الجزئي وبعثه ، محوه وإبداع غيره ، وإنما نريد محو صورته العارضة على نواته وإثبات صورة أقرب إلى الخلود منها في سبيل الكمال المنشود من وراء الحكمة الأولى ، كما تصهر الحلية فتعيدها إلى الذهب الخام لتعيدها حلية ألصق بالفن من سلفها المنسوخ فلا يلزم من نسخها نسخ المادة التي تكونت منها ، وإنما نسخت الصورة ثم أعدتها جزئياً إلى كيائها الأول بشكل أكمل وأجمل ، فالكمال هذا هو نعم الجزئي المبعوث بالنسخ ، وصهره مرة بعد أخرى هو جسيمه ، والنسخ الذي يتناول الجزئي دون كليهما أمر مفروغ منه في صدق الدين عليه لقوله عليه السلام : لم تكن نبوة إلا بتناسخ ، أى أن النبوات تناسخ لكمال الحياة كتناسخ الإنسان في سبيل كماله ، تلك هي لحة من بحث هذا الموضوع الشاق أثرتها بما أعلم وفوق كل ذي علم عليم .

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

الله

أى كتاب يعنى الله عز ما يكتب وعلا ؟؟ وما هو الكتاب ، هل يعنى به الوحي المنزل على رسله ؟؟ أم يعنى به الكتابة التى هى إحدى وسائل العلم ؟؟ كل ذلك قد يعنيه وكل من الوحي والكتابة يفتقر معه الكاتب والموحى إليه ، فى سبيل الكشف عن أسرار الوجود والعزم فى اكتناؤه تلك الأسرار ، يفتقر إلى علم بالوحي والكتابة ، فقد يوحى إلى الإنسان فلا يحتمل الوحي ولا يستطيع الاضطلاع بعينه ، فلا يخرج عن كونه مفكراً أو شاعراً يقف عند تلقى الوحي ونشره دون العمل به ، وقد يكتب الإنسان عن علم فلا يخرج بعلمه ذاك عن أن يمسك القلم ويكتب حكماً فقهاً ثم يقف عند ذلك دون أن يتعدى الفقه والكتابة إلى اكتناؤه السر الذى من أجله كانت الكتابة وعليه قام فقه الحياة .

إلى المعنى الأول يشير تعالى بقوله : يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . وإلى المعنى الثانى يشير بقوله عز من قائل : قال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به « أى عرش ملكة سبأ » قبل أن يرتد إليك طرفك ، لأن علم الأول نظرى سطحي وعلم الثانى واقعى عملي ، والإشارة بهذا إلى مبلغ العلم العملى من التحكم بالمادة والهيمنة على طبيعتها ، بقيت ضميراً فى سر الغيب منذ سليمان حتى عصر الذرة اليوم ، يمر بها الإنسان فلا يدرك أكثر من أن هذا العمل ، الذى هو نقل العرش بشكل عاصف إلهى لا يقوى على الإتيان بمثله بشر إلا بأذنه .

وها نحن اليوم نصل إلى أن فى مقدور العلم الواقعى المشار إليه فى القول الإلهى السابق ، أن يقتلع العرش من أقصى ملك سبأ ثم يهوى به فى الأثير إلى بيت المقدس بلمح البصر ، لأن علم الذرة يقر الآن أن قذف الجرم يمكن أن يشاكه قذف الصوت الذى لا يحتمل بضع ثوان فى اختراقه الكرة الأرضية تحت دفع التيار الكهربى المهيمن على الأرض ، إلا أن العلم القائم على تمكين الإنسان من ذلك ، لا يزال يعمل لحفظ الجرم المقدوف بسرعة الصوت من

احتراقه وهو يخترق الأثير ، وقد وصل العلماء اليوم إلى أن أصبح ممكناً قذف الصواريخ بسرعة الصوت في الهواء لا في التيار الكهربائي دون أن تحترق ، ووصلوا إلى إمكان قذف الإنسان في منطاده ثلاثة آلاف ميل في الساعة ، وقد أذاعوا أن في الإمكان قريباً قطع الجرم الطائر أو المقذوف على جناح الأثير ، ستة آلاف ميل في الساعة .

فاذا قدرنا أن بين الحرم القدسي حيث كان سليمان وبين اليمن حيث كانت ملكة سبأ مسافة لاتزيد على ألف ميل ونيف ، علمنا أن في طوق العلم اليوم أن يقذف الجرم بفعل الأثير فيقطع هذه المسافة خلال عشر دقائق وأمكننا بفضل قوله تعالى : «وقل رب زدني علماً» تعزيز التحكم بالطبيعة إلى حد السرعة التي تنهاه عند قذف الجرم خلال ثوان مسافة ما بين المشرق والمغرب ، وذلك تحقيق ما كان يعده الإنسان خيالاً أو خرقاً للطبيعة قاصراً على رب الإنسان . لقد حقق العقل بالعلم خيالاً كان مستحيلاً وأصبح ممكناً ، وأثبت هذا العلم أن البصر والسمع والفكر ليس لها حد تقف عنده ، وأن الصعود في السماء والمشي على الماء ممكن أو سيكون ممكناً بفضل العلم ، وأن خرق الطبيعة لا يتحقق فيما ندره وإنما هذا الذي نتمكن منه خرق للعادة لا للطبيعة ، فليس خرق الطبيعة أن يترقى الإنسان أو أن يتقهقر وهو إنسان ، وإنما خرقها أن يتحول الجهاد إلى حيوان أو أن يتحول الحيوان إلى جواد تطوراً لا خلقاً ، من هنا ندره أن الإنسان لا يتحول ملاكاً ، وأن الملاك لا يتحول إنساناً ، إلا أن يصبح الإنسان ملاكاً بطبعه ويصبح الملاك بطبعه إنساناً .

أما بروز الفكر من حيز القوة في عالمه الباطن إلى حيز الفعل في عالمه الظاهر ، فارجع إلى الأجل الذي قدر له وهو جنين في قلب الطبيعة ، فقد يستمر كنز الحياة محبوباً في ضمير الغيب سنين أو قروناً أو أقل أو أكثر تتمخض به الطبيعة ثم تلده بفضل العلم ، فعلى مقدار بلوغ العقل ذروات العلوم والفنون يتضاعف خروج الخبآت من أجنة الحياة ، وعلى مقدار تقهقر العقل بالجهل تستمر كنوز الحياة مخبوءة في ضمير الأزل .

فلكل فكرة في ضمير الغيب أجل ثم تبرز ، ولكل فكرة بعد أن تولد أجل

في استمرارها حية ثم تهلك فتتوارى في ضمير غيب آخر وتستمر فيه حتى تصبح كنزاً مرة أخرى فتولد في عهد آخر للإنسان غضة جديدة ، وهكذا دواليك في الإنسان وصور حياته جدة وقدماء ، وقدماء وجدة يتعاوره بينهما نسيان يحيل قديمها جديداً ، وملل من الجديد يحيله قديماً ، فالجاهل الغر يحسب أن الحياة دول بين قديم وجديد ولكن البصير الحى يفهم أن الحياة قديمة بقدم الإنسان وصورها تتداوله بين ظهور وخفاء ، كالشمس التى تهب الحياة شروقاً وغروباً ، وهو ، فى كلتا حالتها ، يكتنه سر ما تشرق له وتغيب عنه ثم يقول :
لا جديد تحت الشمس .

إِذَا وُضِعَ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ وَانْصَرَفَ أَصْحَابُهُ حَتَّى
لَيْسَمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ ، أَتَاهُ مَلَكَانِ يُحَاسِبَانِهِ ، فَإِنْ
كَانَ مُؤْمِنًا أَرِيَاهُ مَكَانَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ضَرَبَاهُ بِمِطْرَقَةٍ
مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصْبِيحُ صَبِيحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ

مَحْذَرٌ

كيف يسمع ولا يتكلم ؟؟ وكيف يريانه مكانه من الجنة ؟؟ ثم كيف
يسمع الصبيحة من يليه إلا الثقلين أى الإنس والجن ؟؟
هنالك فى علم التشريح شئٌ أصبح جلياً بين يدى الطب ، هو : أن لكل
حاسة فى الإنسان شعباً تتظافر على تركيب خاص تقوم به الحاسة فى أداء رسالتها ،
وهذه الشعب هى الأعصاب الدقيقة المتصلة بمركزها الرئيسى فى الدماغ ،
وعليها يتركز إنتاج الحواس فى تقويم الكيان الإنسانى ، ففى هذا الدماغ
مصدر أول « سنترال » هو الإرادة تتصل به تلك الشعب ، وهذه الإرادة
خاضعة لموجه خاص كمدير السنترال فى اللاسلوكيات والسلوكيات ، ذلك الموجه
هو المسيطر الأول على مملكة الجسم فى بعث الإرادة التى تهيم على الأعصاب
الخاضعة للملكة الاختيار فى الإنسان ، ولعل أصبح ما نطلقه على ذلك المسيطر
هو لفظ الروح وقد أطلق بعض الحكماء عليه اسم العقل ، على أنا نرى الحيوان
يشارك الإنسان فى توجيه إرادته عصب الإحساس وليس فيه ما نسميه عقلاً ،
فما هو باعث الإرادة فى الحيوان إذن غير الروح ؟؟ أهو غريزة النباهة كما
يزعمون أم هو شئ آخر لا نفقهه ؟؟

إذا صح معنا هذا التفكير علمنا أن لكل حاسة ، ظاهرة أو باطنة ، مركزاً
خاصاً فى ذلك المصدر الذى نطلق عليه لفظ « سنترال » ففى طوق المهيم الأول
على الوجود الإنسانى أن يلهم الروح المسيطرة على الإرادة أمراً يحول بين
الإرادة وبين تأثيرها على سلك ما من أسلاك الحواس فيفقد ذلك السلك تأثيره

على الحاسة فتخفت ويفقد الإنسان أثرها في الخارج ، فكم أناس فقدوا حاسة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق من الحواس الظاهرة ، وآخرين فقدوا الذاكرة ، أو الحافظة ، أو الفاهمة ، أو العاقلة من الحواس الباطنة ، وأثبت الطب الجراحي أن فقدان ذلك إنما هو اختلال سلك عصبي أو أكثر من الأعصاب التي تتصل بتلك الحاسة المعطلة .

لذلك يفكرون ، وتفكيرهم قاصر جداً ، في الوصول إلى كنه تلك الأعصاب ومدى اتصالها بالروح وتأثير الإرادة عليها حيناً ثم فقد الإرادة ذلك التأثير حيناً آخر ، على أن لديهم من البديهيات فقد الإنسان حاسة دون أخرى لغراض فهموه واعراض أخرى كثيرة لم يصلوا بعد إلى كنهها ، فقد يعللون العمى أو الصمم أو البكم بأمور يصدقون معها ، وقد نخطئ معهم التشخيص فلا ينفعهم معه تعليل ولا تشريح ، ويبقى الأعمى أعمى والأصم أصم والأبكم أبكم ، دونما علة تظهر للطبيب في جوهر العين أو اللسان أو الأذن ، ذلك ما يثبت لنا أن وراء تعليلهم الخاطئ عللاً أبعد في علم الحياة الإنسانية من أن يصل إليها علمهم وتفكيرهم .

من هذا كله نصل إلى صحة الحديث الشريف بأن الميت في القبر يسمع ولا يتكلم أو يبصر ولا يسمع أو يشعر ولا يطيق الاغراب عن شعوره ، وقد تقف الإرادة عن توجيه الحواس بأمر الروح فتتعطل الحواس ، وقد تقف بذلك الأمر عن توجيه بعض الحواس دون الحواس الأخرى فتؤدي هذه وظيفتها وتعجز تلك عن هذا الأداء ، كل ذلك مشاهد محسوس في حياتنا ومألوف تصديقه وبديهى وجوده ، والأمثلة على ذلك كثيرة بين سمعنا وبصرنا .

كنت في جنوب أمريكا سنة ١٩٣٩ أيام الحرب العالمية الثانية ، وزرت جمهورية تشيلي في أقصى الجنوب ودعيت إلى مدينة « طلكا » ثم مدينة تقرب منها وكنت ضيف عربى مهاجر من مدينة النبطية في جبل عامل أحد مقاطعات لبنان ، ولعل هذا المهاجر من أسرة حيدر أو جابر لا أذكر جيداً ، ورأيت اهتزازاً غريباً في عيني زوجته الأجنبية ، وسألته عن سببه فقال : لقد أصيب

كثير من أهل هذه المدينة قبل سنوات بالعمى المفاجئ، دونما سبب يدركه الطب، ثم قال :

اضطربت الحكومة لذلك فاستحضرت لجنة أطباء من أوروبا وشمال أمريكا فوصلوا في تشخيصهم إلى أن حيوانات دقيقة جداً لا ترى إلا بالمجهر تلتصق في مؤخر الحديقة من الداخل وتكاثف على منفذ النور إلى الخارج فتحول دون البصر، وقد أجروا عمليات لتطهير المنفذ من تلك الجراثيم فعاد البعض إلى الإبصار واستمر البعض الآخر ضعيف البصر مهتز الخلق كما ترى، ثم يقول مضيفي : وقد أثبت الأطباء أن السبب الباعث لتلك الجراثيم هو الإكثار من أكل هذه المدينة لنوع من الخنازير يتولد منه بطبيعة المحيط ذلك الحيوان المتكاثف على منفذ النور من الدماغ إلى خارج العين، واحتجب ذلك العمى عن تلك المدينة لمجرد امتناع أهلها عن أكل الخنازير.

إذن ليس فقد البصر قاصراً على اختلال جوهر العين من خارج أو داخل مادياً فحسب كما يعلمه الطب، وإنما يتجاوز ذلك إلى أسباب أخرى مادية لا عهد بها للطب في مثل هذا الحادث، وغير مادية ما زال الطب عاجزاً عن إدراك العلل المسببة عنها كالذى نعلل به عمى الميت واستمرار سماعه، أو صممه واستمرار بصره، أو بكه واستمرار بصره وسمعه، فالعلم له أول وليس له آخر فلتبصر ولتعتبر.

أما كيف يرى الجنة التي عرضها السموات والأرض وهو في قبره المطبق عليه والذي لا يزيد في طوله وعرضه على بضعة عشر شبراً، أما هذا فيستدعي أن نمهد له كما مهّدنا لسابقه من بحث علمي هو بين أيدينا وليس غريباً عنا. كنت، وأنا في ولايات أمريكا المتحدة، أجلس مع أصدقائي في بيت السيد عبد الله برى بمدينة دربن من ولاية مشكن، وذلك لبضع سنوات خلت، كنا نجلس إلى مرآة المذياع لدى انعقاد جمعية الأمم المتحدة في نويزك التي تبعد عنا ما يقرب من المسافة بين مصر حيث أكتب هذه الفصول، وبين العراق، أقول : كنا نجلس في دربن إلى ذلك الواحي وبين أيدينا مرآته « التلفزيون » ترينا أشخاص المتكلمين في نويزك من ممثلي دول العالم عرباً وعجماً، ترينا تلك الأشخاص

بعضهم جلوس يستمعون والبعض الآخر وقوف يتكلمون في حل المشاكل العالمية . قلت في نفسي : أيربني لإنسان مثلي ، بفضل العلم ، مقر الأمم المتحدة ويسمعي أصوات ممثلها وهي بعيدة عني بعد السماء الدنيا عن الأرض ، وأنا في حجرة مطبقة على من جميع جهاتها كالقبر ، ثم لا يستطيع ملاك السماء المهيمن على إنسان الأرض أن يريني بقعة في الوجود حافلة بنور الحق ، وأنا في قبرى ؟؟ أفليس في هذا المثل المحسوس لنا برهان على صدق رسول الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ؟؟

إذا أنكرنا ذلك ونحن في عصر الواحي سمعاً وبصراً ، فإذا يكون شأن من سبقنا بأجيال يوم كان العالم في ظلمة دامية من الجهل وكانت كلمات محمد هذه تحمل منه محل الروح من الجسد وهو مؤمن بها ومصدق لها ؟؟ هل كان أولئك إذ يؤمنون بصدق نبيهم في إثبات رؤية الميت للجنة، وهو في قبره ، دونما شعور بحس أو إدراك بعقل ، هل كانوا إذ ذاك أنضج منا عقولاً وأوفر علوماً في طريقهم إلى الإيمان ؟؟ وهل يعوزنا لتأثرهم بإيمانهم أكثر من أن العلم الحديث حريص على إقرار ما جاء به الكتاب ، وأقرته السنة الصحيحة ، وسار على نهجها في تصديقه كل عقل فرض الإيمان بالدين قبل أن يشير إلى الاعتصام به من وراء العلوم والفنون ؟؟

فالإيمان إذن هو السر في أن يرى الإنسان ويسمع مالا يراه ولا يسمعه غيره ، والإيمان هو الباعث من اتصف به على أن يحرق بقوله وفعله طبيعته ، بله عاداته ، إلى عالم الروح خلفاً وراءه غير المؤمن ترسف قدماء في قيود المادة ، مقيداً في حواسه بأن يسمع قليلاً ويبصر قليلاً ويفكر قليلاً ثم يناله من الخير ما لا يوصف بحسبان ، ذلك الإيمان هو مصدر العلم الإلهامى الذى يعنيه باعث الكون بقوله : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » وذلك الإيمان هو الحكمة المعنية بقوله عز من قائل : ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » وهو النور المعنى بقول رسوله : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »

يقول الرئيس ابن سينا في مقدمة بعض أسفاره ما مضمونه : كنت إذا

استعصى على اكتناه كثير من المشاكل العلمية أعمد إلى الصوم والاعتكاف والتهجد أياماً فاذا بالمشاكل تنحل بين يدي ذلك وإذا بالعلم الذي أنشده يستجيب لتفكيري » ويقول لي الدكتور يحيى الهاشمي الحلبي وهو أحد أعلام الحكمة ممن تخرجوا في جامعة برلين ، يقول لي ونحن جلوس في أحد مقاهي دمشق : ان العلماء في جامعات ألمانيا بدأوا يفكرون بأن العلم قد يصدر في جرهوه عن الإلهامات إذ حداهم إلى ذلك تفكيرهم في العلامة جابر بن حيان صاحب المعجزات في علم الجبر الذي يرجع في حل مشكلاته الرياضية الكبرى إلى أستاذه الإمام جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة الجعفرية ، وأنهم لم يقفوا لجعفر هذا على دراسة غير ما ينقله عن أبيه وآباء أبيه الأئمة ثم يصعد به إلى جده الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نستطيع أن نفسر وقر السمع وصممه في الأنس والجن عن صيحة الكافر في قبره عندما يهوى الملكان بمطرقتهما على أم رأسه ، فيسمعه من يليه من عالم شاء الله أن يسمع تلك الصيحة ، ويصم عنها من شاء من عالمنا القائم على تركيز خاص به في وعيه ، ومن هذا نفهم بأن الفضاء محشود بالعوالم الخفية عنا عدا عالمنا الظاهر ، كل له وعيه المركز في حواسه على قواعد ونظم خفية لا يعلمها إلا مبدعها وإلا من شاء ممن آمن به ، وعلى ذلك بنى الحكيم العلامة « انشتاين » نظريته في أن الأثير الذي نعبر عنه بالفضاء أو الهواء أو الخلاء ، هو مادة صلبة بما يتكاثف من عوالم »

إِنْدَجَتْ عَلَى مَكُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ
لَا ضُطْرِبْتُمُ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَّةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ

على

اندجبت : جبلت وفطرت وطبعت على علم مخزون في كياني لو أبوح به كله لاضطربتم من الدهشة والريب اضطراب الخيال المتدلّية في البئر العميقة ، ذلك هو مضمون المعنى الذي انطوت عليه تلك الجملة البالغ أثرها في نفس من أوتي حظاً من العلم وقسطاً من البيان .

ففي كلمة اندجبت على علم برهان على أن علمه رباني دونما تعلم أو دراسة وإنما هو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطر عليه منذ الأزل حتى اختلط بلحمه ودمه ، أى أن تركيبه عليه السلام منذ فطرته الأولى في عالم الغيب أو عالم الرحم لم يكن مجرد لحم ودم وعظم وعصب وروح يتغلغل فيها وتتقوم هي به وفي ذلك الروح نواة تنفعل بالعلم لأنها مطبوعة على العلم ، ولعلّي أجروا على تفسير قول الإمام بأنه يريد أن يقول : ان علمه ذاتي لا عارض كعلم رسول الله الذي يشارك به ربه تعالى عنه علواً كبيراً ، على أن هذه الشركة محدودة بكونها جزئياً في مخلوق من كلي في خالق .

وليس في حكمتنا هذا مظنة ريب لأن خالق كل شيء لابد من صلة تربط مخلوقه به جزئياً من كلي لاجزءاً من كل فان بارئ الكون كلي يهيمن على كونه الجزئي منه كالإنسانية المهيمنة على وعلى من يقرؤني ، وفي صميم الفرقان الأعظم ، وما أثر عن تنزل عليه ، كثير من التذليل على أن الله نور السموات والأرض وأن محمداً من نوره وعلى باب الحكمة التي يشع منها ذلك النور ، أقول ذلك ولو على جهة المجاز لأن المجاز حقيقة مستورة تبدأ خيالاً فيما نظن ثم تنتهي بعد ذلك إلى حق .

وهكذا يسند التاريخ بيتاً من الشعر إلى حفيد الإمام وهو السجاد زين العابدين على بن الحسين بن فاطمة سلام الله عليهم ، يكشف لنا ذلك البيت عما يشير إليه قول الإمام الذي هو بين أيدينا ، أما البيت فنصه :

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولست هذه الدعوى غريبة عن أهل بيت الرسول ، فقد جاء في الأخبار
الصحيحة أن يزيد بن معاوية قال عندما وقف زين العابدين هذا بين يديه
وهو غلام حدث بعد فاجعة الطف وبعد أسر وسبي نسائه ، قال يزيد عندما
استأذنه السجاد في أن يعلو المنبر ويتكلم فحجر عليه الكلام ، وأنكر ذلك على
يزيد من شهد مجلسه من خلصائه قائلًا ما عسى أن يبلغ هذا الغلام في القول
فدعه يتكلم ، قال يزيد إذ ذاك : ان هؤلاء أهل بيت زُقوا العلم زُقا . . . »
ولقد جاء في غير نهج البلاغة من كلمات نسبت للإمام على كلمة تقول :
لو شئت لأخرجت لكم من الماء نوراً يكشف عنكم الظلمات » إن صح ذلك
فهو يشير إلى الكهرباء ، وقوله في كتاب مجمع البحرين المطبوع في إيران
والمؤلف قبل قرون ، مضمون كلمة قرأتها بنفسى : ان في هذه الأجرام
السموية مدناً كمدنكم يربط بينها دعائم من نور » وقوله من نهج البلاغة عند
ذكر الأرض : وأسكنها ، على حركتها ، من أن تميد بأهلها » يثبت في هذا
حركة الأرض ويثبت فيما سبقها وجود الجاذبية بين الشمس والكواكب الدائرة
في محورها . كما يثبت أن الجاذبية هي النور ، وهو رأى بعض العلماء المحدثين
في بحث الضوء ، وسيأتى شئ من هذا في الفصول الآتية لإنشاء الله .
أما كلمة « مكنون » المقحمة بين شقى الجملة الأولى من كلمة الإمام ،
فتنطوى على معنى كبير هو أن هذا العلم الذى طبع شخص الإمام به هو
مخزون لا ينفق منه إلا بقدر ما تحتمله العقول إذ هو نسخة مصغرة عن القرآن
الذى هو مرآة للحياه منذ كانت حتى تزول ، فكلام الله تعالى جلده وكلام
رسله عليهم السلام ثم كلام أوليائه وورثة أنبيائه من معدن واحد ، يختلف
باختلاف المصدر كالنور بعضه يكشف جزئيات الحياه والبعض الآخر يتقوم
به الكلى المهيمن على تلك الجزئيات ، بعضه تحتمله العيون والبعض الآخر تنحسر
به ، بعضه عمد الحياه بنظامه ما دامت الحياه ، والبعض الآخر عمدها بالهيمنة
على نظامها ما دام على قيد الحياه .
ففى التنزيل غذاء للعقول القائمة على تقويم الحياه متطورة من عصر فقه

الحياة إلى عصر اكتشاف أسرارها ثم إلى عصر العمل على شخصها بالإنسان من عالم التردى إلى عالم الخلود ، فالتنزيل كله محكم ومفصل على قدر ما مر وما يستقبل الإنسانية من حياة ، ولكن ما نراه متشابهاً فيه هو المخلوق لغيرنا وهو الذى لم نطق فقه الحكمة منه ، لذلك رأيناه متشابهاً وهو المحكم فى أمة كان لها وعالم سيكون له ، وهكذا نصل إلى جزئيات النور المنبثقة عن ذلك الكلى والى نبع عنها بحكمة المخلوق ، كما نرى ونسمع من مأثور من تأله من حجة الحق والدعاة إلى الاعتصام به كالأنبياء والأولياء ، فانهم طبعوا على نور العلم الإلهى ليغذوا به عقل الإنسان العام المتقلب فى عهود الإنسانية .

وكما أن الطفل يفتقر إلى مراحل فى تربيته يضطلع بها عقل القائم على تكوينه وتلوينه ، وكما أن هذا الطفل إنما يفقه الصالح لحياته فى كل مرحلة ويجهل الصالح لتربيته فى المرحلة التى تليها ، كذلك نرى الإنسان الكلى فى تربيته يخضع للعقل المربى فى نظامه مرحلة مرحلة حتى ينتهى به خضوعه إلى عالم الكمال .

فكان من الطبيعى إذن أن يضطرب الإنسان إذ يفرض عليه العقل البشرى الجبار فى فقه الحياة ، مالا يطيق احتماله من نظام الكون القائم على صهره وتصفيته ، كما يضطرب الإنسان ، وهو طفل ، إذا تعهده المربى بما لا يصلح لحياته ألا وهو صبي أو مراهق ، وكان من البديهي آخر الأمر أن نصل إلى فقه المتشابه من قول الإمام على فى أنه لو باح لنا بمكنون علمه لاضطربنا إذ لم تحتمله عقولنا بعد لأنه خلق لمرحلة تليها من مراحل العقل الإنسان القائم على تربية الحياة .

وبعد فليس معنى اضطراب الإنسان إذا وعى شيئاً من علم لم يخلق له ، هو عين اضطراب الحبل المتلبل فى البئر ، ولكن الإمام يشبه اضطراب حالة الإنسان النفسية والعقلية والروحية إذا سمع ممن يهيم عليه بناموسه الأعلى ما لم يطق فهمه من بدع الحياة ، أقول : ان الإمام يشبه تلك الحالة فى الإنسان وهى معنوية محسوسة بالعقل ، يشبهها بحالة الحبل المضطرب ، وهى مادية محسوسة بالنظر ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المعلوم لدى البلغاء من أروع صنوف البيان .

اللَّهُ
نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... نُورٌ عَلَى نُورٍ...

على أى وجه نحمل قوله عز من قائل : الله نور ؟؟ هل هو نور حقيقة ؟؟ أم هو منير أم ذو نور على حد تعبيرهم الله عدل أى عادل أو ذو عدالة ؟؟ فما هو النور حقيقة ؟؟ وهل هو صالح لأن نصف به خالق النور ، ونجعل النور عين ذاته كما نطلق عليه لفظ الكريم أو العليم ونعتبر الصفة عين الموصوف ؟؟ ثم هل يريد الله بنور السموات والأرض نور الكون كله على اعتبار أن الكون قاصر عليهما ؟؟ أم أن الكون سموات وأرض وما يحقق بهما من خلق آخر فيكون إطلاق نورهما عليه تعالى لإطلاق بعض على كل كما نطلق لفظ العين التى هى بعض الإنسان على كله فيكون الله الذى هو كون مطلق ، صادقاً عليه أنه نور السموات والأرض التى هى كون محدود ..؟؟

فالنور ، سواء كان هو العنصر الأول الذى يتقوم به الوجود ، كما جاء تقرير ذلك فى كتابنا « بلاسم » من أن النور أو النظام أو الروح هو قوام الوجود على اختلاف النظريات فى العلم الحديث ، أقول : سواء كان هذا النور قوام الكون أو كان متغلغلا فيه تغلغل الروح فى الجسم والقوة فى المادة والنظام فى الحكم ، لا يصح أن نحمله على خالق الكون وأنه هو ذاته ، لئلا يلزم كوننا بعضاً منه أو كونه حائلاً فينا وذلك يتنافى مع تنزيها له والإيمان بتعاليه علينا وانحدارنا عنه .

إذن فماذا نحلل حمله النور على ذاته واتصافه به ثم الإيمان فى تشبيه ذلك النور بالمشكاة فيها مصباح كأنه كوكب درى ؟؟ أرى أن ليس فى هذا التشبيه شئ من حقيقة لأن الله الذى خلق العوالم فى الكون متغرة مختلفة كلياً وجزئياً ، هو أبعد من أن يشبه شيئاً منها ، ولكنه يتشبه بالمثل الأعلى فى كل عالم ليقرب

من نفوسه فيهمين على أعماله بين يدي هديه وإرشاده وبالتالي توجيهه إلى الحكمة القائمة على بعثه وإيجاده .

فنسبتنا إليه العطف والكرم والعفو والإحسان والجبروت وغير هذه من الصفات الحسنة ، كنسبتنا إليه تعالى سمو المكانة وعلوها ، وهكذا نجد أن اختصاصه في كتبه المنزلة وعلى السنة رسله وأنبيائه بتلك الصفات إنما يجري على مفهوم عالمنا القائم في تفكيره وتصويره وتمثله وتخيله ، على سنن قوتنا بها وأقرنا عليها ، وجعل فيها لنا مقاييس وموازين ، ثم أقام على العمل بها والإيمان في تقويمها ، عقلا أنار به البصائر وثبت القلوب وعصم النفوس من أن تتردى في السر بهذه المقاييس على هاتيك السنن .

ولما كان في مفهومنا أن النور أشرف من الظلمة ، وأن الجمال أفضل من القبح ، وأن الكبير خير من الصغير ، وأن العلو أعز من الانحدار ، أطلقنا عليه تعالى أو أطلق هو على نفسه لفظ المنبر والجميل والكبير والمتعالى ونحوها مما قر في نفوسنا أنه شريف ، ولو أمعنا في اكتناه الحقائق ، لوجدنا أن العلة التي يتقوم بها الظلام والقبح والصغر والانحدار هي عين العلة التي يقوم عليها النور والجمال والكبر والعلو ، أفما تساوى لدينا في العظمة نظام الذرة التي تصغر عما ترى العين ثلاثة ملايين ضعف ، ونظام الأجرام السماوية التي تكبر عما يحده الفكر مثل تلك الملايين؟؟

أو لم نوقن بأن في الظلمة الدامسة أشعة مجهولة لم تكن عين الإنسان المركزة في عالمها على أشعة شمسها الخاصة بها ، لم تكن لنقوى على لبصارها؟؟ أو لم نصل بالبحث العلمي الصحيح إلى أن الحسن والقبح نسيان يتقومان بالأسباب التي من أجلها كان الحسن حسناً والقبح قبيحاً؟؟ أو لم نعلم علم اليقين أن السمو أو الانحدار وسائر جهاتنا الست قائمة على مفهومنا لا على الواقع الذي يثبت أنا مخلوقون من جرم يتقلب في سيره ، ويختلف نظامه القائم على الحركة باختلاف القوة التي يعتصم بها من الفوضى في الحياة؟؟

ولإلا فكيف نصفه بالجميل وهو الذي أبدع القبح وهل يخلق الجمال قبيحاً؟؟ وكيف نصفه بالكبر وقد أثبت العلم أن تفجير الذرة هو العلة الأولى في تلاشي

الجرم القائم في عظمته على تلك الذرة ؟؟ ثم كيف نختار له أعلى مكان يستوي فيه على العرش وهو في كل مكان ؟؟ أم كيف نشبه نوره بمصباح يوقد من شجرة زيتونة وقد أثبت لنا العلم ضلالة هذا المصباح بين يدي مصباح الكهرباء فضلاً عن كواكب السماء ؟؟ على أن العلم الصحيح ، قدمه وحديثه ، يثبت لنا أن كل مخلوق ضمن عالم خاص به في تدبيره وتفكيره ، لأن التدبير مركز على التفكير والتفكير قائم في صميم العالم الذي يشعر به ويتحسس منه .

فالعقل الكلي الخاص بعالمنا يرسم خطط الحياة لنا من واقع ما نقوم به مادة وأدباً ، ويفرض علينا العجز في تلمس ما يغير هذا الواقع الذي يهيمن بوجوده علينا ، ثم هو يصلنا من حيث لا نشعر ، بغيرنا من عوالم يتقوم بها الكون ، ومن هذه الصلة الضمنية بيننا وبين غيرنا من عمرة الوجود ، تنبثق هذه الأشعة التي نمشي على ضوئها في طريقنا إلى الخلود ، وعلى هذه الأشعة نطلق حيناً لفظ العلم وأحياناً لفظ الفن القائم على الوحي والإلهام ، فالتفكير فيما يغيرنا جزئياً كغيرنا من العوالم الكونية ، رهن بمقدار النضج في العلوم التي من الله علينا بها في سابق علمه ، وأما التفكير فيما يغيرنا كلياً كعالم اللاهوت ، فذلك أبعد من أن يناله عقل أو يحيط بكنهه تفكير ، وإنما نحاول الصلة به عن طريق مثلنا العليا التي يلهمنا خالقنا أنها مثل العليا في حياتنا ، وعلى هذا الأساس يجب أن يقوم بناء العلم الذي نتخاطب به في تفكيرنا ونخاطبنا به من يهيمن بعظمته علينا .

والبرهان على ذلك أنه نخاطبنا باللغة التي نفهمها في حيز عالمنا ، فلم يشبه نوره بالأشعة التي هي أقوى من أشعة المصابيح الموقدة من زيت الزيتون لأننا لانفهم تلك الأشعة يوم أنزل علينا القرآن ، ولكنه طوى تلك الأشعة العليا في قوله : الله نور السموات والأرض ، ثم قرب لنا هذا النور ليكون مرمى إحساسنا بأن شبهه بأقصى ما نتأثر به من الضوء الملابس لحياتنا وهو ضوء المصباح ، ولهذا قال عز من قائل : مثل نوره كمشكاة ، ولم يقل أن نوره مشكاة كما قال : انه نور السموات والأرض ، والتمثيل في علم البيان لا تجب فيه المطابقة كلياً وإنما تجب فيه جزئياً ، لأن تشبيه المرأة الجميلة بالقمر أو الغزالة أو الزهرة

لا يعنى أنها هى كلياً ولكنها تعنيها فى جزء منها كالبهاء فى القمر والعينين والعنق فى الغزالة وكالطر واللون فى الزهرة ، وهكذا إذ نشبه الرجل الجرىئ بالأسد فانما نلاحظ الشجاعة التى هى أبرز صفات الأسد ، وجه الشبه بينهما ثم نطلق أحدهما على الآخر .

من هنا نصل إلى أن لغة الوحي الذى ينزل على رسول ما ، يجب أن تخاطب عقول من أرسله الله إليهم لثلاث تكون رسالته عبثاً فى قومه ، فعالم الكون كله بالنسبة إلى مبدع الكون ، هى كالأطفال بالنسبة إلى الآباء ، فاللغة التى تخاطب بها أطفالنا بين يدي توجيههم وتثقيفهم فى سبيل الكمال ، هى عن اللغة التى تخاطب رب العباد بها عباده بين يدي توجيههم وتثقيفهم فى سبيل تكاملهم الإنسانى ، وكما أن لغة الآباء للأبناء وهم أطفال ، تختلف عن لغتهم لأبنائهم وهم شبان ، كذلك تختلف لغة الوحي للعالم وهى فى طبقاتها الدنيا ، عن لغته لها وهى فى المستوى الرفيع من سمو الفكر ونضج العقل .

فالقرآن ، كما يقرر الحكيم الأرنلدى برناردشو ، يصلح للإنسان حتى نهاية الإنسان « لأن وحي القرآن يخاطب بلغاته مجموع طبقات الإنسان ، فليس لواعظ بالوحي أن يعد أمثال برناردشو فى أخره بجنان تجرى فيها أنهار من لبن وخر وعسل ، وليس لواعظ هذا الوحي أن يخاطب الطبقات المسفة بأدراكها من بنى الإنسان بقوله تعالى : ولو أنزلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » فان الذى يفهم أن الملاك لا يكون رسولا حتى يكون رجلاً إنما هو أمثال برناردشو ، وأما الذى لا يفهم من الجنة إلا أنها تين وزيتون وعنب وقضب ، ولحم طير ، وأكواب من فضة ، وثياب من سندس ، إلى غير ذلك من لغة الوحي القاصر على تربية الدنيا من هذه الطبقات ، أقول : أما الذى لا يفقه من القرآن إلا هذا فهم هؤلاء الذين لا يفهمون الحياة إلا أنها طعام وشراب ولباس وسكن .

أما أن نفهم أن الملائكة عالم والاناسى عالم آخر ، وليس فى طوق الإنسان أن يكون ملكاً حتى يتقوم بعناصر الملائكة فيتحول من عالمه إلى عالمهم ، كما أنه ليس فى طوق الملاك أن يكون إنساناً حتى يتقوم بعنصرية الإنسان فيتحول من عالمه إلى عالم الاناسى ، فلو شاء الله أن يرسل إلى البشر نبياً رسولا من ملائكته

لكان عليه أن يحول الملاك إلى رجل في شكله وعقله لبروه ويسمعه ويعقلوه ،
أقول : أما أن نفهم هذا من وحى الله فنحتاج معه إلى العلم الذى يكشف لنا
عن أن الحياة التى نحيها إنما هى وسيلة للحياة أسمى لا أنها غاية نقف عندها
ثم نتلاشى فى عدم لا نعود بعده إلى وجود .

وهكذا نستطيع أن نقيس على ما مر من تعليل هذه الظاهرة فى لغة الوحى ،
ما ورد فى القرآن من قصص على ألسنة قوم ومن قصص آخر يحكى تفكيرهم
ويمثل صور هذا الفكر فى سبيل الخروج بهم من عالم البداية إلى استقبال ما يمتازون
به عن ينحدر عنهم من عوالم ، كما نفعل فى تربيئنا الطفل بلغة يفهمها حاكية
عن خياله وتفكيره فى سبيل الخروج به تدريجاً من عالم الطفولة القاصر على
الأوهام ، إلى عالم الرجولة القائم على الحقائق فى تعليل وجود الإنسان .

مَحْذَرٌ أَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ :

قالها صلى الله عليه وسلم لرجل شكاه إليه أذية جاره ، ولما ائتمر بقول الرسول وأخرج متاعه إلى الطريق ، اجتمع الناس عليه يلعنون مؤذيه ويخزونه حتى جاءه جاره ورجاه العود وأقسم أن لا يؤذيه بعد ، فعاد .

هذه من أصول التربية الاجتماعية التي درج عليها نبي الرحمة ، فقد دعا لهذه التربية ببصلة الرحم أولاً ، لأن الأسرة أس المجتمع ، والرحم في صميم الأسرة ، ثم يليه الجار ، وقد عززه بكثير من أقواله حتى قال أصحابه : ما زال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه ، ثم يلي تعزيزه الجار تربية المجتمع ، وقد أفرغها من بيانه في قوالب تستعصى على الحصر كقوله : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، وكقوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وكقوله : ليس منا من غش ، وكقوله : الدين المعاملة ...

ولست الآن بصدد هذا الاستطراد ، ولكني أمسك بالحديث مع الشاكي للنبي من أذية جاره إذ قال له : أخرج متاعك إلى الطريق ، وهذه كلمة مقتضبة من حديث مسهب فإنها عارية من لفظ الجار ، ومن سبب إخراج المتاع إلى الطريق ، ثم من علم الناس بهذا السبب علماً يحملهم على اللعن ، كل ذلك مفقود من الجملة ، ولكن رواية الحديث ينقونها وما لا بسا كجزء من سرته صلوات الله عليه . أقول : لقد أحبيت أن أمسك بهذه الجملة من الحديث لأدل على كونها من جوامع الكلم مع كونها براء لا يفهم السامع ما تنطوي عليه من جلائل المعاني حتى يعلم الغاية التي تستهدف له .

ولنضرب لذلك مثلاً محسوساً مما نعيه في كل عصر لنلدل على عظمة الفكر الاجتماعي القائم في نفس محمد وهو يلقي أمتة دروس الحياة ، هذه الدروس التي لا يزال العلم في كل عصر يفتق منها أصولاً وقواعد لنواميس الحياة ، فاسمع وفكر واعتبر :

أملى علينا بعض الشيوخ الذين سبقونا في السن : أنه كان يحكم قضاء « صيدا » في جنوب لبنان حاكم تركي أمعن في العسف والجور على بلدة في ذلك القضاء تدعى « جبع » وهي المصيف الأول لساحل « صيدا » قال المملى على : ولعل السبب في هذا العسف يعود إلى أن جبع هذه كانت مقراً أول لفقهاء الشيعة الجعفرين ، وقد كان التعصب المذهبي آنذاك ، آخذاً بخناق الأمة الإسلامية ، وقد كانت بطانة الحاكم نقرأ من غلاة هذا التعصب الدميم ضد الشيعة الذين يجاورونهم وكانت حكومة الترك تدن لله على مذهب أبي حنيفة ، بهذا التعصب أوغرت بطانة الحاكم صدره وأحفظته على أولئك المستضعفين ممن يدينون لله بمذهب جعفر بن محمد الصادق ، أمعن هذا الحاكم في ظلم رعيته القاطنين ببلدة جبع ، وكانوا مع جيرانهم الذين طغى الظلم عليهم يعدون آلافاً من البائسين . « ولما أوغل بهم عسف الحاكم تحت وطأ الضرائب ، وضاقوا ذرعاً به ، ولم يطيقوا صبراً عليه ، فزع الخاصة منهم إلى فقيه « جبع » الأول يسترشدونه في الخلاص من بغى ذلك الحاكم ، فسألهم : أتأتمرون بما أمركم به على أن لأحملكم على غير ما حمل رسول الله المبغى عليه من أصحابه ؟؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : على أن لا تسألوني السبب فيما أمركم به حتى تصلوا إلى النتيجة التي أسأل الله لكم فيها النجاة ؟؟ قالوا : نسمع لك ونطيع أمرك ، فقال : إذا كان صباح يوم الجمعة فأتوا ساحة البلدة جميعاً نساء ورجالا وأطفالا ودواب محمولا عليها كل ما تملكون من أثاث وسأكون بينكم أفعل فعلكم هذا » ويتنادى أهل البلدة والقرى المحدة بها ، ليوم الجمعة بأمر العالم الفقيه المطاع ، على الشكل الذي رسم ، وكان يوم الجمعة مهبط القرى جميعها مع ما يملكون حتى ضاقت السوق وغصت شوارع البلدة والحقول المحيطة بها ، وإذا بالشيخ الأمر الجليل يحمل أمتعته وحرمة وأطفاله على دوابه ، يشير إليهم أن يتبعوه ثم لا يسألوه أين يتوجه ، ولا يجيبوا أحداً يسألهم في طريقهم إلا بأنهم تبع للشيخ ، ثم يجعل القوم وجهتهم إلى صيدا .

وكان لابد من أن يتصل بالحاكم الأعلى « القائم » التركي في مركز القضاء صيدا ، نبأ هذا الحادث الخفيف وهو هجرة آلاف من رعيته رجالا ونساء

وأطفالاً بقضيتهم وقضيتهم إلى حيث لا يعلم ، فراح يتساءل ونفسه عن سبب ذلك ، وإلى أين يغادر هؤلاء وطنهم ؟؟ وما الذي حملهم على الهجرة ؟؟ وقد عز على مضجعه القرار ساعتئذ ثم لم يملك نفسه من القلق واستدعاء خاصته من المجلس البلدى إلى رجال الإدارة ، واستفهامهم عن هذا الحدث الغريب ؟؟ وقر قرارهم على أن يبعث الحاكم بنفر من الخاصة مصحوب بفصيصة من الجنند إلى قائدهم الشيخ قبل أن يصلوا إلى صيداء فتحدث هجرتهم هذه ضجة . قد تتصل بالوالى فى بيروت ويضطره إلى البحث والاستقصاء عن أسباب هذا العمل الشاذ المفاجئ ، ولقد فعل ذلك فلم يفلح فى إرجاع تلك الجموع التى ملأت سهول صيداء فى طريقها إلى بيروت ، ولم يزد الشيخ فى الجواب على « أنهم شعب مظلوم فى وطنه خرج يلتمس وطناً آخر لا عهد لأهله بالظلم وهو لا يرجع مع من معه إلا مستشهدين جميعاً أو يبلغوا فى هجرتهم عاصمة المملكة استامبول »

ونزل هذا الخبر على حاكم القضاء نزول الصاعقة ، إذ عاد وفده مخففاً ، وأن الجماهير قد اجتازت صيداء فى طريقها إلى بيروت ، ومنها إلى الآستانة ، وعزز الحاكم وفده بوفود تتلو الوفود إلى قائد المهاجرين يرجونه ويتهاونون على قدميه فى سبيل إقناعه وأنهم يضمنون له رد الظلمات فلم يفلحوا ، ولا أبه القوم بهم ، وكانت صيداء بأسرها تتجمهر خارج المدينة لتشهد أمة بأسرها قد غادرت أوطانها نساء ورجالا وأطفالاً وأموالاً ، فارتاعون لمنظرهم الرهيب تحت صراخ الصبية وعجيج الأباغر ونهاق الحمر وثغاء الشاء ومواء العنز وجلبة الخيول ، فتضاعف الحسرات فى نفوس النظارة ويكثر التساؤل عن أسباب هذه الفاجعة .

وينزل الذعر فى قلب الحاكم وحاشيته فلا يرى ، قبل أن يستفحل الأمر ، إلا أن يتأثر بنفسه وخاصته ، أولئك القوم فيلحقوا بقائدهم ويبسطوا له النزول على حكمه فى كل ما يقترح مختاراً غير مكره ، وقد فعلوا ذلك ولحقوا بالجماعات حتى وقفوا بين يدى الفقيه واسترحموه فأكب الحاكم على يديه معترفاً نادماً ، مدعناً لتنفيذ ما يأمره به ولو كان فى ذلك استقالته من منصبه ، على أن يعود

الشيخ وجماعته موفوري الكرامة مطمئنين إلى الرفق بهم والعطف عليهم والعدالة في رعايتهم ، فقال له الشيخ :

« نحن مسلمون لا نبيت على ضيم ، ونحن مؤمنون والمؤمن عزيز لا يذل ولا يستضعف ، وأرض الله واسعة لا تضيق بمن آمن وعقل واتقى ، ولقد بسطت يدك إلينا بالظلم فوق ما بسطنا لك أيدينا بالطاعة ، فما لمسنا منك عدلاً ولا رحمة ، وانك راع وكل راع مسئول عن رعيته ، ونحن الآن إنما نترك أوطاننا فراراً من جور سلطانك إلى سلطان من هو فوقك من رعاتنا ، لنعلم أكنت نخولاً منه أم خارجاً عليه في هضمنا والجور علينا ، فأما وقد جئت إلينا معترفاً بذنبك معتذراً عما فرط منك ، فلا نجد غضاضة في العود إلى سلطانك والنزول على حكمك ، شريطة أن تفني بوعدك ولا تنقض عهدك »

ويأمر الشيخ أهله وقومه بالرجوع إلى مواطنهم ، واستئناف العمل تحت سمائهم ، والجهاد في سبيل حياتهم آمنين مطمئنين ، ولقد وفي لهم الحاكم بما وعد ، وأصبح أخاً صادقاً للشيخ ، مخلصاً في رعايتهم بفضل الحكمة التي كانت رائد الشيخ أولاً ، ثم كانت هدف الحاكم أخيراً ، ولم يكن ذلك كله من هذا وذاك لو لم يعتصم الأول بدينه ، ويتأثر بنبئه في هديه ، ولو لم يشب الآخر إلى عقله ويفزع إلى الإخلاص في عمله .

يَا أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ اكْثُرُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ . فَإِنَّ
سَيِّئَاتِكُمْ كَثِيرَةٌ ، وَيَا أَيُّهَا الْفُقَرَاءُ أَقِلُّوا مِنْ
السَّيِّئَاتِ فَإِنَّ حَسَنَاتِكُمْ قَلِيلَةٌ .

عَلَى

من مزايا اللغة العربية ، وبماياها العريقة في صميم الفن الخالد ، هذا البيان
البيان في تركيب جملها ، وكما أن الشاعر نخطي الجمل إذا حاول تحديد الجمل
فيما يرى ، هكذا نجد الكاتب نخطي البيان إذا حاول تحديد البيان فيما يسمع .
لقد أمعنا في دراسة اللغات الأعجمية شرقية وغربية فلم نجد في لفظها
ولا في معناها شيئاً ولو يسيراً من هذه المزايا القائمة في لغة العرب من حيث
روعة الفن في موسيقى اللفظ وبدعة الأسلوب وسحر البيان ، فليتأمل قارئ كل
ذلك في هذه الجمل التي تحتل صدر البحث ثم ليعذرني إذا لم أفص في القول
على الإشارة إلى ما اندمجت عليه من إعجاز .

نخاطب هذا السيد الملهم ذوى اليسار بأن يكثر من الحسنات لقدرتهم
عليها بالمال ، فان المال أكبر عامل في صنع الحسن ، ونخاطب ذوى العدم
والفاقة بأن يقلوا من السيئات لعجزهم عنها بالفقر الذي هو أكبر عامل في
تجاعى السوء .

ثم يجعل ببلاغته البالغة حد الإعجاز ، علة أمره للأغنياء بالإكثار من
الحسنات ، يجعل علة ذلك كثرة ما يقترفونه من الإثم ، ويجعل علة أمره
للفقراء بالإقلال من الإثم ، قلة ما يحسنونه من عمل ، ففي مقابلة الكثرة هناك
بالكثرة ، والقلة هنا بالقلة ، ومقابلة السيئات هنا بالحسنات ، ومقابلة الحسنات
بالسيئات مع باوغ المعنى وجلال التركيب ، أقول : ان في ذلك ما لا أطيق
التعبير عن روعته في نفسى .

ذكرتني هذه الحكمة لطيفة مرت بي وأنا أستمع إلى وصايا أبي لى وإلى
عظاته البالغة في نفسى إذ كنا نستعرض للفقر والغنى ، وأن الفقير مغبون في.

الحياة بينما نرى الغنى طائل اليد فيها ثم هما سيان يوم يردان على ربهما وبحاسبان سواء كانا في الجنة أو في النار ، لغموض الحكمة في الكلمة الماثورة : الغنى الشاكر والفقر الصابر في الجنة .

قال أبي : " لقد سئل أحد الفقهاء الأعلام من جلسائه عن السر في كون الغنى الشاكر والفقر الصابر في الجنة على السواء ، بينما هما في دنياهما مختلفان سعادة وشقاء ؟؟ فأجاب الفقيه سائليه : بأن الكشف عن هذا السر يقتضى صبركم على الإجابة أياماً ، ثم التفت إلى الغنى منهم وقال : أحب أن تولم لنا غداً وليمة عشاء ، فلي الغنى وكانت وليمة للفقيه وجلسائه على قسط وافر من أطائب الطعام وتعدد ألوانه ،

ثم طلب الفقيه من يلي صاحب الوليمة في الغنى أن يفعل فعل زميله ، فلي هذا طلبه وأولم لهم عشاء الغد بما يقرب من وليمة الأول ، وهكذا يستمر الفقيه في طلبه إلى جلسائه بأن يتوالوا على نصب الموائد واحداً بعد واحد حتى انتهى إلى الخادم ، فطلب إليه مثل الذي طلب من أولئك فأمر الخادم إلى سيده الفقيه بأنه لا طاقة له على الإيلاء لفقره ، فقال السيد : ألا تستطيع إقامة مأدبة من الخبز والبصل ؟؟ فأجابه أن ذلك سهل ويستطيعه ، فقال : إذن نتعشى جميعنا غداً في منزلك ، وقد كان ذلك فلم ينكروا عليه لعلمهم بفقره ، ثم دعاهم الفقيه من غده إلى الحمام على حسابه ، وماذا كان في الحمام ؟؟؟

لقد أسر الشيخ إلى الحمائي أن يزيد في حرارة المغطس ، وهو الخوض الذي يفرغ المستحم إليه بعد إزالة الوضر عن جسمه بالصابون ليزيده به نزاهة ونقاء ، ثم أمر الشيخ جلساؤه أن لا عس المغطس أحداً منهم بعد فراغهم من الاستحمام حتى يكونوا جميعاً محلقين به وهو معهم ، فلبوا أمره وأخذوا بالمغتس بعد الانتهاء من التدليك ، فعمد الشيخ إلى أول رجل طعموا عنده وأمسكه من كتفيه ثم أنزله المغطس وسأله تعدد الألوان على مائدته يوم استضافوه فلم يطق تحت وطء الماء الشديد الحرارة أن يعدد بعض الألوان .

وهكذا أعاد الشيخ الكرة مع زملائه وهو يضغظهم في الماء الحار ثم يسألهم تعدد الألوان على مآذهم فلا يطيقون ويستغيثونه ليخرجهم ، حتى إذا انتهوا

جميعاً وجاء دور الخادم ففطسه وسأله فكان جوابه « بالحز والبصل » مكرراً قبل أن تلذعه حرارة الماء ، فالتفت إليهم الشيخ إذ ذاك قائلاً : هذا جوابكم عن سؤال مر في شأن الغنى الشاكر والفقر الصابر ، وإن الله لم ينصف الفقير في دنياه إذ جعل نصيبه من الآخرة كنصيب الغنى ، قال الشيخ :

ان هول الحساب وطول أمدته يقاسيه الغنى وإن كان شاكراً حتى ليصبح الناس من سكرة الموقف ورعبه ويقولون : أنقذنا يا رب من موقفنا هذا إما إلى جنة أو إلى نار ، بينما يكون فقير الدنيا الصابر في الجنة لم ينله من هول الحساب ما نال زميله ، وذلك مقابل ما شقى به في دنياه من البؤس والشقاء الزائل .

يعجبني في هذا الجواب كونه عملياً ، والجواب العملي أو الواقعي كما يعبر عنه بعض المعاصرين ، هو خير ما يتعظ به الإنسان لقربه من واقعه ، ويكاد الدين كله يكون واقعياً لا مثالية فيه حتى المغيبات إذا لحظنا عجز الإنسان عن إدراكها وكونه غير مكلف بها ، على أن شيئاً واحداً في جواب الفقيه الجليل لا يتلاءم مع الأخبار المتواترة في أن المؤمن غنياً كان أو فقيراً مشمول بعد موته برحمة الله حتى يدخل الجنة ، فكيف يناله هول الحساب ؟؟ والجواب عن ذلك سهل إذا لحظنا أن الجواب تقريبي لا قطعي وأن المقصود منه الإقناع لترك الخوض فيما يقصر فهمنا عن إدراكه .

وقد يقال في دفع هذا أن الذي يقف للحساب وإن كان مطمئناً إلى رضى المحاسب عنه وإلى أن عمله قائم على الحق ، ولكن هيبة الحساب وعظمة الهول فيه تستلزمان رهبة المنتظر وهو إنسان مفطور على الخوف ، على أننا نستطيع القول : إن موقف الحساب الطويل مهما سادته طمأنينة الموقوف من وراء إيمانه ، فانه ليس كالمكوث في الجنة فان الموقوف على الصراط للحساب عار عن ثواب المؤمن وعن عقابه ، ولكن سكنى الجنة خلاف ذلك ، وهذا الجواب أصبح من ذاك ، نسأل الله العصمة في الفكر والقول .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ

الله

كان الرسول قد استجاب لبعض أصحابه بالصلاة على ميت لهم ، فجذبها الخليفة عمر من ردائه منكرأ عليه صلاته فنزلت هذه الآية تأييداً لعمر وتأنييه لرسول الله إذ كان الميت من المنافقين ، ففي ذمة الله عبده ورسوله محمد ، وفي ذمة التاريخ أنت يا عمر .

أتساءل ونفسي عندما قرأت هذا الخبر في كتب السير وقد تناولته الصباح منها ، أتساءل ونفسي عن مبلغ ما تؤيد هذه الكتب حديث جبريل وهو يهبط من السماء ومعه ميكائيل يحملان طستاً من ذهب الجنة وماء من كوثرها ليشقا صدر محمد وهو صبي تحتضنه حليلة ثم وهو غلام ثم وهو شاب ، على روايات مختلفة ، بعضها يقصر الشق عن قلبه في طفولته ، وبعضها يتجاوزه إلى أكثر من شق واحد في أوقات مختلفة ، أقول : أتساءل ونفسي إذ وقفت على روايات الشق وإخراج قلب الرسول ، ثم غسله بذلك الماء في ذلك الطست ليظهره من نزغ الشيطان ووسوسته بين يدي تأهيله للعصمة فيما يقول ويفعل ؟

أتساءل وهذه النفس إذ ذاك عن أثر هذا الشق وذلك الغسل بيد جبريل ، وكيف لم يعصم النبي وهو مخطئ في قوله أو عمله فبرده عن خطاه بعض أصحابه الذين لم يهبط عليهم جبريل ولا شق صدورهم عن قلوبهم ليظهرها من الزيف ، ثم يهبط جبريل الذي شق صدره بالأمس ، يهبط عليه اليوم ليخطئ محمداً ويصوب عمر ، ولا أرى في أمهات كتب السير والأخبار ما ينكر هذا الحدث الهام الذي يحبه مقترفوه فرقان محمد إذ يقول : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ... لم يكف المفترون على محمد وصاحبه عمر بأن هذا خالف ذاك حتى يتعدوا في فريتهم إلى أن الوحي نزل مصوباً عمر ومخطئاً محمداً ، ضارين بالعصمة التي فرضها الدين والعقل على رسولها إلى الإنسانية لينقذها من الضلال ، وأعجب من ذلك أني فرغت إلى من اتق من نصبح العقل فيهم ما أطمئن معه إلى انصافهم

في الحكم على التاريخ ، سألت هذا الذي فزعت إليه عن مبلغ رأيه في أن عمر خالف نبيه ثلاث مرات وقيل سبعا وكان الوحي في أعقاب كل خلاف بينهما ينزل مؤيذاً رأى عمر ومفنداً رأى محمد ، فأجابني صاحبي بأن ذلك حق لإثبات إنسانية محمد وكونه بشراً مخطئاً ويصيب .

الغريب في أمر هؤلاء الناس أنهم يقولون أن لا يوكل أى عمل لأى إنسان . ما لم يؤهله لذلك العمل مقدرة فنية وموهبة شخصية تتفقان وإصدار هذا العمل عنه محكما متقنا ، وإلا ساد المجتمع فساد تتلاشى معه الإنسانية آخر الأمر ، أن هؤلاء يعترفون بأن من الإنسانية أن يعالج المرضى طيب مخلوق لمعالجتهم ، وأن يتقف النشء معلم يؤهله فن التربية للتثقيف ، وأن يفصل في الحكم بين المتخاصمين قاض يحمل في دماغه عقل الحاكم وفي صدره ضمير العادل ، وأن يبني القصور مهندس قام على فكره فن البناء ، وقامت على يديه زاوية إحكامه ، وهكذا يستمر إقرار هؤلاء الناس منطق العلم والفن في بناء حياتهم دون أن يفكروا في أن هذا النمر القائم على بناء حياتهم بشر أو بقر .

ولكنهم إذ يصعدون إلى قمة الحكم على باني الإنسانية التي هي مصدر الحياة يخرسون فلا يحددون وظيفة هذا الباني ، ولا يشيرون إلى ما يجب أن يتصف به في عقله وقلبه أمام هذه الرسالة العليا التي يضطلع بعثها في بناء الإنسانية ورسم الخطط التي يقوم عليها ناموس الكون ألا وهو الدين ، إنهم يجهلون وظيفة النبي ويتناسون ما يجب أن يتخلق به وهو معلم يتقف عقولهم ، وطيب يعالج نفوسهم ، وقاض يفصل في الحكم بينهم ، وبان يرسم خطط الحياة لهم ، إنهم يتناسون كل ذلك فيه ثم لا يذكرون إلا أنه بشر مخطئ ويصيب .

نعرف جيداً أن محمداً رسول الله ، وأن رسالته مأخوذ في مفهومها ، المثل الأعلى لتوجيه الإنسانية ، وأن صاحب هذه الرسالة يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والسهو والنسيان بشهادة العقل والدين ليكون الرجل الكامل في إنسانيته ، فيكون الصادق إذ يقول ، والمخلص إذ يعمل ، والعبقري إذ يسن الأنظمة ويشرع النواميس ، فيرسخ من هذا كله في نفوسنا أننا إنما نتأثر فيما نعمل رجلا هو منا في طبيعته وفوقنا في عقله وروحه .

فمن هو هذا الذى يريد أن يفرض علينا ديناً بعث الله به على لسانه وألممه قلبه وقوم به عقله ، ثم نراه دون بعض منا فى بعض ما يرى ، ويهبط عليه الوحي مصوباً رأينا ومسفهاً رأيه ، من هو هذا الرسول الذى يأتمنه الله على رسالته ثم يؤثبه على أداؤها ويأمره باتباع غيره فى إحكام هذا الأداء ؟؟ أهو رسول حق ؟؟ يتنزل عليه الروح الأمين قبل بعثه فيشق صدره ويظهر قلبه ليستل منه العقدة التى تفسح للشيطان أن يوسوس فيها ؟؟ إذن لم شق جبريل صدره وغسل قلبه إذا لم نؤمن بأنه معصوم عن الخطأ فيما يقول ويفعل ؟؟ أكان جبريل عابثاً أم كان مأموراً من ربه بأن يحول محمداً بفعله هذا من إنسان مخطئ ويصيب إلى إنسان يصيب ولا يخطئ ؟؟ وإذا كان لابد من الخطأ فى الإنسان ليكون إنساناً فما معنى أمر الله آياه بأن لا يخطئ ؟؟

إن العصمة ممكنة فى الإنسان لأنه مأمور بها ولكنها فى الإنسان مراتب أسماها عصمة الأنبياء ، كما أن الخطيئة مراتب أحطها الشرك بالله تعالى فمنا الموحد المؤمن الذى اعتصم بتوحيده وإيمانه عن الكبائر دون الصغائر ، ومنا الموحد المسلم الذى سما بتوحيده عن الشرك ولم يعصمه لإسلامه عن الآثام ، ففى صميم الدين والعقل أن نعتقد بعصمة الرسل ثم نعتقد بأن عصمتهم هذه فوق عصمة غيرهم وأنهم أفضل الخلق فى كل ما يشركهم به الخلق من طبع فطروا عليه وتكسب هدوا إليه .

معقول أن يرى النبى رأياً لا يقره الله عليه ويثنيه عنه بوحى وإلهام ، ومعقول أن يرى المؤمنون من أصحابه رأياً يقرهم عليه الله بوحى ينزل على رسوله ، أما أن يرى النبى رأياً ويرى أصحابه خلافاً وينزل الوحي مؤيداً لهم دونه فهذا مالا يجوز تصوره ، لأن كرامة النبى ومكانته من نفوس أصحابه تنزعز ولو لحظة ما ، إذ يلحظ مخالفه ، عندما يتأيد عليه بالوحي ، نقصاً فيه أو كمالاً عليه ، ولو جرى هذا مرة واحدة لا سبع مرات لرأينا المنافقين الذين يتوقعون منه صلى الله عليه وسلم أقل بادرة تشعر بخسته أو نقصه ، لرأيناهم يرفعون العقائر عما يشفى نفوسهم المرضى ، ولسمعنا عجيج اليهود والمجوس بمن عاصروهم ومن فقى على أثرهم من أعداء الإسلام فيملأون الطوامير بمثل هذه الأكاذيب .

ولكن هؤلاء يعلمون جيداً أن المسلمين لا يؤخذون بذلك فيعملون إلى دس آخر هو الإشادة بفضل من دس على الإسلام وانتقم منه وافترى عليه ، أمثال مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان ومن نهج نهجهم ممن زوروا على محمد وعمر وعلى غيرهما من أصحاب رسول الله الأبرار هذه الأكاذيب ليبرروا مروقهم من الإسلام بتخروجهم على نواميسه وانهاكهم حرمانه ، ومشى على الضعفاء منا ما زوروه فخصمنا لسلطانهم باسم الدين ، ولم نزل حتى اليوم نؤخذ بمثل هذه الرزايا على أيدي وألسنة خلفائهم من حكامنا الذين تأثروهم بالجور في الحكم ، والتهالك على المناصب ، واستحلال الدماء البريئة في سبيل الشهوات ، مدعين أن محمداً ظهير العدالة ونصير الحق يقول : أطع الحاكم ولو كان جائراً ...

أى محمد هذا الذى يأمرنى باطاعة السلطان الجائر؟؟ وأى عمر هذا الذى يقبل نسبة الصواب إليه والخطأ لنييه؟؟ وأى أبى ذر هذا الذى ينتقص من زميله بن يدي رسول الله؟؟ وأى عمار هذا الذى تدفعه دله الكبر إلى أن يقول غير صادق ويفعل غير مخلص؟؟ أمحمد يأمرنى بطاعة الحاكم ولو جار وهو القاتل : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها؟؟ أو عمر يرضى عن نسبة الظهور على محمد إليه في حصافة الرأي وتأيد الوحى له وهو القاتل : أصابت امرأة وأخطأ عمر؟؟ أو يصم أبو ذر أخاه الأسود في الإسلام بقوله : يا ابن السوداء ، بن يدي خليله محمد الذى يقول فيه : ما أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر؟؟ أو نخنى الكبر على عمار فيخرف والله تعالى يقول في الإنسان : ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا؟؟

إن عهد الأموى المارق من الإسلام يفترى على محمد بأنه يرضى عن الحاكم الجائر ليبرر خروج معاوية الأموى على محمد ودين محمد بنخرقه اجراع المسلمين في حرب على ، حتى ذهب ضحية هذا الخرق عشرات الآلاف من المسلمين ، ونخرقه الدين في قتل حجر بن عدي وأصحابه من خيرة الصحابة صبراً لأنهم وألوا علياً دونه ، ونخرقه نظام الخلافة في أخذ البيعة لنغله يزيد الفاسق ، ثم ليبرر بالكذب على محمد فعل نغله هذا بأهل بيت رسول الله في سبيل ملكه العضوض .

وان العهد الأموي المارق هو الذي دس على محمد وخليفته عمر خلفهما في الرأي ليصل إلى رفع العصمة عن هادي الأمة وجعله في مصاف الناس يخطئ ويصيب ليحط من قيمة قوله صلى الله عليه وسلم : على مع الحق والحق مع على ، وقوله : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، وقوله : أصدق الناس لهجة أبو ذر ، أقول : أن العهد الأموي الذي أسسه مروان وعززه معاوية هو الذي دس على محمد وأصحابه تلك المفتريات ليهون من عمل عثمان في أبي ذر وعمل معاوية يزيد وأعقابهما في حرب على وسبه وقتل حجر وأصحابه ثم قتل الحسين بن علي وأهل بيته ووقعة الحرة وهتك حرمان الإسلام بالفسق والفجور اللذين سادا ذلك العهد المظلم مائة عام كانت ولا تزال ، وسوف تبقى وصمة في جبين الإنسانية إلى نهاية العالم .

فمحمد سيد العالم لا يدانيه في منزلته من الحق في العالم إنسان ، هذه حقيقة لا يختلف عاقلان في إثباتها ما لم يكونا في حدود الجمود أو الجحود ، فليس لمسلم وهو يدعي الإسلام أن يقف على خبر يثبت زعزعة هذه العقيدة في صدر المسلم حتى يمسك القلم ويثبت على ذلك الخبر خطأ عريضاً يعفى معاملة ، أو أن يضع في الهامش تعليقا على الخبر لا يتعدى حرفين فقط هما : « كذب الراوي » فان الذين تبوأوا مقاعدهم من النار في الكذب والافتراء على سيد العالم أكثر من أن يحصر أو أن يميزهم تمحيص ، ألا وإن في الكتب الصحيحة التي لا يرتاب أكثر أعيان الفقه في صحة أسانيدها ، إن فيها كثيراً من هذه الافتراآت قد صدق بها جامعوها وأثبتوها على أنها صحيحة من وراء عقل لم يعن إلا بصحة السند دون أن يجعل للعقل سبيلا في تمحيص المسند وعرضه على جوهر ما أوحى الله به إلى محمد ، ودون إمعان في السر الذي من أجله قال محمد : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ... فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتموه عنى تنكره قلوبكم ... فأنا أبعدكم منه » كما مر في أول الكتاب ..

شَرُّ الطَّعَامِ الْوَلِيمَةُ ، يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ
الْمَسَاكِينُ

محدث

حدثني في مصر كثير من الناس : أن الأمير يوسف كمال ، وهو من الأسرة المالكة ، كان يتفق على مائدته من ماء « الفيضة » عين في فرنسا ، بين خمسين وثمانين جنياً كل شهر ، فكم كان يتفق على ألوان الطعام والفاكهة والحلوى من مصر وغير مصر إذن ؟؟

وحدثني الكثير أن سباطه كان يمد كل يوم ويحمل على خوانه ما يقرى مائتي إنسان ولكن من يأكل عليه لا يتجاوز بضعة عشر شخصاً ثم تدعى كلاب صيده فتطعم منه وبعد ذلك يكفأ الطعام في حديقته ويخلط بالتراب لتلا يطعم الخدم والحرس منه ، وليستحيل بعد ذلك سبأاً للشجر .

يقول محدثي ، ولعله السيد حسني تلو الذي كان يستضيفه من الشام على رأس كل عام ليتمتع بفكاهاته بضعة أسابيع ، يقول لي هذا : كنت أرى الخدم والحشم وحراس القصر ، ويبلغون العشرات من المساكين الذين لا يبلغ أجر أعزهم على الأمير فوق ثلاثة دنانير كل شهر ، كنت أراهم يذفنون الطعام بأيديهم ويتحسرون على لقمة منه ولكنه محجور عليهم ، فسألت الأمير يوماً ما : لم لم تأذن للخدم بأكل ما يفضل من الولايم ؟؟ فضحك وقال : هؤلاء قد اعتادوا على القول فإذا تجاوزوه إلى ما هو خير منه فسلوا ... »

فليتأمل من له فكر ، وليسمع من كان ذا أذنين : إن الكلاب والهررة أجدر بموائد الملوك والأمراء من بني الإنسان ، ثم لا تری مندوحة عن أن تخضع للمثل القائل : الناس على دين ملوكهم » ونرى القادة منا والسادة فينا يفرضون علينا الطاعة للملوك والأمراء في سبيل الزلفى إليهم والأثرة عندهم ليكنوهم من رقابنا فيكونوا أقسى علينا منهم ، وهكذا تسوء الأمراء بالحواشي ، وتفسد الملوك بالباطن ، ثم يتلاشى الحكم بين يدى ذلك ويعصف التاريخ بالأمم .

لقد زال سلطان القراعنة عن مصر ، ودالت دول الأكاسرة في القرس ،

وتقلص ظل القياصرة عن الروس ، بتعالى السادة على العبيد ، وتجنأ الملوك عن الصعاليك ، وامتنياز الخاصة من العامة ، واستبداد القوى بالضعيف ، من وراء هذه الأثرة بحطام الدنيا .

فليس من السهل أن يتصور القارئ والسامع ، موائد تبسط ومآدب تقام وأسمطة تمتد كل يوم وكل ساعة في كل بلد من كل قطر ، ولا ينال منها إلا المتهالك في ترفه من نعم الحياة ، وإلا المتخوم بما يتخير من أطائب العيش ، وإلا الكافر بنعم ربه ، بينما نرى على بعد أمتار من هذه المآدب سواد الشعب يتضور جوعاً ثم يحال بينه وبين ما يباح منها للهرة والكلاب ، وفي سواد هذا الشعب القاتم عرق ودموع تتحجر لآلئ تزدان بها تيجان أولئك الملوك ، وتندى بها مباسم الحور العين في قصورهم ، ثم لا يجد الشاعر متنفساً مما يحز في نفسه مما يرى ويسمع إلا قوله :

يا لهذا التيجان فوق رؤوس	دوتختها فظائع الإجرام
تبنى أحجارها قطرات	حضنتها محاجر الأيتام
ملك أو محكم أو زعيم	أورئيس ، خلط من الأقزام
ينشدون الحياة مجلوة	الأفق بعيني غلامه أو غلام
ما عليهم ، وهم نيام عن الأمة ،	إن هومت مع الذسوام
فاستعاضت عن سادة الحكم في	الأبهاء بالسيدات في الأفلام

عَلَى
إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ
الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ وَأَخَذُوهُ بِالْبَاطِلِ فَأَقْتَدَوْهُ

يشير بهذا إلى تفشى الرشوة بين الحاكم والمحكوم ، واقتداء المحكوم بالحاكم
فى نصرة الباطل وخذلان الحق .

نشرت جريدة التيمس الأمريكية الكبرى لمراسلها فى الشرق العربى قبل
عامين كلمة جاء فى مضمونها : ان إدارة الحكم فى هذا البلد - يعنى بلداً عربياً ما ،
أسوأ إدارة فى العالم » ولقد صدق هذا إذ نقل لى أحد المحامين : أن زبانية بعض
الزعماء فى البلد المذكور قتلوا رجلين من أتباع زعيم آخر متآوئى له فلم يستجوب
القائل لشدة نفوذ هذا الزعيم لدى المسيطر الأول على الحكم فى بلد الاشعاع .
ان فى هذا القطر العربى ما يزيد على سبعين من كل مائة إنسان من يحمل
شهادة فى الثقافة من بدائيين إلى جامعيين ، ومع ذلك يسيطر عليهم فى مجلس
التشريع أناس يكاد يكون أكثرهم قاصراً فى ثقافته على القراءة والكتابة فقط ،
ويكاد يكون معدوماً فيهم من أوتى حظاً من ثقة الشعب الذى يمثله ، إذ عودهم
المستعمر طوال ثلاثين عاماً كل ما يصم العرض ويشل الضمير ويسف الكرامة ،
ثم لا يزال كل قائم على الحكم فى هذا القطر وقد مر على جلاء المستعمر عنه
عشرة أعوام عبداً لشهواته ذليلاً بين يدى هواه ، لا يعرف وجهاً للحياه إلا
حيث يتبوأ منصبه ويضفى على أهله من عرق الشعب ودموعه كل ما يروق
العين من متع الحياة .

وفى قطر عربى آخر ، يقول لى بعض أهله : من العبث أن تصل إلى حقلك
فى دوائر الحكم إلا بواسطة ، وهذه الوسطة لا تعدو أحد أمرين : كبير فى
الحكم يوصى بك ، أو حفنة من مال تضعها فى جيب من يتولى قضاء حاجتك ،
أما الدوائر التى تدخلها على الرأس موفور الكرامة ، والموظف الذى تقف
بين يديه وأنت مطمئن إلى حقلك ، أما هذا وتلك فلا وجود لهما فى بلد ساده
للعلم وانهارت فيه الأخلاق .

ويقول لى رجل فى بلد عربى آخر : إن المستعمر الافرنسى لم يترك موظفاً إلا وأفسده بتنمية الرشوة فى نفسه واعتبارها عنصراً هاماً فى تقويم حياته ، لأنهم رفعوا مستوى الحياة وجعلوا الرواتب ، فكان من البيدهى لمن راتبه عشرة دنانير وأجر سكنه عشرة ، أن يسرق الشعب ثم كان من الضرورى لمن يبذل خمسة آلاف دينار ليشترى بها منصباً فى مجلس التشريع ويصبح ممثلاً للأمة . أن يبيع الأمة للمستعمر سياسياً واقتصادياً وثقافياً ليتقاضى مااستدان فى سبيل منصبه ، لأن راتبه البالغ خمسين ديناراً لايفى مجموعه فى سنه الأربع ثمن الدعاية بين الجدران وفى أنهار الصحف وعلى ألسنة الدجالين من خطباء ومهوشين . ويقول لى زعيم عربى كان يصطاف عندنا فى لبنان ، إذ قلت له : أأرشدك فى صحيفتى لانيابة ؟ فضحك وقال : ثمن النياية عندنا خمسة آلاف دينار يتقاسمها المتصرف ووزير الداخلية ومديرها ، وقد ينال مدير الشرطة شيئاً منها ، وانك لتعلم أن فى طوقى أن أفعل هذا وأدخل البرلمان ثم أخرج منه ساعة أشياء ، كما أدخل مسرح التمثيل فأرى بهلواناً يتنزى وأسمع أساطير تتردد ، ثم أحرم نفسى من مصيف لبنان وأرى أن يوماً واحداً أدخل فيه إلى السكنية والهدوء خبر لى ألف مرة من جحيم الصحراء ، أفلا أوفر على نفسى خمسة آلاف دينار تكفينى لمصيف خمسة أعوام ؟؟

وينقل لى شخص عربى فى قطر عربى آخر : أن الشرطى خارج العاصمة قد يبذل لمديره العام ألف دينار فى سبيل نقله إلى العاصمة ، لأن مورد الرشى من العاصمة أضعاف موردها من الأولوية والأرياف ، فاذا رشا الشرطى أمره بألف دينار فكم يكون دخله فى العام من وظيفته التى يتقاضى راتبه عنها عشرة دنانير فى الشهر ؟؟ إنها للأساة إنسانية كبرى هذه الأحداث التى تقع بين سمعنا وبصرنا ثم لا نتساءل وأنفسنا : كيف يعيش الفلاح والعامل والصانع والتاجر فى بلد يسيطر عليه مثل هؤلاء ؟؟ وكيف يتبلغون العيش سائغاً فى ظل حكم لا يقوم على أساس من الرحمة والعدل ؟؟

ويقول لى عربى مهاجر أثناء وجودى فى ولايات أمريكا المتحدة ، وهى أرقى بلاد العالم ، واسم هذا العربى محمد برجى ، يقول : لقد كفرت بالعدالة

في العالم وأن لها وجوداً ، إذ عملت في دوائر الأمن العام عشرين سنة أخلص ما أكون لبلاد أوتني واحتضنتني بعد تشردي وفقرى حتى إذا كانت سنة إحدى وثلاثين وصدر الأمر بتحريم البغاء والخمور كنت أشد زملائي قسوة في تنفيذ هذا الأمر لأنني مسلم أغار على ديني ولأنني أمريكي أحب وطني .

ويدهمني في إحدى ليالي الساهرة على الحكم أمر خطير إذ عثرت في إحدى الأدغال على رجل ثري يعيث بفتاة في سيارة مملوءة خمرآ ، فاحتفظت بهما في الجرم المشهود وتوسل إلي بالتخلي عنه لقاء خمسين ألف دولار كيلا تفتضح الفتاة وهي من أسرة نبيلة فأنكرت عليه الرشوة وهددته . فقال : انك لا تستطيع إلحاق أى ضرر بي ولكني لإشفاقاً عليك وعلى هذه الفتاة أن تنشر الصحف صورتها وهي مجرمة ، أنذرك بأن تتخلي عنا وتقبل هذه الهدية لقاء تخليك هذا » فلم أسمع له ولم أستجب لقوله حرصاً على واجبي واحتفاظاً بمحرمة القانون الذي أوتيت عليه ، ثم لم تصدر صحف ذلك الصباح إلا وصورة المجرمين تحتل صدورها ، وقد لقيت من أمرى كل تشجيع ومن الصحف كل إكبار .

وبمر بي بضعة أشهر وأنا على الرأس بما أتيت وإذا بي أفاجأ بطلب من المحكمة لدعوى جنائية أقيمت على من رجل مجهول لم أره ولم أسمع به ، وتستمر محاكمتي عاماً كاملاً أفرغت جهدي بمؤازرة من وثق بزاهتي من زملائي ورؤسائي ، أقول : لقد أفرغت كل ما استطعت لإعداده من قوى لدفع التهم عني فلم أفلح ، وكانت العاقبة أن جردت من وظيفتي ولبثت بضعة أشهر في السجن ثم خرجت منه كيوم ولدتي أي لا مال ولا جاه ، فكفرت بالإنسانية والعدالة والرحمة ، بعد عشرين عاماً أضعتها من حياتي إنساناً مخلصاً فلم أفد من إنسانيتي ولا إخلاصي . . . »

وهكذا أستطيع التلليل على عظمة محمد سيد العالم في قوله : إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الوضع أدانوه وإن سرق فيهم الرفيع تجاوزوا عنه ، وقول خليفته الإمام على : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه ... ذلك ما أحبيت أن أعلق به على الشق الأول من كلمة الإمام وهو ما يختص بالرشى ، وأما الشق الثاني وهو

قتداء المحكوم بالحاكم فيما يأتيه فيكفي أن أسوق للقارئ مدار في مجلس ضمني وثلة من أعيان العرب في ردهة فندق قصر الكندرة بمدينة جدة أيام زيارتي للأماكن المقدسة في شهر رجب من هذا العام ١٣٧٥

كان المجلس خليطاً من العرب سوريين ومصريين ولبنانيين وحجازيين ، وكان الحديث الذي دار النقاش حوله هو حديث العروبة والإسلام ، وقد كنت البادئ فيه بأن اختلاف مبادئنا وأهوائنا يعود إلى اختلاف مذاهبنا في تقرير ماضينا وتنشئة أبنائنا على هذا التقرير ، فما لم نتفق على تحرير الماضي لا يمكن لنا تحرير الحاضر لأن الإنسان وليد ماضيه قبل أن يكون وليد حاضره أو مستقبله ، وعلى الماضي نبني المستقبل والحاضر ، فالتراث في الدم قبل أن يكون في الأثر ، وأن خير كلمة يتداولها التاريخ عن ماضينا هي القول المأثور : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح به أولها »

وليس التراث الذي ينبغي لنا أن نبني عليه حاضرنا هو مسجداً في دمشق أو منارة في بغداد ، ولا هو قصرأ في الأندلس أو برجاً في سامراء ، ولكنه كما يعني الإمام مالك ، هو روح هذبا دين محمد وعقل صقله ناموسه الأكبر فجاء بما فتح على أيدينا الأمصار ونشر العلوم وبث العدالة ونصر الحق وخذل الباطل ، وشئ من هذا لم يكن في غير عهد الخلفاء الراشدين ثم بدأ ينحل ببدء العهد الأموي ، ولكن سيادة العرب في ذلك العصر كانت مدفوعة بقوة الاستمرار من العهد الإسلامي الأول على أيدي أعدائه من أمويين وعباسيين .

فعلينا أن نربي ناشئتنا بالرجوع إلى ناموس محمد فتغذيها بالقرآن وحده وبالسنن الصحيحة التي يختارها نفر صالح منا يدرس أسانيد الرواة ويعرضها على القرآن ثم يخرجها ناموساً نربي عليه أبنائنا دونما تأثر بالهالة القدسية التي نحيط بها كل من صاحب محمداً أو تبع أصحابه من بعده ، فأعجاذ محمد وعمر وأبي بكر وعلى لا تزال قائمة في صميم الحق لا غبار عليها ، وهكذا نستطيع أن نلحق بهم أمثال أبي ذر وعبد الله بن العباس وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي من أصحاب رسول الله الذين حفظوا عهده وساروا على نهجه ، فعلى هذا فقط ينبغي أن نقر أعجاذنا في عروبتنا وإسلامنا .

فاذا تعدينا ذلك في بعث أمجادنا ، إلى معاوية وعبد الملك والوليد والمأمون والرشد والسفاح والمنصور وغيرهم ممن أسسوا الملك العضوض أو ورثوه على غير نهج الخلفاء الراشدين ، كتنا مخالفين بذلك أمجادنا القائمة على ناموس محمد الذي شرع لنا هذه الأمجاد . ثم كتنا بعد ذلك مسيئين إلى أنفسنا باسائتنا إلى أعقابنا في التربية والتوجيه .

فتناول الحديث بعدى النائب السورى أكرم الحوراني فقال : ان مما لاشك فيه أن استقانا عزة الأمجاد والبطولة فينا من غير الخلفاء الراشدين بعد رسول الله هو خطأ محض ، وأن من الثابت لدى فيما أفقه من التاريخ أن معاوية قد انخرع عن الإسلام بما أتاه من أحداث ، فعلينا أن لانتأثر به وأن لانسمم أفكار الناشئة بالتوجيه إليه والتربية على نهجه ، ويصادق على قوله جميع من حضر إلا القائم بأعمال السفارة السورية وهو شاب حدث يدعى عبد الهادي إذ عارضه بقوله : ان سيدنا معاوية رضى الله عنه كان مثلاً أعلى في أمجاده لعروبتنا وإسلامنا ، ألم يكن من كتاب الوحي ومن العشرة المبشرين بالجنة ؟؟ « فساد الضحك أفواه المجلس حتى القهقهة ، وعجب هو فليحظ النائب مصطفى الزرقاء ، وكان إلى جنبه ، انه يعجب من ضحكهم فقال له : ليس معاوية من العشرة المبشرة » أما أنا فقد ضحككت بعد أن هدأوا وقلت ليس عجب القوم من نسبة السيد عبد الهادي معاوية إلى كتاب الوحي والعشرة المبشرين بالجنة فحسب ، وإنما ضحكهم على أن دعاية معاوية منذ أكثر من ألف عام لاتزال تفضل المسلمين حتى عهدنا الذي هو عهد تحرر وتفكير ، فليس من السهل أن نبقي على دعاية كاذبة لاتزال ألفاً وثلاثمائة عام تستخر أفكارنا وشبابنا المثقف وتتخذة مطية يركبها إبليس للحط من ناموس محمد والافتئات على أمجاده والكيد لسلطانه . وماذا يقول القائل في شاب بلغ رتبة وزير وهو مجهل تاريخه إلى حد اليقين بأن معاوية من كتاب الوحي ومن المبشرين بالجنة على لسان محمد ؟؟ ثم ماذا تقول نحن السوريين في عبوديتنا لمعاوية الذي جعلنا في حديثه مع العراقي صاحب البعير في سيرته المشهورة ، جعلنا لانفرق بين الجمل والناقة ، ولا يزال حتى اليوم يسود ألسنتنا المثل القائل : أعطه جملة ، والذي جند منا مائة ألف لحرب

على تركه للصلاة وقتله لعثمان ، والذي أثبت في نفوسنا ونفوس أبنائنا إلى يوم القيمة أن قاتل عمار بن ياسر إنما هو على الذي جاء به للقتال ، وأن يزيد خليفته من بعده يجب على المسلمين طاعته ، وأن أباه كان مأجوراً على عمله هذا مما فيه إعلان السب للخليفة رسول الله على المنابر بعد صلاة الجمعة إذ كان مجتهداً مخطئاً في رأيه فله أجر واحد .

على أن السيد الزرقاء أحب أن يكون الحكم بين المتناظرين فقال : أما معاوية فقد أخطأ وعلى هذا الحكم يجب أن نرى أبنائنا وأما على فليس من الحق أن ننسب إليه الاشتراك في قتل عثمان ولا أن نجعله في مصاف معاوية ، وفي يقيني أن طي هذه النوازع خير من نشرها لأن بسطها للبحث إثارة كوامن ونوازع في الصدور نحن في أمس الحاجة إلى كتبها والعمل معاً على الوحدة والتكاتف في وجه ما يدهمنا من بلاء »

أما أنا فقد ختمت الحديث بأنا نخطئ كثيراً إذا لم نحرر ماضيها على ضوء التفكير الحديث فتحرر ونحرر أبنائنا من بعدنا ، وإلا بقينا شيعاً تتجاذبنا سياآت الأجداد التي عملت في نفوسنا أكثر من حسناتهم ، والتي لا تزال إلى الآن تدفعنا إلى السلطان على نهج معاوية وأخلاقه دون أن نتأثر بعمر أو على فيما نقول ونفعل ، هذه سيرتي ، وهكذا سأربي أولادى وأقرر في نفوسهم أن كل سيئة من حاكم تخضع له رقابنا اليوم إنما هي وليدة تأثرنا بسياسة معاوية ومن نهج نهجه ، وأن الأرزاء التي تخلق بنا ، والمحن التي تتوالى علينا ، والعبودية التي تملك نفوسنا إنما هي وليدة السياسة التي قامت على الكذب والخداع والتضليل وهي السياسة التي سار عليها معاوية وأعقابها من بعده ، وهذا هو مصداق قول الإمام في كلمته هذه :

إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس من الحق فاشتروه ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » لقد نفشت الرشى في المحاكم إذ منعونا من الحق ، واقتدينا بالحكام حين أخذونا بالباطل ، وقديماً قيل وما زال يقال : الناس على دين ملوكهم ...

اللَّهُ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ
... وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ... إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

لقد تمثلت بهذه الآية وأنا مرتاع إذ مرت بي عبر وعظات مما أقرأ وأسمع ،
لقد تمثلت بهذه الآية إذ قرأت في نهج البلاغة للإمام علي قوله مخاطب عامله
على المدينة سهل بن حنيف ، وقد بلغه تسليلاً أهلها إلى معاوية ، قال :
« أما بعد فقد بلغني أن رجلاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية ، فلا تأسف
على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم ، فكفى لهم غيياً ولك منهم
شافياً ، فرارهم من الهدى والحق وإيضاعهم إلى العمى والجهل ، وإنما هم أهل
دنيا مقبلون عليها ومهطعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه ، وسمعوه ووعوه ،
وعلموا أن الناس عندنا في الخلق أسوة ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقاً »
قلت ونفسي ، : لم يتسلل أهل المدينة؟؟ وهم درع رسول الله وجصنه ،
إلى عدو رسول الله معاوية ، ويتركون صنو رسول الله وخليفته علي بن أبي
طالب؟؟ لم يتقاعس عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ،
وغيرهم من أقطاب الإسلام في مكة والمدينة؟؟ أقول : لم يتقاعس هؤلاء عن
نصرة علي فيستغل سواهم التقاعس عن نصرة الخليفة ، ويتخلون سكوتهم عن
معاوية وسيلة للتسلل إليه؟؟

أكان علي أقل بلاء في الإسلام على عهد رسول الله من صاحبيه أبي بكر
وعمر حتى اجتمعوا عليهما وتفرقوا عنه؟؟ أم كان أقل عدلاً منهما في الحكم ،
وبعداً عن الظلم في عهده حتى خذلوه ونصروا معاوية بن هند آكلة الأكباد.
يوم أحد ، وابن أبي سفيان الداخِل في الإسلام وشبح الموت بين عينيه يوم
الفتح الأكبر؟؟

قلت لنفسي : لماذا تقاعس هؤلاء عن نصرة علي يوم حرب الجمل وحرب
صفين ، ثم لم يتقاعسوا فحسب وإنما كان أكثرهم حرباً علي وعلى وإعراضاً عنه
وتنكراً له؟؟ أفلم يكن كتاب الله بين أيديهم وهو يملئ عليهم قوله عز من قائل :

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله »
 فن هي الطائفة الباغية يوم الجمل ، أطائفة الزبير وطلحة بعد أن نكثا بيعتهما أم طائفة على أول من أسلم لله مع رسوله وصدق رسالته ؟؟ ثم من هي الطائفة الباغية يوم صفين أطائفة معاوية الفاجر المارق أم طائفة على المحتسب الصابر . وفي صميم كل منهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويح عمار تقتله الفئة الباغية « فأية فئة قتلت عماراً ؟ أكانوا عمياً عن عمار وهو يكر على جيش معاوية ويقول :

نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله
 ضرباً يزيل الهام عن مقيله أو يرجع الحق إلى سبيله

فأية فئة باغية قتلت عماراً فيقاتلونها حتى تفيء إلى أمر الله ؟؟

أحسبوا تلك فتنة ففعلوا عن معالجتها ؟؟ إذن من يعالج الفتن إذا طغت في الأمة غير أعيانها ؟؟ وإذن من مخاطبه الله تعالى بقوله : فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ؟؟ وإذن لم يابعوا علياً ثم يزعمون أنه الخليفة الرابع ؟؟ أفحصحص لنا الحق بعد ألف وثلاثمائة عام بأن معاوية كان مخطئاً في حرب على وأن علياً كان على حق في مناهضة معاوية ، ولم يحصحص لهم ذلك الحق ولما يزل جسد محمد غضباً فهم ، ولما تزل كلماته ترن في آذانهم ، ولما يزل شخصه ماثلاً لأعينهم وقائماً في نفوسهم ؟؟

لقد كنت جد حاقد على أصحاب محمد وأنصاره في الحرمين إذ قرأت في السبر أنهم لم يتقاعسوا عن نصرة على فحسب وإنما تجاوزوا هذا التقاعس إلى التشكر لله ولرسوله بتكرهم لخليفة رسول الله وتسلمهم إلى معاوية الباغى ومروان الوزغ بن الوزغ ، استجابة لنفوسهم الصغيرة وتهالكاً على حطام الدنيا . وهكذا استمر حقدى على الصحابة والتابعين الذين تخلفوا عن نصرة على ، يتعزز حتى كان شخوص الحسين بن على إلى مناهضة يزيد بن معاوية في سبيل الرسالة التي أخذ الله على كل مسلم بعد رسول الله أن يحتفظ بها ويحرص عليها ، ألا وهي الإسلام ، هنالك شخص الحسين للدفاع المرعن تلك الرسالة فلم يستجب

له من الحرمين إلا أهله وأبناء عمومته وقليل من الأنصار لايزيدون على عشرين. شخصاً ، ثم يهيج نهج أهل المدينة في خذلان الحسين أهل العراق الذين دعوه لينصروه فخذلوه ، والذين أذاقوا أباه الأمرين في تخاذلهم عنه وتنازعهم فيه حتى فضل عليهم ، وهم حمة الحق ، أهل الشام وهم حمة الباطل ، أقول : . . لقد استمر حقدى يتعزز على الصحابة والتابعين في الحجاز والعراق والشام بتنكبهم عن طريق الحق وشخوصهم إلى الباطل في خذلهم علماً وابنه حسيناً ، ونصرهم معاوية وابنه يزيد ، حتى جاءت وقعة الحرة على المدينة أيام يزيد ، ونكبة عبد الملك على مكة أيام ابن الزبير ثم نكبة الحجاج على العراق أيام عبد الملك بن مروان ، فكانت هذه النيكات أقسى ما ينزله القضاء العادل في أمة تنكرت لمراسمها الحى الخالد واعتصمت بالكفر بعد الإيمان فألقى الله بأسها بيها على أيدي شرار خلقه من أمويين وعباسيين وعلويين ، حتى كانت الفاجعة الذين لايزالون يهيمون صرح الإسلام بأيدي مروان ومعاوية وابن العاص الذين فتحوا الباب الأول للفرقة في الدين ، والشقاق بين المسلمين والعصية للعنصر سم للقبيلة ثم للأسرة . وهكذا سيقى المسلمون والعرب نهب التنازع والشقاق ، وعرضة للحيث والجلور ، ومطمعاً للعدو الغاشم ، ما داموا يهجون في سلطانهم نهج مروان ومعاوية ، وما داموا يتحدثون عن رسالة محمد وعدل عمر وورع علي ثم لانجد في أعمالهم شيئاً من حكمة محمد ولا عدالة عمر ولا ورع علي أبي تراب ، وإنما يهجون نهج معاوية ومن خلف من أعقابه ، يتأثرونهم بالجلور عن الحق والانغماس في الباطل ، ثم نزعهم أنا أتباع محمد وحفظة كتابه ، وسدنة رسالته ، فلا تأس أيها القارئ إذا وقفت معى تجيل الفكر في مصدر هذه الفواجع وتمثلت بقوله عز من قائل : إن ربك بالمرصاد » نعم انه عز وعلا ، يعرف كيف يعاقب ويعرف كيف يثيب في الدنيا والآخرة .

لَيْسَ مِنْهُ مَنْ غَشَّ .

الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ .

محمد

هذان حديثان خليقان بصدورهما عن سيد الخلق محمد ، على الوجه الذي أعرضه للقارئ في صدر هذا البحث ، وقد روي بلفظ آخر هو : من غشنا فليس منا ، والمسلم من سلم المسلم من يده ولسانه « ولم أجد في هاتين الروايتين كرامة رسول الله إلى خلق الله ، إذ يلزم من صحة قوله : من غشنا فليس منا ، أن من غش سوانا قد يكون منا ، وهذا لا يليق بمحمد المبعوث للناس كافة ، أن يقبل في شيعته من يتعمد الغش لشيعته غيره .

ألم يقل دم الذي وعرضه وماله حرام على المسلم بغير حق ؟؟ إذن فكيف يجوز للمسلم أن يكون مسلماً وهو يغش الكتاني الذي هو غير مسلم ؟؟ ويلزم أيضاً من صحة قوله : المسلم من سلم المسلم من يده ولسانه ، أن يدخل في عداد المسلمين من آذى غير المسلم بيده أو لسانه وهو مسلم ، وهذا لا يليق بمحمد أيضاً وقد حجر على المسلم إيذاء غير المسلم إلا بحق ، على أن سمت المسلم وسلوكه في الناس واستقامته وتخلقه بأخلاق الإسلام التي هي المثل الأعلى للحي الكامل ، أقول : إن هذا السمت هو مفروض على المسلم ليكون بكل ما يصدر عنه وما يتحلى به داعية كبرى لدينه واعتناق رسالته .

يقول لي أحد المسلمين الهنود أيام زيارتي للهند في طريقي إلى جنوب أمريكا ، يقول لي ونحن نستعرض طغيان الكثرة الساحقة من الوثنيين على المسلمين ، وإقبال الهنود جميعاً على لغة السكسون بعد أن كادت لغاتها تنضوي تحت لغات الإسلام من تركية وعربية وفارسية . قال : ان المسلمين قديماً وردوا بلادنا فاتبعين لا مبشرين بدين وقد كان لهم الفتح الأعظم إذ سيطروا على العالم ، فلم يكونوا مبشرين بدينهم ولا دعاة لرسالتهم السماوية ، ولكنهم كانوا أكبر من ذلك ، إذ دعوا الهند لهذا الدين ولاعتناق رسالته بالمزايا التي أدب محمد بها نفوسهم ، فكانوا مثلاً علينا تحت سمائنا بحسن المعاملة في صدق الحديث ، وأداء الأمانة ،

وفاء الوعد ، فى نشر العلم ، وتوجيه الفكر ، ونظافة البزة ، وطيب الأحذوثة من أجل ذلك دخل الناس فى دينهم أفواجا .

أما اليوم ، وقد دالت دولة الأخلاق فيهم ، ونسوا ما ذكروا به فى كتاب ربهم وعلى لسان نبهم فأصبحوا شيعاً متنازين ، وأذلاء صاغرين ، وجهلاء مستعبدين ، وعاد الغربى النابه يغزونا بمثل ما كانوا يغزوننا به ، من عقول نيرة ، وأفكار حية ، وقوة لا قبل للشرق بها ، فغمر الآفاق بروائع ما يبدع من مكتشفاته فى علومه وفنونه ، وأمدنا بمحضارته ، فكان من البديهي أن يحل فى نفوسنا محل المسلم الأول ، وأن يتضاءل فيها شبح المسلم الآخر .

لقد أقبل الهندى آنذاك على دين العرب ، ولغة العرب ، وأخلاق العرب ، حتى كاد هذا السواد الأعظم يستحيل بلونه وطعمه إلى عروبة وإلى إسلام ، حيث كان المسلم التاجر لا يغش تجارته ، وحيث كان المسلم الصانع لا يغش صناعته ، وحيث كان المسلم الزارع لا يغش زراعته ، وحيث كان المسلم أياً كان عمله ، مخلص فى عمله .

أما اليوم فقد تحوّل هذه الميزات من المسلم العريق فينا إلى الكافر المسيطر علينا فانقادت له الأمور ، واستجابت له النفوس ، وبث فينا رسالة التبشير بدينه فصديقناه وآمناء به ، وأصبحنا نرى الحياة السامية لوناً من ألوانه ، وشكلاً من أشكاله ، وروحنا نتسابق فى اعتناق دينه ، ودرس لغته ، وتقليده فى حركاته وسكناته . ويتقل لى أحد الفلسطينيين قبل أن يحتل اليهود وطنهم قال : لقد صممنا ، عندما شعرنا بأن اليهود سيملكون أمرنا ، على أن نقاطعهم اقتصادياً ، وكان كل ما يغمر أسواقنا هو من صنائعهم فى اللباس والأثاث ، وما تقوم عليه الحياة من مصانع ومن مناسج ومزارع . فعمدنا أول الأمر إلى الاتصال باخواننا من تجار سوريا للأقمشة . وفاوضناهم على أن نستمد حاجتنا من نسجهم وفاكهتهم ، وألبانهم وأجبانهم ، وزبدتهم وسمنهم ، على أن يكون إخلاص المسلم العربى رائد البائع منا والشارى .

وشد ما خاب الأمل ، وأخفق السعى إذ كان الوسق الأول يغمر أسواقنا من البز الواهن الواهى ، لا يثبت لونه حتى فى الظل ، ولا يستقيم نسجه حتى

على المشاجب ، وأما الأسبان والأجبان والألبان فكانت فضيحة المسلم عند اليهودى والسكسونى ، بينما ذكرت الصحف منذ قريب : أن بضاعة ألمانية وردت إلى بيروت زائفة اللون فأقام المستورد على المورد دعوى الغش فكان جزاء المدير الأول للمصنع الإعدام ، أما المصدرون لنا من دمشق قلب العروبة والإسلام فلم يجيبوا بأكثر من أن التجارة حرب قائمة على الخديعة والمكر « ويقول لى شاب مغربى ، كان رقيقاً لى وأنا أجتاز بلاده الجزائر فى طريقى إلى جنوب أمريكا ، قال لى وقد سألته عن دينه فأجاب : نصرانى والحمد لله ، ثم سألته عن اسمه فقال : أبو الحسن ، فأظهرت عجبى وقلت له : ان اسمك يشير إلى إسلامك فقال نعم ان أبى كان مسلماً ولكن الله أنقذنى من هذا العنصر القذر المنحط ، فقلت له : وكيف ؟؟ قال : ان المسلمين فى الجزائر لا يختلفون عن الوحوش يأكل بعضهم بعضاً ، وأما لباسهم فغاية فى القذارة وحياتهم كلها قائمة على الدس والغش والتضليل بخلاف النصارى ، فان النظافة والرقى والصدق والأمانة تكاد تكون وفقاً على حياتهم « ثم قال :

على أنى سمعت أن فى تونس قوماً عرباً تسود حياتهم النظافة فى المأكل والملبس ، ويشيع فيهم الإخلاص إذ يقولون أو يفعلون ، كالنصارى عندنا فى الجزائر ، وقد عرفت فيما بعد أن هؤلاء العرب هم مسلمون فعجبت لذلك ، وقلت : لعل المسلمين أجتناس ، وأشياع كالنصارى عندنا منهم الأرثوذكس ومنهم الكاثوليك ومنهم البروتستانت ، بعضهم راق وبعضهم منحط ، وأحمد الله أن النصارى كلهم نظيفون على وجه الإجمال ، ولكن المسلمين عندنا تم قطب حاجبيه ومط شفتيه واستدبرنى مودعاً وهو يقول : إلى اللقاء .

هكذا نستطيع أن نصل من هذه الأحداث إلى العلل والأسباب فى تقهقر المسلمين أخيراً بعد تقدمهم أولاً ، وأن هذه العلل وتلك الأسباب فى التأخر والتقدم عائدة للاعتصام بالجواهر من الدين فى الأولين ، وإلى التمسك بالزائف منه فى الآخرين ، إذ ساد فيهم الجهل فحولهم عن فقه الحقيقة ، وقصرهم على الجدل والنقاش الآخذ بهم إلى النزاع والتناوب ، وحال بينهم وبين الوصول إلى الحق ، إمعان فى اتباع الهوى ، وتضليل ممن دخل الإسلام ليفسد فيه ،

بينما كان علو الإسلام يجمع في جوهر الإسلام درساً وبحناً ليأخذ منه ما يصلح لحياته ويتخذة سلاحاً يقيمنا به ،

فعزز فينا هذا العدو عجمي الفقيه الجاهل ، وهوى الفقيه الملحد ، وأسس فينا معاهد للتبشير تعمل على إفساد العقائد في النشء منا حتى عاد الإسلام غريباً كما بدئ غريباً ، وأصبح في قرارة الضمائر من نفوسنا أن التجارة حرب وأن الصناعة حرب ، وأن الزراعة حرب ، يسوغ للتاجر والصانع والزارع فيها ما يسوغ للمحارب في التغلب على خصمه ، من خدعة وتضليل وغش وكيد . ولقد نشطت بنفسي وأنا في بغداد ، أقطع شارع الرشيد الذي يحترق المدينة أنشد كوباً من اللبن الخالص لم يشبه ماء فكان كل لبان يصارحني بأن لبنه مغشوش ، وأن اللبن الخالص لا يوجد إلا في ضرع اللبون ، يقول لي ذلك دون أن يحذر جزاء من قانون ولا وازعاً من دين .

وفي مصر ، وقفت على بائع بطيخ يضمن للشارى حمرة جوفه وحلاوته ، فساومته على ثلاث وحدات شريطة أن يشقها وأرى بنفسى حمرتها ، وكان الأمر كذلك ، فإذا بجوفها أحمر كالدم وأنفت أن أذوقها معتمداً على اللون الذي قلما يخطئ الحلاء إذا كان أحمر ، ولما حاولت إخراج لها ووضعها على المائدة إذا نى أرى أجواف الوحدات كلها بيضا إلا موضع سكن البائع الذي صبغ السكن قبل أن يشق الوحدات لي بأسلوب فنى لم أصل إلى فقهه بعد . ويقول لي صديق سورى : إنه اشترى تفاحاً من بائع ونقاه بنفسه كيلا يمتنى بالغش ثم وزنه ونقده الثمن ، وكان قد وضع البائع هذا التفاح في كيس من الورق ، فاستلمه الشارى وودع ، ولما أفرغه على المائدة إذا هو يرتقال .

وفي بلدى الذى أعيش فيه ، بائع لبن مسلم وامرأته مسلمة صحيحا الإسلام يبيعان اللبن من مواشيهما ، ويفشانه بالماء ثم لا ينكران ذلك مدعين أنهما يبيعان الشارى رأى عينه دون أن يضمنا له خلوص الحليب ، زاعمين أن الصراحة في الغش ليست غشاً ، وهكذا لو شئت أن اعدد ما آل إليه المسلمون في انهيارهم وترديهم من وراء امتنانهم لرسالة نبيهم ، وتهاونهم بتطبيق هذه الرسالة على حياتهم ، لأعوزنى طوامير بما أجبر وأحرر .

لَا تُحَدِّثُ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى
بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدُّ عَلَى النَّاسِ كُلِّ مَا حَدَّثُوكَ
بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .

على

في كلام الناس حق وباطل ، وفيه صدق وكذب ، لأن العصمة تكاد تكون مفقودة في الناس من أجل ذلك كان كل من الحق والباطل والصدق والكذب والعلم والجهل والخير والشر ، جائزاً على الإنسان فيما يقول ويفعل . فما هو ميزان ذلك لديك وأنت مدني بطبعك ، أي مفروض عليك صحبة الناس ، ومشاركتهم في الحياة ؟؟

الميزان هو العقل الذي تسمع به قول أخيك الإنسان ، والذي تقول به ليسمعتك هو ، فعلى مقدار النضج في هذا العقل يكون صدقك وأنت تقول وتصديقك وأنت تسمع ، لهذا وذاك يجب عليك أن تعقل ما تسمع أو تقول فراراً من الكذب فيما تتحدث به عن الناس ، ومن الجهل فيما ترد عليهم ما يتحدثون به إليك .

ذلك ما أردت أن أشير إليه في سياق هذه الكلمة الحكيمة من كلام إمام اليلغاء، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين يقول : إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ورأيتم أنه قريب منكم فأنأ أولى منكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكروه قلوبكم ورأيتم أنه بعيد عنكم فأنأ أبعد منكم عنه « كما مر معنا في مطلع هذا السفر ، أقول : إن النبي إذ يقول ذلك فأنما يعنى تحكيم العقل فيما تسمع الأذن من قبول أو رد .

على أن شيئاً ينبغي أن يقال في توجيه الكذب الذي يحذر منه الإمام بكلمته تلك من يتحدث بكل ما يسمع ، وتوجيه الجهل الذي تحذر منه الراد على كل متحدث ، ذلك الشيء الذي أحب أن أقوله هو أن الإمام لا يعنى الإطلاق في

- ١٠٧ -

حكمه بالكذب والجهل على المتحدث والمنكر ، وإنما يعنى الغلبة فى حدود المنطق ، مثلاً :

قد تحدث الناس بكل ما سمعت لتصنوع من تتحدث عنه إلى الناس تصويراً صحيحاً بن يدى الحكم عليه أوله ، كما يصور القرآن لنا حياة الأجيال وعقوبها فى تاريخها السحيق لا لمجرد التصوير أو القصص ولكن للبرة والعظة بما يعرض للحى من تطور نعقل منه ما أمكن بعقله ونترك ما لا يمكن للأجيال المقبلة لأن القرآن لم ينزل لجيلنا وحده وإنما هو ناموس إنسانى ما بقى الإنسان . . . وقد ترد على المتحدث كل ما تسمع منه لا لأنك تجهل ما يقول كله أو بعضه ، وإنما ترد عليه ذلك لتشعره أو تشعر من يستمع إلى حديثه معك أنه ليس بأهل لأن يتحدث ولو صدق فيما يتحدث به ، وأن كثيراً من المناقذين يتعمدون صدق الحديث ليسترعوا انتباه السامع فيدسوا خلال الحديث الصادق أو بعده ما يضلونه به . .

فليس حديث من تحدث بكل ما سمع معرضاً للكذب على إطلاقه ، ولا رد من أنكر على المتحدث كل ما قال معرضاً للجهل على إطلاقه كما نفهم من قول الإمام ، وإنما يتوجه ذلك إلى من يتحدث بكل ما سمع أو يرد على مخاطبه كل حديث فيما إذا لم يكن هدف المتحدث والرد مطويماً على سر من أسرار البلاغة فى البيان .

فقد قيل : إن العلامة المجلسى صاحب الموسوعة العظمى « البحار » قد سجل فيها أحداث العالم على السبى المؤرخين منذ آدم حتى عصر المؤلف ، ولم يكن صاحب « البحار » هذا ليتحاشى فى نقله كل ما سمع أو قرأ ، أى حدث جاوز العقل فى إمكانه ، واستعصى على الفكر تعليله وتحليله ، وشق على القلب تصديقه والإيمان به ، وقد قيل فى الاعتبار عنه : إنه يسوق الأحداث العالمية كما سمعها أو نقلها ويترك الحكم على إمكانها أو استحالتها للأجيال ، وأن تطور العقل الإنسانى زعيم بتمحيص الحقائق على التاريخ ، وأن لكل جيل عقلاً يفكر ويبدع ، فقد يكون ما أراه مبسجلاً فى جيل ، ممكناً فى الجيل الذى يلى . ولعل الإمام ، إذ قال ذاك ، يلحظ قول سيده محمد : خاطبوا الناس على

قدر عقولهم » وعلى هذا بنى البلغاء قولهم في تعريف البلاغة وأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال « فقد يكون كاذباً من نقل مالا يحتمله عقل من ينقل له ، وإن كان في الواقع محتمل الوقوع ، لأن الصدق هو مطابقة القول للواقع الراهن لا للواقع المرجو أو المتخيل أو الممكن الوقوع ولكنه لم يقع .

فمن تحدث للسامع قبل مائة عام بكل ما سمع حتى خيالات « ألف ليلة وليلة » كان في الواقع كاذباً حتماً لأن العقل السامع آنذاك لا يصدق إمكان الطيران للإنسان ، ثم تمكنه من السحر واستحضار الجان واستخدام الروح ونحو ذلك ، ولكن هذا المتحدث غير كاذب فيما يتوقع هو أو سامعه لو فكرا في تطور الفكر وإمكان ما يستحيل عليه في مستقبله قريباً كان أو بعيداً .

وهكذا نستطيع القول : إن الجهل كائن في من يرد كل حديث يعيه ممن يتحدث إليه به ، لأن عدم قبول كل حديث يشعر بأن السامع قاصر الفهم ضعيف التفكير ، فليس بمعقول أن يتحدث إليه الناس جميعاً بما لا يحتمل الصدق ولو على جهة المجاز ، وليس بعيداً على بعض الناس أن يكون مصداق ما يقوله الإمام تعتناً لا جهلاً ، فقد رأينا كثيراً من الناس الذين دأبوا على رد كل حديث لا لأنهم يجهلون ما يقال ولكن ليصدق عليهم المثل القائل : خالف تعرف » وذلك ما أسماه المتكلمون بالجدل العقيم ...

يريد الإمام ممن يتحدث عن الناس أن يعقل فيما يرويه ويلحظ قبل نقله عنهم إمكان صدوره أو استحالته ، فإن الناس أخلط فيما يقولون ، منهم الصادق الأمين ومنهم الكاذب الخائن ولذلك جاء الكتاب الكريم مشحوناً بالنكير واللعن على كل كاذب ، وبالوعيد والتهديد لكل أفاك .

كما يريد الإمام من السامع أن يخلص في رد المتحدث إليه قبل الحكم عليه ، فإن الناس إنما وهبوا نعمة الكلام ليتفاهموا ، فإذا ساد الكذب من يتحدث ، وساد السامع تكذيب مطلق أو تصديق مطلق ، فقد الإنسان حكمة القول وساد الفساد في الناس .

لقد صدق الإمام حيث قال : لا تتحدث إلى الناس بكل ما سمعت فإن في ذلك كذباً ، ولا ترد كل ما تحدثوا به إليك فإن في ذلك جهلاً .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَا
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا .

الله

يجب أن يدفع العامل إلى عمله ليستقيم ، أمران : العقيدة في أن ما يأتيه من عمل هو حق يجب عليه اتيانه ، والإخلاص في إتيان ذلك العمل على أتم وجه يستطيع القيام به ، ذلك هو الإيمان ، عقيدة وإخلاص ، فقد يصدر العمل عن غير إيمان ، ثم يكون عملاً صالحاً ولكنه لا يستقيم لأن اليد التي بعثته غير مختارة في بعثه ، وإنما هي مسيرة به ومكرهة عليه ، لا تلبث أن تسبى إليه عندما يترشح عنها كابوس الضغط الجاثم على مصدر الإيحاء به ألا وهو القلب .

كلنا يزهد في عمل العامل إذا لم يكن مدفوعاً إلى عمله بإخلاصه لمن يعمل له ، فالسيد لا يطمئن إلى عمل العبد وهو مكره مهما صلح عمله ، لأنه يخشى أن يفسد عمله إذا تحرر فيعود عليه بالظلم والهضم الناشئين عن فساد العمل ، والله تعالى ، إنما وهب العبد صفة الاختيار فيما يفعل ليصدر عمله عن إيمان بأنه حتى يلزمه عمله ، فيطمئن إلى الحكمة من ورائه وسمو الغاية فيه ، وإلا كان كالحيوان المسير في عمله لا عقل وراءه إلا فيمن يسيره ، فاذا شذ ألب السوط ظهره فكان عرضة للظلم والهضم .

ففي هذه الآية الكريمة وما يتبعها من آيات الحث على العمل الصالح مقرونين بالإيمان ، أو الحفز على الإيمان مقرونين بالعمل الصالح ، حتى لا يكاد يرد أحدهما إلا مشفوعاً بالآخر ، أقول : في هذه الآيات أصل قيم من أصول التربية الإنسانية في هذا المخلوق القائم على ملكة الفكر فيما يختار ، لا على الجبر والإكراه فيما يعمل .

من أجل هذا كانت العقيدة والإخلاص سبباً أول في استقامة العمل الصالح ما قامت في العامل حياة ، ومن أجل هذا كانت ملكة الإقناع في الداعي والموجه سبباً أول في حمل المدعو على إحكام عمله وإتقانه واستقامته متقناً محكماً ، فالأب

لا يفلح في تربية أولاده على الفضيلة ما لم يحرز ملكة الإقناع في التوجيه ليطمئن الولد إلى صحة ما يدعوه إليه مربيه ، والأستاذ لا يفلح في تثقيف تلاميذه ما لم يتوفر على إقناعهم بصلاح ما يغذى أفكارهم به من علوم وفنون ، وهكذا نستطيع القول في أن كل راع مسئول عن رعيته بالإقناع من وراء ذلك التوجيه .

فما أشق وأقسى على الولد أو التلميذ أو العبد أن يخضع لأمر أبيه أو معلمه أو سيده ، وهو غير مقتنع بصحة أو صلاح ما يأتيه من عمل يدعو إليه أو حملوه عليه ، إني وأنا الآن في العقد السادس من حياتي لأزال أنفر من كلمة « تعبد » التي يسود التعليل بها كثيراً من أحكام الفقه ، أنا لأفهم الخضوع حتى لخالقي تعبداً وهو القائل : لا إكراه في الدين ، إنه جلت عظمته جعلنا مختارين فكيف يكرهنا على إتيان عمل لا نفقه الحكمة من إتيانه ؟؟

ولا أزال أنفر من كلمة « اعتباط » التي كان يصبدع سمعي بها أستاذي في علم النحو وهو يشرح لنا القواعد ويعلل بعض نواميس اللغة فإذا أعوزته العلة في بعض أحكامها قال : إنما كان ذلك اعتباطاً ، ولا أزال إلى اليوم أمقت هذه الكلمة لأن معناها بلا معنى ، وهكذا كنت ولا أزال أحمل كل حقد وأصبر كل إساءة لكل من يكرهني على عمل لم يقنعني بصلاحيه حتى يصدر عني وأنا مؤمن به ومطمئن إليه .

فالإيمان بغير عمل صالح أو العمل الصالح بلا إيمان هو عبث أو يؤل إلى عبث ، فليس لي أن أعمل بغير إيمان في صلاح ما أعمل إلا أن أكون سفهاً أو عابثاً ، وليس لي أن أؤمن ثم لا أعمل صالحاً ، إلا أن يكون إيماني إيمان العجائز ، ومن هنا نشأ فضل المجتهد على المقلد وأنه مأجور فيما يعمل ولو أخطأ ، لأن عمل المجتهد قائم على العقيدة والرأي ثم الإخلاص فيما يرى ويعتقد والإخلاص فيما يعمل من وراء ذلك الرأي .

كم نالني ظلم وأنا أعمل طائشاً دونما عقيدة تدفعني إلى العمل ، وكم عصفت بي هضم وأنا أؤمن ثم أتواكل أو أعمل دون أن أجعل إيماني رائد عملي ، إن المؤمن بما يقول أو يعقل هو الإنسان سواء أخطأ أو أصاب ، أما إذا أصاب ولم يخطئ

فهو ملاك هبط لتوجيه الإنسان إلى الحق ثم الصعود به من حضيض المادة إلى سماء العقل .

على أن الاجتهاد في الرأي إنما يوجب عليه العالم إذا أخطأ ، فشرط بأن لا يخالف الحق الصراح في إجماع أهل الرأي ، ولهذا أثبت الفقهاء أن لا اجتهاد في مورد النص « أى أن ما ثبت في الكتاب أو السنة الصحيحة أو إجماع أهل العلم لا يتأثر باجتهاد ، فالفقيه إنما يتوفر على اجتهاده فيما يعمل إذا عترضته الشبه وأخطأه الدليل فاعتصم بالعقل ، فليس المأجور من اجتهد فيما يخالف النص أو الإجماع ، ولكنه من اجتهد فيما لم يرد فيه إجماع ولا نص ، من أجل ذلك حكم أئمة الفقه الأعلون أن معاوية في اجتهاده بالثورة على إمام زمانه لم يكن مخطئاً ولكنه كان كافراً لأنه خالف نص الكتاب والسنة وإجماع أهل الرأي من أئمة الإسلام لذلك كان على مصيباً في محاربته ولعنه وكان هو مجزماً في لعن على وحر به .

إِنَّا لَا يَجْتَمِعَانِ : الْغِنَى وَالزَّانَا
بَشَرِ الزَّانِي بِالْفَقْرِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ

محمّد

أحسب أن المفترى على رسول الله في هذه الكلمة، هو من المتصوفة الذين لا يرون في الحياة إلا الزهد والورع والعزوف عن الدنيا ، أو أنه من الاشتراكيين الذين لا يرون الحياة إلا شركة بين أهلها ، لا غنى ولا فقير ثم لا سيد ولا مسود ، وكلا هذين ينكر الغنى أو يتنكر له فيدعو ضده حتى بالفرية على الدين .

كان أني يتحدث إلى أيضاً بمثل هذا مما يفترى الجهلة أو المارقة على رسول الله ثم يبعثونها في صلب التاريخ سنة يشيب عليها الكبير ويهرم الصغير فروى لي قول القائل مرفوعاً إلى الرسول الأعظم : بشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر ولو بعد حين « ما هذا ؟؟ ومن يروى هذا ؟؟ وأى عقل يقبل هذا ؟؟

لقد زرت أمريكا وأوروبا وأفريقيا وآسيا وتغلغلت في الجماعات من هؤلاء ، ثم أمعنت في التعرف إلى الوجوه والألوان في شعوب تلك الأصقاع ثم شاركهم في كثير من حياتهم ، فوجدت أن تسعين في المئة من أغنيائهم ويكاد بعض هذه الشعوب يستحيل غناء ، كالأوروبيين والأمريكيين ، لقد وجدت الأكثرية الساحقة من هؤلاء الأغنياء يحبون زناة وهم أغنياء ، ويموتون أغنياء وهم زناة ، فكيف لا يجتمع الغنى والزنا ؟؟

ولقد تغلغلت في الشعوب الأفريقية والآسيوية وثنيتين وغير وثنيتين فوجدت سوادهم الأعظم يحبون فقراء وهم زناة ، ويموتون زناة وهم فقراء ، فلم يكن الزنا في أولئك ليحبب إليهم الفقر ، ثم لم يكن الفقر في هؤلاء ليمنعهم من الزنا . فليس الغنى أو الفقر مصدراً لفساد الإنسان أو صلاحه ، ولا الزنا أو العفاف مصدراً للفقر أو الغنى .

على أن الغنى وحده أو الفقر وحده ، قد يكون مدعاة للفساد ، أما الأول فلأن النعمة تبطر وتستجيب للشهوات إذا لم يعصم الدين أو القانون ذوى النعمة من البغى والاسترسال في العبث واللهو ، وأما الثاني فلأن الفاقة والعوز يضغطان

النفس حتى تظلم فيكفهر وجه الحياة ويستولى القنوط عليها حتى تشد وتثور إذا لم يعصم الدين أو القانون ذوى الفاقة من اليأس والقنوط ثم الكفر ، فالزنى ليس وقفاً على الغنى ومجلبة للفقير ، كما أن العفاف ليس وقفاً على الفقر ومجلبة للغنى .

والدين من حيث هو دين لا يختص بغنى ولا فقر ، كما أن الكفر ليس مصدرأً لواحد منهما ، ولكن الدين يضمن لأهله العزة فى الحياة ، وهذه العزة ليست وقفاً على المال ، فكم رأينا فقيراً يعتز بفقره حتى تضرب به الأمثال ، وكم رأينا غنياً يتهالك بغناه حتى تسلبه الذلة معنى الإنسانية ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأين الإيمان منا ؟؟ أهو فى أوساط الناس أم فى ذوى القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ؟؟

فالدين ليس وقفاً على فقر ولا غنى ، كما أن الكفر ليس مسيئاً عن غنى ولا فقر ، ولكن الدين جوهر فى النفس يعصمها إذا أثرت من التهافت ، ويصونها إذا افتقرت من الجزع ثم يحملها على الصبر ، لذلك كان الإيمان الذى هو جوهر الدين ، شكراً فى الغنى وصبراً على الفقر ، فعلى مقدار ما تبلغ رضى الله بغناك وأنت شاكر ، تبلغ رضاه بفقرك وأنت صابر ، والشكر فى الغنى هو رعاية المال بالكسب والانفاق ، والصبر على الفقر هو القناعة بما فى اليد والورع عما فى غيرها ، فلا فقر فى زنا ، ولا عفة فى غنى ، كما أنه لا عز فى مال ولا ذل فى عوز .

وما أحب إلىّ هنا أن استطرد من الزنا والغنى إلى العز والذل إذ تتداول الألسنة كلمة تقول : لا عز فى فقر ولا ذل فى غنى ، يحسبونها حديثاً مأثوراً أو شبه حديث ، وهى أبعد ما تكون عن حكمة محمد .

فلقد قرأت فى سير الأبطال : أن أبا ذر كان يواخى زميلاً له فى صحبة رسول الله ، فكانا مشتركين فى حياة قوامها التقوى والفقر والورع ، ولما انتقل خليلهما رسول الله إلى الرفيق الأعلى افترقا حتى إذا كان عهد عمر أو عثمان إذا بأبى ذر ينحدر فى حياته إلى التراب ، وإذا بصاحبه يصعد إلى تولى الحكم فى البصرة ، ويشاء الله أن ينفى عثمان أبا ذر إلى الشام فلا يزيده انتشاريد إلا

إيماناً بنقمة على الخليفة الأموي ثم لم يزد له إغراء معاوية بالمال إلا زهداً فيه وعزواً عنه .

ويشاء الله مرة أخرى أن يمر بأبي ذر وهو في منفاه مسافر إلى البصرة يستوصيه فقال له أبو ذر : قل لفلان ، يعني أليفه أيام البؤس والذي ولي الحكم لعثمان فما بعد ، قال قل له : أنت في سلطانتك ونحن لا نزال نأكل الشعر ونفترش الأرض ثم نعيش كما تعيش ، قيل : عندما بلغه الرسول ذلك خر مغشياً عليه ، ولقد فارق أبو ذر حياته في منفاه خميص البطن عارى الجسد تصهره الشمس وتلفحه الرمضاء ، وهو أعز على الله والناس من خليفة زمانه ، بينما روح معاوية الذي آذى أبا ذر لا تزال ذليلة في قبره حتى اليوم .

والعجب من هؤلاء الحمقى الذين يحسبون عزة الإنسان بماله أو سلطانه اللذين يخولانه تعالى على غيره ، بينما نراه عبداً قنأاً لها ، فليس العزيز في الناس من يتعالى على غيره بغير حق . ولا الدليل في الناس من يخضع لغيره بحق ، وإنما العزيز من لا يدل إلا بين يدي الحق ، وأما الدليل فهو من صغرت نفسه فاستترقه بين يدي شهواته حتى أصبح ذليلاً في سره وإن كان عزيزاً في علته .

يقول الله تعالى في وصف الصالحين من عباده : أعزة على الكفار أذلة على المؤمنين « وفي وصف غيرهم : أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين » ويقول الإمام علي : عبد الشهوة أذل من عبد الرق « فليس الذل أن أتواضع لك أو أن تتواضع لي ، ولا العز أن تتعالى علي أو أتعالى عليك ، وإنما هما وصف نسبي في الإنسان يدور مدار الهدف الذي يعمل له والغاية التي من أجلها كان ، فرب ذليل عزيز ، وكم من عزيز أذل في نظر الحق من الذل .

أعرف أناساً على عهد الأفرنسيين في سوريا ولبنان كانوا إذا دخلوا على الأجنبي المستعمر يقبلون يده ويقدمون له مناط أعراضهم من بنات وأزواج ثم هم يطلبون مثل ذلك ممن يحكمونه في الشعب ، وليس ذلك قاصراً على هؤلاء ، فإن النفوس الخسيسة والأرواح الواطئة ليست وقفاً على العهد الأفرنسي ، وإنما هي قائمة في نفوس حكامنا وزعمائنا منذ صدر الإسلام حتى اليوم ، وإنما سن فيهم هذه السنة الحكم بن العاص وابنه مروان اللذان أطلق عليهما رسول الله

لقب : الوزغ بن الوزغ ، ثم أبو سفيان وأبناؤه من بعده الذين خاطبهم رسول الله يوم الفتح إذ دخلوا في الإسلام كرهاً وجاؤه أذلاء يستشفعون له بعمه العباس فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء »

فالعاص وأبوسفيان وأبناؤهما الذين تحكموا في رقاب الأمة العربية والشعوب الإسلامية باسم الدين كانوا عبيداً لشهواتهم ومتعاليين على الناس ، ثم سنوا للعالم كافة هذه السنة اللعينة حتى أصبح النفاق والخداع والكذب والرياء من مقومات السياسة في العالم كله بله المسلمين الذين هيمنوا على العالم باسم محمد وأبي بكر وعمر وعلى ، واسم هؤلاء أسمى وأرفع من أن يدنسه رياء أو كذب أو تضليل . فليس الزنا سبباً للفقر أولاً ، كما أنه ليس مدعاة للذل أخيراً ، وليس الغنى مصدراً للعز أولاً كما أنه ليس وقفاً على الفساد أخيراً ، فقد يكون الفقر ذلاً كما قد يكون الغنى عزاً ، وقد نرى العز قابلاً على الفقر كما نرى الذل في صميم الغنى ، كل هذا شيء ، والدين شيء آخر ، فما هو الدين إذن ؟؟ إن الدين روح نسمو به عن مستوى الحيوانات الدنيا ويدنو بنا من الملكوت الأعلى .

مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ
عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلَّمُوا

عَلَى

كنت ، وأنا صبي في الثامنة من سني حياتي ، أزور مع زملائي في الدراسة الأولى ، قرية مجاورة لقريتنا ، يقطنها نصارى تدعى « تُول » فيحتفي بنا الصبية من أبنائها ، وكنا نسألهم عن دراستهم بماذا ، إذ كنا نبدأ دراستنا بالقرآن ونمكث في الكتاب سنين ريثما ننهي قراءة القرآن ثم لانحسن قراءة غيره حتى نستأنف الدراسة من جديد .

كنا نحسب أنهم يبدأون دراستهم الأولى بالإنجيل فاذا بهم يبدأونها بكراس لا يزيد على بضع صحائف يكتبها لهم قسيس البلدة ، ويفرغون منها بأقل من شهر فاذا بهم يقرأون ويكتبون في أى كتاب أو صحيفة ، فكنت شديد العجب من أمرين : سرعة تعلمهم القراءة والكتابة ، وكون معلمهم قسيس القرية الذي هو بمنزلة فقيه البلدة عندنا ، وهو في نظرنا أجل وأعظم من أن يتنازل لتعليم الصبية أو تثقيفهم ، وإنما يوكل أمر تدريسنا القرآن والكتابة لمعلم لا يتجاوز في مؤهلاته للتدريس أكثر من أنه يقرأ ويكتب ، ثم يضع فوق رأسه عمة بيضاء تشير إلى مهنته .

فأتساءل ونفسي : لم يقوم قسيس البلدة عند النصارى على تثقيف الصبية نهاره وعلى تبصير آبائهم بدينهم ليله ، ثم لا يتنازل فقيه القرية عندنا لتثقيفنا مع إرشاد آبائنا ، ويكل أمرنا إلى نصف جاهل نقطع تحت سياطه السنين في سبيل القراءة والكتابة ، بينما هؤلاء الصبية من أبناء النصارى يقطعون شوطنا خلال شهر أو أشهر ؟؟

كنت حقاً أتمنى لو أدرس دراستهم فأسرع في تعلمي ، كما كنت أستصغر القسس في امتحانهم تعليم الصبية لما قر في نفسي من حقارة هذه المهنة ، وكان الأولى بي أن أعجب من تعالي فقهائنا على تعليمنا ، وهم أرنى هيبة في صدورنا وقولهم أعمق أثراً في نفوسنا ، إذن لكنا بذلك أسرع من زملائنا النصارى في

إتقان القراءة والكتابة وإعداد أنفسنا خلال أشهر للمدارس النظامية في «البنطية» حاضرة القرى من وطني الأول جبل عامل في جنوب لبنان .

لقد حز في نفسي منذئذ ، أن أولئك الفقهاء الذين يهيمون على القرى ، بروحانياتهم ، كانوا لا يعبأون بالكتاتيب ، ولا يعبرون أبناءهم أى اهتمام ، وحتى يومنا هذا ، وقد تعززت معاهد الثقافة الأولية في القرى والدساكر بفضل التقدم في العلوم والفنون ، وتنبه الحكومات لضرورة نشر العلم والقضاء على الجهل ، أقول : لا يزال شيوخنا الفقهاء إلى اليوم بعيدين عن السهر على النشء الحديث والعناية بتربيته ، كأن لم يكن أبناءهم رجال المستقبل ، وكأن الدين وقف على العجزة والموتى من آبائنا فقط .

ولقد زادت هذه الحزاة في نفسي أنى ، وأنا طالب في مدرسة البنطية الإعدادية ، كنت لا أرى تلميذاً واحداً فيها من أبناء المسيحيين القاطنين في هذه المدينة ، فسألت زملائي بذلك فقالوا : أن لهم مدرسة خاصة بجوار كنيسهم ، ومعلمهم قسيسهم القائم على الشؤون الدينية فهم ، ولقد زرت هذه المدرسة لأنى فضولى منذ نشأتى ، فرأيت الكاهن بنفسه يعلمهم ، ورأيت بنفسه يسبغ النظام عليهم في الدخول والخروج ، ثم رأيت الدرس الذى يلزمهم أداؤه يومياً أضعاف حصصنا اليومية في مدارسنا النظامية .

أقول : لقد حز هذا في نفسي أيضاً إذ رأيت ذلك الكاهن بهيبته ووقاره ولحيته المائلة صدره ، يقف بنفسه على نظام التدريس والتهذيب ، ويقوم بنفسه على التثقيف والتربية ، بينما أرى كهنتنا الذين يقطعون عشرات السنين في التفقه بالدين ، يستكفون عن تفقد ناشئتهم في المدارس الأولية التى تجاورهم في القرى ، ويرون أن من الحطة إشرافهم هذا على النشء وتعهدهم ما يدرسون على أيدي معلمين لا يعرفون من هم ولا يدرون شيئاً مما يتفقونهم به .

ثم حز في نفسي بعد ذلك أن هؤلاء المسيحيين ، وهم مواطنونا وشركاؤنا في حياتنا على أرض واحدة وتحت سماء واحدة ، لا يزالون منذ مائة عام حتى اليوم ، ينغفون من تعليم أبنائهم في مدارسنا بينما يجلبون مدارسهم الخاصة تغص بأبنائنا ، وحتى المدارس النظامية التى تعينهم أكثر مما تعيننا لا تزال خالية أو

شبه خالية من أبنائهم ، فلا يجلبون ثقافة لهم ولنشئهم إلا في مدارس الإرساليات التبشيرية القائمة على الدس والتجسس وبذر الشقاق بين أبناء الوطن الواحد باسم الدين مما لم يعد يخفى على أحد منا ومنهم .

ولنعد إلى فحوى كلمة الإمام على التي هي عنوان بحثنا هذا ، فإذا كان الله قد أخذ على العالم أن يؤدى رسالته بالتعليم قبل أن يأخذ على الجاهل أن يتعلم ، كان المسئول الأول في الأمة عن تغلغل الجهل وتضاؤل العلم هم العلماء ، وقد كان حتى الأمس ، لفظ العلماء في المسلمين لا يطلق إلا على المتفقيين في الدين ، وينقل لى أبى : أن هؤلاء يفسرون العلم المفروض على الأمة في قول رسول الله : طلب العلم فريضة على كل مسلم « يفسرونه بعلم الفقه ، أما الطب والهندسة والحقوق والتربية والكيمياء والكهرباء والرياضة والتاريخ والتفريع ، وغير ذلك من علوم الحياة فهذا لا شأن لرسول الله به في حثه على العلم .

لقد رأيت مرة أحد الفقهاء الأعلام من آل كاشف الغطاء يستشفى من مرضه في مصبح « محسن » من لبنان ، وهو مؤسس بمال الإرساليات التبشيرية ، زرت هذا المريض في ذلك المصح فرأيت في حجرة خاصة والصليب فوق رأسه ، فقلت له : حدثني أبى أنكم تفسرون العلم الذى دعا إليه رسول الله بعلم الفقه ، فهل أنتم في غنى عن هذا العلم الذى من أجله تركتم العراق للاستشفاء بمصحات قامت على التبشير بدين عيسى ؟؟ أفلا تعلمون أبناءكم الطب لتنشئوا ولو مستشفى واحداً باسم الطبيب الأول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟؟ ..

لا أدري كيف انهارت هذه الأمة ؟؟ ولا أدري كيف لا تزال تنهار حتى اليوم ، وقد بهرت عيونهم مصابيح الكهرباء ، وصنكت أسماعهم قذائف الرعب ، وملأت قلوبهم روائع ما يمخر الماء ويشق الهواء ، وما يمجج به الأثير وترخر به الأدمغة ، وتتكشف عنه خزائن الأرض من نتائج العلوم والفنون ، لا أدري كيف لا يتخسس هؤلاء الذين يحسبون أن العلم وقف على فهم الكتاب والسنة ، وليس في الكتاب والسنة حكم شرعى أو قصص أخلاقى يحتاج إلى معاهد علمية يقطع المسلم فيها عشرات السنين ليفقه ذلك الحكم أو يفهم هذا القصص .
إن المسلم في عهد محمد كان يفهم الدين لباعته أو يومه أو بضعة مجالس

مجتمع فيها إلى رسول الله فيرى نوره ويسمع حديثه، ولم يكن الدين في عهد الخلفاء الراشدين أكثر من بضع جمل يلقيها الفقيه من يتفقه والداعى إلى الله من يستجيب له ، ولم يزل يرن في آذانتنا قول شيوخنا الأبرار ، ونحن نتفقه عليهم ، : الفقه نقطة وسعها الجاهلون « يشيرون بذلك إلى التوسع في الفقه حتى أصبح بعيداً عن الفقه .

لقد رأيت بعض هؤلاء المتفهمين في الفقه يؤلفون فيه الطوامير دون أن يصلوا إلى جوهره ، ولقد وقفت على كتاب القوانين لبعض علماء الفرس في أصول الفقه فأعجزني أن أخوض فيه من رموزه ومعنياته ، فتذمرت منه بين زملائى وإذا بأحدهم يقول : ان مؤلف هذا الكتاب قد وضع مثله ضخامة في تعريف الفقه فقط ، وتعريف الفقه لا يتعدى قولهم : انه استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية « فإذا يشرح الشارح ويفصل المفصل في هذه الجملة مهما بلغ من فقه الدين ليضع مؤلفاً ضخماً في تحليلها ؟؟

لقد حملوا القرآن ، وهو من آثار الله في كونه ، وهو لفظ عربي لا عجمة فيه ، ثم هو فصيح مبين لا غموض فيه ولا إبهام ، وإلا لما صلح للأمة التي من أجلها نزل ، أقول : لقد حملوا القرآن بتحدلقهم وتنطعهم وادعائهم علم الباطن ، غير ما يحمل ، ولا أقول فوق ما يحمل ، إذ هو من آيات الله وآيات الله ليس لها حد في استهلاك العقول بين يدي ما تحمل ، ولكننا لم نكلف باكتناه ما تنطوى عليه مما لا شأن لنا به ولم نخلق له ، فقد سئل بعض الحكماء الموحدين عن مبلغ ما يقدر الله عليه فأجاب بقوله : لا حد لقدرة كما أنه لا حد لعظمته ، فسئل : هل يقدر أن يضع الأرض في بيضة دجاجة على كبر الأرض وصغر البيضة ؟؟ فأجاب : لا ، ثم عقب على ذلك بقوله : ان استحالة وضع الأرض في بيضة ناشئ عن عجز في المقدر لا في القادر ، ففي طوق الله تقليص الأرض وتمديد البيضة بحيث يضع تلك في هذه .

والقرآن لم ينزل لغر هدى الإنسان وتعزيزه في حدود إنسانيته ، فليس من وظيفة القرآن أن نسأله غير ذلك ، وأما قوله تعالى ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وقوله : فيه تبيان كل شيء ، فيعنى به الشيء الذي هو في صميم حياتنا

— ١٢٠ —

وحدود إنسانيتنا مما نحفظنا كأنا ، فبعض هذا الشيء ضرورى لمعرفة الإنسان خالقه وعرفانه نفسه ، وإدراك الصلة بينه وبين ربه ثم بينه وبين أخيه الإنسان ، هذا الضرورى واضح جلى فى القرآن نستطيع أن ننشده فنجد فيه .
 والبعض الآخر كمالى ككثير من العلوم والفنون التى لم ينزل القرآن ليفصلها لنا ولكن ليكمل بعضها ويشير إشارة ما إليها من وراء التنبيه لها والحض علىها ، القرآن مشغول عن هذه الأشياء ، وهل هذه كل أشياء الكون حتى نجعل القرآن وعاء له ثم نحمل أنفسنا على التمثل فى تأويله لاستخراج ما كان وما لم يكن له ؟؟
 ان فى الكون آيات وعبراً كآيات القرآن وعبره ، يتصل بنا منها اليسير النزر ويغيب عنا ما لم يحط به إلا عالم الغيب .

السيد فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

يتنقل لى بعض من تأدبت عليه من شيوخنا الأعلام : أن الشاعر العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي النجفي وقع ، وهو يتفقه ، في شبهة من دينه ، فسأل أستاذه الشيخ محمد طه ، وكان مرجع الفقهاء في القرن الماضي ، سألته فيما اشتبه عليه فلم يزد في إجابته على قوله : إلتق الله ، فتركه وعاد إليه من غده بعد أن فكر في حل الشبهة فلم ترده إلا قلقاً ، وكان جوابه عين جوابه الأول إذ قال له : اتق الله وأمعن .

يقول مؤدبي : ان السيد الحبوبي إذ تحدث بهذا لزملائه بعد وفاة أستاذه : لقد عملت بأمر سيدى وأمعنت في التقوى لا أفتر عن ذكر الله ساعة ساعة ، ولحظة لحظة ، حتى زالت الشبهة من نفسى وأصبحت أرى أن ما أقلقنى تحول إلى طمأنينة واستقرار ثم إلى إيمان ويقين بأن ما اشتبه على كان باطلاً وأن ما وصلت إليه بفضل التقوى كان حقاً .

بقيت هذه الذكرى تجول في روعى وأتساءل بها ونفسى ، : كيف يحول ذكر الله والتقوى دون الشبهة ؟؟ وكيف وصل السيد الحبوبي من وراء تقواه وذكره إلى منصب سام في الفقه وأصوله بعد أن لم يكن غير شاعر ؟؟ ثم كيف كان ذكره ؟ وكيف كانت تقواه ؟؟ أقول : بقيت هذه الذكرى تداعب نفسى أهي حق أم دعاية من شيوخنا للتقوى والذكر للإبقاء عليهما وتثبيتهما في صدور المؤمنين منا ليستقيم لنا هذا الدين الذى هو كل ثرائنا ؟؟

حتى إذا وردت أمريكاً وعلمت من أحد العاملين في علم الذرة أن بعض الآلات التى تتركب منها القنبلة الذرية يستمر العامل في صقلها بأدق مواد الصقل أياماً قد تطول وقد تقصر حتى لا يثبت البصر عليها من شدة لمعانها ، ويقول مهندسو الكهرباء : كلما دق صنع الآلات كانت أقوى على تأدية رسالتها الفنية » وهكذا كل آلة منوطة ، في أداء ما كانت له ، بأحكامها ودقة صنعها ،

ودقة الإحكام. قائمة على التجربة والتعزيز وصدق المران وإتقان الصنع .
 وحتى قص على أي : أن بعض الأعلام من فقهاءنا لبث سنين طويلة
 يطلب العلم فلم يفد منه ما يرجوه وبقي في المستوى الأدنى من زملائه حتى
 يئس وترك الدراسة ، فر بنسوة على بئر ماء يستقن بالدلاء ، ورأى أثر الحبال
 قد حز في الصخر المستديم على فم البئر فوقف مهوياً مخاطب نفسه بقول الشاعر :
 انظر إلى الحبل وتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا
 فرجع إلى نفسه يتلاوم على يأسه من درسه ، واهمها بضيق العطن ، والجزع
 في مواطن الصبر « ورأى في طريقه نملة تحمل حبة من البر أكبر منها وتريد أن
 تعلوها صخرة فلا تستطيع ، وكلما صعدت بها فتراها أو شبراً حال الأعباء وزلق
 الصخر دون استمرارها فأهوت إلى حيث بدأت ، واستمرت مثابرة على الصعود
 رغم الانحدار حتى عد اليائس لها ستاً وثلاثين مرة ، وفي كل مرة تقطع مسافة
 من الصخرة إلى أن غلب الرجاء على اليأس واستظهرتها إلى حيث تقطن .
 عندئذ صمم الرجل على العود والثبات في جهاده حتى بلغ القمة في علم
 الفقه وأصبح علماً فيه ، وكان يطوف على طلبة العلم الراسخين ويقص عليهم
 عبرته فيقول : لا علم لأحدكم في أن يتخلف وهو يعتقد أن الحياة فوز وإخفاق
 من وراء الحظوظ « ويقول لهم : ليس في الحياة إلا علم وعمل يصعدان بالمرء
 أو يسفان به على مقدار ما يطلب الصعود ويتفادى الأسفاف ، ولقد كان
 الرسوب والجمود أقسى على منكم حتى لفظت الجهاد ويئست من الفوز ولكن .. »
 لكنني إذ رأيت النملة تعيد الكرة في أداء رسالتها ستاً وثلاثين مرة حتى
 ظفرت بالفوز ، هكذا علمتني الثبات والمثابرة في دراستي فعددت لها ستاً
 وثلاثين سنة وإذا بي على القمة ينحدر عني كل عالم ، ذلك بفضل النملة وهي
 تتوغل الصخر وبفضل الحبل وهو يؤثر فيه ، فتعلموا يا أبنائي من الحيوان
 والجماد ما ينهض بكم من عالمها إلى عالم ترحمون فيه الملائكة بين يدي باري
 الكون ، وهل هذا كله إلا وليد العلم والعمل ؟؟ « أقول ؛ بقيت هذه الذكري
 تجول في نفسي شكوكاً وريبة حتى مر بي هذا فأدركت السر في رياضة اللسان
 على الذكر والامعان فيه .

إنما سمي كتاب الله قرآنًا وذكرًا لنكثر من قراءته ونكثر من ذكر الله به ،
لنقرأ كثيراً فننسب به ، ولنذكر الله به كثيراً فنطبع قلوبنا بطابعه ، فاذكروا
الله ذكراً كثيراً ، واذكروه مع الذاكرين ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً
وعلى جنوبهم ، كل ذلك يدعوننا لأن نقف ألسنتنا على ذكر الله ، ونطبع
قلوبنا باسمه ، ونشرب أنفسنا اللجوء إليه والخشية منه ، ونصقل أرواحنا
بالبحث عنه والتفكير فيه ، حتى تكون الصلة بيننا وبينه وثيقة العرى كالصلة
بين الصانع وأطوع آلات صنعه له ، إذ يمعن في صقلها وشحذها وإعدادها
لما خلقت من أجله ، فإذا هي تستجيب له وإذا به يؤدي رسالته التي كانت به
ماضية ، وكانت يده بها صناعاً .

لم تكن لتعلو المنبر وأنت خطيب مصقع ، ولم تكن لتفصل في الحكم وأنت
قاض مبدع ، ولم تكن لتمسك القلم وترسم مائة كلمة في الدقيقة ، ثم لم تكن
لتقبض يمينك حفنة من الدنانير ثم تصبها في يسراك فتتقد الزائف وتميز عنه
الصراف لمجرد صبها ، أقول : لم تكن تفعل ذلك كذلك لولا المران والرياضة
والتكرير ساعة فساعة ، ويوماً فيوماً ، وشهراً فشهرًا ثم عاماً فعاماً .
ان تمرين أعضائك على عمل أى شئ ، وتمرين فكرك على بحث أى شئ ،
ثم تمرين قلبك على استلهام أى شئ ، ان هذا التمرين بالغ بك الهدف الذي
تنشده ولو كان معجزاً ، فانا نسمع عن فقراء الهنود معاجز في أعمال الجسد ،
ونسمع عن الغرب معاجز في أعمال الفكر ، ثم نسمع ونلمس عن شرقنا الأدنى
هذا معاجز في أعمال القلب ، فهل يكون غريباً على الإنسان ، إن أعمل فكره
ولسانه بذكر الله ، أن يستحيل في الله ويتصل به فيؤدي بذلك رسالته الإنسانية
على أتم وجه ؟؟

ان هذا كائن ، وهو بين سمعنا وبصرنا ، نرى المشعوذ يروض جوارحه
على الحفة وسحر الأعين ، فيصبح أعجوبة في مآتيه ، ونرى اللص يروض
جوارحه على النشل والاختلاس فيأتى بالعجائب ، ونرى الدجال يروض جوارحه
على الكذب والتضليل فيأتى بالمعجزات ، وهكذا نرى الزاهد الناسك المتصوف
يروض جوارحه على العبادة والتهجد فيصوم الدهر ويصلى ألف ركعة في الليلة

الواحدة ، ويختم القرآن كل يوم ويصبر على شتطف العيش فيأكل ويلبس ما خشب وخشن ، فليس الذكر إلا رياضة تمنع بها الإنسان في تطويع ما استعصى أو تثقيف ما اعوج ، وتقريب ما بعد أو تبعيد ما قرب ، وقدماً قال الشاعر :

أذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
أذكرونا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القلحا

فليس الذكر الذي يعلى كتاب الله من شأنه ويحضنا عليه ، إلا هذه الرياضة ، ولكتها رياضة خاصة بالله الذي قر في نفوسنا أنه الحق ، وأنه الصديق ، وأنه الأمانة ، وأنه الوفاء ، وأنه كل خلق يسمو به الإنسان ويعتز ، ثم أنه العلم الذي يبصرنا بالحياة ، ويكشف لنا عن مخزونها الخافل بالحياة ، ويصلنا من خلال كنوزها بخالق الحياة ، هذا هو الله الذي يدعونا الله إلى أن نروض أنفسنا على ذكره ، وهذا هو الله الذي يحيلنا إليه فيما نجعل ، إذ يقول : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

ان الغربي اليوم كالشرق بالأمس ، إذا لاح له بصيص من نور العلم ، تعهده بالذكر والفكر حتى يلم به ، ثم أمعن في هذا التعهد حتى يحيط به ، ثم زاد إمعاناً في البحث عنه والتفكير به حتى يوغل فيه ويكتنه السر الذي كان من أجله ، فإذا بهذا الإمعان في تعهد ذلك البصيص من النور بذكره وفكره ، يكشف له عن مشكاة فيها مصباح ، والمصباح في الزجاج ، والزجاجة كأنها كوكب دزى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .

أى بنى : رض نفسك ما استطعت ، أو فوق ما تستطيع ، على ذكر الله ليلاك ونهارك ، وأقرأ كتاب الله الذي يبين لك من هو الله الذي تروض لسانك وفكرك على ذكره ، أقرأ كتابه ما استطعت ، والهج بذكره حيث لا تستطيع قراءة وكتابة ، أياك تقوم وتقع ، وتذهب أو تبقى ، وتقول أو تفعل ، رض نفسك ما استطعت وفوق ما تستطيع على ذكر الله الذي أهلكك أن تقول ، والذي أقدرك على أن تفعل ، والذي دعاك لأن تفكر ، الله الذي لم يهلكك إذ سواك ،

فرحمك بالعين لتبصر ، وبالأذن لتسمع ، وبالعقل لتفكر ، وباليدين لتعمل ،
ثم رحمك بالهدى إلى العلم لتمييز الحق من الباطل ، وتبشيد الكمال الذى من أجله
خلقتك فسواك فعدلك .

أذكر ربك يا بنى ، ربك العالم حين تجهل ، ليهبك نعمة العلم ، والقوى
حين تضعف ليسبق عليك القوة ، والقادر حين تعجز ليجبرك من الهالك ،
والغنى حين تفتقر ليغنيك عن سواه ، أذكر ربك الغفور وأنت تقترف الإثم
ليسلك برحمته ، وأذكر ربك الحليم ليتجاوزك بغضبه ، وأذكر ربك اللطيف
ليرفق بك إذا خشنت ، ويقبلك إذا عثرت ، ويأخذ بيدك حين تقع ثم لا تجد
ناصرًا غيره .

إنك إذ تمنى في ذكر الله الذى هو هذا المقرر في نفسك أنه مهيم عليك
ولطيف بك ومسؤول عنك ، إنك إذ تمنى في ذكره ، وهو قائم في نفسك حقاً
يعصمك من الباطل ، ونوراً يكشف عنك ظلمة الغي ، وكرماً يضمنى عليك
نعمة الحياة ، وقائداً يرشدك إلى الطريق السوى ، أقول : إنك إذ تمنى في
ذكر ربك الذى هو هدفك إذ تنشد الكمال ، وبغيتك إذ تبحث في نفسك عن
سر الوجود ، إنك إذ تمنى في ذكر هذا تستحيل فيه حباً وتقديساً وتستحيل
فيك هدياً وإرشاداً ، فاذا بك هذا الإنسان الكامل الذى لم يكن إلا ليكون
كاملاً ، والذى لم يفرض عليه الكمال إلا ليدل بكماله على عظمة خالقه ، وإلا
ليدرك بكماله الحكمة التى كانت علة خلقه .

مَحْذَرٌ لَوْ تَعَلَّقَتْ هِمَّةُ أَحَدِكُمْ بِالْثَرِيَّا لَنَالَهَا

يعلمنا المعلم الأول بهذه الكلمة الجامعة كيف نربي الهمم على الطموح إلى معالي الأمور ؟؟

من الذكريات التي بعثتها في نفسي هذه الحكمة ، حديث رواه لي أحد مواطني العرب في مدينة بونس ايرس عاصمة الأرجنتين في جنوب أمريكا أيام زيارتي الثانية لها عام ١٩٣٩ ، وقد كان السيد روزفلت يومئذ رئيس الولايات المتحدة في شمال أمريكا كان عاملاً أول للصهيونية في بلاد العرب ، حتى بلغ من حرصه على إنشاء دولة إسرائيل وتثبيت الصهيونية في أرضنا أن عرض على الملك عبد العزيز بن سعود عشرين مليوناً من الدنانير الذهب ثمن ممر لليهود من خليج العقبة إلى خيبر في أرض الحجاز ، وقد كانت مهد صهيون في صدر الإسلام ، فأبى الملك السعودي ذلك وأنكر عليه مثل هذا العرض ،

قال مواطني : ان بعض العلماء في هذا البلد ألف كتاباً يثبت فيه أن روزفلت من أصل يهودي هو وزوجته ، فأقبلت عليه بكل جوارحي لأعني ما يقول ، وظل يقص على فحوى هذا الكتاب ساعات ، فن مضامينه :

إن من أسرار الصهيونية التي تعمل في كل مؤسسة غامضة كالماسون والروتاري وغيرها من المنشآت السرية ، من أسرار هذه المؤسسات تعزيز الصهيونية بما يفرض على العالم سيطرتها والهيبة منها ، والاستخذاء لها ، من هذه الأسرار إشراك اليهود في سيادة العالم دينياً ومدنية ، ومنها توجيه العالم إلى أهدافهم ، ومنها إخضاع العالم لسيطرتهم وسلطانهم ، حتى يكون لهم القوة في التصرف بالعالم حرباً وسلماً ، وبقاء وفناء وتأييداً لهذا : أما أولاً ، وهو سيادة اليهود في العالم دينياً ومدنية فقد دخل بعضهم قبل مائة عام في الإسلام والنصرانية وأوغلوا في هذا الدخول حتى أبرهوا في إسلامهم وتنصرهم عن إخلاص وتغان بين يدي ما يعتنقونه من دين جديد ، فظل الأب بغذى الابن ، والجد يغذى الحفيد

بادئ الدين الأول ، حتى جاءت الأحفاد والأسباط مكيئة في دينها الأخير ،
ولما نزل مصر على دينها الأول فنشأ عن ذلك ما يأتي :

ينقل لنا الأستاذ محمد على علوبة في كلمة ألقاها على ندوة « الاصفياء »
في مصر الجديدة ، وعلى مسمع الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني ، قوله :
لقد ظهر بعد حرب اليهود مع العرب في فلسطين أن شيخاً فقياً مسلماً رأس
دائرة الوعظ والدرس الإسلاميين في المسجد الأقصى ، وآخر مثله في خان
يونس ، عشرين عاماً وهما يحملان شهادة عالمية من الأزهر ، حتى إذا نشأت
إسرائيل اختفيا ثم ظهر فيما بعد أنهما من اليهود ، وقد كانا في مهنتهما ، الفقه
الإسلامي ، يعملان على النيل من الإسلام والمسلمين تمهيداً لتأسيس إسرائيل .

من هذا نفهم السر في أن خمسة آلاف قسيس بروتستنتي من قسس أمريكا
الشمالية أجمعوا على مطالبة رئيس الولايات المتحدة السيد ترومان بمساعدة اليهود
على تأسيس دولتهم إسرائيل ، ومن هذا نفهم السر أيضاً في تهالك بعض مطارنة
وكهنة لبنان على مساعدة اليهود في إنشاء دولتهم حتى حمل هذا التهالك المطران
اغناطيوس مبارك على تأليف كتاب رفعه إلى هيئة الأمم المتحدة يقول فيه بالنص
الصريح : إذا لم تنشأ دولة يهودية في فلسطين فلا نستطيع الحياة ، نحن اللبنانيين
على أبواب الشرق » وحتى أعلن في حفل يهودي ديني بمدينة بيروت ، وكان
يرافق البطريرك عريضة إليه ، أعلن قوله : أنا مطران اليهود وهذا بطريركهم »

وهكذا نفهم السر في صموت القاتيكان وسكوت رعاية الكنيسة
« كاتر باري » في انكلترا ثم تجاوزهم هذا السكوت إلى مساعدة اليهود بطلب
تلويل القدس من هيئة الأمم ، والعالم كله يعلم أن القدس عربية منذ فجر
التاريخ العربي ، وهكذا نفهم السر أيضاً في أن آلاف القسس كانوا يطوفون
أقطار أمريكا المتحدة لجمع التبرعات في سبيل إنشاء إسرائيل وهم يسمعون ملء
الآذان باللفظائع التي يرتكبها اليهود في مدن وقرى فلسطين العربية ، من ذبح
الأطفال وبقر بطون النساء الحوامل باسم المدنية والسلاح الذي تمدهم به رعاية
المدنية من أوروبا وأمريكا ، يفعلون ذلك كله دينيين ومدنيين وهم يقرأون

صباح مساء في كتبهم المقدسة أن اليهود هم الذين صلبوا ربهم وأنزلوا بمسيحهم العذاب والهون .

هذا ما أعدده اليهود تمهيداً لإعلاء كلمتهم وإنشاء دولتهم من ناحية الدين باعتناقهم شريعة محمد ودين عيسى اليوم كما فعلوا قبل ألف عام في صدر الإسلام حتى ضلّلوا المسلمين يومذاك ولم يزل تضليلهم هذا قائماً في صميم الدين الإسلامي حتى يومه هذا .

وليست سيرة يوسف بن يعقوب بن كلس اليهودى العراقى الأصل الذى أسلمت أسرته وانحدر منها، غريبة على التاريخ ، فقد هاجر وطنه إلى مصر وحظى عند الدولة الإخشيدية ، ثم لدى المعز الفاطمى حتى أصبح مدرساً للفقه ، واتفق بعد ذلك على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى أنه كان يتآمر مع الروم على انتزاع فلسطين وسلمهم أسرار الحامية الفاطمية المرباطة بها وأغراهم بالهجوم عليها ليتسنى له بعد ذلك رفع راية إسرائيل بمساعدتهم عليها^(١) .

وأما ما أعدوه لتعزيز دينهم ودولتهم من ناحية المدنية فهو ما تضمنه كتاب ذلك العالم الأسباني في الأرجنتين يثبت فيه أن روزفلت وزوجته من أصل يهودى فاسمع ما يقول في فحواه : إن اليهود قبل مائة عام أمعنوا في حمل بعضهم على اعتناق النصرانية البروتستانتية تمهيداً لدخولهم السلطان الأول في حكم الولايات المتحدة التى ضمنت دستورها آنذاك ضرورة كون الرئيس الأول فيها نصرانياً بروتستانتياً ، أقول : كان ذلك منهم تمهيداً لتعزيز اليهودية في أمريكا ثم تعزيز العوامل التى يحققون بها أحلامهم في أرض الميعاد فلسطين » .

وقد كان لهم ذلك ، إذ ظهر كثير من البراهين على أن كثيراً من حكام الولايات المتحدة منحطون من أصل يهودى حتى قال لى بعض الأمريكين أيام وجودى في نويزك : أن كل اسم يقترب بلفظ « مان » هو يهودى أو منحدر من أصل يهودى ، كوايزمان وترومان » ثم أمعنوا في تطويع الأمريكين بالحكم حتى لم يقتصروا أخيراً على إخضاعهم بحكام تحلروا من اليهودية ، وإنما تجاوزوا

(١) من مقال للعلامة الزعبي في مجلة العرفان الجزء السادس ١٩٥٦

ذلك إلى أن حكمهم باليهودية السافرة عندما استفحل سلطانهم من وراء السيطرة المالية وتعزيز حب المادة في نفوس الأمريكيين حتى أصبح الدولار معبوداً لديهم . نقل لى بعض المهاجرين العرب تحت سماء أمريكا الشمالية : أن مدينة « انديانا هاربر » التى تضم نصف مليون من العالم هى المدينة الوحيدة التى خلقت من اليهود إلا يهودياً واحداً . هو حاكمها الأعلى ، ومن رأى عظمة المنشآت الماسونية فى الولايات المتحدة وأوروبا علم مبلغ تأثير هذه المؤسسات على الشعب المسيحى البروتستانتي خاصة فى نزع التعصب الدينى من نفوس أبنائه ليتسنى لهم حكم البلاد . مادة وسياسة دون أن يشيروا أية ضغينة فى نفوس الأمريكيين الأول فى بلادهم .

فقد نقل لى كثير من رجال الماسون أن المجلس الأعلى لكل محفل ماسونى مكتوم عن جميع رجال ذلك المحفل بجميع درجاتهم ، لا يعلمون شيئاً عما يجرى فى ذلك المجلس من أسرار ثم لا يعلمون أسماء أعيان ذلك المجلس ، ثم يقول لى هؤلاء : ان من أهم مواد الماسونية رفع التعصب الدينى بينهم والمؤاخاة باسم المحفل مهما امتاز بعضهم عن البعض الآخر بالجنس أو اللون حتى قال بعضهم من ماسونى العرب :

تركت تعصباً فى الدين حتى أرى الوثنى كالخلل الحميم وأعجب ما يدهش الإنسان أنه لم يبق من شك فى أن الماسونية يهودية وبرهان ذلك ما فعله هتلر فى الماسون أيام الحرب العالمية الأولى على اعتبارهم يهوداً ، ونرى أهم بنود الماسونية رفع التعصب الدينى من صدور أبنائها ثم نرى اليهود الذين أسسوا الماسونية هم أشد الناس جهراً وإسراراً فى التعصب لديهم . ذلك ما يدلنا على أنهم إنما أسسوا الماسونية لمحوها بها العصبية الدينية من العالم . فيتسنى لهم بذلك الإبقاء على أنفسهم فى العالم إذ كانوا أذلاء منبوذين من جميع العالم ، ثم ليتسنى لهم أخيراً تحقيق ما يرمون إليه من حكم العالم والسيطرة عايه . مادة وسياسة ، ليصلوا آخر الأمر إلى هدفهم الأسمى وهو تحطيم شعوب العالم . ليقوم على أنقاضه إنشاء دولة لإسرائيل التى يأملون بها السيادة على العالم . هكذا ملكوا أمر الناس فى العالم المتملدين ثم انقلبوا إلى ملك هذا الأمر فى

العالم المتأخر ، فكان هدفهم الأول تركيا التي بدأت تنحدر منذ مائة عام بفعل اليهود الذين اعتنقوا الإسلام في « سالونيك » ويعبر عنهم بالدونمه فكان من أبنائهم مصطفى كمال وكثير من هؤلاء الذين يحكمون تركيا اليوم من بعده ، وفهم حسين بالشتن الصحفي المنحدر من أصل يهودي ، فقد فعلوا في تركيا ما فعلوه في الولايات المتحدة فأخرجوها عن إسلامها باسم القومية الطورانية ليصرفوا عنها احتفاظ العالم الإسلامي بخلافته فيها كما أخرجوا أمريكا عن نصرانياتها ، بقصر العصبية فيها على أمريكييتها لا مسيحييتها حتى كانت ولا تزال الكلمة السائدة على ألسنة السياسيين الأمريكيين قولهم « أمريكا للأمريكيين » وحتى نقل لى بعض المهاجرين العرب في الولايات المتحدة : انك لا تجد أمريكياً يتعصب لدين المسيح إلا الكاثوليك وأما ما عداهم فهم يهود » .

والكاثوليك في الولايات المتحدة لا يشكلون عشرة في المائة من أهلها ، وأما في بريطانيا فتكاد تحصر الكاثوليك في زاوية واحدة من كل بلد ، ولهذا نرى السيطرة الأولى على مجلس العموم البريطاني لليهود ، فقد سمعت من أقطاب السياسة المعاصرين أن سبعين عضواً في مجلس التشريع البريطاني من أصل يهودي وأن وزيراً أو وزيرين يهوديين كائنان حتماً في كل حكومة يشكلها بريطاني ، واليهود في بريطانيا لا ينهضون إلى مليون في تعدادهم ، بينما نجد مئات الملايين من رعايا بريطانيا المسلمين ليس لهم واحد يمثلهم في مجلس العموم البريطاني فضلاً عن حكوماته ، فليتنظر القارئ وليتأمل مبلغ ما وصل إليه عنصر الصهيونية من سيطرة على العالم ، وإلى أين وصلوا من طموحهم ، وهم قلة لا يزيدون على بضعة عشر مليوناً ، في تحديهم ألفى مليون من مجموعة الإنسان على وجه الأرض . وهكذا نصل إلى مبلغ ما سيطروا به على العالم من وسائل الحضارة في العلم والمال ، فقد رأوا ، بعد إمعانهم في إشراب العالم حب المادة من وراء بث الشهوات في النفوس ، وإيقاد نيران الحروب والمجازر في العالم بالدس وتغذية الأثرة العنصرية بين الأمم ، رأوا أن مصدر ذلك كله العلم ، فأمعنوا في طلبه حتى كان منهم أمثال انشتاين ووايز من ولينين وماركس وسينوزا وأوسكار لينفي وغيرهم من أقطاب العالم صريحين ومتسترين ، وحتى

كان منهم أقطاب المال العالمى فى « وول ستريت » من قلب نيويورك ، وأقطاب التجارة والصحافة والدعاية ، فلن تجد تحت سماء أمريكا أم العالم المتخضر أو المتمدين على الأقل ، لن تجد تجارة أو صحافة أو إذاعة أو صرافة ، إلا ولليهود عليها السيطرة الأولى ، وهل العالم كله إلا علوم تخلق المادة وإلا مال يملك النفوس ، وهل شئ من هذا يخضع لغير هذه الحفنة من العالم ؟؟

هكذا نستطيع أن نفسر قول محمد بأن هذا الشعب الجبار من يهود العالم هم الذين وحدهم تعلقت همهم بالكواكب فصعدوا إليها وتبوأوا نواصياها ، وأما أمة محمد فقد كانت نجوم السماء مواطئ أقدامهم إذ كانوا يحفون برسول الله ويتلقون رسالته بأيديهم ثم يضعونها على صدورهم ، ليغذوا بها قلوباً تتسع للحق فيضيق بها العالم ، ويضعونها على عيونهم ليبصروا بها مواقع أقدامهم فى مجاهل العالم ، حتى إذا نبذوا تلك الرسالة ، وخضعوا للباطل بين يدي شهواتهم غاصت همهم فى تخوم الأرض حتى لا تقوى على أن ترى اليوم مسلماً إلا إذا تطامنا وطأنا رؤسنا نفتش عنه فى الحضيض من العالم .

عَلَى مَنْ وَثِقَ بِالْمَاءِ لَمْ يَظْمَأْ

كان بلال الحبشي مؤذن رسول الله من المعتدين على يد مولاه المشرك أيام نبوغ الإسلام واستجابته لداعي الله ، فكان سيده يخرج به من مكة إلى الرضاء الالهية ويطرحه أرضاً ثم يضع الصخرة على صدره ويقول له : إما أن تكفر بدين محمد أو لأدعئك في السموم حتى ينضج لحمك ، فيقول ، ولم يزد : أحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ولا ند »

وكان ياسر أبو عمار وزميل بلال ، في الثقة بالحق والدعوة إليه ، كان يستهدف للعذاب على أيدي المشركين فكان يوثق وتوضع الصخور على صدره ومجلد حتى يتهرأ . جلده ليكفر بدين محمد فلا يسمع معذبه منه تحت السياط إلا قوله : أحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ولا ند .

وهكذا كان جل أصحاب رسول الله السابقين في إسلامهم يستهدفون بقوة إيمانهم لعذاب لا يطيقه إلا من رأى الجنة التي يظمأ لها رأى القلب ، وإلا من رأى النار التي يفر منها رأى العين ، فيستسلم لعذاب الدنيا وهو واثق من أنه يرد على ربه شقياً ليسعد وطمأن ليروى .

أما بعد محمد فقد استهدف كثير من هؤلاء لعذاب المشركين الذين لم يلج الإسلام قلوبهم ولا دار على ألسنتهم إلا كذباً ورياء ، فقد كان عمار بن ياسر ينشد الماء وهو يناضل جيش الكفر مع خليفة رسول الله إذ كظه العطش تحت الحديد والنار والجراح تمضه ، فلم تغثه إلا امرأة بقدرح من لبن فلما تناوله تهلل وجهه وكبر وقال : صدق حبيبي رسول الله إذ قال : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ويكون آخر زاده في الدنيا شربة من لبن .

وكان أبو ذر خليل رسول الله أشدهم عذاباً بعد خليله ، إذ كان يحجر بالنقد اللاذع للخليفة الثالث الذي اجتهد في الإسراف بصلة أهله من آل أمية على حساب الأمة حتى فرغ بيت المال ، وحتى جاءه الخازن يبيكى ودفع إليه

المفتاح يقول : لم يكن شئ من هذا على عهد رسول الله ولا الخليفين من بعده ، فأنهروا عثمان وقال ؛ مالك أنت ؟؟ انهم اجتهدوا فقبضوا أيديهم واجتهدت فبسطت يدي « ثم طرده .

من أجل هذا لم يجهر أحد من الصحابة ، على كثرتهم يومذاك ، بانكار ذلك على الخليفة الأموي ، ثم لم ينكر عليه أحد منهم لئلا يثار أهله بالحكم على خيار الأمة ، إلا عاباً وأباً ذر ، أما على فقد نصح الخليفة ووعظه فلم ينتصح ولم يتعظ ثم لم يجروا على إيذاء على ، ولكنه صب بخطه على أبي ذر ليردعه فلم يرتدع ، ومضى يقسو في نقده على الخليفة الأموي ، ومضى الخليفة يقسو عليه في زجره فلم ينتصف أحدهما من زميله حتى نفاه إلى الشام حيث معاوية ، وما أدراك ما معاوية ؟؟

قيل لأبي ذر ، وهو يذرع أزقة المدينة ليلاً ونهاراً يقرأ قوله تعالى : ان الذين يكتزون الذهب والفضة ثم لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون « يقرأ هذا ويجهر به حتى ضاق الخليفة الأموي به ذرعاً ، قيل له إذ ذاك : اتق الفتنة يا أبا ذر ، فقال : وهل في قراءة كتاب الله فتنة ؟؟ إنما يدعو إلى الفتنة من يؤثر الباطل على الحق .

ويقول : وهو بين يدي معاوية في الشام مشيراً إلى قصره الأخضر ... : إن كان هذا من مالك الخاص فأنت مسرف وإن كان من مال الله فأنت خائن . فقيل له : اتق السلطان يا أبا ذر فقال : إنما أتقى سلطان السماء ، ولقد حدثني خليلي رسول الله قاتلاً : أما ذهب أو فضة أكنى عليه فهو حجر على صاحبه حتى ينفقه في سبيل الله .

ولقد بايعت رسول الله على أن لا أقول إلا الحق ولو كان مرراً ، وعلى أن لا تأخذني في الله لومة لائم « ان بني أمية يهددونني بالقتل أو الفقر ولبطن الأرض أحب إلى من ظهرها ، والفقر أحب إلى من الغنى ، ثم يقول : عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها .

وقيل له : ألا تتخذ لك ضيعة ؟ فقال : وما أصنع بأن أكون أميراً ؟؟

ولأنما يكفيني كل يوم شربة ماء وفي كل جمعة قفيز من البر. ويقول رداً على كعب الأحبار إذ صوب الأمويين بالبذخ وكنز المال ، قال : ليودن صاحب هذا المال لو كان يوم القيامة عقارب تسمع السويداء من قلبه ، فقيل له إذ ضاق معاوية ذرعاً به : اتق الله في نفسك يا أبا ذر ، فقال : والذي نفسي بيده لو وضعت الصمصامة على عنقي ثم ظننت أني منفذ كلمة سمعتها من خليلي رسول الله قبل أن تحتزوا رأسي لأنفذتها . فشكاه معاوية إلى عثمان فكتب إليه أن يبعث به فحمله على قتب غير موطأ حتى تهرأ جلده . وهو صابر محتسب عند الله خشونة المركب وجعجة السه . وطول السفر ، وكلما أمضيه الألم ذكر أنه قادم على خليله رسول الله من قريب . فاطمأن ليقينه بأن من وثق بالماء لم يظماً .

وهكذا يصيب هذا الرأي من كبدي وأنا أظماً ما أكون إلى الحياة الدنيا . فقد جثم الفقر على صدرى في غضون الحرب العالمية الأولى إذ كنت أعول أبوى بعد فقدهما أخى الأكبر ، وكانت سنى لا تزال دون الشباب وفوق البلوغ ، كنت لأزال رخص العود لأقوى على مصارعة الأيام ، وكان تفكيرى لا يتعدى حدود صباه الباكر الغض ، فلم أكن لأطبق العمل في غير تعليم الأحداث ، وكنت قد أجزت الدور الابتدائي من دراستي فتدرعت إلى هذه المهنة بأحد زعماء النبطية . فقدمنى للمدير معارف الولاية في بيروت ، ونجحت الوساطة وعهدت إلى وزارة المعارف بالتدريس في قرية إقطاعي آخر من زعماء جبل عامل .

وعدت من بيروت راجلاً ليس لدى من المال ما يحملي ولا من الزاد ما يزيد على وجبة أو وجبتين أحملها بيدي أربعاً وعشرين ساعة والجو شتاء والبرد قارس ، ولا أملك ما يدفع غائلة الجوع والبرد والخوف والإعياء غير ثقني بالماء ، وأنى إنما أعاني ما يمضني في سبيل أبوى اللذين هما عدتي في كل ما أفكر من حياة .

وزداد هذا البلاء عندما أصل القرية التي عهد إلى التدريس فيها ، فأقبلت على دار الزعيم الذي كان لابد من الوفود عليه في بلد يدين له بكل من

صدر عنه أو ورد عليه ، فلما رآني حدثاً لا أتعدى السادسة عشرة من سني حياتي قال :. ماذا تستطيع أن تعلم يا ولد وأنت لا تزال غراً جاهلاً ؟؟ فقلت لعل الذى بعث بي بجيالك عن هذا ، فقال : أخرج فلست مستعداً لقبول ولد يعلم أولادى « ثم لم يمهلى أن أتكلم وهو يغدق على من أفحش القول ما ندى له جيبى حياء .

فخرجت من داره ثم من بلده لألوى على شئ ، وكانت الشمس تغادر الأفق أشد اصفراراً من وجهى ، وأقصى كآبة مما أكابد ، ولا يغيب عن ذكراى أن رجلاً فى آخر القرية دعانى أن أبيت عنده وقال : أين تذهب ، والليل مقبل والسفر شاق والطريق وعر ؟؟ فقلت : إن معى ربي. وإن وراى أبوين ينتظران عودى ، ومن وثق بالماء لم يظماً .

وأغور تحت الليل المظلم فى الأودية ثم أنهد إلى الرواى معتسفاً لا أعرف وجهاً للسبل التى تفضى بي إلى أى محجة أو مأوى ، هائماً جائعاً ظامئاً عانياً ، يكاد ربي يعصر من قلبي آنذاك ما يصبغ الأفق حتى يزاد ظلمة وما يصبغ الأرض حتى تزيد وعورة وضللاً ، ولكنى كنت ، وأنا أشق مزارع التمرس به لبرى ، وأنفادى الصخور ومصادر العواء من وحوش القفر ييقينى أى لأضام وأنا أنشد الحق ولا أظماً وأنا واثق بالماء .

ودخلت على أبوى مصباحاً أحمل وجوه الموتى ، فلما قصصت عليهما ما كان ، وكانا قد ودعانى آملين ، قال أبى : ان لعنة السماء ستنزل به ، ثم لم يزد على أن عقب على حديثى بقوله : ان الله لن يتخلى عن عباده يا بنى ، فاحفظ عني يا محمد وأنا على فراش المرض والعجز : انك لا تعثر ما دمت رافعاً رأسك للسماء تعاهد الله على أن تخدم الحق ، فاتق الله يا بنى قبل أى عمل تأتبه وأوصيك بالصلاة ... ثم أغمض عينيه يناجى ربه .

ويلور الزمن ، والدهر منجنون ، فاذا باللعة من السماء تنصب على الزعيم ، وإذا هو نهب الفقر والذل بين يدي ظلم الأفرنسى وغطرسته ، وإذا الصاع الذى كال به للباس المشرد ، يكال له مضاعفاً بيد أجنبية تهتك الحرمه وتضم العرض ، يد المستعمر الجاثم على صدره ، وإذا بعد ذلك كله يعطى الزمن قياده

للبائس الذى شرده وطرده وأهانته فينشئ الأندية ، ويؤسس معاهد العلم ، ويؤلف الكتب ويصدر صحيفته « العروبة » وينفجر بالنقد المر على الزعماء دينيين ومدنيين ، حتى تقوم في أعقاب هذا النقد معاهد للعلوم تحت سماء جبل عامل في صور والنبطية وفي بيروت ودمشق ويستهدف الناقد لعذاب مرير وعدوان غادر من عتاة قومه ، فيفقد الزعيم وأولاده على البائس الشريد بالأمس ، وقد أهدق به الشباب المتحرر اليوم ، وفدوا عاياه ليؤاسوه في عدوان زعيم آخر ناله من وراء نقده وتجرجه وتنبيه الناس لجهله وخبائثته .

يجلس الزعيم إليه ويؤاسيه بكلمات أعادت إليه ذكرى عشرين عاماً مرت على سطوة هذا الزعيم وسلطانه الجائر ، فابتسم الشاعر للزعيم وقال : سنة الله في خلقه ، يصعد الظالم ثم يهبط ، ويهبط المظلوم ثم يصعد « فأحس أنى ألفته إلى الماضي فقال : نعم لقد كانت منا هنات نعتذر إليك عنها وهذا ابني سيكون منك مكانى في التفكير عما فرط منى » فقلت : ساعحك الله ، إن من وثق بالماء لا يظماً ولن يظماً أبداً .

سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُ (أَيُّ الْقُرْآنِ) الْحَقُّ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟؟

حدثني أبي رحمه الله أن أصحاب الإمام السجاد على بن الحسين أو الإمام
الباقر محمد بن علي سألوه : أليس الله يقول : يا عبادي ادعوني أستجب لكم ؟؟
قال : صدق الله العظيم بلى هو قائل ذلك ، قالوا : فما بالنا ندعوه ليلَ نهارٍ فلا
يستجيب لنا ؟؟ قال : لأنكم تدعون من لا تعرفون ، قالوا : وكيف نعرفه ؟؟ قال :
اعرفوا نفوسكم تعرفوه ثم ادعوه يستجب لكم ، قالوا : وكيف نعرف نفوسنا ؟؟
قال : فكروا في أعينكم كيف تبصر ؟ وفي آذانكم كيف تسمع ؟ ثم في قلوبكم
كيف تفكر ؟؟ فإذا عرفت ذلك شعرت بعظمة الله في نفوسكم فدعوتهم
فاستجاب لكم »

وينقل علماء الطب : أن المجهر الحديث كشف للعين أن تلافيف الدماغ
تتضمن على أربعة ملايين سلك من العصب ، ويقول : لا يبعد أن تتضاعف
هذه الأسلاك بتعزيز المجهر لأن العلم لم يقف ، في صناعة المكبرات من مجاهر
ومراصد ، عند حد ، ففي كل جيل نرى هذه الآلات تتعزز فتأتينا بجديد
مما لم نشعر به لولا تعزيزها .

ويقول بعض آخر من علماء التشريح في الطب : إن العلم لم يثبت فرقاً بين
أذني السميع والأصم ، ولا بين لسان الناطق والأبكم من حيث الظاهر ، ذلك
مما يدل على أن وراء ما تحس العين بالمجهر من عصبين المتصلين بجمهور الأعصاب
في الدماغ المسيطر على الحواس ، اختلالاً في عصب لم تبينه مجاهر الطب الحديث
ولو كان عصب التلافيف محدوداً بالملايين الأربعة التي نتيبها بالمجهر لسهل
الوقوف على الخلل الذي ينشأ منه الصمم والبكم » على أن البعض يحقق أن في

ألمانيا مصحات لمجموعة الرأس يطمئن الطب إلى التشريح فيها ، ثم إلى تبين العلل القائمة في خرس الألسن وصمم الآذان .

ومعجزة العين أن جوها الواصل بين الروح وبين مريثات الوجود ، هذا الجوهر هو عبارة عن شبكة من العروق الدقيقة تتصل بعصب الدماغ ثم يتصل بها إنسان العين المسمى بالجوجو ، وهو كرة صغيرة الحجم قائمة في حدة لا تمسكها إلا محجر يفرز ماء لزجاً تندى به تلك الكرة ما دامت تعمل على التقاط الصور المرئية التي تنكسر عليها أشعة الشمس ، ثم نرى هذه الكرة مغلقة بغشاء شفاف يسمى قرنية ترتسم عليها تلك الصور فهي من الجوجو بمنزلة اللوحة الحساسة من علة الفنان ، فما هي تلك الشبكة ، وما هو هذا الجوجو وما هي هذه القرنية ، ثم ما هو ذلك الماء الذى تفرزه عروق المحجر فتوهل القرنية لالتقاط هذه الصور ؟؟

ان الطب ليدھش من عظمة المواد الكيماوية التى يتركب منها ذلك الماء المحدث بتلك الكرة ، ويدھش أكثر لقوة هذا الماء على صقل ذلك الغلاف الشفاف المسمى بالقرنية . ثم يدھش الطب أكثر عندما يحار في قوة ذلك الماء لدى استحالتة إلى دموع وقد رته على تضميد جراح القرنية إذ نخذشها عرض من خارج أو يقرحها تأثر من داخل ، ويكاد يكون هذا الماء أقوى علاج لصقل تلك اللوحة الحساسة وإعطائها مناعة لا يتوفر عليها تواطؤ الملايين من أطباء العالم في ملايين من عصور الإنسان ، فمن أين ينبع هذا الماء ؟؟ وما هي المواد التى يتركب منها ؟؟ ثم من هو الطبيب المشرف على ذلك التركيب الكيماوى العجيب ؟؟؟

أما معجزة المعجزات في هذا الكائن الأعجب الذى نطلق عليه لفظ الإنسان ، وهو مجهول لدينا بكل ما يتقوم به ، ثم نزع تحليله وتعليله ، أما هذه المعجزة فهي دماغه وقلبه ، هذا القلب الذى يتولى توزيع الدم بعد تنقيته ، على كل خلية يتقوم بها كل عضو ، وعلى كل ذرة تتألف منها كل خلية ، ثم نرى ، إذ نحكم التشريح ، عجباً في الوسائل التى تنقى هذا الدم بين الكبد والقلب ، وتحول دون تسرب الفاسد منه إلى النزيه ، وانكفاء النزيه إلى الفاسد .

وهذا الدماغ الجبار الذى يقوم فى تفكيره على حرارة ذلك الدم الصاعد إليه من تلك الجوارح ، والذى يتقوم بأسلاك عصبية دقيقة أكثرها لا يقع تحت مجهر العين وقد أنهاها بعض علماء التشريح إلى أربعة ملايين سلك ، كلها يعمل على التقاط الأفكار من عالم الروح كما تلتقط أسلاك الواحى « الراديو » ألفاظ المذيع من عالم الأثير ؟؟

ان بين دماغ الإنسان وبين جهاز الواحى لشبهاً دقيقاً يكاد يكون عبرة لمن لم يوثق خطأ من سعة التفكير فى خلق الإنسان ، فالواحى جهاز يتقوم بأسلاك دقيقة من الصلب تلتقط الصوت مما يتصل بتيار الجاذبية العام المسمى بالكهرباء ، وهو التيار المحيط بكل جرم كونى متحرك ، والدماغ جهاز يتقوم بأسلاك دقيقة من العصب المرهف تلتقط الأفكار مما يتصل بتيار الروح المهيمن على الكون ، فكلمة دقت وانتظمت أسلاك الواحى كان أقوى على أداء رسالته التى هى التقاط الصوت ولفظه ، وكلمة دقت وانتظمت أعصاب الدماغ كان أقوى على أداء رسالته التى هى اقتباس الفكر ولفظه ، وكما أن حرارة الكهرباء شرط أول فى أداء رسالة الواحى كذلك نجد أن حرارة الدم شرط أول فى أداء رسالة الدماغ ، وهكذا نجد الشبه جلياً بين المهيمن على الواحى وهو الإنسان وبين المهيمن على الدماغ وهو العقل .

قرأت وشيكا فى الصحف أن مرصداً فلكياً فى شمال أمريكا بدأ منذ أيام يتلقى إشارات لاسلكية متزنة من كوكب الزهرة فى عدة مناسبات ، وقد عكف الراصدون على تبين هذه الحركات الصوتية واكتناه جوهرها ثم قياسها على أصواتنا .

وقرأت قبل أشهر أن بعض علماء الموسيقى يعملون على التقاط الموسيقى الكونية الناشئة عن تموجات الأثير ، لما قر فى أذهان الألباء من قادة الفكر الحديث والقديم ، من أن كل حركة طبيعية تتصل بعظمة الكون القائم على نظام أزلى ، يصدر عنها من فنون الموسيقى مالا عهد لأرباب الفنون بالتحسس منه . والموسيقى الأثرية ليست وفقاً على السمع فقط وإنما تتجاوزها إلى العين والفكر ، فهى نظام عام يستهوى السمع بصوته والعين بشكله والفكر بإيحائه ،

فاذا سال كان لحناً باعثاً في السمع حنينه إلى مصدره الأزل ، وإذا جمده كان شكلاً كاشفاً للعين أن تبصر من وراء طبعها النور الذي صدرت عنه ، ثم إذا لطف شفاً للعقل عما يقوم به الكون من أسرار تلهمه أن كل ذرة في الكون تقوم على الموسيقى فيما نسمع ونرى ونفكر .

ويقول أحد أساتذة العلوم الكونية في جامعة برلين ، وقد ترجم قوله هذا الدكتور أحمد زكي المصري في مجلة الرسالة ، يقول ما مضمونه : أن عجائب ما يقوم به الأثير المسمى بالفضاء أو الهواء ، لا تقف عند اكتشاف الكهرباء من تجاذب الأجرام السابحة فيه ، وإنما تتجاوزه إلى أعجب من ذلك وهو أن التيار الكهربائي العام يقوم بتيار روحى يهيم عليه في صميم الأثير وهو مصدر التفكير والإلهامات ، فإذا كان التيار الكهربائي مصدر هذه العجائب التي هي بين سمعنا وبصرنا ، فمصدر أى العجائب سيكون التيار الروحى في مستقبل عقل الإنسان يوم يتحكم به كما يتحكم اليوم بتيار الكهرباء ؟؟ ثم يختم هذا وهو ملى على تلاميذه بقوله : إذن صدقوا يا أبنائى ما يرويه لنا تاريخ الأديان من أن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون في الهواء .

ويقول انشتن صاحب نظرية النسبية : لا يدخل في روع من يفكر أن الفضاء لا شئ ، فلما لا ريب فيه أن هذا الخلاء ممتلئ صاب ولعله أصلب من الفولاذ ، فليعجب الإنسان لعظمة القوة في نفسه التي يحترق بها هذا الفضاء الصلب عن طريق العين والفم والقلب بنظراته ونبراته وتفكيره ، وليعجب أكثر من أن صلابة هذا الأثير قائمة على ما تحتزنه في صميمه من قوة الفكر والصوت والنظر الحائرة فيه من كل الروح المنبث في جزئيات هذا الكائن الإنسانى الذى يعمر الكون .

من هذا كله نصل إلى عظمة الآية التي قام عليها بحثنا هذا ، وأن بارئ الكون هو منزل الوحى على محمد ، وأن التصديق بهذا الوحى رهن بقوله عز من قائل : «سبحهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه «أى القرآن» الحق» ثم أعقب ذلك بقوله : «أو لم يكف بربك «الذى خلقك» أنه «بعظمة خلقه هذا» على كل شئ شهيد ؟؟؟

إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ الْمَلِكُ عَنْهُ مِثْلًا مِنْ نَتَنِ
مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ

مَحْذَرٌ

ويتكرر الحديث المأثور عنه في حرصه على تطهير أمته من الكذب ، فقد روى أنه سئل صلوات الله وسلامه عليه : هل يسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : قد يسرق ، قيل : وهل يزني ؟ قال : قد يزني ، قيل : وهل يكذب المؤمن ؟ قال : لا... لقوله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . ويروى عنه قوله عليه السلام : يطبع المؤمن على الخصال كلها إلا الحيانة والكذب « وإذا أمعنا في تحليل الحيانة رددناها إلى الكذب لأن من حملته أمانة فتحملها ثم خانك كان كاذباً في إجابتك لتحملها ، أفليس الكذب هو مخالفة الإنسان عقيدته فيما يقول أو يفعل ؟؟ ويروى عنه صلوات الله عليه قوله : ويل للذي يكذب ليضحك القوم ، ويل له ، ويل له .

وهكذا تستطيع أن تحبر صحفاً عريضة بتشديده النكير على الكاذب وحرصه الشديد على صدق اللهجة في القول والإخلاص في العمل حتى روى عنه أن قال : لا يغرنكم طنطنة الرجل في الليل وكثرة صلاته وصيامه ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته ، وكلا الإخلاص في العمل والأداء للأمانة يدخل في حيز الصدق ، ويروى عنه : أن من لا يزيههم الله ولهم العذاب الأليم من يمن بما يتصدق والمنفق سلعته بالحلف الكاذب .

لقت أسفت على إضاعة صديق لي من التجار كان حريصاً على صلاته وصيامه وكثير من واجباته حتى عثرت على هذا الحديث وذكرت أنه كان يصارحني بقوله : أحمد الله على أنني قلما عصيت الله وأدمنت على عصيانه إلا الكذب في انفاق السلع فإن التاجر لا مناص له من الحلف الكاذب لينفق سلعته . أحببت أن أصل من هذا كله إلى ما هو أبعد من كذب التاجر أو العامل في قتل الدين وتعريض الإنسانية من وراء قتله إلى التردى في هوة الويل والثبور ،

ذلك هو الكذب في السياسة ، السياسة التي هي عنصر أول في بناء الإنسانية والتي فطن لأهميتها الشاعر في جاهليته فقال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
فالفوضى في الناس مهلكة ، وإنما عمتاز الإنسان عن الحيوان بكونه مدنياً في طبعه ، وكونه مدنياً يلزمه أن يكون اجتماعياً والسياسة هي التي تفرض على الإنسان اجتماعه وتمدينه فإذا كانت السياسة هي التي تحمي الإنسانية من الفوضى وتفرض عليها الحضارة ، فإلى أين تقود السياسة هذه الإنسانية إذا كان الكذب والنفاق والرياء والخدعة من مقومات السياسة في العالم ؟؟

لقد سمعنا عن محمد أنه قال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته « فالرجل راع في بيته ، والمعلم راع في مدرسته ، والسيد راع في قبيلته ، والملك راع في سلطانه وهل الرعاية في كل ذلك إلا سياسة يروض الراعي بها رعيته بالحكمة في الهدى والتوجيه والتقويم ؟؟ فكيف يصح الكذب مقوماً لهذه السياسة ؟؟ وإذا السائس كذب في قوله أو عمله وهو يسوس رعيته فأين تكون هيئته من صدور هذه الرعية عندما يتضح لها أنه كاذب في قوله الذي يعد به وفي عمله الذي يرائي فيه ؟؟

لقد أباحوا للسائس أن يعد فيخلف ، وأن يتحدث فيكذب ، وأن يقول فيدجل ، وأن يعمل فيرائي ، ثم أباحوا له أن يهتك الحرمات أتي شاء وهو يملك رقاب هؤلاء الذين حملوه على عوائقهم إلى منصة الحكم وأجلسوه على مقعد التشريع ليدافع بلسانه الكاذب عن حقوقهم ، ويتولى بعقله السفیه وضمييره الخائن رعاية هذه الحقوق وصونها من أن تهدر .

لقد رأيت سفهاً من العامة في شارع الرشيد ببغداد يركب الحافلة التي أركبها وهو ثمل يترنح ورائحة الخمر تنبعث من فمه ، فتحاماه كل من في الحافلة أن يكون إلى جنبه ، وازدراه كل منهم ، وسخروا منه جميعاً ، ولكنه وهو ثمل شعر منهم بذلك فقال : ماذا تنكرون على ، هل فعلت منكراً لم يفعله الرئيس فيكم ؟؟ إنكم تزدرونني لأنني فقير لا لأنني ثمل ، وإلا فلم لاتذهبون

إلى الملاهي الكرى وترون الخمر على من تدار من ساستكم والمسيطرين عليكم؟؟
فأنتم لا تزدرون في شخصي السكر ولكنكم تزدرون الفقر»

فالتفت إليه وأقررتة على ما يقول ثم قلت له : انك أعقلنا فيما قلت ،

نعم لقد خبرت بنفسى في لبنان بلد الإشعاع ، كيف يصبح السائس عندما
تولى رعاية الناس في مجلس الحكم أو مجلس التمثيل ، يصبح في عالم يغاير عالمه
الأول ، فالملهى الذى يزوره لا عهد له به من قبل ، والسيارة التى تقفه لم يركبها
في حياته الماضية ، والمآذب التى يمدّها أو يدعى لها لم يتسن له الجلوس إليها من
قبل ، وهكذا خبرته في كل بلد عربى يفحش في خلواته إلى زملائه بالقول
والفعل طوال ليلة ، حتى إذا بزّه النهار إلى مكتبه أو مكان حكمه أحدق به
الجمهور يسألونه حقوقهم فراح يخطبهم ويمعن في الإبراه عن أنه قطع ليلة وهو
يفكر في أمورهم ويستعرض قضاياهم .

ورأيت رؤساء حكومات يبيعون الشركات الأجنبية في بلادهم مصادر
ثروة البلاد قبل أن يرأسوا ليمدوهم بالمال أيام الانتخاب فيبدلوا لهم عشرات الآلاف
من الدنانير ليتقاضوها ملايين فيما بعد ، وتنهال هذه الأموال من رؤسائنا على
الأفاقين من رعاى الأمة الذين يتقنون فن الهرج والمرج في الأرزقة ، فاذا
بالرئيس العتيد يصبح رئيساً واقعياً وإذا به يبيع الأمة بما أسلف من شرائها ،
ثم إذا به مجلس على منصة الحكم فيوقع العقوبة على السارق ليستر فقره والسكر
أو المقامر ليخطى بؤسه .

هؤلاء الذين يشهدون الخمار والمآخور وهم سادة الأمة المسيطرون
عليها باسم الحكم ، ثم الذين ينتهكون الحرمات في خلواتهم ، يشرعون في مجالس
الحكم العقوبات عليها ، هؤلاء هم الذين يعلنون المنابر في المحافل ويتصدرون
المجالس في المجتمعات فتتدفق البلاغة من جوانبهم وهم يعلنون الأمة بالصدق
في القول والإخلاص في العمل ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما
نحن مستهزئون»

هكذا يفعل الساسة في الأمم وخاصة أمتنا العربية يكذبون ويخونون تحت
ستار السياسة القائلة بزعمهم : ان الغاية تبرر الوسيلة» وتقرهم هذه الأمة

الملعون على الخيانة والكذب ثم لا تؤاخذهم بهما ، وإنما تصب اللعنات على المسكين في الشعب الذي يضطره بؤسه أو فقره لأن يسكر أو يسرق ثم تذهب منها الوفود إلى هؤلاء الساسة اللصوص الخونة فيطالبونهم بسجن الفقير البائس وتأديبه .

وهكذا لا تزال نرى هذه الأمة الضالة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان حتى اليوم تتلمس الأعذار له ولأعقابه من بعده في انتهاكهم حرمات الله وتشريعهم للأمة الكذب والنفاق وهتك المحارم بدافع السياسة ، وأنها تتيح للحاكم من وراء اجتهاده أن يفعل مالا يسوغ فعله لغيره ، فقد رأينا معاوية رأى العين ينحرف عن الدين في أمور سجلتها أقلام الفقهاء المؤرخين من أئمة الأمة ، ورأينا أعقابه من بعده حتى اليوم يفعلون فعله ، ثم رأينا بعد ذلك من هؤلاء الأئمة الغافلين من يلتمس لهم العذر ويحيز الرضى عنهم والتماس الرحمة من الله عليهم من هنا وصلنا إلى انتشار الظلم والفساد في العالم ، ومن هنا سادت الفتنة في الصدور ، وساد الإجرام في الرؤس ، وساد الظلم في الحكم ، وسادت الفوضى في الرعايا ، وأصبح كل امرئ غير أمين على ماله ولا عرضه ولا دمه ، كل ذلك نشأ عن كذب السائس ونفاقه وريائه وخيائته ومروقه ، فلو أخذنا بكتاب الله حيث يقول : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله فلا نحكم إلا الصادق ، ولو أخذنا بسنة محمد حيث يقول : كبرت خيانة أن نتحدث أخاك وهو لك مصدق وأنت له كاذب « فنحجر السياسة من حكم الخائن ، أقول : لو رجعنا إلى الكتاب والسنة في اختيار الحاكم لما عمت الفتنة فينا وساد البغي علينا ولرأينا الملائكة كيف تفر من ساستنا أميالا من نزن ما يخرج من أفواههم في المحافل وعلى أعواد المنابر .

وَاللَّهِ إِنَّ أَمْرًا يُعْكَنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرِقُ لَحْمَهُ
وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَقْرِى جِلْدَهُ ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ
ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ ، أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ،
أَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِفَةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ
الهام ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ وَيَفْعَلُ اللَّهُ بِكَ مَا يَشَاءُ .

على

هذه كلمات تصور للقارئ النبىه شخصية على بن أبى طالب التى ضربها
التاريخ مثلاً فى الجرأة والإقدام يوم الأحزاب إذ بارز عمرو بن عبد ود ، ويوم
خير إذ بارز مرجبا ، وقد تحامى أصحاب رسول الله وأنصاره الأبطال مبارزة
كل منهما ، أقول : من هذه الكلمات فقط يشعر القارئ بعظمة أبى الحسن فى
نفسه ، وعلو مكانته من بلاغة القول وسداد المنطق ، ثم ما يكمن وراء قوله من
همة فى حزم وقوة فى عزم واستخفاف بالحياة فى سبيل العز .
يا لله لهذه القوة فى المنطق ، وهذه البلاغة فى القول ، ثم لما يكمن وراءهما
من جرأة فى الإقدام ، وحرص على الموت بين يدى سلطان الحق فى نفسه ،
يا لله لهذا كله ينكره عليه من لم يؤت حظاً من فقه الرجال وإنصاف الحق من
الباطل ، فقد رأيت بعض السذج من أئمة الفقه ، رأيهم يقولون : ليس فى
عمل على تضحية ولا فداء لأن رسول الله قال له : لن يخلص إليك شئ تكرهه
منهم « فهو إذن آمن مؤمن .

عجيب قول هؤلاء وهم حفظة القرآن وفيه خطاب للرسول : الله يعصمك
من الناس « ثم هم يقولون بأن محمداً أشجع الناس ثم لا ينكرون هذه التضحية وهذا
الفداء على أبى بكر إذ آمنه رسول الله فى الغار بقوله : لا تخزن إن الله معنا .. « ثم ماذا
ينكر ابن تيمية على على بن أبى طالب مما يخوله أن يتنكر له ؟؟ فقد رأيت يجعل

أكبر الأحاديث قيمة في على موضوعه ، بينما لانجده يتحرى الأحاديث المرفوعة. في فضل معاوية بتكذيب ولا تصديق ، وابن تيمية يكاد يكون قديساً في نظر الغالبية من جمهور المسلمين ، فكيف يديح لنفسه تنقص الإمام على دون غيره. من الخلفاء الراشدين وهو أفضلهم في نظر الغالبية من هذا الجمهور ؟؟
فقد روى أحمد بن حنبل وهو إمام ابن تيمية قال : ما ورد لأحد من الصحابة ما ورد لعلي من ثناء رسول الله عليه « وفي السيرة الحلبية عن ابن عباس ما نزل في أحد من الصحابة ما نزل في علي ، فقد نزل فيه ثلاثمائة آية » فعلى ماذا نحمل ابن تيمية في تنكره للإمام على وجحوده فضله بتكذيب جل ما روى له في أمهات السير ؟؟ أفليس في هذا ما يثبت كرهه لعلي ؟؟ وما هي منزلة كارهه على عند رسول الله وهو يقول : لا يبغض علياً مؤثماً ؟؟

يعتذر البعض عن مثل ابن تيمية وأضرابه من السلفيين بأن قولهم هذا في على لم ينشأ عن كره ولكنه تهوين من شأن على حذراً من الغلو فيه المؤدى إلى وضعه في منزلة الألوهية وقد كان هذا بالفعل فقد أحب قوم علياً حتى ألوهه « ما أسفه الإنسان إذا ركب رأسه وهو يسمع ويبصر ثم لا يعقل ، من يسمع ؟؟ إن شيوينا السلفيين أرادوا أن يهونوا من شأن على خشية أن يرفعه محبوه إلى رتبة الألوهية ، أليس هذا من الحمق ؟؟ إن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان أهون خلق الله على خلقه ثم نرى أناساً ألوهوه وهم حتى اليوم يعبدونه. في جبال سنجار من شمال العراق ، فهل كان الخوف من تأليهه باعثاً لهؤلاء الشيوخ على التهوين من شأنه ؟؟ بل نجدهم على العكس فإن الغزالي وهو إمام لهؤلاء أنكر لعنه وأوجب الرحمة عليه لاحتمال أنه تاب ، فثبوت وقعة الحرة وقتل الحسين بن علي في عهده وتحت سلطانه لا يوجب اللعن عليه ولكن احتمال توبته ولو من طريق الظن يرفع اللعن عنه ويوجب الترحم عليه ، هذا هو منطق شيوينا الذين لا يزالون منا في مكان التقديس .

محاولون أن يهونوا من شأن على بن أبي طالب وهو أول مستجيب لرسول الله في الإسلام وآخر مضح في سبيله ، خشية من أن يصبح معبوداً ، ولكنهم يجبنون ونحسأون ويظاؤون رءوسهم حتى تتعفر جباههم بتراب الأرض عندما تمر بهم.

فرية من القول تشير إلى فضل معاوية الفاجر المارق من دين محمد فيقرون له ما روى عن ابن عمر مرفوعاً إلى الرسول أنه قال لمعاوية : أنت منى وأنا منك لتزاحمنى على باب الجنة كهاتين « يشير إلى أصبعيه ، يقرأون ذلك ويقولونه أو يسكتون عليه ، أما إذا وقفوا على حديث يشعرهم بفضل على فتراهم يتأولون ويتمحلون ، ذلك لماذا ؟؟ ليس لشيء إلا أن الله قد شاء أن يميز فينا الحديث من الطيب ، والغريب فيما أقرأ أن صاحب السيرة الحلبية يذكر عثمان فيأتى على محاسنه ومساوئه وأما معاوية فلا يذكر له غير التحاسن حتى كأنه أول مؤمن بالله وبرسوله وآخر مؤمن ضحى في سبيله ، فليسمع من كان له أذنان ثم يحمل كاتب هذه السطور على التعصب إن شاء .

ان العبودية في الناس للناس ليست وفقاً على ما نرويه من أخبار ترفع أناساً وتحط آخرين ولكن هذه العبودية وقف على الجهل والفقر في الناس فان الذين ألهوا علياً أو غير على لا يزالون إلى الآن يؤهلون سليمان المرشد في غرب سوريا بدافع جهلهم وفقيرهم ، فمن شاء رفع هذا العار عن الإنسانية فليؤد رسالة محمد في الناس ينقذ كرامة محمد وأمة محمد من عار العبودية ، ورسالة محمد قائمة على الأخلاق والعلم ، وهذان زعمان في أن يخضع العقل البشري للحق فقط ، فلنذهب أمتنا برسالة محمد كما نزلت ولنتوقف عقولها بالصدق فيما نسنده إلى محمد من قول والإخلاص فيما نخلفه به من عمل ثم نترك الحق يفعل فعله في الأمة .

فلنعد بعد هذا الاستطراد إلى بلاغة على في صدر هذا البحث فنقول : ان المنطق في قول على هذا ليأتى على أى عبقرى يقرأه إلا أن يشعر بأن علياً يفرض عليه احترامه وإكباره وتقديسه ، إذ جمع في هذه الكلمة الموجزة مالا يحيط به سفر جامع من بطولة الرجال ، انى لأتحدى أى أديب أو شاعر يمر بهذا القول . ثم لا يقف عنده ممعناً في الخضوع لاعتجازه .

لقد كان في عناية الشريف الرضى بجمع أقوال الإمام أو أهم أقواله ، عناية من الله في إظهاره على المظهر الذى شاء له الله ورسوله والمؤمنون به ، فان في هذه الأقوال بن خطب وكتب ، وبين أحاديث وحكم ، أقول : ان في هذه الأقوال عصمة للتاريخ من أن يجار عليه بالتكرار الحق في شخصية الإمام

على بن أبى طالب ، فلقد أمعن الأمويون مائة سنة ، والعباسيون مائتي عام جاهدين فى طمس آثار هذه الشخصية التى لم يكن ليقوى العالم على طمسها ، وعين الحق ترعى وتهيمن .

ان مارواه أصحاب السر من صحابة وتابعين فى فضل على لا يجعله فى مصاف الخلفاء الراشدين ، ولعلهم لم يرووا له فضيلة إلا وفى سرهم لمعاوية بن أبى سفيان أمثالها ذلك بما أعمل معاوية وحزبه الضال فى صلب التاريخ من دس وتضليل ، إذ اتخذوا من أصحاب رسول الله ثلاث فئات أخضعوها لأهوائهم ، أولها ، وهى أطوع الثلاث لهم وأكثرها استجابة لدسهم فى سبيل حطام الدنيا ، كانت تخلق الفضائل لمعاوية وأهله خلقاً ، والثانية وهى أكمل الفئات استجابة لهوى النفس ، فكانت تروى للصحابة وتناسى علماً والأئمة من صلبه ، والثالثة هى أشد الفئات جرأة على الله ، ولم تكن تتأثر بغير ما فطرت عليه من الكفر إذ كانت تفتى على الله بخلق المساوى لعلى وأهل بيته .

ثلاث فئات ساعدت الأمويين على تأصيل هواهم فى صدور الأمة ، ثم بعثه فى الأجيال بدعاً سيئة يشب عليها الصغير ويهرم الكبير حتى يومنا هذا ، ولسنا فى صدد تفصيل هذا المجمعل فإن كتب السير مشحونة بمجهود قرنين أموى وعباسى أعملوا دعائهم فهما على تضليل المسلمين فى الأسانيد حتى لم يستطع بعدها محقق إثبات سند أو قطع سند ، وحتى أصبحت الرواية قلقة متزعزعة لا يطمئن الباحث الحر إلى سند واحد مهما تظافرت عليه الرواة .

فخذ مثلاً : مولد رسول الله ، مكانه وزمانه ، ونحو بعثه : مكانه وزمانه ، ونزول الوحي عليه : مكانه وزمانه ، وهجرته : مكانها وزمانها ، ثم موته : مكانه وزمانه ، كل ذلك مختلف فيه ، وهكذا تستطيع أن تجد هذا الخلاف بين الرواة فى كل حركة أجازها الرسول إلى حركة أخرى ، وفى كل فريضة نزلت ، وآية نسخت ، فى كل صحابى آمن ، وآخر نافق ، فى كل غزوة غزاها وسرية أنفذها ، وحكم أثبتته وآخر نقاه ، كل ذلك نشأ عن تلاعب أعداء الإسلام من أمويين نفسوا على رسول الله سلطانه ، ومن شعوبيين حقنوا على الأسلام ، ويهود ومجوس دسوا عليه وكادوا له .

أقول : لسنا في هذا السفر بصدد البحث أو التنقيب عن مصادر هذه الفتن ومواردها ، ولكن الغرض الذي نستهدف له في هذا البحث حملنا على الإشارة إلى شيء من هذه القصص التي زخر ولا يزال يزخر بها تاريخ الإسلام حتى اليوم ، فكلامنا الآن على الإمام علي وهو الذي تضاربت فيه أقوال المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، فالبعض غالى في تعظيمه حتى قال قائلهم فيه : كل من والى على المرتضى لا يخافن عظيم السيئات حبه الأكسير لو صب على سيئات الخلق صارت حسنات والبعض غالى في انتقاصه حتى قال قائلهم فيه لدى قتله على يد ابن ملجم : يا ضرية من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش إحسانا انى لأذكره يوماً فأحسبه أو فى البرية عند الله ميزانا والبعض الآخر وقف وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء من أهل السنة المنصفين والشيعة المعتدلين .

ولكن هؤلاء جميعاً لم يضعوا الميزان الحق لمكانة علي من الإسلام لولا « نهجه » الذى هو بين أيدينا والذى يلقي على شخصية على بن أبى طالب ضوءاً كشافاً لا يرقى إليه الشك فى وضعه الذى اختاره له أخوه محمد منذ إسلامه ودفاعه عنه ، وأصر على هذا الاختيار حتى فارق الحياة وهو يقول : سيكون بعدى فتنة فإذا كان ذلك فالزموا على بن أبى طالب « بعد أن أعلن المسلمين فى حجة الوداع بقوله : من كنت مولاه فعلى مولاه » فكل فضل لعلى قائم ، فى تحقيقه والتثبت منه ، على ما جمعه الشريف الموسوى من أقواله فى كتاب أسماه « نهج البلاغة » فهو الذى يحكى عنه ويأخذ منه ثم يعود إليه .

الله

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

لا أعتقد أن « من » هنا للتبويض كما يقول النحاة ، فيكون المعنى : أن بعض الناس يشترون اللهو . وإنما هي للتكثير كما أقول أنا ، لأننا نجد اليوم سواد الناس الأعظم يشترون لهو الحديث كتابةً وخطابةً ، شعراً ونثراً ، ليضلوا أنفسهم أو يضلوا غيرهم ، فان تسعين من كل مائة طالب علم ، لدى الإحصاء الدقيق يبذلون صباح كل يوم ومساءً ، من المال الذي وقفه ولاية أمورهم على تثقيفهم ، جزءاً غير يسير ثمن هذا اللهو في أحاديث تنشرها الصحف الزائفة ، وهل هنالك صحيفة غير زائفة ؟؟ ، أو في كتب أمعن مؤلفوها الفكر في تضليل الشباب ، أو في ملالة قام على مسارحها بهلوانات يبيعون هذا اللهو .

ان طالب العلم اليوم ، وأقول هذا عن خبرة لأنى قطعت شطراً من حياتى معلماً ، أقول : ان طالب العلم اليوم حديثه وقديمه ، لا يدخل معهده الدراسى صباحه ومساءه إلا وهو يتأبط بعضاً من هذه الصحف أو تلك الكتب التى يبذل منشئوها ألوف الدنانير على رأس كل شهر للدجالين المضللين من أرباب الأقلام فى سبيل تخريجها للشعب ، وفى صميمه أولئك الأحداث ، ثم لا تجد من ولاية الأمور المسيطرين على الأمة سياسة وثقافة من يفكر فى الغاية التى كتب لها الكاتب وقرأ له القارئ .

ينقل لى المجاهد الحاج أمين الحسينى عن فترة تشريده فى ألمانيا أيام الحرب العالمية الأخيرة : أن وزير الإرشاد الألمانى استدعى صحافياً ضمت صحيفته حديثاً عن فنان إيطالى غير جدير بالتشهير ثم سأله الوزير : كم دقيقة يستهلك هذا الحديث من وقت القارئ ؟؟ فقال خمس دقائق ، قال وكم نشرة تصدر صحيفتك هذه على الملأ الألمانى ؟؟ قال : مليوناً وبعض المليون ، فقال الوزير :

إذن أنت تشغل مليون إنسان أو أكثر ، خمسة ملايين دقيقة من الوقت في قراءة إنسان لا قيمة له ، ثم هو إنسان غير ألماني ، أفيلغ به إيمانك بالإنسانية والقومية إلى حد شغل الملايين من أمثلك ملايين من دقائق الزمن بالتأفة من الحديث ؟؟ ثم كال له الجزاء عن لهُو الناس بما يضل عن سبيل الحق »

فياليت وزير الإرشاد الألماني يزور اليوم بيروت وبغداد ودمشق والقاهرة ، وهذه أمهات المدن العربية الإسلامية ليقراً ما تنشره أمهات الصحف تحت سماء العروبة التي أظلت نبي الإنسانية محمداً زمناً غير قصير كان فيه طوال حياته الخطيب البارع والمتحدث البليغ والكاتب العبقري ، ثم غادر هذه الأرض إلى سمائه وقد خلف قرآناً بين أيدينا يقول : ومن الناس من يشترى لهُو الحديث ليضل عن سبيل الله ، ويقول : ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ، وترك حديثه يقول : إن الله ليسألكم يوم القيامة حتى عن النفخ في الرماد »

رجل ألماني بعيد عن الإسلام بروحه وعقيدته ولكنه بعقله ، في صميم الإسلام ، هذا الرجل بحاسب الصحافي والكاتب في بلده البعيد عن التشريع السماوي المنزل على محمد العربي ، بحاسب الصحافي على ما يكتب أو ينشر أهو في صميم الحق فيهدى قومه ، أم هو باطل فيشركهم في ضلاله ؟؟ رجل ألماني يفعل هذا وهو بعيد عن مهبط الوحي ، ثم لانجد في أمة محمد مهيمناً أو مسيطراً يسأل الكاتب عما يكتب والصحافي عما ينشر والخطيب عما يتحدث وفي صميم هذا اللهو المضل جل ما يكتبون وينشرون ويخطبون ؟؟

كنت أقرأ قبل عامين وأنا في العقد الخامس من سني حياتي ، كنت أقرأ للأديب محمد التابعي في صحيفة « آخر ساعة » وقد أشرف على الستين من حياته ، مغامراته مع المغنية آمال الأطرش المعروفة بأسمهان ، وفي أوائل هذا العام قرأت للشاعر كامل الشناوي في نفس الصحيفة ، مطالعته في سريرة أبي نواس العارية ، وقرأت للسيد إحسان عبد القدوس في صحيفته : روز اليوسف وصباح الخير ، فصولاً مكشوفة الأدب ، وقرأت للسيد مصطفى أمين في بعض مؤلفاته أشياء كأشياء عبد القدوس والشناوي ، وكل من هؤلاء قد ودع شبابه

إلى غير رجعة ثم أجازوا جميعاً دور كهولتهم مثقلين بعبئ السنين الحافلة بالعبث واللهو .

كنت أقرأ ذلك كله أو بعضه ثم أفكر فأتساءل ونفسي : أليكون في هؤلاء قدوة للشباب الخالي من أعباء الحياة ، والبادئ في تلقى دروسها على السنة وأقلام هذه الفئة من قادة الفكر ؟؟ لقد كنا في عهد الشباب العارم أشد قسوة منهم على قلوب الأحداث فيما نكتب أو نخطب ولكننا لم نجز دور الصبي الغاوى إلى الكهولة حتى فطنا إلى ما يأخذنا به واجب الحياة من حكمة فيما نقول وإخلاص فيما نوجه . وأرى هؤلاء ، وأمثالهم كثيرون في القبيل الواعى ، قد أجازوا الكهولة إلى الشيخوخة وأوشكوا أن يفقدوا السوادين في الرؤس والأعين ، ثم لا يزالون في معزل عن توجيه الشباب إلى الحق ، فمن يعمد إلى بناء الأمة عن طريق اللسان والقلم إذا لم يعمد هؤلاء ؟ وهل في بلاد العرب أرجى للعرب من مصر ؟؟ ثم هل في قادة الشباب العربى المفكر أحرص على الشباب من قادة الفكر في مصر ؟؟ ولو لم تكن مصر قبلة العرب ، وأدباؤها قادة العرب ، وصحافتها مرآة العرب لما تمثلت مصر وأدباؤها وصحافتها بين يدي تشخيص هذا الداء القابض على نفوس الشباب العربى في محافل الوعي ومعاهد التدريس .

اللهو في الحديث أمام الواحى « الراديو » فلا نسمع خلال عشرين ساعة ، تدفع الأمة ثمنها مالا ودماء ، أكثر من ساعتين أو ثلاث في جد من وعظ وتوجيه ، ثم يطغى عليهما خليط من اللهو الصفيق بين غناء وعزف يسفان بالروح إلى مستوى الخنوع والضعف ، من شعر أو زجل لا عهد للناظم والزاجل فيهما بالفكرة والديباجة اللتين يرفعان بهما وعى السامع من حضيفض الأمية إلى ذروات الشعور بكرامة الفكر الإنسانى القائم على العلم .

واللهو في الحديث أمام الصحيفة ، فلا تقرأ إلا ما سهرت على تحبيره عيون لم تبصر غير المجون فيما يقول الناس وغير الجريمة فيما يفعلون ، فالقصاص جل همه أن يثير غرائز الأحداث فيما يبدع ، والكاتب أهم ما يحدوه للكتابة فصول تكبت النفس أو تثير الفضول ، والشاعر أعلق ما يكون ، وهو ينظم ، بالتأفة من الفكر والمائع من الأسلوب ، فالأمة العربية اليوم تعاني من كوارث الحياة

أقسى ما تعانيه أمة في العالم تحت وطء الزمن ، فهي في أمس الحاجات إلى كاتب أو خطيب أو شاعر أو قصاص ، يبعث فيها روح التمرد على الظلم ، والخروج على الجحود والجحود ، إذا بها تمنى بالخنايث والمجان ذوى الروح الانهزامية المائعة ممن يحترفون الأدب والفن ولا يفقهون من حلودهما إلا أنهما مثلث قائم على العبث واللهو والمجون .

واللهو في الحديث أمام الخطيب على منبر قلما يطأه قائل موجه ، فلا نسمع إلا قرقرة نجت من وراثتها فكراً أكل الدهر عليه أجيالا من العفن ، أو زمزمة نلمس من وراثتها غاية تعصف بعقل الناشئ فيستقبل الحياة بقلب أغلف وبصيرة هوجاء ، ذاك يزعم أنه داعية دين ثم لا يفقه من الدين إلا أنه كمامة تلجم الفم وإسار يغفل اليد ، وهذا يزعم أنه داعية دنيا وهو لا يفقه من دنياه إلا أنها دار متع هو والحیوان الأعجم فيها سواء .

ذلك هو اللهو الذى يأخذ به الله ويفرض علينا الاعتصام بالعقل من أن نفكر ثم لا ينتهى بنا التفكير إلا إلى أننا خلقنا عبثاً ، فالحياة إنما كانت لتعمل فيها تحت ظل الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على رسل الله الذين كانوا الصلة بين عالمى الأرض والسماء ، والذين إنما بعثوا بنواميسهم ليعضدوا العقل بالعلم ، ثم ليحققوا بالعلم وحدة الكون فيصعد أهل الأرض بفضل هذا الناموس إلى العالم العلوى متى شاءوا ، وليهبط أهل ذلك العالم إلى غيره من اجرام الكون متى شاؤوا ، ذلك ما يفكر فيه قادة الفكر اليوم بفضل العلم ، ولو فكروا قليلا بصعود محمد وعيسى إلى السماء لفقهوا أن صعودهما رمز لاختلاط الاجرام وتواصلها بفضل الناموس الذى أنزل عليهم ، وليس هذا الناموس إلا رسالة الحق القائمة على العلم والعدل .

تلك هي الغاية من وجود الإنسان ، فأى قول أو عمل يصرفه عنها فهو لهو ولغو لا ينبغي للإنسان أن يأخذ منهما إلا بمقدار ما يشوقه إلى إنسانيته كما يأخذ الطائى النائه في البيداء من ماء الغدُر الآجنة ما يتبلغ به القوة التى تبلغه الهدف الذى يرمى إليه وراء البيداء ، وبعبارة أوضح : إن الإنسان لا ينبغي أن يتخذ من اللهو غاية لحياته كما نرى كثيراً من الملوك وقادة الأمم الذين يمعنون في التهلك

على سيادة العالم ليظفروا باللهم في الحياة ، وينبغي أن نأخذ من الله بما نفقه أنه هو كما نقبل أحياناً على السخيف من القول أو العمل لنعلم كنه السخيف ونميزه عن الطريف .

من أجل هذا يعلم العلماء ضرورة كون الإنسان خليطاً بفطرته من الخير والشر وكونه مأموراً بالعقل يعصمه من الاسترسال في الشر وأن وجود الشر فيه إنما هو إيدان بسمو الخير عليه ، فلولا الظلم لم نترك ميزة العدل ولولا القبح لم نشعر بروعة الجمال ، وهكذا تصعد في فقه الحياة إلى أن وجود الشر فيها ضروري لمعرفة الخير ، وبضدها تتميز الأشياء :

أذكر أني كنت في حدثي ، وأنا أتلقي العلوم الابتدائية ، كنت منصرفاً ليلى ونهارى إلى العلم ، ولكني كنت كبقية زملائي في المدرسة ، نترقب ليالى الأعراس والأعياد لنشهد اللهو واللعب ، وكنت أرى كبار الغواة من ملحنين ومغنين يحاذرون أن يشعر بهم شيوخ البلدة وعلى رأسهم أبي الذي كان موضع احترام الشيوخ والشباب ، وكان بيته مفزعا لهم إلى الله ليالى الجمع وأيام التفرغ للعبادات في شهر رمضان وأيام العشر المحرم ، وهو الذي تسبب في بناء المسجد للعبادة ، وإشادة النادى لإقامة المآتم ولأعمار أهل البلدة فيما يعينهم من أمور دينهم ودنياهم .

كان لأبي هيئة في صلبي لم أقو معها على سؤاله عن سبب حجرة اللهو واللعب على شباب القرية ولكني كنت أسمعهم يقول : ما أسفه الإنسان يلعب وقد خلق ليجد » وكان حريصاً على وعلى إخوتي من أن نشهد الملاهي ، فكنا نتسلل إليها خفية عنه ، وكان يعلم ذلك ولكنه يتجاوز بعقله السماح ويقول : ما دمت تقومون بواجبكم في طلب العلم فسوف يحول العلم نفسه بينكم وبين سوء العقبي من لعب الناس ولهوهم »

كنا نسمع أن في القرية التي هي مولدى ومنشأى ، قصصاً وحكايات يقرؤن سيرة بنى هلال وعنترة العبسي ، والحصون السبع ، وألف ليلة وليلة وغير ذلك من نتائج العقول المتردية في سفاسيف العبث بالحياة ، أقول : كنا نسمع أنهم ، والفصل شتاء ، يجتمعون حول موقد عظيم في منزل كبير لهم يقص

عليهم من هذه السوالف أحياناً ومن مختلفاته أحياناً أخرى ، فيمضى الشتاء وهم يتننرون في النهار بما يسمعون في الليل ، وكنا نحن الصبية نتحسر على شهود مجالسهم ، وما أسرع ما دهمت الإنسانية أيام الحرب العالمية الأولى ، وبدأنا نسمع ونشهد المخترعات والمكتشفات من معجزات الأثير والكهرباء وغير ذلك من عجائب العلم الحديث وكان كل أولئك السامرين طعمة للحديد والنار في الحرب ، واستمرت هذه العجائب من بدائع العقل الجبار تترى على مجموعة الإنسان في حربه وسلمه حتى وصل إلى مناجاة الكواكب ، ثم لا يزال خلائف أولئك الذين درجوا ونشأوا على سر بني هلال وبني عبس وعلى خيالات واضعى ألف ليلة وليلة ، لا يزالون إلى اليوم يتغنون بتلك الذكريات ويروون أبناءهم سر الزير أبى ليلي المهلهل وأبى زيد الهلالي .

هذا اللهو الذى استهلك أجيالا من المسلمين ثم تأتى حتى صار بفضل الفنون الغربية مسارح ومراسح ، فزاد في استهلاك أعقاب تلك الأجيال منا ، وأصبحت الملامى تغص بالشباب شباب محمد الذى ضمن لهم المشى على الماء والصعود في السماء بالقرآن والمسجد ، بينما نجد المساجد وقفاً على العجزة والمعتمدين ثم نطلب مع ذلك رقينا من جديد ، واسترجاع ذلك المجد الذى كان وليد محمد ورسائله إلى العالم ، يوم كان العلم والدين صنوين في تدعيم البيت الذى نأوى إليه ، والصراط الذى نرد عليه ، أقول : هذا اللهو هو الذى أبقي علينا في البرك الأسفل من حضيض الهون .

ولتحدث قليلا بعد هذا كله عن مجالس اللهو وغزاته في عهدنا الحاضر ، وكيف يستغله ذوو النفوس المريضة من أعداء الإنسانية لأهوائهم ونزعاتهم : عندما زرت مصر في عودتي من أمريكا إلى وطنى لبنان ، زارنى أحد مواطنى اللبنانيين ، وكان يعمل في معاهد التمثيل ، وقال لى : ألا تحب أن تزور مكان عملى ؟؟ انك ستسر عندما ترى مصدر التمثيل السينمائي في القاهرة ، وإلى أى مدى بلغ به النبوغ العربى ، قلت : سأفعل .

ودخلت معه المعهد في اليوم التالى ، واسمه « ستوديو نجاس » وظل ساعة يطوف بى على الأبهاء والغرف والآلات المعدة لتكبير الأصوات والأشخاص

والأمكنة التي يتخرج عليها هواة الفن من هذا المعهد ، حتى إذا وصل إلى غرفة سرية حافلة بالرياش والأثاث الفخم ، قلت : ما هذه ؟؟ فقال : هذه خاصة بفلان « الممثل » يخلو إليها مع أية ممثلة أحبها من زميلاته وكنت حريصاً على الاجتماع بهذا الممثل لأسبغ عليه ما أكنه له من تقدير وإعجاب ، إذ لم أشهد له « فلماً » إلا وهو بالغ الدعوة إلى الأخلاق في توجيه الشباب ، قلت لمراقبي ، وهو أديب جابر : أحقاً تقول ؟؟ فقال : وكيف أكذب عليك ، أفتحسب أن ممثلاً أو ممثلة دخل هذه القاعة وهو يحمل صفة العامل النزيه الذي يخدم الإنسانية عن طريق الفن ؟؟ هذا الذي أقص عليك خلواته بزميلاته هو رأسهم فالى من أذهب بك بعد ؟؟

ويتحدث إلى الأستاذ فايد العمروسي عن هذا السلك قال : ان مدير الفنون للتمثيل وهو فلان ، لا يقبل أية فتاة تعرض نفسها للانخراط في ذلك السلك حتى تعطيه عهداً مخطوطاً وموقعاً بيدها أن لا ترد له طلباً ولو أفضى بها إلى أن تقف أمامه عارية من كل ما يسترها ، قال : وقد نشر ذلك بعض الصحف في معرض التشهير بسفاهة الحكم القائم على تهذيب الجيل وثقيفه .

ولقد أدى انهيار الخلق العربي في بعض محترفي الصحافة إلى أن نخصصوا فصولاً مطولة في صحفهم اليومية والأسبوعية ، تعنى بالشؤون الداخلية من حياة اللاهيات واللاهين ممثلين وممثلات ، ومغنين ومغنيات ، فتملاً بحور هذه الصحف القائمة على مال الشعب العربي ودمه ، من توافه ما يصدر عن حياتهم وحياتهم حتى الوقوف أمام المرأة والجلوس إلى المائدة ، وهذه هي أمهات الصحف في مصر لا تزال إلى الآن تستغل ذكرى ناريمان ومارغريت في زواجهما وطلاقهما ، ثم ذكرى فاروق في مبادلته ومخازيه ، ثم طلاق شادية من عماد حمدي وزواج سامية جمال من فريد الأطرش وإشغال القراء أياماً وليالى بسفساف ما ينشأ عن مثل هذه التوافه في الحياة .

وماذا يعنى الأمة ، وهي تن تحت وطء العبودية والاستعمار وتنوء بعبء الجهل والفقر ، من ذكرى ناريمان صادق مع فاروق ، أو ريتا هايورت مع على خان ، أو أمير موناكو مع عروسه ، أو ذاك البريطاني الشاب الحدث الذي

أحب آثار الفراعنة ، أو تلك الفتاة المتمصرة التي أحبت شاباً أمريكياً من وراء المذئباع .

أقول : ماذا يعنى الأمة من مثل هذه الأحداث التي شغلت العالم العربي أكثر من شهر في أهم صحفها ؟؟ أيعنينا أكثر من أن تحيط علماً بها في سطور كخبر حدث في العالم ؟؟ انه لا شك تقليد لصحف الغرب التي أتخمها الجدد فراحت تلهو بالمهازل ، ولكن أين الجدد من صحافتنا التي نقرأ ما همنا بها في بضعة أنهر بينما زحرت أنهرها بالجرائم واللهو والتضليل ؟؟ كل ذلك ليلهو الشعب عمداً أو خطأ ، عن تفادى ما يحدث به من أخطار تكاد تأتي على بقية ما يتعلل به من تراث ، هذه الصحافة التي يسندون إليها السلطة الرابعة في الأمة تحترف مثل هذه المهن ، فإذا يكتب المصلح وكيف يقول ؟؟؟

ان هذه المجالس القائمة على الفسق والفجور في داخلها ، وعلى اللهو والإغراء وسوء التوجيه في خارجها تكاد تغمر النشء الحديث في العواصم العربية والمدن التي تليها بالضخامة والرقى ، لقد تأثرنا بها الغربيين على غير بصيرة ، فان التخممة المادية التي أغفلت قلوب الغربيين عن روحانية الحياة فصرفتهم إلى اللهو واللعب ، لم ينلنا منها حتى الخبز ، فعدل إنفاق الفرد شهرياً في انكلترا لا مهبط عن عشرين ديناراً ، ومعدل أجر العامل في شمال أمريكا لا ينحدر إلى أقل من أربعة دنانير يومياً ، فاذا هبطت إلى المستوى الأدنى في أوروبا وأمريكا فلا تجد فهم أثراً للعوز فضلاً عن الإحساس بالحرى أو الجوع .

أما نحن ، فالعامل عندنا في أرفع مستوى ، لا يناله من الأجر أكثر من ربع دينار يومياً ، وأما الذين يقفون بأجورهم اليومية عند الثمن أو العشر من الدينار فهم السواد الأعظم من العاملين ، والعاملون لا ينهلون إلى العشرة بالنسبة للمائة من العاطلين ، وأكاد أصيب آلم إذا قلت إن مجموع الأمة العربية البالغة مائة مليون لا يزيد متوسط حياة الفرد الشهري فيها على ربع دينار ، ومن الناس من يحبون ، وهم كثر ، حياة لا تطيقها البهائم من شظف العيش وخشونة الحياة القائمة على الجهل والفقر .

فأين لنا أن نفكر في اللهو واللعب من حياتنا هذه ؟ أيكفى مجرد وجود

عدد ضئيل لا يتجاوز واحداً في الألف ، يملك وسائل البذخ والقصص منا ،
بينما نجد التسعمية والتسعة والتسعين قابعين في زوايا الخمول والهون ، أقول :
أيكفى ذلك مبرراً لأن ننصرف عن تحرير هذا السواد الأعظم من ذله وفقره
وجعله وبؤسه ، إلى نعيم وترف يكاد يستحيل إلى دموع تترقرق في محاجر ،
وعرق يتصبب من جبينه ؟؟

هل اللهو والعبث والدعارة في صحافة الأمة وأدبها وفنونها ، وأنديتها
ومخافلها ، قاصر في توفره وضروره وجوده ، على استطاعة الزر اليسر من
أمتنا ، بينما نرى الجمهور منها يتردى في حضيض يأكل معه التراب ؟؟ وهل
الغري الذي نقلده في السفاسيف مسؤل عن تردينا إذا لها واسترسل في لهوه ، وهو
العامل المكسود ليله ونهاره بما يفزع معه بما يكد وينصب ، إلى ساعة يفرغ لها
ويلهو بها ؟؟ ان اللهو واللعب يكادان في الغرب يصبحان من ضروريات الحياة
لكثرة الجهد عندهم في العلم والعمل ، أما نحن ، والعلم في بلادنا لا ينال الواحد
من كل مائة إنسان ، والعمل يكاد يكون قاصراً على البؤس والجوع ، بينما نجد
الأمية في الغرب أنذر من اليقظة عندنا ، والعمل عندهم مضمون للفرد من المهد
إلى اللحد .

أقول : أما نحن فماذا نبرر تهاكنا على مجالس اللهو والدعارة ، وماذا
نبرر صموت الحكومات القائمة على دنيانا ، وجمود الكهنوت المهيمن على ديننا ،
بماذا نبرر عمل النشء القاصر على اللهو وهو المأمول في غدنا لكل ما نرجوه من
حرص على تراث وسعى في سبيل حياة ؟؟

ان أثر هذا التحرر في امتهان الفتية والفتيات منا بدائع الفنون الجميلة
من رقص وغناء وتمثيل ، أقول : ان أثر ذلك تغلغل في صدور الأحداث من
الشعب ، من شهد هذه الفنون ومن سمعها على السواء ، فلقد نقل إلى بعض
هواة الفن وقرأت في الصحف الغاوية أن فتيات المسارح يتلقين آلاف الرسائل
في كل شهر من شبابنا العتيد ، وفي كل رسالة تفيض عواطفهم المرجوة للخير
الأمة بالتهالك على أقدام الفنانات ، وكثير من هذه الرسائل يكون مصحوباً بصور
المرسلين الحافلة بالتخنث .

ولقد دخلت بيت صديق لى فى بغداد فرأيت على جدره صوراً بالغة العناية
 لآمال الأطرش المعروفة « بأسمهان » فسألته ، وهو من أسرة متفقهة فى الدين ،
 فقال : إن حسناً ، يعنى ابنه الشاب فى كلية بغداد الطبية ، إن حسناً من هواة
 صوته الملائكى ، وإنه لا يجلس لطعام ولا لشراب إلا مستقبلاً صورتها ولا هجاً
 بذكرها ، وشهدت كثيراً من المجالس الخاصة محتدم فيها الجدل بين الشباب
 حول المثليين والمثلات والملمحين والمغنيات ، كأنهم فى مؤتمر يعالج قضايا الأمة
 بينما ينقل لى فى الشام بعض التجار المتصلين بألمانيا فى عهد هتلر قال : لقد
 طلبت لى عاملة فى الفندق الذى أنزله تحت سماء برلين ، أن تزور معى المتاجر
 لشراء بعض ما يلزم النساء لضعف لغتى ، فلبت الطلب ، ولما هبطنا لى الشارع
 قالت : كن متأخراً عنى وأنت تتأثرنى ، مترين أو ثلاثة ، قلت :
 ولماذا ؟ قالت : ان الفوهرر أصدر أمراً بأن لاتصحب المرأة فى الشارع غير
 زوجها أو أقرب الناس إليها نسباً ، فعجبت من ذلك ، وأدركت هى عجبى
 فقالت : فضلاً عن حجره الأفلام المثيرة لغرائر الشباب والقائمة على الخلاعة
 والمجون .

ولقد علمت من الدكتور صبحى أبى غنيمه أن اللواط كان فاشياً فى ألمانيا قبيل
 عهد هتلر حتى أن بعض الصحف كانت تخصص فى أنهارها فصولاً للدعوة إليه
 والإغراء به ، فلما ولى هتلر الحكم كان يأمر بالقاء اللائط والملوط فى قعر
 البحر بعد أن يوضع الثقل من الأصفاد الحديدية فى أيديهم وأرجلهم ، وقرأت
 فى بعض الصحف أن روسيا منعت مسارحها من عرض الأفلام الداعرة حرصاً
 على عواطف النشء من الانهيار .

فالفنون الجائرة على روح الأمة ليست قاصرة على اللهو بصرفها إلى توافه
 الحياة ، وإنما تتعدى ذلك إلى قتل الرجولة فى الأحداث وهى تدرج إلى مضمار
 السباق العالمى فى استباق العز والكرامة ، ولقد أجمع قادة الفكر الاجتماعى فى
 أوروبا للعهد الأخير على أن السبب الذى تردت به فرنسا بين يدي حرها مع
 ألمانيا ، هو أن الزمن الذى قطعه هتلر فى ترويض الشباب الألمانى على الانتقام

— ١٦٠ —

لكرامته والثأر من أعدائه ، كانت فرنسا تقطعه في جو من اللهو الغامر ، وكان شبابها لاهين عن تراثهم والحرص عليه ، بمحافل يعقلونها لانتخاب ملكات الجمال .

تلك هي عقبي اللهو في الأمة المفتقرة إلى قوة تدفع الضيم عنها ، وتدفعها إلى الحضارة والنمو لتثبت وجودها في العالم ، وذلك ما أحيت أن أعقب به على قول الله عز من قائل ، من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ... إلى قوله : أولئك لهم عذاب مهين .

لَا يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فِي الْخَلْقِ
أَوْ الْخَلْقِ أَوْ الْمَالِ، وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ

محمّد

هذا الحديث من مشبطات الهمم إذا لم يقرنه الواعظ أو الراوى بالآيات والسنن التي تأمر بحسن التخلق وبالعمل جهد الطاقة ، وتحصيله فيما يجب أن يسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول الداعي إلى الحق به : ليعمل أحدكم في سبيل المال حتى يكل ، وليعمل في اكتساب الخلق الفاضل حتى يستحيل إنساناً كاملاً ثم ينظر بعد ذلك إلى من هو دونه في المال والخلق وليغض عن من هو فوقه فيهما إذا لم يكن في طوقه أن يكونه .

لقد كان أتى يقرأ على هذا الحديث حتى كاد يطبعني على القنوع والخنوع لأن جل همي كان في الحياة وأنا ناشئ أن ألحظ من هو دوني في الكسب أدباً ومادة ، وأن أغضى عمن هو فوقى بهما ، دون أن أفكر فيما يدفع بي إلى أن أتحري الأسباب التي جعلت فوقى من هو فوقى فأخذ بها ، وأن أتحري الأسباب التي جعلت دونى من هو دونى فأتحاماها ، أليس من الجائر أن يكون الكسل هو الذي قعد بي عمن هو فوقى ، والنشاط هو الذي سما بي عمن هو دونى ؟ إذن فعلى من يعظ بهذا الحديث أن يفكر في عقبي ما يترتب عليه من فهم سيئ لما يرمى إليه .

أذكر ، وأنا صبي حدث ، أنى كنت أعول أبوى العاجزين محترفاً أوضع المهن في نظر العامة ، فكنت أقنع بما أنتج مساء كل يوم ، وهو مالا يزيد على عشرة دراهم ، وكنت مغتبطاً بهذا الفئ وأنا ألحظ من هو دونى في الإنتاج ومهنته مهنتى ، ولكن زميلاً لى سألتى مرة : كم تنتج في يومك ؟؟ فقلت : نصف ريال ، فقال : أراك غير نشيط في عملك ، تعال نعمل معاً فأنت شريكى وأنا أخوك وأبوك عاجز ان فعلى أن أعينك ، وشد ما كنت حى الأعصاب كبير القلب وأنا معه نجومب الشوارع ونعلن بضاعتنا لانفتر لحظة عن الدعاية لها والتألق فى عرضها ، وإذا بى لبضعة أيام أضيف إلى دخلى أضعاف ما كنت أنتج .

كان زميلي ، وهو يتحمل عني كثيراً من العبء ، يقول لي : أنت رفيقي في المدرسة وأبوك معلمي فعلى أن أكون بعونك في عمل لم تخلق له ، انظر إلى فلان وفلان من زملائنا لا يبيت أحدهما ليله إلا على نصف دينار فلماذا نبيت نحن على دراهم معدودة ، إنهما ليسا بأقوى منا أعصاباً ، ولا أصبح تفكيراً ولا أشد للمال فقراً ، فلماذا يكونان أوفر منا إنتاجاً ، إنا إذن لموتى وإنهما لجديران بالحياة ؟؟ قلت له : صدقت إن الحياة قبل أن تكون عملاً واجباً وجهاداً مستمراً ، هي زحام وتنافس ، ولن يبعث في الصدر همة وحرصاً على الجهاد والكفاح سبب أوثق من المباراة في ميدان العمل والتسابق إلى الغايات المثلى في حلبة الحياة ، ان المرء ، وهو يعمل ، عليه أن يلحظ من فوقه ليعين في الكفاح ثم يلحظ من دونه ليحمد الله على أن أجازه وأرى عليه .

ان التزاحم في الحياة بين أهلها على إحراز أكبر قسط من القوة فيها ، مفروض على الإنسان بفطرته والدين يقره ما لم يسيء إلى العدالة بين المتزاحمين ، وإلا فما هو معنى الكلمة الماثورة لأحد أئمة المسلمين القائلة : اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً ؟؟ وما هو معنى الآية التي تأمرنا بإحراز القوة : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة إذا كان عدونا يستعد لقوة لم نعمل لها اكتفاء بما لدينا من قوة دون قوته . ولقد ثبت أن الإنسان بروحه وبدنه ، ينمو على الرياضة ، فكلما ازداد ترويضاً لعقله على التفكير زاد علماً ، وكلما ازداد ترويضاً لجوارحه على الحركة زاد قوة ، ومناطق هذه الرياضة التزاحم والتنافس في الحياة ، ولذلك نجد الرياضيين يعقونهم إنما أحدثوا هذه المعجزات في وسائل الحياة والرياضيين بأبدانهم إنما هروا الأعين بالرمية والصراع وحمل الأثقال ، إنما كان ذلك منه بفضل الرياضة التي لا يحمل الإنسان عليها إلا الطموح والنظر إلى من هو فوقه في إخضاع الحياة .

أذكر ، وأنا في المدرسة الأولى ، كنت غراً بما أقول وأفعل حتى كنت في كثير مما آتته موضوع الهزء والسخرية من زملائي ، إذ كنت قروياً وهم مدنيون لأن المدرسة الوحيدة التي كانت تضمنا يومئذ تأسست في مدينة النبطية التي هي حاضرة جبل عامل الذي أنتمى إليه بنشأتي ، والقرية التي درجت فيها تبعد

بضعة أميال عن هذه الحاضرة فكنت أرد على المدرسة صباحاً وأغادرها مساءً ، وقبل ذلك قلما كنت أزور هذه الحاضرة التي كانت ملء سمع الأحداث من لدائي إذ يذهب آباؤنا إليها ويعودون بالسلع والهدايا لأنها البلدة الوحيدة ، بين مآت القرى ، تتمتع بسوق عامرة بالتجارة والصناعة .

والمدينة دائماً مصنع النباهة لناشئتها ، ومبعث العادات القائمة على الرقي والتحضر ، أما القرية فكانت ولا تزال ، إلى السذاجة والوحشية في نشئها ، أقرب منها إلى النباهة والنشاط فيهم ، لهذا كنت وأنا ابن القرية ، محط أنظار زملائي المتلمذين في مدرستهم ، يلتفون حولى ويستطلعون أمرى لأقول أو أفعل . ما يضحكهم ويغريهم بالهزء منى ، على أنى كنت حذراً جداً من أن أجعل لهم سبيلا إلى التماذى فيما يرمون إليه ، لأنى كنت ، إلى سذاجتى ، ذكياً سريع التأثير سريع الانطباع بكل خلق يتواضعون على أنه من صميم الرقى والتقدم . ولقد كان في المدرسة صبية غبرى هم قرويون مثلى ، وكانوا كما كنت مثار التفكه والدعاب لأبناء البلدة التى ثقفتنا معاً ، وكنت أشعر أنهم دونى فى الدكاء وأداء الوظيفة ، مما جعل المعلم يهتم بى دونهم ، ويتوسم فى الخير فوق ما يتوسمه فيهم ، لذلك كنت أتعالى عليهم وأوجه نظرى إلى زملائي المندنين . فأتحسس من عاداتهم وأزيائهم فأعمل على تقليدهم ، ورأيتهم يتباهون بتفوقهم على أبناء القرى فى إحكام الدرس وحفظه وحسن أدائه بين يلى المعلم ، ثم يدلون على غبرهم بدرجات الفوز فى الفحص آخر السنة ، فضفيت مجارياً لهم أعمل ليلى ونهارى فى التمكن من واجباتى الدراسية ، وتفهم الدرس قبل حفظه ، ثم الادلاء به أمام الأستاذ كأحسن ما يؤدى الطالب درسه فلا أسمع منهم إلا الهمس ومناجاة بعضهم للبعض الآخر بقوله : انه قوى وشاطر وجدع .

ثم لم يمر بى أكثر من بضعة أشهر حتى وجدتنى قريباً منهم محترماً فيهم ، يتأرون فى القرى إلى والتحسس منى ، وخصوصاً أبناء صفى ، إذ كانوا يتهافون على دعوتى إلى منازلهم ومبيتى عندهم ، ولكنى كنت أخشى أن أكون موضع احتقارهم بتصرفاتى إذ لا أزال قروياً بطعائى ومبادئى حين أخلو إلى نفسى وآوى إلى فراشى ، ومضيت فى جهادى حتى أنهيت عاى الأول وإذا بى أقفز

صفين في سنة واحدة وشاع ذلك في المدينة وهالهم الأمر أن تلميذاً قروياً قد استطاع أن يجتاز صفين في عام واحد حتى زار المدرسة زعيم البلدة واسمه « فضل الفضل » ليرى هذا التلميذ ويسمعه ، وقد كنت عند ظنه الحسن .

ولقد بلغ تأثري هؤلاء الذين كانوا فوق في المال والعلم وبالدين طبعاً لأن الدين بالمال والعلم أسمى منه بالفقر والجهل ، أقول : لقد بلغ تأثري إياهم وتحديهم بعد سنتين أن أصبحت الطالب الأول في المدرسة وأصبحت وكيل المعلم إن غاب أو مرض وأصبحت مرجع زملائي جميعاً بما يستعصى عليهم من الدروس ، إذ كنت أجدهم في انتظارى خارج المدرسة صباح كل يوم ، ليسألوني ما غاب عنهم من فهم جملة علمية أو قضية حسابية ، ولم تمض سنون ثلاث حتى أجزت صفوف المدرسة الست وكنت الأول فيها .

لقد كنت في ذلك كله مديناً إلى التنافس والمباراة والحرص على أن لا أكون دون من هو فوقى ، فلم أكن لأنظر إلا إليه ، ولم أكن لأقنع بما أنحدر به عنه ، وها هم رفاقي لا يزالون في البطيئة التي لا تنهد إلى عشرة آلاف من الأنفاس يحترف بعضهم التجارة والبعض الآخر الصناعة أو الزراعة ، وأنا أتقلب في آلدن ذات الملايين من البشر بين الغرب والشرق ولا أحترف غير الأدب الذي يعده كثير منهم مجلبة فقر وعناء ، أما أنا فقد وجدت فيه الخير والبركة وأحسبني أنفق على بيتي أضعاف ما ينفقون ولا أزال طموحاً أنظر إلى من هو فوقى في علمه وأدبه وماله ودينه وخلقه وأعمل جهدى لأكون فوقه أو مثله وأنف أن أنظر إلى من هو دونى في كل شئ .

ذلك لأنى ما وثقت بصحة هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أو لعلى ما وثقت بصحة الرواية التي أسند الراوى بها إليه حديثه هذا ، وأرى أن صحة هذا الحديث رهن بتصرف الراوى والسامع تصرفاً يحول دون جمودهما في الحياة ، فأنا مؤمن بأن هذا الحديث إنما يتوجه إلى من جاهد قلبه ما يطيق في أن يكون الإنسان الأكل حتى إذا عجز عن أن يكونه وجب عليه ، ليخفف من آلامه ، أن يلحظ من هو دونه ويغضى عن من هو فوقه ، ذلك هو معنى الحديث إن صح ، وذلك ما يليق أن نحمل عليه قول محمد في جوامع الكلم .

عَلَى أَشْجَعُ مِنِّي مَنْ شَرِبَ مِنْ إِنْاءٍ مُعْطَى

أذكر أني سمعتها من أبي ومن زميل له يدعى أمين قاسم بدر الدين ، قالاها أو قالها أحدهما في النادي الحسيني أيام نشأته في القرية التي نشأت على أرضها وهي « حاروف » إحدى قرى جبل عامل ، وقد كان للفئة الخاصة من أهل القرية ، أدباء وعلماء وشعراء ، مجالس تعقد لديهم وديانهم في هذا النادي إبان شبابه ، وكان الأدب والشعر يسود هذه المحافل ، وكان للنادي مكتبة تضم نفيساً من الآداب والعلوم قديمها وحديثها ، أذكر منها شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وديوان العراقيات ، وإنما أخص بالذكر هذين الكتابين لأنهما وحدهما كانا متداولين في المجالس تحدثاً وإنشاداً .

وأذكر ، وأنا صبي إذ ذاك ، أني سمعت هذه الكلمة النذيلة منهم فأمنت مفكراً فيما يقصد الإمام منها وكيف يكون أشجع منه من شرب من إناء لم ير الماء فيه ؟ ثم تساءلت ونفسي : إذن كل قومي الموالين للإمام أشجع منه لأن إناءهم الوحيد الذي يشربون منه جميعاً هو هذا الأبريق من الفخار الكثيف الذي لا يشف عما فيه ، وشد ما سمعنا ورأينا أناساً يشربون منه فإذا بهم يقدفون الماء فجأة من أفواههم لحشرة قلدة أو سامة تسربت إلى الأبريق وهو في مخدعه وهم غافلون عنه ، ولقد بلغني أن بعض الشاربين من هذا الأبريق نزل في جوفه فرخ ثعبان لا أدرى ماذا دهاه منه .

أما الخنافس والعقارب والصراصير والديدان وغيرها من حشرات الأرض فكانت في كل بيت وفقاً على مخدع التجربة والأبريق اللذين يحويان هذا الشراب العزيز من ماء القراح ، وما أندر في هذه البقعة من الأرض ، قلت لنفسي ، وكنت أجهل علم البيان ، كيف نكون أشجع من الإمام على ولا يزال العالم منذ أكثر من ألف عام يروي النواذر عن بطولته الخارقة ؟؟ ثم لم أسكت عن هذا التساؤل حتى أفضيت به في المجلس فضحك بعضهم ولعله أخى أو أبي ،

ثم قال : ستقرأ علم البيان فتفهم أن الإمام يعني زجر الظالم عن أن يشرب ماء لم يره ، وأن الإقدام على شرب هذا الماء كالإقدام على الموت والإقدام على الموت ما لم يكن في سبيل حياة غير سائغ في عقل ولا دين ، وشجاعة الإمام قائمة على هذا فقط ، والذي يقدم على الموت دونما عقل يفكر في الحياة هو بلا شك أشجع ولكنها شجاعة حيوان لا إنسان »

ذلك هو مضمون ما سمعته ولما أزل في مطلع العقد الثاني من سني حياتي أتأدب على أبي وإخوتي ، وهذا المضمون هو ما أتخيله اليوم أنه معبر عن تفكيرهم في إجابتي يومذاك ، لأن المجال بين هذه الفترة التي أحبر بها هذا السفر تحت سماء مصر الجديدة ، وبين تلك الفترة البدائية من حياتي تزيد على أربعين عاماً فقدت أهلي جميعاً وجل أصدقائي خلالها فلم يبق منهم من أذكر معه نحن هذا القول .

شئت أن أدخل من هذا الحديث إلى صلب هذا الناموس الأعظم الذي تنزل به الروح الأمين على محمد والخيرة من أهله وأصحابه ، وفي صميم هذا الناموس علم التربية ، وقد مر بالقارئ في هذا السفر شيء من تربية محمد لأُمَّته في حياتهم الاجتماعية ، أما خليفته على وهو باب مدينة علمه ، فبقينا على التربية الصحيحة في كلمته تلك فما أعجب هذه الفئة من الناس في هذه الفترة من الزمن على هذا الصعيد من الأرض ؟؟ نفر أميون ، في زمن جذب قاحل من العلم والحكمة ، على أرض كانت ولم تنزل منذ تاريخ البشرية حتى اليوم أفقر بقاع الله إلى نبع الأرض وغيث السماء .

هذه الفئة تنشأ في ذلك الزمن على تلك البقعة وفي هذه الظلمة من الحياة ، قائمة على تعاليم إنسانية يفتقر إليها العالم في عصر النور ، وسوف تبقى هذه المجموعة التي تعمر الأرض من بني الإنسان مفتقرة إلى تلك الفئة في ناموسها الأعظم الحافل بالحكمة إلى نهاية العالم ، في هذه الكلمة الماثورة عن تلميذ محمد تربية صحيحة للإنسان في تناوله الماء الذي هو عنصر أول في تقويم الكائن الحي ، كم في أسلوب هذه الجملة من بيان ؟؟ « أشجع مني من شرب من إناء مغطى » وكم فيها من ردع للإنسان عن أن يشرب ماء لا يراه ؟؟ وكم فيها من علم عريق

يكشف الجرائم وما تحمله من فتك بالإنسان لا يقدم عليه إلا من رأى الموت رأى العين وألقى بنفسه فيه ؟؟

أفلا تكون عناية المدينة الحديثة اليوم بتنزيه الماء وتنقيته من الجرائم ، تطهره بالمواد الكيماوية أو بتصفيته في مصانع تشاد خاصة به ، أقول : أفلا تكون هذه العناية وليدة ذلك الناموس الذى شرعه محمد وقام على تعزيزه على ؟؟ ان القرآن يجعل الماء عنصر الحياة الأول إذ يقول : وجعلنا من الماء كل شئ حى « فلم لا يكون تطهره قوام ذلك العنصر ، ثم لماذا لا يكون على ، وهو وصى محمد ، قائماً على ذلك التطهير وداعياً له ؟؟ وهل أبلغ في الدعوة إليه من قوله : أنا على الشجاع الأول فيكم لا أجروا على شرب الماء دون أن أراه لأتثبت من نزاهته وخلوه من الجرائم الفتاكة ، فمن لم يفعل فعلى كان أشجع منى باقدمه على الموت والله تعالى يقول : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »

هكذا ينبغي أن نشرح قول على ، أقول : على وأعنى به إمام الشيعة وقديسهم الأكبر تحت سماء الرافدين ثم أرى هؤلاء الغلاة في حب الإمام عليه السلام لا يحفظون أو لا يحتفظون بكلمة جامعة من نهجه ، فلقد زرت العراق من أجل هذا الإمام العظيم وفي صميمي أن أدرس فقه محمد إلى جواره ، وكنت أعز بما أستظهر من بلاغة الإمام ، وكانت هذه الكلمة الرائعة نصب عيني أينما كنت وحيثما حللت ، حتى وردت العراق وعممت وجهي شطر الغرى مرقد البطل على ، ويمر بي الركب على مدينة في قضاء الهندية تدعى « طويريج »

ويا لله من طويريج . . نزلنا في خان محاذ لشاطئ الفرات ، وبحين وقت الصلاة فأرد هذا الشاطئ للوضوء فاذا الشاطئ كله يكاد يستحيل قاذورة من كل ما يمججه الإنسان وهو يبول ويتغوط ، بحيث لا أرى مكاناً لقدمي بين هذه الحبات ، ثم ألحظ على بعد أمتار نساء يحملن الجرار ويردن هذا الشاطئ ليغترفن الماء الذى يشربن منه ويتوظأن به ، تلك الصدمة التى كانت أول عامل في ثورتي على تأخر قومي وانحطاطهم في التماس الحياة .

ولقد هون على هذه المصيبة بعد ، والجرح يسكنه الذى هو آلم ، أنى وردت النجف ، ونزلت في رحاب أبي الحسن . مشرع الإسلام والقائم على

تراث محمد عبقرى العالم ، فرأيت ، ويا لهول ما رأيت مما يبرأ منه على ومحمد ،
رأيت شوارع النجف وأزقتها وضواحيها نسخة مكبرة عن شواطئ مدينته .
« طويريج » ماذا فعلت فى تلك الرؤية ؟؟ وماذا شحنت صدرى من تردى .
هذه الجماعة التى يعمر بها أشرف مكان فى العالم بعد الحرمين ؟؟
ماذا يقول على لو رأى شواطئ الفرات ودجلة فى ضواحي المدن التى تكتظ
بشيعة ، وهو ينههم عن أن يشربوا الماء ما لم يروه بأعينهم نزيهاً عن كل قذى ؟؟
وماذا يقول محمد وقد جعل النظافة عنوان الإيمان فى المسلم ، لو رأى الفقهاء
من أمتة والداعين إليه بما يقولون ويفعلون يلبسون من الثياب ما يخطيه القدر
حتى يأكل أجسامهم ، ويأكلون من الأطعمة ما يغمره الذباب حتى يسبقها إلى
أفواههم ؟؟ ثم ماذا يقول محمد وعلى ، وقد شرعاً لنا أن نأكل الطيب ونشرب
الطيب ونلبس الطيب ، ماذا يقولان إذا طلعا علينا اليوم ورأيانا لا نأكل إلا
الحبيث ولا نشرب إلا الأخبث :

ففى رجب هذا العام كنت ضيف الروضة النبوية فى الحرم النبوى ،
وكنت أجلس صباح كل يوم بعد الصلاة والزيارة إلى بعض أروقة مع ثلة من
كرام الأصدقاء أذكر منهم الحاج صالح القزاز المشرف على ترميم الحرم ،
والأستاذ أحمد حسين رئيس حزب شباب محمد فى القاهرة ، ثم يغشانا الشيخ
ابراهيم الغلابى الدمشقى ومعه جماعة من أتباعه وهو صوفى عريق فى الافتنان
بما يدعو إلى الدين والفقہ فى الرواية عن محمد .

جلس إلينا هذا الفقيه ، ونحن نشرب اللبن ، ورآنى إذ وقع ذباب على
كوبى آنف من شربه ، فقال : اغمس الذباب فيه واشربه فان السنة تشير إلى
ذلك ، ثم تناول الكوب منى وغمس الذبابة فيه ثم أخرجها بعد أن سلقها جراحة اللبن
وشرب الكوب كله ، وهو يقول : إنما أشربه لثلاث تقول : أمرتك بما لم أفعل .
فما هو هذا الفقه ؟؟ ومن هم هؤلاء الفقهاء ؟؟ ثم من هو هذا الراوى
الصادق الثبت الذى يروى لنا سنة غمس الذباب فى الشراب الساخن وشربه بعد
إخراجه ؟؟ أهذا هو مثل من نظافة محمد التى سنّها لنا ؟؟ يا ليت محمداً وعلياً
عادا إلينا اليوم ورأيا ورثتهما فى الجامع الأزهر والحرم النبوى والمسجد العلوى

كيف يحيون في أماكن مغمورة بكل ما يزهق الروح من ضرر وقدر ، كيف يعيشون كالخشرات في مدن أو قري تغص شوارعها وتموج دروبها بالصبيبة الأحداث أقدر ما ترى الأعين وتشم الأنوف وتسمع الآذان ، ثم يريان شوارع باريس وبرلين ولندن ونويرك كيف تغسل بالصابون سحر كل يوم ، وكيف تغص هذه الشوارع بما لم نعهده إلا فيما يعداننا به في ظلال الفردوس ، ثم نزعم أنا لما تبع وأنهما من القوم براء .

لقد شهدت بعيني محفلاً دينياً في أحد بيوت الفقهاء العاملين بالنجف ، وكان يتوسط الحفل في باحة المنزل ، حوض ماء ، لا تزيد دائرته عن بضعة أمتار ، ورأيت أحد هؤلاء الفقهاء يطأطيء على الحوض ويغمس فيه وجهه ثم يتمخض ويستنشق بمائه بينما جلس إلى جانبه على نفس الحوض بعض آخر يغسل رجله من وضر خذائه ، والحوض ماء غير جار وليس فيه من الماء ما يستهلك أو ضار الأرجل والخط والبصق ، ولكم كنت نائراً على أمين الريحاني إذ كتب عن هذا الحوض في أحد مؤلفاته يبالغ في عفنه وتننه وأنه مرجع الشيعة في تطهير أوانيهم منه والتبرك بمائه وأنه ينجس كل عشرين يوماً مرة فلا يطهر حتى ينزح ويبذل ماؤه أو يصلى عليه الشيخ .

صحيح أن في هذه التهم فرية على الشيعة ولكن بعضها كائن ، وهو قذارة الحوض ولا سيما عند شح الماء ، وغسلهم الوجوه والأيدي والاستنشاق والمخمضة وتطهير الأواني للشراب والطهي بمائه وتكاد النفس تتقزز من نثر ربحه ، في هذا أوافق الريحاني ولكني أخالفه في أن ذلك مشروع وأن الحوض يطهر بعد تنجسه بصلاة الشيخ عليه وأنهم يتبركون بالشرب منه وأنهم يستعملون مياهه للطهي ، وأنه من القذارة بحيث يقضى على الزائر الغريب عندما يدنو منه ، كل ذلك مبالغ فيه ويقصد الريحاني منه تشويه المذهب وتحقير الطائفة التي تدين لله به وتستقبله على نهجه .

ومها يكن من أمر فان شيعة علي بن أبي طالب لا تتأثره في جوهر ما شرع لهم من مذهب ، والنظافة هي أولى دعائم السنن التي نههم إلى الأخذ بها وخاصة في الماء الذي يشربونه لأنه العنصر الهام في تقويم حياة الإنسان ، من أجل ذلك

أرى أن الإمام بعد أن أرسل كلمته الجامعة التي تبسطنا في تحليلها هنا ، أراه لا يرضى عن شيعة ما داموا متهاونين في الأخذ بها ولعلمهم بعيدون عنها ، ولعل أقدر ما تقع العين عليه في بلادهم هي الينايع ومصانع المياه .

مماذا هذا ؟؟ إنه من الجاهل بالعلم المفصى بالإنسان إلى الجاهل في الدين ، فلو أخذنا بأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، لاتسعت آفاق الفكر ولسما العقل بالإنسان عن أن ينحدر إلى حياة الحيوان فلا يفرق بين الدين الذي هو قول وبين الدين الذي هو عمل ثم لا يفرق بين العمل الذي هو حياة والعمل الذي هو موت ، هذا الإنسان الجاهل الذي يفهم أن كل طاهر نظيف وكل نجس قذر ثم يأبى أن يفهم أن كل نظيف طاهر وكل قذر نجس ومن ورائهم محمد يقول : النظافة من الإيمان ، وعلى يقول : أشجع منى من شرب باناء منطى

الله أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟؟

يقول لي الشيخ محسن شراره ، وكان زميلي في النجف أيام دراستنا الفقه ، وكنت أبحث وإياه علم البيان ، قال لي ، ونحن في بيروت بعد مغادرتنا العراق ، وكان رحمه الله يعاني آلام الصدر ، يقول : تعال معي إلى مختبر الطبيب أحمد سلامة وانظر بعينيك قلبي ورثتي تحت أشعة رنتجن ، وراقب بنفسك انتظام القلب في نبضه والرئتين في تنفسهما فقد أصبحت في شك من صدق الأطباء لأنهم يلحظون المادة قبل كل شيء يتصل بالإنسانية ..

ورافقته إلى المختبر وأنا أفكر : كيف أرى القلب والرئتين رأى العين؟؟ وما هي تلك الأشعة التي تحترق الجسم الكثيف حتى يشف عما وراءه؟؟ وكيف يمكن أن يكون في الوجود شعاع أقوى من أشعة الشمس المهيمنة على الوجود ولا نراها تحترق أبسط الأجرام الكثيفة حتى الورق؟؟ ان الله في خلقه شوتاً ، ولا يزال حتى اليوم يحول في روعي قول مؤدبي لي وأنا في صباي : ان ما ظهر لك يا بني من أسرار الوجود يتضاءل حتى لا يبدو شيئاً بين يدي ما خفى عنك لو اطلعت على غيبه « آمنت بالله وصدق مؤدبي .

ولما دخلنا المختبر قادنا الممرض إلى غرفة الأشعة وأقفل علينا النوافذ حتى أصبحنا في ظلام دامس ، شعرت إذ ذاك برهبة مما استقبل ، وكان كل ما أرى جديداً علىّ فلا أفقه من الحياة إلا أني حذقت علوم اللسان العربي وشيئاً من تطبيق الفقه الشرعي وأحسبني كما كنت أتلقي من أساتذتي الفقهاء أن علوم العالم هي وليدة علم آل محمد وعلم آل محمد كما يزعمون : هو هذا الذي حشرته في صدرى من كتابي قطر الندى وألفية ابن مالك في النحو ، وكتابي الشمسية والحاشية في المنطق ، وكتاب المطول للتفتازاني في البيان ، والمعالم والكفاية واللمعة في الفقه وأصوله ، أما العلوم التي تكشف لي الآن عن قلب زميلي حتى أراه بعيني كيف ينبض فهذا ليس من العلم في شيء .

وفجأة برق هذا الشعاع الخاطف مسلطاً على جسد الزميل فلم أر منه غير قلبه معلقاً في الهواء وأراه ينتفض بدقاته كالرقاص في ساعة الجدار ، ياهوتل ما أرى !! قلباً فقط ومن ورائي الطبيب يضبط دقات هذا القلب على ساعة يده ، وتمر لحظات فاذا بنا نتحدث على ضوء الشمس والشيخ محسن يسألني وهو مأخوذ بما أخذت به : كيف رأيت من عجائب العلم الحديث ؟؟ هل رأيت غير قلبي ؟ قلت : لا والله ، وأسأل الطبيب : ما كنه هذه الأشعة ؟؟ وكيف تخفي بعض الجسم وتظهر بعضه ؟؟ قال : انها أشعة قوية تتولد من زيت اكتشفه العالم رنتجن ، فسميت باسمه ، وأن العلم سحرها لكل ما يريد من الاطلاع على بواطن الأجسام الكثيفة ، فان شئت رؤية القلب دون بقية الجوارح كان ذلك كما رأيت ، وإن شئت رؤية الرئة أو غيرها من الأعضاء الداخلية كان لك ما شئت ، ثم إذا أردت إخفاء الجسم كله لترى ما فيه من معادن كرصاصة دخلت فيه من مسدس ، أو مسمار أو دبوس دخله عن طريق الفم أو غيره ، كان لك ما أردت .

إلى هنا أقف ثم أعود إلى الآية الكريمة في مطلع البحث : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟ فاللطيف يقابل الكثيف كالروح يتغلغل في البدن ولا يتأثر به للطفه ، أعني أن كيان البدن الذي هو هذا الهيكل بكل ما فيه مما ترى العين من اللحم وعظم ودم وأعصاب ، تحتله الروح مغلفة في كل جزئ منه ولا يتأثر بها في خلل أو نقص أو زيادة ، وكالنور يتغلغل في الكائنات ولا تتأثر به من حيث هذا الكيان الذي تتقوم به ، فاليوت يدخله النور ويبقى بيتاً ، والحي من إنسان وحيوان ونبات يتغلغل فيه النور ويبقى إنساناً ونباتاً وحيواناً ، ولا ينافي ذلك أن يكون النور مقوماً لحياة الحي لأن الحياة لطيفة أيضاً فلا ينافي تأثرها بالنور كون الجرم الحي لا يتأثر بالنور في كيانه .

وهكذا نصل إلى أن الهواء لطيف ويتغلغل في الاجرام الكثيفة دون أن تتأثر به في كيانها الجرمي ، فقد سمعت من بعض علماء الطبيعة أن البئر لو سدت وطلبت بالجلس ثم دهنت بالزيت لم يمنع ذلك دخول الهواء قليلاً أو كثيراً إلى غيابتها ، فاللطيف من خصائصه التحكم بالكثيف والهيمنة عليه لأنه أقوى منه ،

فالأجاء عند أهل الفكر أن الماء في جرمنا الأرضي يهيم عليه بقوة إذ هو ألطف منه ولذا كانت الأرض محمولة على الماء ثم أن الهواء يهيم على الماء بقوته إذ هو ألطف منه ، ولذا كان الماء محمولا على الهواء ، ثم نصل بعد ذلك إلى أن تيار الكهرباء العام هو مهيم على الهواء لأنه ألطف منه ، ولعل من اليقين الثابت عقلا أن تيار الروح المعبر عنه بالحياة في الوجود هو المهيم على هذه القوى المتداخلة لأنه ألطفها .

من هنا نعلم أن باري الكون المهيم عليه هو مصدر هذا اللطف الخفي المتغلغل في الكائنات حيواناً ونباتاً ، على أن عظمة اللطيف وهو يتغلغل في الكون كله وجزئيه إنما هي قائمة على الخبرة والدراية ، من أجل ذلك أردف اللطيف بالخبر ليدل على أن اللطف لا يوجب العلم في اللطيف ما لم يكن مشفوعاً بالخبرة في إدراك ما يتغلغل في كنهه ، فلدخول الهواء ودخول النور في الكوائن لا يعطى النور أو الهواء علماً بكنهها حتى يكون للنور والهواء خبرة في إدراك ما كانت له من أسرار .

فامعانك في ترادف الوصفين : اللطيف والخبر .. لإثبات العلم بالخلق : ألا يعلم من خلق .. يقف بك عند الروعة والإكبار لما طويت عليه تلك الآيات من بلاغة وحكمة وبيان ، فاللطيف الأول في الكون والذي هو مصدر كل لطف في القدرة على الايغال والتغلغل في كل كائن ، والخبر الذي هو مصدر كل خبرة في إدراك ما ظهر وما خفى من أسرار ذلك الكائن ، هذا اللطيف والخبر الذي هو فوق كل خبر لطيف إذا أخلق شيئاً كان خلق بعلمه وإدراك كنهه .

ما أروع قوله : ألا يعلم من خلق؟؟ ، أهو يخلق الخلق ثم لا يعلم خلقه؟؟ أنا فورد خالق السيارة، أو سنجر خالق المحيط الأوتوماتيكي ، أو أديسون خالق المصباح الكهربائي ، أنا أحد هؤلاء لا ينازعني أحد في أنني أدري من كل أحد بما خلقت ، ثم الله ، تعالى الله ، خالق الإنسان ينازعه الإنسان نفسه في علم نفس الإنسان؟؟ ما أعظم خالق الإنسان وهو يتنازل لإقناع الإنسان

بالبرهان ، وما أسفه الإنسان وهو يتغاضى عن عظمة خالق الإنسان وسمو حكمته فيه !!

كم يكون الواحد منا مزهواً بنفسه إذ يدرك الجمال في الحديقة وهو يتحسس من شكل الزهر فيها ولونه وعطره ، كم يأخذ الزهو إذ ذاك فيدل بنفسه على ما دونه من عوالم تنحدر عنه بالعقل والفكر ، ولكنه إذ تسائل نفسه عن سر الألوان لم تتحد في جذور النجم والشجر وفي فروعه وأوراقه ، ثم تختلف هذه الألوان في الأزهار والأثمار لوناً وطعماً وعطراً ، لكنه إذ ذاك نحساً عن أن يجيب نفسه ثم يطرق معترفاً بالضعف خاضعاً لقوة الإعجاز في قوله عز من قائل : سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه «القرآن» الحق : ومن عجب ما يمر بالإنسان من عبر ثم لا يعتبر : أن خالق السيارة أو الطائرة أو أية آلة حديثة يدرك مواطن الخلل فيها إذا اختلت بتحسسه من صوتها وهي تعمل ، ثم ننكر على خالق الإنسان إدراكه مواطن الخلل منه وهو يعمل ، بأشرافه عليه وتحسسه منه ، كيف ؟ ولماذا نجهز لأنفسنا القدرة على اكتناه السر فيما نعمل إن كان صالحاً أو فاسداً ، وننكر هذه القدرة على خالقنا فيما عمل فتعجب لإدراكه الخلل في القلب إذا ران عليه الشر وفي العقل إذا جال فيه الخير ؟؟ هكذا نصل مما نفقه إلى أن الحكمة في الإنسان هي لإحكام العين فيما تبصر كيف تبصر ؟؟ وإحكام الأذن فيما تسمع كيف تسمع ؟؟ ثم لإحكام القلب فيما يفقه كيف يفقه ، وأن الإنسان مشغول عن هذه الحكمة في نفسه : ان السمع والبصر والقوادر ، كل أولئك كان عنه مسؤولاً .. ثم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟؟

مَحْذَرٌ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ فِيمَ يُشَبِّهُهَا وَلَدُهَا ؟؟

قال ذلك عندما سئل عن المرأة : أنغتسل من الاحتلام ؟؟ فقال : إذا رأيت ماء ، فقل أترى ماء ؟؟ فقال للسائل : تربت يمينك فم يشبهها ولدها ؟؟ منذ ثلاثين عاماً حدث نقاش عنيف بين الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان في صيداء عاصمة جبل عامل ، وبين الطبيب شريف عسيران في تفسير آية : فلينظر الإنسان مم خلق ؟؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والرائب « أذكر أن حديث النقاش يومذاك شاع في أنحاء جبل عامل لما فيه من شطط في جرأة الطبيب على الآية وأن تفسيرها كما زعم صاحب العرفان هو خرافة محضة .

سمعت أن الشيخ أجاب السائل عن الصلب والرائب بأن المنى الذي يتكون منه الإنسان أول خلقه والمعر عنه بالماء يخرج من صلب الرجل وصلبر المرأة ويلتقيان في رحمها ثم يتكون هذا المخلوق منهما معاً « ويثور الطبيب على عقيدة أن المرأة تشارك الرجل في تكوين حملها من حيث أصل المادة التي هي الماء ، وإنما تشاركه في تربية الرحم للنواة بالغذاء من دمها في الرحم ثم من حليبها في الخارج وهو الصادر عن ترائبها »

هكذا أستطيع أن أوجه رأى الطبيب وإن لم أسمعته إلا مجملًا ، والا فلا يتوجه إنكاره للماء مع وجود كلمة : الترائب « إلا إذا اعتبر الخرافة عين الآية وأعيد الطبيب من الإلحاد ، هذا توجيهي ، وأما قول بعض الذين أنكروا على الطبيب إنكاره على الشيخ فيقولون : وما الذي يمنع من الحكم عليه بالإلحاد ؟؟ فقد شهدته قبل دخوله الجامعة الأمريكية لا يقطع فرضاً من صلاة أو صوم ، ولقد شهد لي من أئق بصدقه أنه كان يتهجد ، ثم لانشعر به إلا وقد خرج من معهد الأمريكان ينكر وجود الخالق « هذا ما دار حول ذلك النقاش يومذاك ولعله نزر يسير مما ساد ألسنة الناس بالقذف والإرجاف .

على أن الطبيب قدم على ربه ونحن في سبيل إخراج هذا السفر إلى العالم ، فكل ما نرجوه أن يكون قد ختم حياته بصلاح نفر من أسرته المعروفين بالتقوى ولكن هذا لا يحول دون التبسط في البحث حول هذه المشكلة ، لقد كان هذا الطبيب متأثراً بدعاة الغرب لا يرى ميزة لشرق على الإطلاق ، من أجل هذا كان إذا تحدث أو حاضر أو كتب جعل براهينه المنطقية أو التاريخية وفقاً على الاستشهاد بأقوال الغربيين أياً كانت ، ويضع أقوال الشرقيين ، وخاصة رجال الدين الإسلامي ، موضع السخرية من حديثه أياً كانت ، ما في ذلك ريب إذ تحققته بنفسى .

أذكر ، وأنا في بغداد وفي منزل الشيخ رضا الشيبى أو منزل السيد عبدالكريم الأزرى جلسة يقيمها نادى القلم ، ولعل ذلك في السنة السادسة والأربعين بعد التسعاية والألف لميلاد المسيح ، أذكر آنذاك أن الحرب اليهودية العربية كانت قريبة الحدوث ، ودعاة العرب واليهود لها كانت تشغل العالم ، والخاصة من العرب علماء وأدباء وساسة آخذون بأسباب القطعية لليهود ، أذكر إذ ذاك أنى سمعت الدكتور شريف عسيران يخاطب أحد رجال النادى بقوله : ما دخل العلم في هذه الأحداث ؟ ان العلم شئ والسياسة والدين والقومية أشياء آخر ، هب أن العرب يقاطعون اليهود سياسياً أو اقتصادياً ، أما ثقافياً فهذا لا يقره المنطق فانا في أمس الحاجة إلى علوم اليهود .

وانخفضت إلى جانبه ثم قلت له : لقد سبق الجواب عن قولك هذا على لسان عمر بن الخطاب قبل ألف سنة ونيف عندما أمر بتنحية نصرانى له شأن في علم الحساب وكان قابضاً على ضبط المال وتصريفه من خزينة الدولة ، فقال له بعض الحاضرين من رجاله : إنا في حاجة إلى مقدرته الحسابية وليس فينا من عملاً فراغه إذا أخرجناه ، فغضب عمر وقال : لقد مات النصرانى والسلام « أفلا ترون من يقوم مقامه بعد موته ؟؟ إنكم إذن لخاسرون ثم قلت للطبيب وزميله الذى أمن على قوله : هبوا أن يهود العالم منوا بخسف حتى لم يبق منهم أحد ، أفنتقلون بفقدكم وسائل العلم ؟؟

ان مقاطعتهم في الثقافة يجب أن تسبق مقاطعتهم في السياسة أو الاقتصاد

حتى ثبت للعالم ، كما أثبت أجدادنا ، أن في طوقنا أن نستقل عن العالم ثم نصبح قديمه للعالم » فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يزدوا على أن تبادلوا الابتسامات التي تخفى وراءها الهزء بقول من لم يدرس في جامعتهم ولم يتلقن دروسهم على أيدي المبشرين بالإلحاد عن طريق العلم ، ولم يعلموا أني درست العلوم الحديثة قبلما درسوها ثم أضفت إليها العلوم القديمة ، واني أوغلت في أمريكا شمالها وجنوبها فدرست بحوامي كلها كل ما كشفوه وأبدعوه ، بينما هؤلاء الساخرون لم يدرسوا علوم الغرب إلا عن طريق الغيب .

ولنعد إلى نقاش الطبيب مع الشيخ في أن المرأة هل تمنى كالرجل أم أنها حاضنة لمنه فقط ؟؟ الحق أن الآية الكريمة تحتمل الأمرين معاً : فيمكن أن يكون تكوين الإنسان من مائتين أحدهما يدفق من صلب الرجل والآخر من صدر المرأة ويلتقيان في الرحم ثم يمتزجان فيتكون منهما معاً هذا الإنسان ، والتكوين الكماوى بين أيدينا يعلمنا أن كثيراً من الأشياء يتولد من تمازج كثير منها ، ويمكن أن يتكون الإنسان من نطفة الرجل كنواة أولى ثم تحضنه المرأة في رحمها فيتغذى من دمها وبعد أن تلده تغذيه من لبنها الصادر عن ثرائها ، أعتقد أن العلم يقر هذا أيضاً ولا ينكر تأثير الولد بأمه عن طريق هذه الحضانة وهذا الغذاء الأولى كما يتأثر بأبيه الناشئ عنه .

ولكن تأثيره بالأم عام وأما تأثيره بالأب فخاص والعام لا يعطى الشبه الذى يعطيه الخاص ونعني بالشبه العام هو الصفة المشتركة بين الإنسان والإنسان بدافع التكوين العام الذى يشترك في خلقه الله والبيئة والمجتمع ، وتتميز الفروق العامة بين الأناسى لدى الباحث في الألوان والأشكال والأحجام من سكان الأرض عامة ، فلو كانت المرأة حاضنة فقط لما أشبهها ولدها شهاً خاصاً بحيث يدل عليها ، ولكانت دلالة عليها دلالة عامة كدلالة الزنجرى أو الصينى أو الأوروبي كلاً على بيئته قبل أن يدل على أمه .

فالذى يدفع الثانى ويقر الأول هو قول النبى صلوات الله وسلامه عليه في صدر هذا البحث : تربت يمينك فم يشبهها ولدها إذن ؟؟ ينكر الرسول هنا أن يكون شبه الولد أمه عن طريق الحضانة التي هي تكوين ثان أى عام للإنسان

لا تكوين أول أى خاص ، فالشبه المحسوس أو الشبه الخاص بين الوليد ووالديه لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التكوين الأول الناشئ عن تمازج النواتن في الرحم ، وبرهان ذلك أن العلوم الحديثة لم تصل بعد إلى إمكان تربية نواة الرجل ليكون إنساناً في غير رحم المرأة .

وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة في عصور مختلفة لإنتاج الإنسان من منى الرجل في غير رحم المرأة فأخفقوا في أرحام الحيوانات وأجواف الآلات التي كيفوها بمثل حرارة رحم الأنثى ورطوبته ، ومما يقوى برهان أن الوليد مزيج من المائتين : أن البيضة التي تحتوى على ماء الدجاجة التناسلى فقط ، أى لم تلقح بمنى الدبكة ، هذه البيضة تفسد تحت الآلة الحديثة المولدة وتحت أمها الدجاجة عند توليدها أيضاً ، من هنا نعلم أن التوليد في حاجة إلى المائتين معاً ، فالمرأة وحدها أو مع غير الرجل لا تلد كما أن الرجل وحده أو مع غير المرأة لا يلد .
صديق الله وصديق رسوله ويحقق كل علم يعاند الوحي وليس في العالم وحى حق يعاند العلم ، فالدين الصحيح يرافق كل علم ، كما أن العلم الصحيح يعزز كل دين .

عَلَى إِنَّ أَعْظَمَ الْحَيَاةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ وَإِنَّ أَفْظَعَ الْغِشَّ غِشُّ الْأُمَّةِ

رحم الله أنى كان على قلة حفظه من العلوم، فقيهاً بحسن الفتوى لمن يجهلها من عُشْرَائِهِ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ الَّتِي أَنْبَتْنِي تَحْتَ سَمَائِهَا قَرْيَةُ «حَارُوفٍ»، لَقَدْ كَانَ فَقِيهاً لِأَنَّهُ تَفَقَّهَ عَلَى رِسَائِلِ الْفُقَهَاءِ مِنْ مَعَاصِرِهِ أَمْثَالِ السَّيِّدِ إِسْمَاعِيلِ الْيَصْدِرِ فِي كَرْبَلَاءَ وَالسَّيِّدِ كَازِمِ الْبَزْدِيِّ فِي النَجَفِ وَكَثِيرٍ مِنْ فُقَهَاءِ جَبَلِ عَامِلٍ، إِذْ كَانَ بَيْنَنَا فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ مَنْزِلُ هَوَّلَاءَ، وَكَانَ أُنَى تَجْلِسِهِمْ أَيَّامَ زِيَارَتِهِمْ قَرْيَتَنَا تِلْكَ. وَكَانَ كَثِيرُ الشَّخْصِ إِلَى الْعِرَاقِ لِيَتَزَوَّدَ مِنْ ضَرِيحِ أُنَى الْحَسَنِ وَأَشْبَاهِهِ مَا يَفِدُ بِهِ كَرَمًا عَلَى اللَّهِ، وَلِيَتَفَقَّهَ فِي دِينِهِ عَلَى أَيْدِي أُولَئِكَ الْأَعْلَامِ مِنْ وَرَثَةِ النَّبِيِّ وَحِمْلَةِ قُرْآنِهِ، وَكَانَ إِذَا مَرَّتْ بِهِ سَنَةٌ لَا تُبْلَغُهُ صُومُ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي النَجَفِ، وَلَمْ تَلْبِسْهُ حَدَادَ عَشْرِ الْحَرَمِ فِي كَرْبَلَاءَ، كَانَ إِذْ ذَاكَ يُحَسِّبُ تِلْكَ السَّنَةَ عَارِيَةً مِنْ حَيَاتِهِ، لَا أُنَرِّجُمُ لِأُنَى فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَدُلَّ عَلَى أَنَّ فَقْهَ الْحَيَاةِ بِلَهِ الدِّينِ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْإِمْعَانِ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ، وَإِنَّمَا يَتَجَاوَزُ هَذَا الْإِمْعَانُ أَوْ يَنْحَلِدُ عَنْهُ إِلَى الْإِلْمَامِ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَلَقَدْ كَانَ أَبِي مِنْ هَوَّلَاءَ الَّذِينَ فَقَهُوا الدِّينَ وَأَدَبَهُ مَلَمِينَ بِهِ دُونَ إِمْعَانٍ فِيهِ.

سَأَلْتُهُ ذَاتَ يَوْمٍ: وَأَنَا أَقْرَأُ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، قَوْلُهُ تَعَالَى يُخَاطَبُ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا «سَأَلْتُ أُنَى: كَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَ عَصِمَةِ الرِّسُولِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي تَنْفِي بِصَرَاحَةٍ عَنْهُ الْعَصِمَةَ؟؟ سَأَلْتُهُ ذَلِكَ وَكُنْتُ لَمَّا أَزَلُّ فِي دِرَاسَتِي الْأُولَى، فَقَالَ: أَتَفْهَمُ إِنْ أُجِيبْتُكَ بِمَا لَا عَهْدَ لَكَ بِهِ أَمْ تَتْرَكَ هَذَا حَتَّى تَنْضِجَ فِي عُلُومِكَ؟؟ فَقُلْتُ: أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ وَإِنْ لَمْ أَفْهَمْ، فَقَالَ: «إِنْ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَى الْخَاصَّةِ مِنَ النَّاسِ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوَّلِيَاءِ وَمَنْ قَبْلَ مَنْزِلَةِ مِنْهُمْ غَيْرَ حَكَمِهِ عَلَى الْعَامَّةِ مِنَّا نَحْنُ أَمِينٌ أَوْ شَبِهُ أَمِينٍ، فَذَنْبُ الْعَالَمِ عَلَى قَدَرِهِ وَذَنْبُ الْجَاهِلِ عَلَى قَدَرِهِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَكْرُوهُ مِنَ الْخَاصَّةِ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ كَمَا قَدْ

يكون المحرم في العامة مكروهاً منهم ، وأضرب لك مثلاً قريباً من فهمك : أنا نرى مكروهاً من الشخص العادى أن يبول وهو واقف أليس كذلك ؟ فقلت بلى ، قال فاذا فعل الشيخ عبدالحسين صادق أو السيد مهدي إبراهيم ذلك أيكون مكروهاً منهم أم تراه محرماً عليهم ؟؟

وهذان الشيخ والسيد من الفقهاء المجاورين لبلدتنا ، وقد كانا محل التبجيل والإكبار منا ، فقلت : أعوذ بالله أتمكن أن يبولا واقفين ؟؟ وإلا فلا يصح لنا أن نتخذهما إمامين في الصلاة فضحكت ثم قال : وهكذا نصعد إلى الرسل والأولياء ، فإن الله يعتبر المكروه منهم ذنباً يستحق عفو وغفرانه ، فقد يكون رسولنا الأعظم قد ظن أن الفتح أى فتح مكة غير قريب وأنه كائن بعد عام أو عامين ، فكان ظنه هذا غير حسن بالحق الذى يدعو له ، وهو مكروه بالنسبة إلينا ولكنه بالنسبة إلى الرسول الأعظم إثم يفتقر إلى عفو تعالى فعب عنه بقوله عز من قائل : ليغفر لك الله ، وهكذا ينبغي أن نتأول كل ما يشتبه ويستعصى علينا فهمه من كتاب الله لنوفق بين العصمة في الرسل ، وإلا كنا وإياهم في صعيد واحد وهذا باطل ، أفهمت ؟؟

لقد وفر على أى كثرراً من جهد التفكير في مستقبل حياتي وأنا أدرس القرآن وأرى نسبة الأثم لكل نبي قبل محمد ، فكنت كلما مرت بي شبهة من ذلك رجعت بالذكري إلى قول أى فاطمأن إلى الحكم على أنها مؤولة وأن الرسل لا ينبغي أن يشاركونا في الأثم ، وإلا لقلت الثقة فيما يشرعون لنا من دين ولصح فيهم قول الملاحدة من أنهم أناس حاولوا السلطة والتسوا السيادة في الناس عن طريق الدين ، أفليسوا بشرأ مثلنا نخطئون ويصيبون ؟؟

وأرى أن هذا التأويل يوفر كثيراً من العنت على طائفة من المسلمين يقصرون عصمة الرسل على الوحى فقط وأنهم فيما عدا ذلك بشر مثلنا يجوز عليهم الخطأ ، ويستشهدون لذلك بأن النبي كان في كثر من المواطن يرى رأياً فينكره بعض الصحابة عليه فيجيب بقوله : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، مما يدل على أن العصمة في الدين لا في الدنيا ، وهذا هو عين الخطأ في الفكر لأن الدنيا ليست خارجة عن نطاق الدين ، وكان الأولى بهؤلاء أن يجعلوا هذا الحديث وأشباهه في عداد

الموضوعات ويرجعوا إلى الحكم بعصمة النبي في كل ما يقول ويفعل لأن قوله وفعله تشريع ، وإلا فما معنى شق صدره وتطهير قلبه ؟؟ ألتقبل الوحي فقط ؟؟ أم لتزجيه عن كل إثم ؟؟

على أنى بعد أن نصبت في تفكيري أعود إلى سيرة أنى في هذا فأتساءل ونفسي : إذا اعتبرنا أن المكروه من العامة هو محرم على الخاصة فلم نحكم على الخاصة بالعصمة إذن وقد اقترفوه وهو محرم عليهم وإن كان مكروهاً منا ؟؟ أليس الله قد عبر عنه بأنه إثم ؟؟ إذن فهو إثم وفاعله غير معصوم ، إلا أن يقال : إن العصمة إنما تثبت لهم في منطوق الناموس العام الذى هو الدين وهو قانون كلى ، وأما التأويل فهو استثناء ينال الجزئ منه ، ولعله من قبيل الشاذ في المنطق ، والشاذ لا يقاس عليه .

فلنعد الآن إلى صلب الموضوع بعد هذا الاستطراد ، الذى يستلزمه قول الإمام : إن أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأن أفظع الغش غش الأئمة « لقد صدق إمام البلغاء سلام الله عليه فان الخيانة عظيمة ولكنها من الخاصة التى تهيمن على الأمة أعظم ، وأن الغش فظيع ولكنه من الإمام المقتدى به أشد فظاعة لأن السواد الأعظم من الخلق يشخص في قوله وعمله إلى هذا الصنف من الناس وليس عبثاً قولهم السائد : الناس على دين ملوكهم » .

مررت بمصر لدى عودى من أمريكا في حدود العام الثانى والثلاثين بعد التسعاية والألف من تاريخ الميلاد ، وكانت مصر تموج بالهتاف لسعد زغلول الزعيم الوطنى ، وكان ذكره مدوياً على كل لسان وفي كل مكان فكان ذلك ، مضافاً إلى ما سمعت ، باعثاً في نفسى له التجلة والإكبار ، وشئت أن أراه وأصررت على ذلك ، ثم فوجئت بأنه كان لا يأكل الطعام قبل أن يقدم له شراب الخمر وأن صفة خمير لا تكاد تصدق على غيره وعلى غير زميله الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف ، ولما تحققت ذلك تضاءلت مكانته من نفسى ورغبت عن الاجتماع إليه وأصبحت في نظرى واحداً من الناس وإلا لكان محل التبعة في خيانة الأمة .

ويقول لى الأستاذ موسى كاظم حاكم لواء الحماة في العراق : لقد تحدث

إلى رجل ما ملء سمعى أدباً وعلماً حتى أكبرته ورأيت أنه من خيرة من تقتدى بهم في غمرة هذا الفساد ، وصممت على نصرته وتعزيز ما يدعو إليه من هدى ، ولكنى إذ بلوته علمت أنه لا يصلى وأنه يرى الصلاة إضاعة للوقت فسقط من عيني كأن لم يكن ذلك الذى تحدث إلى من قبل فلأ صدرى جلالاً وهيبه ، ثم قال : وأما أنت فقد كنت في نظري من عامة الناس إذ علمت أنك مررت بالناصرية وأنا حاكمها فلم تتصل بي وأنا المسؤول وأنت تزعم أنك أديب والاديب حريص على التحسس من كل من يتحمل تبعة الإصلاح في الشعب ، ولكنى إذ سمعت من مضيفك هنا أنك حريص على الصلاة أكبرتك وأحببت أن أراك »

سقت هذين المثلين لأبرهن على أن من لوازم القيادة في الأمة أو الهيمنة عليها أن يكون القائد المهيم مصلياً أو بعيداً عن الحمرة ، ولكن لأشير إلى أن الأمة عندما يتضمن دستورها الاجتماعى وناموسها الروحى حجر شئ وإباحة آخر كان على سائسها والحاكم الأول فيها الخضوع لناموسها والعمل بدستورها قبل كل فرد منها وإلا كان خائناً وكان عليه أن يتحمل تبعة هذه الحياة في كل من يقتدى به منها ، فالشعب العربى والأمة الإسلامية لاناموس لها غير الإسلام ولا دستور لها غير القرآن فأى رجل سادها كان عليه أن يمعن في تطبيق هذا القانون على نفسه قبل أمته ليكون فيها المثل الأعلى الذى تشخص إليه أبصارهم وتهوى عليه أفئدتهم .

لذلك قر في نفوس المسلمين أن الخير في الأمة لا يصدر إلا عن خيرها والشر لا يصدر إلا عن شرها ، كما قر في نفوسهم أن انحدارهم وانهار عزهم إنما نشأ عن المثل السيئ في قادتهم منذ تسامحوا في تطبيق الناموس الأعظم الذى هو القرآن ، على نفوسهم ومنذ سوا هذا التسامح لرعاياهم فسادت الحياة فيهم حتى قعدوا وحتى فقلدوا مقومات هذا التراث الذى عزوا به وضمن لهم سيادة العالم .

ان الغربى لا يتأثر قائده والمسيطر عليه بأخلاقه لأن المقروض في القائد أن يتسم بطابع القانون والقانون عندهم هو هذا الذى يتحلل من كل ما نسميه أخلاقاً أو ديناً ، والمادة التى وفرها له العلم والنصب في سبيل الحياة أمسكت عليه دنياه بمقدار ما أمسكت علينا دنيانا أيام تحللنا في ديننا وأخذنا من العلم بالنصيب الأوفى

تحت السلطان العباسي أو الأموي من قبله ثم أعقب ذلك فينا هذا الانهيار الذي لا نزال نعاني هوله إلى يومنا الحاضر وسيستمر بنا جارفاً إلى يوم القيامة ما لم نتلاف الأسباب التي رزحنا بها تحت وطئه .

أما الشرق وأعني به العربي خاصة أو المسلم على عموميه فيجيا حياتين مادية وروحية بخلاف الغربي القاصر على الأولى، وفي كلتا حياتي المسلم يفتقر إلى الدين لأنه يضمن الحياتين المعتنقيه معاً ، وربط إحداهما بالأخرى بحيث لا يستقيم حياً كاملاً إلا بهما معاً كما لا يستقيم الإنسان كامل الحياة إلا بروحه وجسده فإذا انسلخا بعضاً عن بعض فقد الحياة وخرج عن كونه إنساناً ، هذا هو المفروض في المسلم ، أما غيره فليس له من تراثه ناموس يشرع له الحياة مادة وروحاً كناموس الإسلام .

فاذا كان دستور المسلم ينص على أن دينه الرئيسي الإسلام كانت رسالة محمد سيد المسلمين أمانة في عنقه وكان عليه أن يؤديها على أتم وجه في قوله وعمله لأنه إمام الأمة وقلوة الشعب فعليه وحده تقع تبعة الإخلال بالنظام من سواد الأمة إذ هو حامى دستورها والداعى إلى الاعتصام به فاذا خان هذه الأمانة كان المسؤول الأول ، وإذا غش في أدائها كان المجرم الأول لأنه الأول في شعبه والرأس من أمته .

فشرب السيد الخمر ولعبه الميسر وأكله السحت وتركه الصلاة أو الصوم أو الحج ، وتعمده الكذب أو الغش أو الخديعة ، ونبذه الصراحة والصدق والإخلاص في القول والعمل ، كل أولئك جزئيات قد لا يضر بعضها فاعله وإنما هي في مجموعها كيان هام يتألف منه كلى عام يصمد معه الحكم القائم عليه إلى أجل ثم يطيح به وبسلطان أمته آخر الدهر ، من أجل هذا كانت الخيانة في الرئيس أعظم وكان الغش فيه أفظع ، لأن خيانة الفرد وغشه محدودان ولكن خيانة الرئيس أو الإمام أو القائد لا حد لها إلا في حدود الأمة جمعاء .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا
أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ . »

الله

لقد كان أمين الريحاني الأديب العربي المعروف في طليعة هؤلاء الذين
يسفهون الناس ، وأعني بالناس ما عناهم القرآن في هذه الآية وهم المؤمنون ،
فالناس والأناس والأناسي والإنسان والأناسين ، كلها ألفاظ تعبر عن الإنسانية
أو تشير إليها ، ويأبى العقل أن ينسب غير الإيمان لمن يتصف بها ، ولذلك
يحجبون صفة الإنسانية عن عقها من أبنائها فيقولون للمجرم أو للجاهل ليس
بإنسان وإنما هو حيوان أو جناد .

فالأستاذ الريحاني كان كثير الاستهزاء والاستخفاف بهذا الصنف من الناس ،
وكان يدعو للعروبة والتحلل من الدين ، ففي الكثير من مؤلفاته كثير من هذا
التحلل الذي يسميه أحياناً تحمراً ويعزو إليه حرية الرأي وحرية الفكر والتجدد
وما أشبه ذلك من مصطلحات هذه الفئة التي بليت بها العروبة قبل أن يبلى
بها الإسلام .

أذكر أنني قرأت له في آخر كتبه عن العالم العربي وهو ما نختص بالمغرب
الأقصى ، ولعلني لأخطئ هذا الحلدس ، قرأت له ما مضمونه : إنك لتصغي
إلى البعض من أهل العلم وهو يتحدث إليك فتملأ أذنيك حكيمته حتى إذا خلط
حديثه بالدين سمعته يخبط ويهذى حتى تحسب السفه وقفاً على عقله « ويوسفني
أن أقرأ هذا له بعد موته فلا يسمع ما أردته به كما سمع من قبل ردودي عليه
في انحرافه عن الإخلاص للتاريخ وهو يحرك كتبه الأولى « ملوك العرب » وكلماته
في بعض الصحف الأمريكية بلغة السكسون عن العادات الغربية في الشرق .

كنت إذ ذاك أردته في صحف لبنان لسمع وكان يسمع ويقرأ وأحياناً
أجتمع إليه فيتعذر ويمعن في الإبراه عن نيته الحسنة ويعد بأنه سيبيض ما سوده

في الطبقات التالية لكتبه ، ولكنه مع الأسف لم يبيض و بقيت كتبه سوداء في كثير مما لفته إليه ، ومن شاء فليقرأ أعداد جريدة لسان الحال في بيروت ومجلة العرفان في صيداء لستى ٢٦ و ٣٢ على ما أذكر ، أقول كنت أردّه ليسمع . أما اليوم فأردّه ليسمع التاريخ :

ينسب السيد الريحاني من يعتنق الدين ويدافع عنه إلى السفه والهذيان ، وأن العلم شيء والدين شيء آخر ، فإذا يقول في الحكيم ابن رشد الذي قطع حياته وهو يبنى فلسفته على الصلة الوثيقة بين الدين والفلسفة وهو الوحيد الذي سفه الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » إذ زعم هذا بعد الفلسفة عن الدين ثم ألف ابن رشد كتاباً يرد به الغزالي وأسماء تهافت « التهافت » .

وما قول السيد الريحاني في الرئيس ابن سينا وهو يقول في مقدمة أحد كتبه ولعله القانون وقد قرأتها بنفسى ، يقول فيها ما مضمونه : كنت إذا عترضنى فيما أدرس مشكل علمى واستعصى علىّ حله ، أعتكف للصلاة والصوم فما أغادر المسجد إلا وقد ألهمنى ربى حل ما أشكل علىّ .

وما قول السيد الريحاني في العلامة جابر بن حيان الرياضى المشهور ، والذي ينسب إلى اسمه علم الجبر والذي لا تزال كتبه إلى جانب مؤلفات ابن رشد والرازى وابن سينا تدرس في جامعات الغرب ، ؟ ولقد سمعت من الدكتور محيى الهاشمى الحلبي ، وهو يحمل شهادته العلمية من برلين ، قال لى ونحن على شاطئى يردى في دمشق : إن علماء الألمان يحارون كثيراً في أمر هذا الرجل « جابر » الذي لا يزال كثير من آرائه رموزاً لا يقدرّون على حلها .

ثم يزيد في حيرتهم أنهم لم يقفوا على أستاذ درس عليه غير جعفر بن محمد الصادق ، وهذا لم يأخذ العلم إلا عن آبائه وبطريق الوحي والإلهام ، إذ رأوا جابراً يقول عند كل قضية يدعمها ببرهان يقول : قال سيدى جعفر ... حتى تركتهم يعقلون المؤتمرات للبحث في أن العلم الأولى مصدره الإلهام والإلهام الحق لا يصدر إلا عن الأديان .

ما قول صاحبنا الريحاني في اعتصام هذه الفئة بالدين منذ ألف عام ولا تزال محل الثقة عند علماء الغرب حتى اليوم ؟؟ أكانوا يهدون ويخلطون إذ يبحثون الدين ؟؟

أو كانوا سفهاء في حكمتهم وعلومهم التي لا تزال مناراً للعلم حتى اليوم ، أكانوا سفهاء في تدينهم واستلهاهم ما أبدعوه من علوم وفنون عن طريق الأخذ بالدين والاعتصام بناموسه ؟؟

وهذا جبران خليل جبران الذي لم يصل إلى حد العبقرية إلا من وراء كتابه « النبي » الذي ترجم إلى أربعين لغة ، وقد قرأته فلم أجده فيه جملة إلا مقتبسة عن الإنجيل والتوراة والفرقان . كتب الأنبياء ومصادر الوحي والتزويل ولذلك أسماه « بالنبي » كما صرح بذلك مراراً لا أنه ادعى النبوة كما يزعم الذين واروا جثته وكتبوا على قبره « النبي جبران » افتراء عليه .

ثم ما قول السيد الريحاني في كتاب نهج البلاغة الذي كان هو نفسه يقدره ، والذي كان صاحبه الإمام علي موضع تقديس الريحاني عندما جاء على ذكره ، وما قوله في العلوم التي انبثقت من جزيرة العرب بفضل محمد حتى أنارت العالم وكانت هذه البدائع وليدة انبثاقه ، والدين الذي يسخر منه كان الطابع الأول لمحمد وخلفائه من بعده ، أكان هؤلاء سفهاء فيما بنوا وجددوا ولا يزال من يتأثرهم يبنى ويمجد باسم محمد ودين محمد وعلوم وفنون محمد وأهل محمد ؟؟ أكان أولئك هاذين بدينهم مخلطين في الدفاع عنه والدعوة إليه ؟؟؟

فلنعد إلى كلمة « الناس » هنا وروعة استعمالها في لحن القول : ينقل التاريخ في الأدب العربي : ان عائشة بنت طلحة زوجة الأمير المصعب بن الزبير كانت أجمل نساء عصرها وأكثرهن تديناً ، وكانت تحرص على أن لا يفوتها فرض صلاة في المسجد حتى صلاة العشاء ، وكان المصعب يغار عليها في مثل هذا الوقت فيمنع في إقناعها أن لا تذهب وتأبى أن توجيهه إلى طلبه ، وقد كانت مطبوعة على العناد وقاسية في معاشرته الزوج أبية على كل طاعة ، وذلك ما كان يعزز حبا في نفسه .

فعند ذات عشية إلى تأثرها خفية وهي تذهب للصلاة وكان الجو مظلماً ثم خالفها الطريق وكن لها في أحد المنعطفات ، فلما أجازته ولم تره غمزها بيده في كفها وعاد إلى كمينه فرجعت من حيث أتت ، فكان هو أسبق منها إلى المنزل عن طريق آخر وفي عشية اليوم التالي قعدت عن الذهاب إلى الصلاة في المسجد فسألها السبب

فقلت : كنا نذهب إذ الناس ناس ... فليتأمل من أوتي حظاً من بيان العرب روعة هذا الجواب ثم ليغد إلى فرقان محمد وقوله في صدر هذا البحث : وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ... قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء؟؟

فالله ، تعالى الله ، يعتبر محمداً وأصحابه الذين عرفوا الحق فآمنوا به أناساً ، وأما المنافقون إذ ذاك فاعتبروهم سفهاء ، وهكذا لا يزال حتى يومنا هذا منافقون يصمون المؤمنين بالسفه لأنهم آمنوا بمحمد وبلدين محمد ... ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . فقد نفى عنهم العلم لأن العلم إذا صح في الإنسان هداه وكان ثالث ثلاثة لا يتصل بحقيقة الكون ووحدة الوجود غيرهم بشهادة الفرقان إذ يقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ؕ فادرك وحدانيته إدراك سر الوجود وهو عين الإيمان بالحق في الكون .

وَيُحِ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ .. الْحَقُّ مَعَ عَمَّارٍ
مَا لَمْ تَقْلِبْ عَلَيْهِ دَلْمَةُ الْكَبِيرِ ..

محمّد

أما أن عماراً تقتله الفئة الباغية فقد صدق رسول الله فيه ، وأما أن تغلب عليه دلّة الكبر المعبر عنها بضعف الشيخوخة فقد كذب سعد بن أبي وقاص الأموي على رسول الله بنسبة ذلك إليه .

الحديث الأول مجمع على صحته في كتب الحديث ولذلك أجمعوا على أن معاوية بغى على علي ، وصدق رسول الله في أنه قائد الفئة الباغية التي قتلت عماراً ، وأما الحديث الثاني فهو من وضع الأمويين ليحطوا من قيمة عمار ويدفعوا لعن التاريخ عن معاوية ، وليس ذلك بهين على من فقه التاريخ وعرف كيف يتلقى الحديث عن رسول الله ، وكيف يمحّصه ويدفعه إلى محكمة العقل في إثبات صحته أو فسادة ؟؟

لقيت الأستاذ عباس محمود العقاد في مصر الجديدة ومعى الشيخ فهمي هاشم ، وكان العقاد قد أصدر مؤلفاً عن معاوية بن أبي سفيان وأنصفه في سلب العظمة عنه من نفوس الضعفاء ، لقيت الأستاذ العقاد فهنأته بكتابه الجديد وجراته على الباطل فقال :

« لأدري لماذا أجد في نفسي كرهاً متأصلاً للأمويين وعلى رأسهم معاوية ، هؤلاء الذين أسأوا إلى تاريخ الإسلام ولو طال بملكهم الأجل لما وصل إلينا من جوهر الدين شيء »

هذه « اللهة » قتلتني قتل الله من قالها مفترياً على الله وعلى رسوله بها ، لم تغلب دلّة الكبر هذه على أبي بكر وقد تولى الخلافة وهو أكبر سنّاً من عمار ؟؟ ولم تغلب على عثمان وقد جعله عمر في رجال الشورى وباعه عبد الرحمن ابن عوف وهو أكبر سنّاً من عمار ؟؟ أفكان عمار وحده المعرض لغلبة دلّة الكبر عليه فيكون على غير حق بانحيازهم إلى علي بن أبي طالب نافراً من الطلقاء وناقماً على الوزغ بن الوزع مروان بن الحكم وأبيه ثم على الباغي معاوية بن أبي سفيان ؟؟

أكان عمار مع الحق طوال حياته حتى عمد إلى نصرة على على معاوية فغلبته دلهة
الكبر فكان على غير حق؟؟ مالكم أيها الناس؟؟ وكيف تحكمون؟؟
أيقول رسول الله لعمار : إنك مع الحق إلا أن تغلبك دلهة الكبر « وكيف
تغلبه دلهة الكبر؟؟ ومتى غلبته؟؟ أحسن خلع بيعة عثمان؟؟ وهل بقي مسلم لم ينقم
على عثمان حتى عبد الرحمن بن عوف الذي أسند إليه الخلافة يوم الشورى؟؟
إذ هجر عثمان ولم يكلمه حتى مات ناقماً عليه؟؟ وحتى على بن أبي طالب فقد
عنه ناقاً عليه استخذاه لعشرته يعيشون في الأرض فساداً على مرأى منه ومسمع؟؟
أكل هؤلاء لم تغلب عليهم دلهة الكبر وقد غلبت على المسكين عمار بن ياسر؟؟؟
كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

أم غلبت دلهة الكبر على عمار إذ كان في صف على يوم حربه لمعاوية؟؟
ولماذا اعتزل إذن ذو الكلاع جيش معاوية بقومه ليرى أية الفئتين تقتل عماراً
إذ ثبت لديه حديث : يا عمار تقتلك الفئة الباغية؟؟ أكان ذو الكلاع وهو
سيد قومه حمير غافلاً عن ذيل الحديث الذي رواه بن أبي وقاص : إلا أن تغلب
عليه دلهة الكبر؟؟ ولم أجمع المحققون في تاريخ الإسلام على أن عماراً كان على
حق وأنه مات شهيداً لو صح لديهم حديث ابن أبي وقاص عن رسول الله؟؟؟
من يضع هدنة بيني وبين معاوية يا قوم؟ فقد أعلنت عليه حرباً لا هوادة
فيها منذ فتحت عيني على التاريخ ، فما تورعت ولن أتورع أبداً عن إدانته بكل
ما فلدح الإسلام والعروبة من خطب وما دهمها عن عاصف ، ولست أعني
بالحرب هذه التي يتبادل فيها المتخاصمان ضروب القتال ، ولكنها حرب يتصارع
تحتها حق أنتصر له وباطل لا يزال مجهز عليه منذ ألف عام في صلورٍ أكل الجهل
والحق عليها أجيالا من العفن .

ولقد شفا نفسي أناس محصوا التاريخ قبلي فابتلوا بأناس حجب الله عن
أعينهم أن تبصر نور الحق ، وعن آذانهم أن تسمع صوته وعن قلوبهم أن تفقه
برهانه ، من هؤلاء الذين محصوه وهم على وعى الشيخ محمد الغزالي في كتابه
« الإسلام المفقري عليه ، الأستاذ العقاد في كتابه « معاوية بن أبي سفيان »
والأستاذ سيد قطب في كتابه « العدالة الاجتماعية » والشيخ محمد الطيب النجار

في كتابه « الموالى فى العهد الأموى » لقد شفى هؤلاء نفسى بصرايحهم طغيان معاوية فى صدور من لا يزالون يرزخون تحت وطئه من جيلنا الحاضر، ليرفعوا غشاء الجهل عن ناشئة الفكر الحر فى عصر لا يسود أهله غير العلم الصحيح والدين القيم .

ولقد أعربت لهؤلاء عما شفى جهادهم فى الله من نفسى فعلمت أن أناساً ناوؤهم فيما أبرهوا عنه من حق ، وأن هذا المناوئ يرى خيراً فى معاوية ونهجه ، وأن له على الإسلام فضلاً لا يزال قائماً حتى اليوم ، فعمدت إلى استفهام هؤلاء بنفسى وهم من فقهاء مصر والعاملين على إحياء التراث الإسلامى .

أذكر أن كامل السوافيرى الأديب الفلسطينى كان مرافقى إلى أحد هؤلاء وكان إلى جنبه عندما سألتها عما دار بينه وبين السيد قطب من مناظرة فى مجلة الرسالة ، فانتفض ثم انهال على القطب بالسباب والشتائم، ولكنى صدمته دون أن أخرج وأنا فى بيته إذ قلت : لم نجثك لنسمع الشتيمة ولكن السيد السوافيرى نقل لى أنك رددت السيد قطب فى طعنه على معاوية وابنه يزيد ، فأجبت أن أعى ما رددته به ، وبالله منه إذ حملت وزجر ثم قال : ومن هو السوافيرى ؟؟ انه لا يستحق أن يكون مسماراً فى نعل يزيد « فقال السوافيرى : وأنا مالى ؟؟ » أما أنا فلم أملك نفسى من الضحك .

ثم التفت صاحب المنزل إلى وقال : وأنت ما قولك فى صحابة رسول الله يا أستاذ ؟؟ أليس من الصواب أن نرضى عن محسنهم ونستغفر لمسيئهم ؟؟ فقلت : دون أن أحابى ، أما أمثال على وأبى بكر وعمر وسلمان وأبى ذر وعمار فنعم ، وأما أمثال معاوية ومروان وابن العاص فما أطيق أن أسمع بهم إلا عن طريق الشتم واللعن والتجريح . فانكفأ على السوافيرى ويكاد ينفجر من الضحك ثم قال : ان صراحة الحومانى محبة إلى النفس ، وليس لى أن أقول شيئاً وهو عندى وأنا أحبه ، ثم انتهى بنا الحديث إلى موعد نجتمع فيه بأخيه لأرى عقله ومكانته فى حجر التاريخ .

ويلتقينا الشيخ صباح يوم الجمعة ونشرب القهوة وعصير الليمون ، ووجهه لا ينضب من البشاشة والترحيب ، ثم نتبسط فى الحديث القديم إلى ذكر السلف

فيمعن في الرضى عنهم والاستغفار لهم وأن المتأخرين لم ينصفوهم ، وأن في الجليل الناشئ من مجرؤ على النحت من اثلثهم بينما لم يصلوا إلى أدناهم منزلة « فقلت : صدقت ، وإذا به من وراء مجاملي له يترحم على يزيد ، فأعجلته عن القول وقمت أودع خشية من أن أسمع بأذني رضاه عن إبليس .

وبعد ذلك أصبحنا صديقين ، أدناهما إلى قلبي أصغرهما سناً بما فطر عليه من صراحة وعصبية في الرأي القائم على اعتصامه بالدين وأن المسلمين اليوم لا يعلق بهم من الإسلام إلا أنهم يشخصون إلى مصدره بالذكرى وليس في صلورهم ما يعتز به الإسلام من قول ولا عمل ، ففى نظره كل مسلم كاذب في إسلامه والإسلام يرى منه ، وأن الإصلاح في المسلمين يكاد يكون مستحيلاً .

ولنعد إلى دلقة الكبر هذه المعبر عنها بالشيخوخة الغافلة ، هذه المخلوقة للأمويين والمفتري بها على الله ورسوله ، هذه اللثة لم نجد رسول الله قد خص بها إلا عماراً المكنى ، لشدة يقظته ، بأبى اليقظان ، دلقة الكبر هذه قد نالت عماراً إذ خلع بيعة عثمان ولكنها لم تنل عثمان وهو يحمل آل أبى معيط على رقاب المسلمين وملاً حجورهم وأنجحارهم من مال الأمة حتى كان منهم مروان ومعاوية ويزيد ملوكاً وخلفاء لله ولرسوله في العالم ، هكذا أصبحنا في عهود الفكر الحر نتخرج عن أن نغمز الكتب « الصحاح » التي لا تغمز من الصحابة عليهم رضوان الله إلا من أنكر على الأمويين بغيرهم وأقام النكير عليهم أمثال أبى ذر وعمار وعلى ابن أبى طالب ، وهكذا يجب أن نطأطئ رؤسنا لمن يروى عن رسول الله ويجعل معاوية بن أبى سفيان أحد أسناده ، سبحانه الله هذا بهتان عظيم .

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْمَهْدَى لِقَلَّةِ
أَهْلِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبِيعَهَا
قَصِيرٌ وَجُوعُهَا طَوِيلٌ

عَلَى

في القرآن أكثر من آية يشير إلى قلة الصفوة من بنى آدم ، وهم الهداة القادة إلى الحق ، فيقول عز من قائل : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، ويقول : وما آمن معه إلا قليل ، وقوله : وقليل ما هم ، وهكذا . يغرز الإمام قول الله بنسبة القلة للسالكين سبل النجاة بقوله : لقلة أهله ... ولنتساءل الآن عن السر في قلة المهدي وكثرة الضال ، وفي ندرة المؤمن وطغيان الكافر ؟؟ أهو قلة الهادي وكثرة الضال في الخارج أم ضعف العقل وقوة العاطفة في الداخل ؟؟ أرى أن سهولة الظفر بما يرضى العاطفة وصعوبة الوصول إلى ما يدعو العقل هما السبب الأول في اندفاع الإنسان إلى الكفر وإحجامه عن الإيمان ، فالفضيلة مخفوفة بقيود يشق على العقل كثيراً تحطيمها ليعصم الإنسان بها من مزالق الحياة ، وأما الرذيلة فطريقها سهل إذا تحلل المرء من الدين وأمن سطوة القانون ، فكيف إذا نبذ الدين وظفر بالسلطان ؟؟

هذه هي النقطة التي وقف عندها الإمام بين يدي سلطانه وهو يقول لمن يتهمه بضعف السياسة : والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غدره فجرة وكل فجرة كفر ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيمة » ويقول في موطن آخر : قد يدرك الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله ثم ينتهز فرصتها من لاجريجة له في الدين » ويقول أيضاً : لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب »

عند هذه النقطة أي نقطة التخرج من الدين ليتغلب على معاوية بالغدر والنفاق وهدر المال المحجور من ورائهما في سبيل الغلبة والسلطان » أقول : عند هذه النقطة وقف الإمام : أيعمل بالقاعدة القائلة : الغاية تبرر الوسيلة ؛

وقد كان يفعلها محمد صلوات الله عليه في سبيل التأليف أيام تشريعه، أم يعتصم بناموس محمد بعد أن ختمه بقوله : اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً « فلا يرى بعد ذلك مساعاً للتصرف بالدين تصرف المشرع الأول والمستتر الأخير ؟؟

وآثر أخيراً أن نحسر هذا السلطان وهو يتأثر محمداً وأصحابه على أن يظفر به وهو ينافس معاوية في احرازه عن طريق التحرج والتحلل ، لهذا قال : ان الناس قد اجتمعوا على مائدة شعبها قصر وجوعها طويل « فما أروع هذا التشبيه وما أبينه للغافل الذي يفوته معرفة أن السلطان الجائر كالمائدة التي تشبع آكلها إلى أجل ثم يعقبها جوع بغير أجل ، فكم تتمتع معاوية وأصحابه بالشعب من تلك المائدة ؟؟ إنها أعوام قصيرة ثم انقلبوا إلى حيث يحصلون ما زرعه من غدر وخيانة وكفر ، في عالم لو أخلفوا فيه ما أخلفه محمد وأصحابه البررة لما بقي غير مسلم في العالم .

ولذا أمعن القارئ في نهج الإمام يجد أن نعمته على الغدر في سياسة الناس والخيانة في السياسة منهم ، يجد أنها العامل الأول في تشاؤمه بالحياة وخوفه على الدين ، لاعتقاده أن السياسة هي العنصر الهام في تقويم الأمم وطبعها بالطابع الذي تخلد أو تفضي معه ، فالسائس أو القائد أو الرئيس أو الخليفة أو الملك أو الحاكم ، خذ ما شئت من هذه الألقاب تجدها المثل الأعلى للناس يتأثرونه ويقتدون به وينسجون على منواله ، ولهذا قيل : الناس على دين ملوكهم ، لما قر في الأذهان من أن ملك الناس هو أسمى الناس شخصاً فينبغي أن يكون فيما تخلق به أسمى الناس اخلاقاً ، فاذا كان هذا الملك أو هذا السائس مثلاً أدنى فيما يسوس ويملك والناس وراءه ، فاذا تكون عقبى المسوس له والمملوك به في الأمة ؟؟

إذن : فالإمام يرى : أن قلة السالك في طريق الهدى يرجع إلى قلة الإيمان وقلة الإيمان أو كثرته إنما يتأتى عن الجور في السلطان أو العدالة فيه لأن السلطان هو باب الأمة إلى حق أو إلى باطل ، والمسيطر على الأمة ما لم يكن أفضل الأئمة فلا يصلح أن يكون مثلاً أعلى لها ، وإذا لم يكن كذلك طبع الأمة بطابعه

فكانت مثالا عنه ، لأن الرئيس في الشعب بمنزلة الرأس من الجسد ، وظيفته القيادة ووظيفة الجوارح الخضوع له والائتمار به ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد وإذا فسد فسد .

فلنستعرض ، على ضوء ما يشرعه الإمام ، ساستنا اليوم وقادة الفكر فينا ، وولاة الأمر منا ، هل يتسع لهم طريق يفضي بهم إلى نجاة ؟؟ ولنعمد أولا إلى البحث عن علل الفساد في الحكومات كيف تدمرها وكيف تدمر شعوبها آخر الأمر ؟؟ ان ما اتفق عليه حكماء كل عصر منذ فجر التاريخ الذي تقوم به العصور ، هو أن للإنسان غرائز كانت معه في أزليته ، وأخلاقاً هبطت عليه باستلهاهم أو بوحى من ربه ، هذه الغرائز وتلك الأخلاق تقوم بها إنسانيته ، فالغرائز تدفعه إلى الحياة ، والأخلاق تهذب في اندفاعه معها كيلا تغلب حيوانيته إنسانيته ، فهو يتدفع بطبعه نحو المرأة مثلا فيمسكه العقل الذي هو وليد الشرع أو القانون عن أن يجنى أو يجنى عليه .

فالعقل الملهم لم يشرع ضرورة الصديق مثلا للإنسان إلا لأنه عنصر هام في تقويم حياته الإنسانية ، وهكذا نجد أن الأمانة والوفاء والرحمة والعفاف والمحبة والإيثار والتضحية وأمثال هذه ، إنما هي نواميس شرعها العقل الحكيم لبقاء الإنسان وحجر عليه اضدادها كالخيانة والغدر والقسوة والفسق والأنانية والخسة وأمثالها حذراً من تلاشيهِ ، وقد جرب الإنسان في كل عصر أن يغير أو يبذل من حلقات هذه السلسلة التي تواضع الحكماء على أنها ضرورية لبقاء الإنسان فلم يستطع ولعله جرب في سائر عصوره الإخلال بهذا النظام فكان سبباً في دماره .

والآن نجد في عصرنا الحديث بعض الشعوب يتجاوز هذا النظام في بعض بنوده فيتحلل من العفاف الذي نسميه الزواج أو الإمساك عن الزنا ، فيقع في مشاكل تنحل معها إنسانيته وتهاوي قوميتها كما أصاب إيطاليا وفرنسا في عصورهما المتأخرة واسمع ما قاله رئيس جامعة « إنابر » في ولايات مشغن من أعمال أمريكا الشمالية ، قال في حفل كنت من شهوده سنة « ١٩٣١ » عندما شرعت هذه المملكة تحريم السكر والبغاء ، قال يعلل ذلك : إن تحرر الفتاة

عندنا من العفاف حال دون التزاوج وأصبحت المرأة أحرص ما تكون على جبالها من الحمل والولادة وخشيت الحكومة أن تنقرض الأمة بعد جيل أو جيلين لذلك شرعت تحريم البغاء ، ورأت أن الجرائم التي تنشأ عن السكر تفوق الجرائم التي تحدث عن أى شذوذ آخر فى الأخلاق فشرعت تحريم الخمر .

ولكن أمريكا الشمالية هذه رجعت بعد عامين عن هذا التحريم لأنها لم تجده فعالاً ما لم يتضامن العالم معها على تحريمه وعلى تحريم الخيانة والكذب اللذين كانا سبب إخفاق هذا القانون فى الشعب الأمريكى إذ شرع فى تهريب الخمر باسم الأشرية المختلفة الألوان ، وفى اقتراف الزنا باسم الحرية فى الصداقة بين الرجل والمرأة وهما أجنبيان .

أما الكذب والخيانة فيكفى للتدليل بهما على هتك الإسلام وتضليل المسلمين ما كان من معاوية وابن العاص الأمويين على عهد على بن أبى طالب من حمل قميص عثمان ورفع المصاحف على رؤس الرماح يوم صفين إذ غطى معاوية على شهوته للسلطان بنشر قميص عثمان على منبر الخطابة فى الشام وهو مضرج بالدم يدعو الناس لأخذ الثأر من على وهو برئ من قتله ، وإذ غطى على جبينه فى صفين برفع المصاحف على الأسنة يدعو جيش على لتحكيم القرآن عندما شعر بالهزيمة ، فكان من ذلك تضليل المسلمين والقضاء على الحق فى ذلك الحين ولم يزل هذا التضليل وهذا القضاء على الحق قائماً فى المسلمين إلى يومنا هذا ، لأنه أصبح سنة فى السياسة أن يكذب السائس ويخدع ويضال ، والناس على دين ملوكهم .

وكان من نتائج ذلك أن بدأ الإسلام ينحدر بأهله منذ أنعمض على عينيه حتى تلاشى ملك الأمويين بعد قرن فى الشرق ثم ذر قرنه فى الغرب فسار على نهجه الزائف وانهار بعد قرن والقرن أو القرنان بل القرون قليلة جداً فى أعمار الأمم ، وهكذا تلقف العباسيون من الأمويين هذا السلطان وساروا فيه بسيرتهم فانهاروا آخر الأمر وولاهم مثلهم وولى هذا المثل أمثال من فاطمة بن وأيوبين وعثمانيين فلم يحيدوا عن سيرة معاوية فكانت بعدهم هذه العقبي الموقلة للأحقاد اليوم ، وحسبنا تدليلاً على ذلك ما قاله الزعيم الألماني بسمارك : ان على كل

مسيحي أن يقيم تمثالاً لمعاوية في داره يبقى نصب عينيه إذ لولاه لا بقي غير مسلم في العالم .

هذه نتائج الكذب والخيانة في السياسة بالأمس وأما نتائجها في سياسة اليوم فلا تضرب مثلاً عاماً ونحكم إجمالاً على أن هذه المجازر البشرية منذ قرن لم تكن إلا وليدة السياسة الخرقاء القائمة على الكذب والغش والأنانية ، ولأنما تضرب للقارئ مثلاً محسوساً هو أقرب إلى إدراكه من العموميات ذلك هو : أن بريطانيا التي كانت منذ مائتي عام ولم تزل حتى الأمس القريب أدهى الأمم ، تدعى لنفسها لقب « بريطانيا العظمى » وقد قامت سياستها منذ سادت العالم على هذه الحلال التي سنها لنا معاوية ووزيره عمرو بن العاص ، وخذ واحدة من هذه : عندما أقنعوا الحسين بن علي أمير مكة أيام الحرب العالمية الأولى في أن يسهم معهم بدحر الأتراك كان إقناعه قائماً على وعدهم الشفهي والكثافي في أن يساعده على تحرير الجزيرة العربية وتنصيبه ملكاً عليها من اليمن جنوباً إلى حدود الأتراك شمالاً بلدون استثناء أى جزء منها ، وفي نفس الوقت كانوا يسجلون على أنفسهم وعداً لليهود باعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم في قلب المملكة العربية ، فلما انتهت الحرب تكشفت عن هذه الخديعة فكانت سبباً لمشاكل عربية طوال خمسين عاماً وأصبحت الآن مشاكل عالمية ربما يزول بزوالها العالم كله ، والأحداث التي هي بن سمعنا وبصرنا تشير بصراحة وإقناع إلى ذلك كله ، تلك هي عاقبة الخيانة والكذب والخديعة والتضليل في السياسة ، ولم تكن لتفعل فعلها في العالم لو كانت في الأفراد ثم لاتتجاوزهم إلى الحكومات كما قدمنا .

امش معي في الساسة العرب لأدلك على أخلاقهم اليوم : قال لي صديق يسكن جنوب لبنان : أترى هذا الذي أصبح اليوم رئيساً لمجلس الوزراء في مملكة « كذا » من أقطار العرب ؟؟ قلت بلى وأعرفه يعمل للأجنبي وهو من أجراء السكسون ، قال : إنه يحمل صفة أخس من الخيانة الكبرى ، فقلت هات ... فقال : لقد كان رفيقى أيام دراستنا في « مرج العيون » وكان مأبوناً يأتيه أكثر الطلاب حتى ضج منهم وجاعنى يقول : أنا لك ... واحمنى من هؤلاء الذين يطاردوننى ليل نهار حتى أقضوا مضجعى ، فأنت أولى بي منهم .

ويقول لي الصديق الأستاذ العلالي : لقد ذهبنا إلى فلان .. أبي اللمع ، ورجعنا قبل الدخول في مجلس التمثيل إذ دعى إليه فأبى ، ونحن نعلم إفادة الشعب منه إذ يحكم ، فأجابنا بقوله : لقد زرت باريس سنة كذا ونزلت في فندق كان صديق لي ينزله وهو طالب حقوق ومرموق من زملائه ، وتعلق عليه أسرته أملاً كبيراً بعد عوده ، ففقدت من غدى حذاء كنت وضعت عند النوم خارج الغرفة لينظفه ماسح الأحذية ، فسألت عن الحذاء خدم الفندق وجرتي فلم أعثر له على خبر ، وجئت هذا الزميل فشكوت إليه سرقة الحذاء فقال : لا تضع حذاءك خارج الغرفة لأن الفرنسيين لصوص .

وبعد أسبوع نسيت وصيته فوضعت حذاءي الثاني خلف الباب ابتغاء تنظيفه ففقدته وهرعت إلى الزميل فلامني وقال : لقد نصحتك فلم تسمع ، وجمعنا الخدم واتصل الخبر بمدير الفندق فأجرى تحريراً دقيقاً بين القائمين على الخدمة والنظام فلم نعثر له على أثر ، وامتنعت إذ ذاك من وضع الحذاء خارج الغرفة حتى انتهت زيارتي ، وفي صباح اليوم الذي أغادر فيه باريس كنت خارجاً من الحمام ومررت بطريقتي على غرفة الصديق فأجلستني لنسب القهوة ، ويشاء الله أن تسبق عيني إلى الحذاء في غيابة السرير ، فأصبت برعدة مما أرى وودعت فرنسا وأنا ناظم على الحياة التي توّهل مثل هذا لأن يصبح سيداً في قومه من بعد .

ويقول لي هذا الصديق : وبعد أنهى الأمير حديثه حلق إلينا ثم قال : أتريدون مني أن أدخل حكومة يرأس مجلسها التشريعي سارق أحذية ؟؟ ان هذا لكثير على بلد يدعى أنه بلد اشعاع ويرأس أكبر مجلس في حكمه لص . . .

وأعرف رئيساً يكاد يكون الأول في حكم قطر عربي آخر ، وله ولد ، ولعله كبير أنجاله ، قد عبث بمال الأمة حتى اقتنى طائرة خاصة تحمل خيلته إلى مصيفها في لبنان ، وكان قد زارني وأنا في بيروت زعيم وطني من ذلك القطر وقد أسهم في تحريره إذ كان من رجال الثورة على المستعمر فيه ، فقلت له : هل زارك وزير بلادك المفوض فأجاب سلباً ، فعمدت إلى التلفون وهافت بالوزير فأجابني أحد موظفيه بأنه صعد إلى بعض المصايف لزور الآنسة «فلانة» وسألت بعد ذلك نفس الوزير عن هذه الآنسة التي يهتم لها بالزيارة بينما يفرط

في زيارة المجاهدين فقال لي : انها خلية نجل الرئيس وأرجوك أن تستر على « ولقد سرت عليه .

ويقيم أحد الوزراء المفوضين لبعض الحكومات العربية ، حفلة ميلاد للمليكة الهاشمي في بيروت وتصل تكاليف الخمر فيها إلى خمسمائة دينار . ما هذا ؟؟ وكيف يقام حفل لميلاد ملك مسلم ينفق فيه على الخمر هذا المال الذي يعوز كثيرا من حياة الأمة العربية بلد الإسلام ؟؟ وأسأله فيجيب : هكذا يسر العرف هذا العصر « إذن المسألة مسألة عرف ولو عارض الدستور الإسلامي الذي يملك الملك ويرأس الرئيس ويحكم الحاكم باسمه .

وينقل لي وأنا في نويزك ، صديق صادق : أن بعض الوزراء العرب أقام حفلا للتعارف هناك ، وطلب من الفندق الذي أقيم فيه الحفل أن يشتمل السماط على شيء لم يسبق أن اشتمل عليه في حفل قبله ، وإذا بالجمهور المدعو للحفل يفرغ إلى مأدبة تحف بفسقية تصب من أنابيبها الخمر في بركة صفت على ضفافها الكؤوس لمن شاء الزلفى إلى الله بأن يشرب أو يسقى على شرف نبيه محمد ... « هذا بعض من كل أردت أن أدلل فيه على أن قادة الأمة هم مرجع الأمة في صعودها وانحدارها وأعمالهم هذه هي التي حالت دون تقدم الإسلام ورفق أهله ، وبالتالي أخلت هذه الأعمال طريق الرشاد من أهله فكانوا قلة ، وسيقون قلة إلى يوم القيمة ما دامت سياستنا هذه يتأثر بها الساسة معاوية ويضربه وخلفاءه من بعده أمثالا يسير على نهجها والناس يسرون خلفه .

الله

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

يروى الأعلام في السير عن رسول الله صلوات الله عليه أنه سئل : هل يسرق المؤمن يا رسول الله ؟؟ فقال : قد يسرق المؤمن ، فقيل : وهل يزني المؤمن ؟؟ قال : قد يزني المؤمن ، قيل : وهل يسكر المؤمن يا رسول الله ؟؟ قال : قد يسكر المؤمن ، قيل : وهل يكذب المؤمن قال : لا .. لقوله تعالى : إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . « يضعف هذا الحديث أنه ظاهر عليه الوضع من حيث الترتيب في أسلوبه ، ومن حيث أن الكذب أسهل على المؤمن من الزنا والسكر والسرقة ، وجرة المؤمن على السهل من الأثم أقرب إلى الإمكان من جرأته على الصعب ، على أن « قد » هاهنا تفعل فعلها في التقليل لنفي العصمة عن المؤمن ، ولعل التشريع هو الدافع لترتيب هذا الحديث يجعل الكذب الذي نراه سهلاً في مصاف الكبائر التي لا يأتها أولو الأيمان لما يأتي :

أولاً : ان الكذب على الله وعلى رسوله في التشريع يسيء إلى العالم أجمع ، ولهذا أجمع الأئمة على أن الرسل معصومون في تبليغ رسالتهم عن الكذب .
ثانياً : ان الكذب من خاصة الناس ، وهم قذرة ، في منزلة الكذب على الله ورسوله لأنه يسيء إلى الناس كافة إذ ترى الأمة مثلها الأعلى فيمن يقودها ويسيطر عليها حتى تطرف بعض الفقهاء في وجوب طاعة الرعية للرعي ولو كان فاجراً .

ثالثاً : الكذب في حقيقته ، سواء صدر من الخاصة أو العامة ، يسيء إلى الروابط الإنسانية القائمة على الصدق لأن التفاهم عنصر أول في تقويم الحياة فإذا ساد الكذب فسدت الحياة .

إذن ، فالزنا والسكر والسرقة ونحوها من الجرائم الكبرى تأتي بعد الكذب في الإساءة إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، فكثيراً ما يزني الإنسان أو يسكر أو يسرق فلا يضر إلا نفسه ، وقد يتعدى نفسه إلى قليل من الناس ، ولكنه

إذا كذب وكان مشرعاً أفسد الدين ، وإذا كذب وكان راعياً أفسد الرعية ، وإذا كذب وكان سياسياً خرق القانون ، ثم إذا كذب وكان من سواد الناس ضلل كثيراً من الناس ، وليس كذلك غيره من الكبائر ، وفي يقيني أن الخيانة والغش والغدر والرياء والتدجيل والتضليل ، كل أولئك من قبيل الكذب لأنه داخل في حيز التمويه وسر الحق وهو عين الكذب .

وفي يقيني أيضاً أن بلاء العالم ، منذ سادته البلاء ناشئ عن الكذب ، وأن هذا القلق في عالمنا المضطرب وما سبقه من عوالم ، أكثره إن لم يكن كله قائم على الكذب في الساسة من خلف وعود ، ونقض عهود ، ومن تضليل وتدجيل في أساليب الدعاية القائمة على أنانية الفرد أو المجتمع وعن جشعه وعصبيته لقييله أو عنصره ، وفي كل هذا خرق لنظام الإنسانية وهتك لناموس الحق المهيم على العالم .

فالكذب الذي هو أدهى ما يأتبه الإنسان بين يدي شهواته ، هو أكثر الجرائم نفسيّاً في عصرنا الحاضر ، هذا العصر الذي ملأ العالم نوراً بمخمارته الحافلة بالعلوم والآداب والفنون ، أصبح الكذب فيه من الفنون ولعل الفنون والآداب فيه حالت أكاذيب وأضاليل ، من أجل ذلك سادت فيه الجرائم وملك القلق والاضطراب عليه أن يطمئن بعلومه وفنونه وآدابه إلى لون ثابت من ألوان الحياة ، هذا العصر الذي شبك العالم وحبكه حتى كاد يصبح أمة واحدة في جيل واحد ، نراه أبعد عن السلام والاستقرار من عصور الظلام أيام كان الإنسان وحشاً يفترس أخاه الإنسان .

فاذا كان الكذب أفضح لإجراماً عند الله من الفجور والفحش والسكر والبغاء فياويلنا نحن أبناء هذا العصر من عقبي حياة نصير إليها ونحن كذابون في كل ما نقول ونفعل ، وكل منا أفحش في كذبه من سكر وزناء ، انا هذا الذي يراني جل من عرفني مسلماً وأنا أكتب أو أخطب ، لا يمر بي يوم إلا وأسهره تحت سمائه للكذب ، على عمومه ، في بيتي وبيوت الناس ، على المنبر وإمام المذيع ، قاتلاً أو كاتباً ، ولعل كاذب في طعامي وشرابي وفي لباسي وسكني . أجلس إلى المائدة في المطعم وكل هواي في أن أكل حراً بيدي ، ولكني

مكره على. أكل بالشوك والسكن إشعاراً لمن يرانى بأنى متمدين وأنا أبعد الناس بطبعي عن هذه المدنية الزائفة ، وأغادر فراشي لمقر عملي فأعمد إلى الياقة أشد بها خناق وإلى الحذاء الملعون أضغط به صدرى لا رجلى ، وكل هواى فى أن أطلق عنقى وصدرى للهواء الطلق تحت سماء مصر الالهية وأن أنفس عن رجلى بصندل فوق رمضائها الكظة وعلى ضفاف نيلها الراكد وبين حداثتها الخاشعة لقيظها المعتوه .

ولقد أثنت منزلى فى مصر بأثاث بعضه قديم وبعضه جديد ، والويل لى كل الويل من أهل بيتى عندما يسألنى سائل زائر عن القديم ان صدقته بأنه قديم ، وشريت سيارة بألف جنيه على أقساط تسهيك عاماً واحداً ، ويا ويلي من بنائى ان قلت للسائل إنه بالتفسيط ، واستحضرت معى من العراق أغطية فاخرة للسرى ثمن الواحد ثلاثة دنانير وهو عينه فى مصر يساوى ثمانية ، فقامت على قيامه أهلى إذ صدقت فى جوابى للسائل عن ثمنه ، وبالحال ليلة لم أنم من السخط ولم يناموا .

وهكذا كلما طرق الباب علينا زائر وثى محب ولكنه غير مرغوب فيه لأهلى ردوه مدعين أنى غائب ، وأنا حاضر أسمع قول السائل والمجيب ، فاذا لقيته يوماً ما وأنبأنى بزيارته كنت ملزماً بأن أكذب لأدفع الغيبة عن أهلى ، وهكذا كدت أنكر حقيقتى فى الناس وكدت أجهلها بين أهلى وأنا ممعن فى الكذب ، وكدت أنسى أن لغتى خلط من الحقيقة والمجاز لا أنها مجاز فقط ، فياويل ويا ويل الناس جميعاً وهم على شاكلي ، من نخلة الكذب التى غطت على كل صفة نتجمل بها ونحسب أنها زينة فاذا بنا فيها أحقر عند الله من الفجار مقترى الكباثر .

إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ .. قَالَهَا
لِرَجُلٍ أَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ إِذْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

محمّد

يقول لى السيد عبد الهادى الصالح ، وهو من خيرة شباب العراق ثقافة وإخلاصاً ، يقول ، ونحن نستعرض العصبية الجاهلية فى الأسر حتى يومنا هذا ، قال : عندما استوزر الملك فيصل الأول توفيق السويدي وهو فى غضبون شبابه ، ذهبنا وفدأ من الشبان لتهنئته بالوزارة على اعتبار أنه أول شاب وزير ، ولما أدى قائلنا هذه الرسالة أجاب الوزير عليها بقوله : لا تهنئنى بأنى أول شاب استوزر ، ولكن هتئنى باسناد الوزارة لأبناء الأسر العريقة فى المجد ... »

لقد كنت صممت قبل أن أسمع هذا على إغفال كتاب وضعته للعظاميين من كل عاض بهن أبيه وأسميته « عنفص » لكثرة من مرى منهم وآلمنى بتبجحهم واعتمادهم على عظام آبائهم وأجدادهم فى كل ما يفخر به ويسأل الناس إكباره من أجله ، أقول : كنت صممت قبل أن أسمع السيد عبد الهادى على إغفال هذا الكتاب لما سيحدثه من عداء بينى وبين كثير من أصدقائى وجلهم من هذا القبيل ولكنى لم احتمل عنفصة الأستاذ السويدي هذه وعدت فصممت على إخراج كتابى « عنفص » هذا للناس .

أذكر من شخصيات كتابى هذا رجلا من بلدة شقراء فى جبل عامل ومن أسرة نبيلة أنجبت كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وهى أسرة قشاقش وكنت فى مطلع شبائى معلماً للمدرسة هذه القرية ، وكان لى حظوة عند شيوخ هذه الأسرة وشبابها ، وكنت أعانى من عظاميتهم هذه ، وكان أكثرهم تبجحاً بعظاميته هذا الذى أنقل عنه حديثى الآن واسمه السيد محمد جواد وكنت كثيراً ما أصارح أستاذى السيد حسن المحمود وهو من جلتهم ، كنت أصارحه بمضايقتى من هذه العصبية المقيتة فيقول : هؤلاء شباب وللشباب شذوذه فلم أقنع بذلك .

كان العلامة السيد عبد المحسن الأمين رأس هذه الأسرة ولم يكن على شئ من هذه الخلة وإنما كان متواضعاً لا يفرق بين إنسان وإنسان إلا بفضل ، وكان

قد اتخذ موطنه في الشام فخطب أحد الشبان من آل مروه إحدى نجائبه فليبي السيد إذ رآه أهلاً وعلم أن بينه وبين ابنته حباً نشأ عن صلوات رحم من حيث الأمهات ، وكان العلامة بصطاف كل سنة في بلدته شقراء ، فلما ورد لها تلك السنة قامت قيامة شباب الأسرة عليه إذ زوج ابنته العريضة في نسبها من شاب لا يزيد على أنه واحد من الناس .

وكانت ابنته الخطوبة تصطاف معه فألبوها على خطبتها نساء ورجالا حتى فسخت خطبتها منه وعلم الشاب الخطيب فسقط في يده وألزمته الحمى فراش المرض العضال ، ويزور رأس أسرة الخاطب المرحوم الشيخ على مروه ، وكان من العلماء الأفذاذ ، يزور شقراء ليصلح بين الخطيبين حرصاً على حياة المريض فيجتمع بشباب الأسرة وكهولها في دار المسجد ، ثم يلبى بالمهمة التي من أجلها زارهم ثم يمعن في سرد الآيات الكريمة والأحاديث الماثورة في أن المؤمن كفؤ المؤمن وأن جددهم صلوات الله عليه يقول : إذا جاءكم من ترضون دينه فخلوا منه وأعطوه » سيما وأن بين الخطيبين رحماً وأن الخاطب على فراش الموت ، فلم يحبه منهم إلا هذا الشاب بقوله : لا تعطيني يا شيخ لأننا سادة الناس والناس عبيد لنا وليس بين السيد والعبد كفاءة ... » وانتهت هذه العصبية بفسخ الخطبة ومن ورائها موت الخاطب .. ويشاء الله أن تبقى هذه الفتاة عانساً إلى سن الأربعين ثم تزوجت من رجل ليس له نسب هو لاء الأفذاذ ولا نسب الخاطب الأول .. سقت هذه الكلمة بين يدي قوله صلى الله عليه وسلم في صدر هذا البحث لأدلل على أن العظامية ليست من الدين ولعلها مما ينكره الدين الحنيف الذي ضرب لنا مثلاً في إنكار الذات فضلاً عن النسب عند قوله عز من قائل : يوم لا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، وقوله : ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، وعند قول رسوله هذا ؛ إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد ، فالتقوى والعمل الصالح هو ميزان الإنسان لا أبوه مهما علا ولا ابنته مهما نزل .

من هنا كان الشك غالباً على اليقين في صحة ما ينسب إليه صلوات الله عليه من حديث : أنا خير من خير من خير من خير لما يشعر من تبجح بالنسب بينما هو ينهى عنه وقد أثبت القرآن أن إبراهيم كان

أبوه وثنياً فلم يقدح ذلك في نبوته، وهكذا نجد قوله عليه السلام : كلكم من آدم وآدم من تراب، ومن جعل مقياس الإنسان في سموه وانحداره راجعاً إلى عمله لا يفخر بنسبه ليكون القدوة الصالحة لمن لا نسب له والله تعالى يقول : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، فحسبنا أن نثق بعصمة الرسول لا أن نضفى هذه العصمة على آبائه إلى آدم ولا على أبنائه إلى أغاخان .

فحمد صلوات الله عليه لم يكن أفضل الخلق لأنه من هاشم فان منها أبا لهب وهو عمه ، بل كان أفضل لأنه رسول ، ولم يكن أفضل الأنبياء لأنه ذو رسالة ، فان الأنبياء قبله كانوا ذوى رسالات ربانية كرسالته، ولكنه كان أفضلهم من أجل أن رسالته أعم وأمه أوسع انتشاراً وأنضج إنسانية ممن سبقه أنبياء ورسلا ، وكلما اتسعت دائرة العمل آذنت بسعة فضل العامل ، وليست قريش أفضل وفيها بنو أمية الذين أبرهوا على أنهم أحسن العرب في إهمالهم رسالة العرب التي هي الإسلام. وهكذا نستطيع أن نقول : إن الدين لم ينبثقنا بأن العرب أفضل الأمم لأن منهم محمداً ، فان غيرهم من الأمم بعث الله منها الأنبياء والرسل فلم يكن ذلك باعثاً على أنهم أفضل الأمم ، وهكذا نستطيع أن نثبت شرعاً وعقلاً أن الفضيلة لا تدور مدار الإنسانية ولا القومية ولا القبلية ، ولكنها ، كما ينص الدين ، خلق حسن يتصف به الإنسان دون غيره فيعلو عليه ، وأن الرذيلة لا تدور مدار الإنسانية ولا القومية ولا القبلية ولكنها كما يفصح الدين ، خلق سيئ يتصف به الإنسان دون غيره فينحدر عنه .

هكذا ينبغي أن نفهم الدين وهكذا ينبغي أن يفهم الجاهل منا ، فان محمداً وأى إنسان في العالم ، يشتركان في الإنسانية لحما ودما وعظما ، ثم سمعاً وبصراً وفكراً ، واكنهما مختلفان عملاً ، والذي فضل به محمد أباه وعمه هو عن الذي فضل به محمد أى إنسان في العالم ، وإلا فأى معنى أو أية ميزة لقول الرسول الأعظم : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟؟ وقوله : من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا .

فكل حديث ، مهما صح سنده ، يثبت فضل قريش على العرب ، هو من وضع الأمويين ، وكل حديث مهما صح نسبه أيضاً ، يثبت فضل هاشم على

قريش هو من وضع العباسيين أو العلويين ، ان الدين واضح بين وان القرآن هو الفرقان بين أيدينا ، فليتعظ كل منا بقوله الكريم : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلم يقل : إن أكرمكم عندى العرب بل قال : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجلد أن لا يقيموا حدود ما أنزل الله .

وأى حديث صح سنده نوّله ، فان التأويل من لوازم الدين في مواضع الشبهات، واللغة ليست حقيقة فقط وإنما هي مجاز وحقيقة والقرآن مشحون بالمجازات ، فحديثه صلى الله عليه وسلم : أصحابي كالنجوم ، يعنى أصحابه الذين اتبعوه باحسان لا الذين صحبوه ولو لبافقوا أو ليتحسسوا منه ويؤلبوا عليه . وهؤلاء كثر وعلى رأسهم بنو أمية ، ويعنى للقرآن بقوله حاكياً عن رسوله : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » يعنى بالقرنى آل بيته الذين فرضت الصلاة عليهم معه في ليلنا ونهارنا إلى يوم القيمة ، والمقصود من أهل بيته هم الذين أتموا رسالته من بعده وهم على الحسين وبقية الأئمة الهداة كالصادق والباقر والرضي والكاظم .

وأعنى باتمام رسالته تعزيزها والحرص عليها والتضحية في سبيل قدسها والاعتصام بها ، فنصرة على لابي بكر وعمر في إقامة هذه الرسالة بسيفه ورأيه ولسانه هو من إتمام هذه الرسالة ، وتضحيته بحقه في الهيمنة عليها أول الأمر والتزامه الصمت عن الإصرار عليه هو من إتمام هذه الرسالة ، فانه مما لاشك فيه ، لو أن الخلافة أسندت لعل أول الأمر ، وهو الموثوق على لسان رسوله ، ثم بما برهن به عن حزمه واعتصامه بالحق حتى آخر حياته ، لحالت سنوه الثلاثون دون الهنات التي مكنت آل أبي معيط من هتك الدين وسن البدع السيئة على أيديهم وألسنتهم إلى يومنا هذا .

وهكذا نجد أن تضحية أبنائه الذين تحملوا مسئولية هذه الرسالة من بعده كالحسن في تنازله لمعاوية كى يكشف للمسلمين عن سوء نوايا معاوية وقد ثبت ذلك في بطون السير ، وكأخيه الحسين الذى عمد إلى التضحية بدمه ودماء أصحابه وأهل بيته ليفضح الأمويين ويعصم رسالة جده من كفرهم بها ويخلصهم منها ، ثم

انصراف أحفاده الباقين من تأييدها بدمائهم إلى تسجيلها في دواوينهم وإملائها على أصحابهم بغية خلوصها من دس معاوية وآله في الدين ما ليس من الدين ، إذ قرأت في السيرة الحلبية : أن المؤمنين المتكتمين على أنفسهم في عهد الأمويين أمعنوا في إملاء ما وعوه من فضل عليّ على تابعيهم خشية الطغيان الأموي عليه وانتهى قولهم في علي إلى أنه قد نزل في فضله ثلاثمائة آية من القرآن »

هؤلاء هم القربى وهؤلاء هم أهل البيت وآل محمد ليس غير ، فانما شرفهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله لأن وظيفتهم إتمام رسالته بالحرص عليها والتضحية في سبيلها . وإلا فليست قرباه وآله من غير جبلتنا ولا هم صنف من الملوك الأعلى هبط علينا ، فعقيل بن أبي طالب الذي لاذ في كنف معاوية من أجل حطام الدنيا هو أخو علي الزاهد فيها ، وجعفر الكذاب هو أحد أحفاد الإمام جعفر الصادق الذي يقول فيه أبو حنيفة : ما دخلت على جعفر بن محمد إلا وجدته صائماً يصلي أو يقرأ القرآن » هؤلاء هم آل محمد ومكان القربى منه وهم المفضلون في كتاب الله وعلى لسان جدهم صلوات الله عليه وعليهم وعلى الآخذين برسالتهم والناهجين في الاعتصام بها بهجهم .

لم يفضل هؤلاء غيرهم من الناس بكونهم من صلب محمد ولا بكونهم من سلالة هاشم ، ولا لأنهم تحدروا من أصلاب مضر ومعد وعدنان ، وكيف يكون ذلك كذلك ، وقد صح عن جدهم عليه الصلاة والسلام أنه قال لابنته : يا فاطمة اعملي فلن أغنى عنك من الله شيئاً ؟ وأنه قال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف عفوا عنه وإذا سرق الوضيع أدانوه ، أما والذي نفسي بيده لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها » وأنه صلى الله عليه وآله قال بلسان ربه في حديث قدسي : أدخل جنتي من أطاعني ولو كان عبداً حبشياً وأدخل ناراً من عصاني ولو كان سيداً قرشياً » صدق رسول الله : لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لرجل على امرأة إلا بالعمل الصالح ، يمثل هذا ندين ، وهكذا يجب أن نفهم الدين .

وبعد فما أحب أن يفوتني في هذا الموضوع حدث لا يزال يحز في نفسي منذ خمس وعشرين سنة إذ كنت في أمريكا الشمالية في ولاية بنسلفانيا

ضيف نفر من المهاجرين العرب ، وإذ كان حديث الزعامة في جبل عامل من جنوب لبنان موضوع ذكريات هؤلاء الأخوة الذين يخلقون في آنذاك : يسألني أحدهم السيد علي الحاج من قرية قيليا في ناحية مشغرة : هل لأتزال عبودية الزعماء مسيطرة على شعبنا المسكين ؟؟ فضحكت وقلت له : لعل عندك شيئاً من هذا وتريد أن تقصه علينا ، ففضل :

قال ، وهو يتألم ، لقد مر بي ثلاثون عاماً وأنا بعيد عن وطني وفي طوق أن أعود إليه ، ولعل هذا العود أغلى أمنيائي ، ولكن كلما ذكرت السبب الذي من أجله فارقت وطني رسبت نفسي في أعماق ثم قالت : مت هنا ولا تعد ، فان موتك بعيداً عن وطنك وأنت عزيز خير لك ألف مرة من أن تحيا فيه وأنت ذليل ، فاحتسب آمالك وآلامك عند الله فان لك ولهم عنده حساباً غير بعيد ، ثم قال : في جوارنا بلدة « الخيم » كان يسودها وما بجاورها من القرى زعيم يدعى الحاج محمد عبد الله ، وكنا من المدلين عليه بدافع هذا الجوار ، وكنت شاباً عاتياً اعتد بقوتي وجراؤي ، ويشاء الله أن أكون رسول هذا الزعيم إلى زعيم أكبر يدعى كامل الأسعد « تعرفونه جميعاً ، وكانت بلدة « الطيبة » التي هي حصنه تبعد عنا عشرة أميال .

وكان من الطبيعي أن أحمل هذه الرسالة شاكراً حتى إذا دخلت على الزعيم الأكبر وأسلمته الرسالة ثم انقلبت من ديوانه عائداً إلى مضيف أمثالي ، وكان في مؤخرة الديوان أخوه عبد اللطيف الأسعد فتلقاني وأنا أجتاز البهو إلى الخارج بصفحة على وجهي فقدت معها بصرى آنئذ ثم وضعت يدي على عيني وأصغيت أسمعه يقول : تخرج مولياً ظهرك للزعيم يا كلب ؟؟ أما كان عليك أن ترجع متقهقراً ؟؟ انك الحمار ، ولما استعدت بصرى خرجت ولم أعد إلى بلدي ، ولكن كانت وجهتي بيروت ثم هذه الديار العزيزة علينا ، والتي لم نر الخروج من تلك العبودية إلا تحت سمائها ، ونحن كما ترى ، لانعود إلى الوطن حتى يتحرر من فرنسا خارجياً ومن الزعامة داخلياً ، فان العبودية واحدة ، ولعل الشاعر مصيب إذ يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على الحر وقع الحسام المهند

كذلك شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكون أحراراً إذ يرينا على
الجرأة والحرية بقوله للداحل عليه وهو متعجب وجل : هون عليك إنما أنا ابن
امرأة كانت تأكل القديد ، وهكذا أبينا هذه التربية ورزحنا تحت عبودية السادة
الكبراء من زعمائنا ، ندخل مجالسهم زحفاً على الركب ثم نغادرها متقهقرين
حرضاً على الغطوسة في نفوسهم وعلى الخنوع والذل والعبودية التي ربوها في
نفوسنا ، فليسجل تاريخ جبل عامل ، وهو وليد أوى ذر الغفاري الذي ذهب
ضحية إياته وعزته ، فليسجل تاريخ هذا الجيل تلك المآسى وهذه العبر للأجيال .

وَاللّٰهُ مَا أَحْثٰكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَاسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا ،
وَلَا أَنهَآكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَاتَّأَهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا

عَلَى

قالها عليه السلام يعلل بها قوله قبلها بنفس الخطبة حيث قال : والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت ، ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله ، ألا وإنى مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه ، والذي بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صدقاً ، وقد عهد إلى بذلك كله ، وبمهلك من بهلك ، ومنجى من ينجو ، ومآل هذا الأمر ، وما أبقي شيئاً يمر على رأسى إلا أفرغه في أذنى وأفضى به إلى ... »
في القرآن مثل هذا الأسلوب ، أعنى تعليل المعجز باستحالة أسبابه ، قال عز من قائل ؛ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، ففي الشطر الأول من هذه الآية إعجازهم عن إدراك سر الروح ، وفي الشطر الثاني تعليل هذا الإعجاز بأن العلم وحده هو الذى يكشف هذا السر ، ولم يؤثروا منه إذ ذاك إلا القليل الذى لا يمكن السائل من فهمه ، لذلك نهى رسوله عن أن نحوض مع السائل فيه .

وهكذا نجد أن الإمام أدلى بمعجز في صدر كلمته التى يجرى حولها البحث . حيث قال : والله لو شئت الخ ... ثم علل ذلك بقوله عليه السلام : والله ما احثكم الخ ... كانه يثبت أن علم الغيب ممكن إذا توفرت أسبابه . ومن أسبابه العصمة ونضج العقل المعبر عنه بالثقافة ، أما العصمة فقد أشار النبي إليها في أحاديثه القدسية حاكياً عن ربه قوله : يا عبدي أطعنى تكن مثلى أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون « وقوله في حديث قلسمى : ما زال عبدي يتقرب إلى بالطاعة حتى كنت عينه التى تبصر وأذنه التى تسمع .. وقوله صلوات الله وسلامه عليه : المؤمن يرى بنور الله .

وأما الثقافة فقد دعا إليها بقوله تعالى : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟؟ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وقول رسوله عليه السلام :

أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، أطلبوه ولو في الصين ، العلم نور « فرسالة محمد القائمة على العلم والعصمة تضمن للمسلم المؤمن العامل بعلمه علم الغيب ، لأن إدراك ما تقدمك علم ، وإدراك ما أحدق بك علم ، ثم إدراك ما تستقبل علم ، فكما أن للعلم بأحداث الماضي قواعد وأصولاً تدرك بها ، وللعلم بأحداث الحاضر قواعد وأصولاً يدرك بها كذلك للعلم بأحداث المستقبل قواعد وأصول تدرك به ، ولنا بسبيل الكشف عن قواعد وأصول علمي الماضي والحاضر لأننا ندرسها وندرسها أبناءنا وهي بين سمعنا وبصرنا ، وأما أصول وقواعد العلم الذي يكشف لنا مغيبات أو أحداث المستقبل فهي هذه التي وردت في كتاب الله وعلى لسان رسوله من دعوة إلى الحق في كل ما نأتيه من قول أو عمل ، ومعرفة الحق رهن بتثقيف العقل وإخضاع النفس بالعمل في الحياة بين يدي هذه الرسالة التي جاءنا بها محمد .

فلقد أثبت العلم قدمه وحديثه أن لصفاء النفس وخلوصها من شوائب الحياة الدنيا ، أثراً كبيراً في استلهاام الفكر أسرار الحياة ، وقد أوردت شواهد كثيرة في هذا الكتاب ، نقلاً وعقلاً ، تثبت أن العلم ليس وليد الدراسة فحسب ، ولكنه قد يتجاوزها في كثير من أمهات ما يسر ويشرع إلى الاستلهاام عن طريق الرياضة الروحية كما كان يفعل الرئيس ابن سينا والحكيم ابن رشد ، والرياضي جابر بن حيان ، فضلاً عن سيد العلماء والحكماء محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، ونعني بخلوص النفس من شوائب الحياة ، اعتصامها بتعاليم الدين الصحيح القائم على ما هو بين في كتاب الله وما يتصل به من قول رسوله المأثور ، فاعتصامها ذاك هو عين عصمتها ، وهو عين العلم الذي تكشف به أسرار الحياة فيما تستقبل فضلاً عما أجازته وما تضطرب فيه من حياة .

كنا في منزل العلامة الشيخ محمد المدني محرر رسالة الإسلام في القاهرة مساء يوم ما ، كنا اثنين فقط لاثالث لنا إلا الصفاء وإلا البحث العلمي السليم ، وقد خضنا في النقاش حول العصمة في الأنبياء والأوصياء ، وأقوال المذاهب الإسلامية فيها بالأمكان وعلمه ، ففهم من ينكرها حتى في الأنبياء لأنهم بشر .. ومنهم من اثبتتها حتى في الأوصياء بعدهم ، ولقد رأيته مقتنعاً بالرأى الأول في نفى العصمة

عن الأنبياء إلا في الدين ، وحيث أنهم بشر فكنت بالطبع نقيضه ، وكان حديثي مجعلاً ورأيت أن أتوسط فيه بعد جلوسى إلى مكتبى ولم أشأ أن أهمله فكان مفصلاً فيما يأتى :

العصمة ممكنة لكل إنسان عقلاً وشرعاً وإن كانت ممتنعة عادة ، أما عقلاً : فأى إنسان وهو حر مختار لا يستطيع صرف نفسه ، وهى ملكه ، عما لا يحب ؟؟ فلقد أثبت فى غير مكان من هذا الكتاب وفى كتابى « الأصفياء » نفى الجبرية عن الإنسان بأنه مختار وهى صفة وهبها الله له وقد شارك فيها ربه كصفات الكرم والإحسان والعلم والبصيرة ، فكما يقال : الله الكريم المحسن العالم البصير ، كذلك يقال فى الإنسان مثله ، ولكن هذه الصفات وأشباهها تختلف بين الخالق والمخلوق من حيث المصدر قديماً وحديثاً ومن حيث الكنه قوة وضعفاً ، إذ هى قديمة بصلورها عن الخالق وحديثة بصلورها عن المخلوق ، كما أنها قوية فى كنهها وهى إلهية وضعيفة فى هذا الكنه وهى إنسانية ، وهكذا كلمة مختار . فأى عقل يحول بين المرء وبين حسن اختياره ويقصره على سوء فى هذا الاختيار طالما هو حر فى اختياره ؟؟

وأما شرعاً : فكيف لا تكون العصمة فى الإنسان ممكنة وهو مأمور بها من ربه ؟؟ أيامره الله أو ينهاه عما لا يستطيع فعله وعما لا يطبق تركه ؟؟ ان الآثام التى تحول بين المرء وبين العصمة محدودة ومعلومة فى الكتاب والسنة وقد أجمالها الله وفصلها نبيه ثم نهانا عنها فلم تكن ممكنة لنا لكان النهى عنها من العبث ، والأحكام التى نحن مكلفون بها شرعاً هى أوامر ونواه ، ومعنى العصمة هى أن تأتمر بأمر ربك وتنتهى عما نهاك عنه ، فلو كانت غير ممكنة لما أمرنا بها أو نهانا عنها كما قلنا ، إذن فالعصمة ممكنة شرعاً وليست فى البشرية طبعاً ، وإلا لزم الجبر فى القضاء وهذا ممتنع على ما فصلنا .

لم أفهم السبب الذى يعللون به عدم العصمة فى الإنسان إلا أنه أمر عادى ، وهو يعود إلى التربية ، فما رلايب فيه أن رهبة السلطان فى نفوس الرعية تقلل من الجراءة على انتهاك القانون ، والاستخفاف بهذا السلطان يزيد من تلك الجراءة

فتكثر الجرائم هنا وتقل هناك ، وإذا تظافر العلم والدين ورهبة السلطان العادل في الرعية كان سبباً قوياً في عصمة الإنسان ، أو على الأقل كان سبباً قوياً في الحد من الجرائم ، ومعنى الحد من الشيء هو القابلية للزيادة والنقصان فيه ، وإذا قامت هذه القابلية في الإنسان طبعاً كان معنى ذلك إمكان صعوده إلى العصمة وإمكان هبوطه إلى الاجرام ، فليس لدينا وسط في الطبع وإنما لدينا قابلية في الإنسان لأن يكون بالتربية المفروضة عليه عقلاً وحكماً وشرعاً ، أحد الملائكة ، وبعدها أحد الشياطين .

فن أين جاء الذاهبون مذهب عدم العصمة عن الأنبياء لأنهم بشر ، أقول : من أين جاؤا بأن البشرية علة لعدم العصمة ؟؟ فهل قال الشرع ذلك ؟؟ وهل قال الرسول : انا مثلكم بشر أخطئ وأصيب أم قصر هذه البشرية عليه بكونه يأكل ويشرب ويمرض ويسقم ؟؟ فالأنبياء مثلنا في البشرية المطلقة من حيث الطبيعة لا من حيث التطيع والكسب ، والشرور ليست من طبيعة الإنسان ولكنها من كسبه وإلا لكان مفطوراً على الشر وكان أمر الله باجتنابه عبثاً كما قدمنا .

أما نسبة الخطأ في القرآن إلى الأنبياء فقد مر بنا تعليله في غير مكان من هذا الكتاب وأنه محمول على التأويل الذي يتبع المجاز وأن المجاز أحد جزئي اللغة لا يتحقق في التفاهم إلا بهما معاً ، وبيننا أن كل شيء نسبي في الحياة ، فقد يكون الأمر المكروه في الناس محرماً على الرسل فيترتب عليه حكم التحريم وهو التائيم للفرق بين العالم والجاهل وبين المحكوم والحاكم من شؤون واعتبارات جعلت أحدهما تابعاً والآخر متبوعاً ، فعلى المتبوع الذي هو قلدوة أن يتحرج حتى في المكروه والمستهجن ، وإلا كان آثماً لأن المكروه في عامة الناس قد يجرحهم إلى المحرم .

بقي علينا أن نوضح إمكانية العصمة في الناس : لماذا تكون نادرة ؟ قدمنا أن الرعية على قدر خوفها من الراعي واحترامها له ، وعلى مقدار هيبة سلطانه في صدورهم يكون إقدامهم أو إحجامهم في خرق القانون ، وعلى مقدار خوف الطفل من أبيه واحترامه له يكون ائتماره بأمره وانتهاءه بنهيه ، وعلى مقدار خوف التلميذ وهيبة معلمه في نفسه يكون امتثاله لأمره واجتهاده في درسه ثم على مقدار

حب العاشق حبيبه وعلى مقدار تلمحه في هذا الحب يكون إخلاصه له وحرصه على رضاه واستجابته لإرادته .

وهكذا نصل إلى النبي أو الوصى أو المؤمن ، وفي غير مكان من هذا الكتاب. أشرت إلى ما أوجزه هنا من أن الدكتور أحمد زكى العالم المصرى كتب في مجلة الرسالة المصرية نقلاً عن أستاذه في جامعة برلين قوله لتلامذته وهو منهم قال : يا أبنائى إذا قيل لكم إن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون في الهواء بأنفسهم لا بوسائل أخرى فصدقوا ، لأننا بفضل اكتشافنا للتيار الكهربائى جئناكم بهذه المعاجز فماذا نجيحكم لو اكتشفنا تيار الروح الذى راضوا أنفسهم به وهيمنوا عليه بينما هو يهيم على الكون ؟؟ ، انتهى قوله بإيجاز وتلخيص .

فالتيار الروحى ، أو عالم الروح ، كما نطلق على ما يقابله عالم المادة ، يختص بالسيطرة على المادة لأنه أقوى منها ، وهنالك عالم آخر يسيطر على الروح لأنه أقوى منها وهو عالم العقل ، وأقرب شئ يمكننا من تصور هذه العوالم الثلاثة مجتمعمة هى السيارة التى بين أيدينا ، فالمادة هى الصلب الذى يقوم به هيكلها القائم المحسوس ، والروح هى الحرارة الناشئة من البترول الذى يخرج به الصلب من عالم السكون إلى عالم الحركة ، والعقل أو إذا شئت أن تسميه علماً ، هو بمنزلة السائق من السيارة يوجهها كيف شاء .

فعلى مقدار خضوع المادة ، التى هى الآلات ، للحرارة بالحركة يكون تأثير البترول مصدر الحرارة فى الآلات دفعاً إلى الهدف وإلا تحطمت ، وعلى مقدار خضوع الحرارة للسائق وهو يتحكم فيها ، يكون تأثير العلم والعقل فيها توجيهاً للمادة وإلا انفجر البترول وهلك الثلاثة معاً ، فوظيفة المادة التى هى الآلات المؤلف منها هيكل السيارة ، ووظيفتها أن تتحرك بحرارة البترول التى نعبئ بها عن الروح ، ووظيفة هذه أن تتحرك تلك ، وأما وظيفة السائق الذى نعبئ به عن العقل فهى توجيه الروح التى هى الحرارة فى دفع الهيكل الذى هو المادة إلى حيث يشاء ، وهذه المشيئة يجب أن تقوم على الحق الذى يستلهمه العقل . ثم نرجع إلى التمثيل مقلوباً فنقول : إن على مقدار إخلاص العقل الذى هو السائق فى الهيمنة على الروح الذى هو البترول ، وعلى المادة التى هى الهيكل ،

أقول : إن على مقدار هذا الإخلاص في الهيمنة يكون إخلاص البترول والصلب في الخضوع لإرادته ، ويتحقق إخلاص العقل الذي هو السائق بالتزامه الحق فيما يريد من تحريك سيارته ، وهذا الحق يقوم على فن التحريك الذي تلقته علماً خاصاً بالسيطرة على المادة ، وعلى نبل الغاية التي من أجلها تحمل المسؤولية في قيادتها وتوجيهها ، وفي تركيب الإنسان شبه كذلك يلقي ضوءاً على العوالم الثلاثة ولكنه أدق منه في السيادة لذلك عمدنا إلى الأخف حكماً والأسرع فهماً .

ولنعد الآن إلى صلب الموضوع في قول الإمام وهو لإحاطته علماً بما كان ويكون من الغيب ، وكونه قائماً على العصمة ، ثم كون العصمة ممكنة لمن يؤمن بالحق ، وهذا أي الإيمان بالحق ، ممكن لمن يضع بين يديه الناموس الذي تنزل به الروح الأمين على محمد فخضع له ثم عرضه محمد على أصحابه فخضع له منهم من خضع وتحرر منه من تحرر ، وكان الإمام على أرحب صدرراً لتلقى هذا الناموس ، وأكبر قلباً للتأثر به ، ثم كان أنضج دماغاً في الأخذ منه والإيغال فيه ، حتى أصبح موضع ثقة محمد في الحرص عليه والتضحية بين يديه من بعده ، وحتى كان مرجع الخلفاء الراشدين ، وأصحاب رسول الله الذين اتبعوه بإحسان ، فكانوا يحدقون به ويشخصون إليه شخصهم إلى رسول الله في استلهم الحكمة واقتباس النور ، وذلك ما حمل عمر ، وهو أشد الصحابة أسراً ، على أن يقول : لا أبقي الله لمعضلة ليس لها أبو حسن .

من هنا تفيض الحكمة وتتحقق العصمة ، فكل هدف يشخص إليه الإنسان طريق نسميه علماً ، ولهذا العلم قواعد وأصول لا يمكن الوصول إلى ذلك الهدف إلا بادراك هذه القواعد والإخلاص في استخلاصها إذ يشخص إلى غايته ومعنى في التوجه إليها والوقوف عليها ، وبين أيدينا كثير من أولى العلم الذين يشخصون إلى كثير من الأهداف ويتحققون كثيراً منها بعد أن معنوا في الإخلاص للعلوم التي تودى إليها ، فهناك علماء الفلك وعلماء الطب وعلماء الكيمياء وعلماء الطبيعة ، ولكل منهم غايات شخّصوا إليها فتمكنوا من الحصول عليها حتى جاؤنا بمعجزات تحار بين يديها العقول .

فعلى مقدار ما يخلص العالم لعلمه يكون شخصه إلى الهدف ووصوله إليه ،

وعلى مقدار حبك لأى شئ تعمل على الظفر به يستجيب لك ذلك الشئ بالخضوع لإخلاصك ، فهل بعد ذلك عجب فى أن تكون العصمة ممكنة لمن أحب وغلا فى الحب حتى ضحى فى سبيل محبوبه كل ما يحول بينهما من حياة ؟؟ وكم تتمثل بالكلمة المأثورة : صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاءها « والكلمة الأخرى القائلة : حبك الشئ يعمى ويصم » ثم نمر بها ولا نمنع فى تحليلها ؟؟

فاذا أحب محمد أو على أو سلمان أو أبوذر ، إذا أحب أحد هؤلاء ربه وغلا فى حبه ، وكانت غايته الوصول إليه فلم لا يكون أعمى عن كل ما يصرفه عنه ، ويحول دونه ، ؟؟ ومثل هذا الحب للمتصوف ألا يعمى ويصم عن كل شئ دونه ؟؟ ثم أليست هذه هى العصمة ؟؟ أو ليس بلوغها ممكناً لمن آمن ؟؟ أو ليس الوصول إلى الله هو غاية الغايات ؟؟ فلم لا يكون هؤلاء معصومين وقد ضربوا لنا الأمثال فى جهنم لله واستحالتهم فيه ؟؟ ولم لا يكونون بعد ذلك ملهمين منه ، يعلمون باطن الحياة وظاهرها ويحيطون علماً بما كان وما سيكون ؟؟

الله أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَهْدَاهُمْ أَقْتَدِهِ .

تجئ هذه الآية بعد ذكره تعالى أنبياءه ورسله .

كثيراً ما يسألني أناس حرصوا على مصيرهم بعد الموت وهؤلاء كثيرون في المهجر الأمريكي إذ فارقوا وطنهم ثم يتسوا من العودة إليه وأشرفوا على مغادرة الحياة الدنيا ، وكان لي عندهم مجالس يفيضون فيها القول على تقرير هذا المصير ، وكنت أرني لدموعهم وهم يقولون : نخشى أن نخسر الحياتين معاً ، فهل لك أن تدلنا على طريقة تفضي بنا إلى الفوز بالأخرى بعد أن خسرنا الأولى ؟؟
ولقد مر بي ، قبل ذلك ، زمن وأنا حائر فيما حاروا فيه أتساءل ونفسي : إلى أين نمضي ؟؟ وما هي الحكمة من وجودنا ؟؟ ومن هو هذا الموجود ؟؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يصطدم بها الفكر إبان نضجه ، وكنت أقنع بأن العقل أعجز من أن يصل إلى كنه الخالق بينما هو يعجز عن اكتماله أبسط مخلوقاته ، وإذا عجز العقل عن أن يكتنه خالقه عجز عن إدراك الحكمة من وجوده ومن حياته وموته ثم بعثه وحسابه ، لأنها جميعاً تتعلق بالخالق ، ولقد مر بي هذا التساؤل وأنا في العقد الثالث من سني حياتي وأشرت إليه في ديواني « نقد النسايس والمسوس » المطبوع في لبنان سنة ١٩٢٨ حيث أقول :

وكم قائل لي : أين الآلهة فصفت ذاته لي وصف مسكنه ؟؟
أرى الكون ضلت لديه العقول فكيف تهيئ بمن كونه
أقول : كثيراً ما يسألني من يثق بي : عما يحملني على ما أدين به مطمئناً
إليه حريصاً عليه ، دونما برهان أقدمه بين يدي عقيدتي في أن ديني خير الأديان ،
وأن ربي هو الذي لا إله إلا هو في الأرض والسماء ؟؟ فما أطيق الجواب عن
ذلك بغير الجمل التي صدرت بها كتابي هذا ، وهي التي جرت على لساني
إذ فكرت في إخراج هذا السفر للعالم وشرعت فيه ، تلك هي : عرفت الله بمحمد
وعرفت محمداً بعلي ، إن مالا يرده عقل سليم : أن يقلد الجاهل العالم وأن يقتدى

العالم بالأعلم ، من أجل ذلك نرى كل ذى فضل من علم أو فن ، إذا كتب أو قال ، أسند ما يحتج به لصحة رأيه فيما يقول ويكتب ، إلى رأى من يثق هو ويثق سامعه بأنه أفضل منه ، وما أكثر ما نسند اليوم آراءنا في تدعيم حججنا علماً وأدباً ، إلى علماء الغرب وأدبائه لأن ما أسدوه إلى الإنسانية من علوم وفنون طغى علينا حتى لم نبصر غيرهم في تراثنا علماء وأدباء .

لقد كنت من هؤلاء الذين لا يرون وجهاً للحياة إلا تحت سماء الغرب ، ولا يثقون ، في قول أو عمل ، إلا إذا كان مصدره الغرب ، ثم يحتقرون كل قائل أو عامل لم يستند في التلليل على صحة قوله وعمله إلى الغرب حتى كأن لم يكن الشرق يوماً ما مصدراً لكل أو بعض ما يأتبه الغرب من هذه البدع في تعزيز الحياة ، من أجل ذلك عمدت إلى دراسة الغرب في الشرق والغرب ، بعد أن درست الشرق في الغرب والشرق ، وأكثرت من التنقل بين العالمين القديم والجديد حتى أصبحت عريقاً في معرفة الشعوب قديمها وجديدها فخرجت بعد عشرين عاماً بهذه النتيجة التي لا يستطيع فكر أن يتعداها فيما يقول عن الغرب تلك النتيجة هي فيما يلي :

ان الغربى قد وصل في تفكيره إلى أبعد ما يصله مفكر في كنه الحياة الدنيا من علوم وآداب وفنون ، خليفة أن ترفع الإنسان من مستواه الحيوانى إلى مستواه الإنسانى ولكنهم لم يتخذوا علومهم هذه وسيلة إلى ذلك وإنما اتخذوها وسائل تفضى بهم إلى تعزيز الجشع والأنانية والاستئثار حتى آلت بهم إلى الانحدار من مستوى الإنسانية إلى مستوى الحيوان الأعجم ، وبرهان ذلك ما نرى ونسمع من تناحرهم في سبيل حياة لم يفكروا في الغاية من وجودهم تحت سمائها . ورجعت من أمريكا وأوروبا ، بعد سنين وسنين تقلبت فيها على نعيم القوم ، ولم أحرم نفسى من كل ما يعلونه في صميم الحياة من ترف ورفاه ، رجعت بهذه النتيجة التي مرت بالقارئ قبل سطور والتي ضربوا المثل بها قائلين : الحياة هي أن تملأ جييك وتركب سيارتك ، أقول : رجعت بعد ذلك إلى ما كان يغذبنى به أبى ، ذلك الرجل الأمى الذى لم يدرس من الحياة إلا القرآن وبعض الحديث ، ولم يفقه من الدين إلا ما اشتملت عليه رسائل الفقهاء من مسائل

وتعليقات ، ثم لم يوث من حطام الدنيا أكثر من الخبز الحقيقير والادام التافه . رجعت إلى ما كان يغذى هذا الشيخ الجليل به روحى من نصائح ومواعظ بأن أدرس العلوم والآداب والفنون ما استطعت ولا أغفل عن الغاية التى يرمى إليها العلم والأدب والفن ألا وهى الإنسانية التى دعا إليها الله فى كتبه السماوية وعلى ألسن رسله وأوليائهم « ثم إذا أمعنت فى استفهامه معنى هذا الإنسانية لم يزد على قوله : أنها معرفة الله والإيمان به وبرسله ، فأقول له : وكيف يتسنى لى ذلك ؟؟ فيقول : أدرس القرآن والحديث ونهج البلاغة ففيها الكثير مما تحب أن تعرف » ولقد مات ، رحمه الله ، وفى نفسه حسرة أن يرانى قبل موته فقها وشاعراً ، أما فقهاً فلأخدم الحق بفقه الحياة عن طريق الدين ، وأما شاعراً فلأفهم كلام الله وكلام رسوله وكلام إمام البلغاء على بن أبى طالب ، وكان كثيراً ما يصارحنى بذلك ، وطالما مهد لى السفر إلى النجف لأدرس الفقه وأنا غصّ العود وكنت قد أنهيت دروسى الابتدائية فى مدارس الحكومة ، وشرعت فى دراسة المقدمات للفقه من نحو وصرف وبيان ، ثم فاجأتنا الحرب العالمية الأولى ولم أنهد إلى الخامسة عشرة من سننى حياتى ، فقضى نحبه وهو يوصينى بتحقيق أمله فى أن أدرس الفقه وأنقى الله .

وتضع الحرب أوزارها عن كتل بائسة من البشر وأشلاء أمعنت فى صهرها الحرب على النار والحديد ، وأرانى بعد ذلك حريصاً على تنفيذ وصايا أبى ، ولعلى كنت أحلم بتنفيذها ، ولم أفق من حلمى هذا إلا وأنا فى النجف أجثو على ركبتي متلقياً فقه محمد وآل محمد على أعلام الأمة ، وكنت أحس بثورة عارمة فى نفسى على هؤلاء الذين هم قادة خمسين إلى سبعين مليوناً من شيعة أهل البيت ، ولم أر فهم إلا من يتجه بفقهه إلى الآخرة وهو أعمى عن كل ما يحدث به من دنياه ، والا من يتجه بفقهه إلى الدنيا وهو معرض عن كل ما يشر به إلى أخراه ، وما زلت أحمل هذه الثورة فى صميم نفسى حتى عدت من أمريكا بعد خمسة وعشرين عاماً وزرت العراق ووضعت كتاب « وحى الرافدين » يحمل تلك الثورة العارمة .

أقول : لقد عدت بعد تنفيذ وصايا أبى فى درس الفقه إلى حد ما ، واحتراف

الشعر إلى حد ما ، فعكفت على دراسة القرآن والحديث ونهج البلاغة بعد ثلاثين عاماً مرت على وفاة أبي ، وكنت خلال هذا الجيل من الأعوام ، قد صعدت وانحدرت مراراً في تيار هذا العصر الجارف متأثراً بالغرب المادى تارة وبالشرق الروحي تارة أخرى حتى وقفت عند ترائي النفيس الذي غرسه أبي في صدرى قبل أن أفقه الحياة ، وكم للتراث من أثر في النفس يغلب كل أثر ولو بعد حين .
وانتهيت من دراسة هذه الكتب إلى أن التقليد فيما يستعصى على العقل حله من مشكلات العلوم القائمة على اكتناه الحياة وراء ما نحس ، هذا التقليد هو أمر لا محيد للعقل عنه ، فان التفاوت بين العقول كائن ، وان هذا التفاوت حجة على الإنسان في أن العلم لا حله ، من أجل ذلك كان على المرء أن يفكر في حياته وأن يعمق في هذا التفكير للوصول إلى الغاية التي من أجلها كان حتى يصل فيقف مطمئناً إلى حياته ، أو يعجز فيعتمد على من هو أنضج عقلاً وأسمى تفكيراً منه ، فيتأثره ويمضي على نهجه مطمئناً كذلك إلى حياته ، وفي يقيني أن هذا الاطمئنان هو العامل الأول في توفر الإنسان على العمل الذي خلق له على هذه الأرض ونحت هذه السماء كائناً حياً .

والدراسة التي رضت نفسي عليها في حياة محمد وناموسه الأعظم من فرقانه ، ومن سرته على ألسنة الصحابة وأقلام المؤرخين من قداماء ومحدثين في شرق الأرض وغربها ، هذه الدراسة التي بدأتها وأنا مقبل على الحياة في شبابي ، وانتهيت وأنا ريان منها في كهولتي ، هذه الدراسة أوقفني عند قوله عز من قائل : فهداهم اقتله « مفكراً في أن الاقتداء عنصر هام وسبيل أول يفضى بالإنسان إلى الحق الذي ينشده والهدف الذي يرمى إليه من وراء تفكيره .

ورأيت أن قادة الفكر في العالم من قبل ومن بعد يجمعون على أن العبقري الأول في مجموعة الإنسان هو محمد بن عبد الله ويليهِ على بن أبي طالب ، ثم رأيت من دراستي ثانيهما أنه لم يجد عن طريق الأول قيد لحظة في حياته وبعد موته ، وأنه لو خامره أقل ريب في دينه لبذّ معاوية في غدره وفجوره ، ولكان أقوى منه في شراء الضمائر واستهواء النفوس المريضة بالمال والرتب ، ولكان عباد الشهوات أكثر إقبالاً عليه منهم على خصمه ، ولكن إيمانه العاصم من وراء

عقله الجبار المشيع بتعاليم محمد ، وقف به عند التضحية بما يفنى في سبيل الخلود ..
 فبعقل على هذا الذي كان مرجع الخلفاء بعد محمد ولا يزال إلى اليوم مصدر
 العبقرية في الوجود ، بهذا العقل الذي كان كذلك ثم لم يتهافت بين يدي حياته
 الدنيا مع قدرته على امتلاكها ، أدركت أن وراء هذه الحياة حياة أسمى ،
 وخلف هذه الدار داراً أبقي ، عرفها محمد قبل على عن طريق الوحي وعرفها
 على بعد محمد من تلقين محمد إياه ، إذ يقول : والذي بعث محمداً بالحق واصطفاه
 على الخلق .. لقد عهد إلى بمنجي من ينجو ومهلك من يهلك ... وما أبقي شيئاً
 يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضي به إلى ... »
 فإذا كنت أحقق أمراً علمياً أو أدبياً أو فنياً أو فلسفياً وأقتنع بصحة رأيي
 فيه من تأثري من هو فوق في العلم والأدب والفن والفلسفة ، فلماذا لا أقتنع
 بصحة رأيي في فقه الدين من تأثري من هو فوق فيه علماً وعملاً وإخلاصاً ؟؟
 إن سجل عباقرة العالم منذ عشرات القرون حافل بفكرة الدين وأنها حق ، ثم إن
 سجل عباقرة العالم منذ ألف وأربعمائة عام حافل بعظمة محمد وعلى في جبروت
 العقل فلم لا أتخذ هؤلاء جميعاً قدوة لي فيما أدين لله به وأنشد الخلود له ؟؟ إلى
 إذن لخاسر وسفيه .

اللَّهُمَّ ارِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ وَارِنَا الْبَاطِلَ
بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ

محمد

شهدت في منتدى رابطة الموظفين بمصر ، حفلا أقيم لنشر الثقافة والدين ،
وتكلم فيه الشيخ محمد أبو زهرة أحد علماء الأزهر ، وجاء في كلمته على ذكر
أبي طالب رحمة الله عليه ورضوانه ، مثبتاً أنه مات مشركاً ولكنه أثني عليه
بما هو أهله من رعاية محمد وحبايته من عتاة قريش .
وكان لا بد لي من التعقيب على هذه المحاضرة ، إذ كنت حريصاً ، وفي أي
حفل ، على أن لا يفلت مني حق مظلوم حتى أرد ظلامته ، وكان لا بد لي أيضاً
من الثناء على المحاضر قبل أن أقول كلمتي ، لما أفاض فيه من قول جليل ، ثم خلصت
من الثناء إلى اللوم والعتاب على أن يفقه العالم حقيقة الدين فيصل به فقهه إلى
الرضي عن أبي سفيان وعن منخله معاوية ، ثم عن مروان وعن عمرو بن العاص ،
بل عن يزيد كما يروى لنا التاريخ في سيرة أبي حامد الغزالي الذي لم ير حرباً
في ضرورة الترحم على يزيد لأنه ثبت لديه إسلامه ، أما كيف ثبت إسلامه فلم
يتحدث إلينا به أقول :

يفقه العالم فينا حقيقة الدين فيصل به فقهه إلى الرضي عن هؤلاء والتوقف
عن طلب الرحمة من الله لأبي طالب ، وقد أجمعت الإنس والجن والملائكة
والشياطين على أن أباطالب عصم رسول الله من عدوان المشركين طوال حياته ،
كما أجمعوا على أن أولئك قد حاربوا رسول الله طوال حياته ، فكيف نقول
ثم ماذا نقول هؤلاء البسطاء الذين أوتوا العلم وفقدوا العقل الذي يوجه العلم إلى
حيث يسمو به الإنسان عن قبيل الحيوان ؟؟

قلت في موقعي ذاك معقباً على محاضرة الأستاذ أبي زهرة : بالأمس قرأت
في صحيفة « لواء الإسلام » التي يحررها جماعة من العلماء وعلى رأسهم الشيخ
أبو زهرة ، قرات كلمة لأحدهم تشير إلى فضل الإمام جعفر الصادق ، وتنقل
أن اباحنيفة قال : ما دخلت على جعفر إلا وجدته صائماً أو مصلياً أو يقرأ

القرآن ، فاذا كان جعفر كذلك وهو إمام ستين مليوناً من المسلمين شيعة أهل البيت فلم لا تأخذ قول هذا الإمام حجة في ثبوت إسلام أبي طالب ؟؟ على أن هذا الثبوت لم يقتصر على الشيعة وإنما رواه بعض أهل السنة في السيرة الحلبية ، فلماذا تأخذ برواية معاوية في صحيح البخارى ولا تأخذ برواية جعفر بن محمد الصادق أستاذ الأئمة الأربعة ؟؟

وإذا كان رسول الله قد بكى عمه أبا طالب واسترحم له ربه وشكا بعده ضعفه وتشريدته وطلب الحماية من قريش بعده فلم يجره أحد ، وإذا كان قد أعلن بعد انتصاره واستعلائه على المشركين ، بخطه على الطلقاء من آل أبي سفيان ، وإذا كان هؤلاء حققوا بعد موته صدقه وعدله في هذا السخط إنما فعلوه في الدين من الهتك والتجريح ، أقول : إذا كان ذلك كذلك فهل يبقى في وجوهنا قطرة من حياة وفي رؤسنا ذرة من عقل إذ نعمد إلى أبي طالب فتخرج من الترحم عليه ونعده مشركاً ثم نعمد إلى معاوية فتخرج من السخط عايه ونعده صحابياً ومسلماً فنغلق عليه الرضوان والرحات : ما أسفه الإنسان إذا لم يعقل فيما يقول أو يفعل !!

ويقوم الشيخ أبو زهرة بعد ذلك فيقول : أما أبو طالب فأنما نعده من المشركين ليكون على إشراكه بما أسداه للإسلام في حماية محمد واللود عنه أفضل من الكثير بعد الفتح على إسلامهم وفي هذا ما فيه من تعظيمنا لأبي طالب ، وأما الشيعة فهم في صميم الإسلام وفقههم فقه أهل البيت وكثيراً ما نلجأ إلى آراء الفقهاء منهم في التفسير والأصول والاستنباط ، وإمامهم جعفر هو إمام الأئمة « ويجلس بعد ذلك إلى فيقول : لقد كنت في مطلع شباني مغرقاً في حب الإمام على ومعناً في تفضيله على سائر الصحابة ، ولكنى بعد أن وعيت وفقهت رجعت إلى أن علياً كرم الله وجهه أحد أصحاب رسول الله وأنه يفضل بعضاً منهم ويفضله البعض الآخر .

ها هنا أحبت أن أقف وأتمثل بقول الرسول في صدر هذا البحث ، اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه « ولم أشأ أن أسأله السبب الذي من أجله كان يرى علياً أفضل الصحابة في شبابه ثم أصبح

في كهولته يراه مفضولاً لبعض هؤلاء الأصحاب ، لم أشأ أن أسأله ذلك لأنه من الصعب على المرء وهو مقبل على الشيخوخة أن يصحح رأياً كان عليه وهو في غمرة الشباب ، ولقد كنت هممت أن لا أغادر النادى حتى أقول له : رب شباب يستلهم العاطفة خير ألف مرة من شيخوخة يستعبد بها العقل .

ان العاطفة التي هي وليدة الطبع أصدق في الإلهام من العقل الذي هو وليد المجتمع ، والمجتمع هو هذا الذي نراه لا يزال منذ ألف عام يطبع حياته بطابع الدين التقليدي الذي أمعن أعداء الإسلام من عرب خانوا رسالتهم وعجم أخلصوا لوثنيهم ، أمعنوا في تشويه الإسلام الصحيح الذي شرعه محمد وارعاه البررة من أصحابه وعلى رأسهم على بن أبي طالب عليهم تأويله وتعزيزه والتضحية في سبيله ، ليت الشيخ أبا زهرة ذكر السبب الذي من أجله فضل على بن أبي طالب بعض أصحاب محمد مستلهماً بذلك طبعه لا تطبعه ، فان الذي بين أيدينا مما نطبع به أنفسنا ثم نطبع عليه ناشئنا لا يقره منطق ولا يصح عليه تفكير .

لمثل هذا قال رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كلمته تلك التي تشعنا بأن الحق لا يكون حقاً في الواقع حتى نراه كذلك ونؤمن بأنه حق ، ثم لا نكون بعد ذلك محققين حتى نعمل به ونتبعه ، وأن الباطل لا يكون باطلاً في الواقع حتى نراه كذلك ثم نؤمن بأنه باطل وأنه يجب علينا اجتنابه ، وأى حق أوضح من على في حياة محمد وبعد مماته خليف بأن نتبعه ، وأى باطل أكبر من أن نتجاهل فضله السائد بعد محمد أو أن نتنكر له ؟؟

ويا ليت أبا زهرة ومن قال قوله من علمائنا الأعلام يا ليتهم ذكروا السبب الذي من أجله وثقوا برواية من أثبتوا أن أبا طالب مات على الشرك ، ولم يثقوا برواية من ثبت لديهم أنه مات على الإسلام ، وإذا صح لدينا أن بعض الرواة كجعفر بن محمد الملقب بالصادق والثابت أنه من أهل بيت رسول الله وأنه صاحب مذهب الإمامية الذين يفضلون عدداً بعض المذاهب الأربعة ، أقول : إذا صح لدينا أن أبا طالب مات مسلماً عن طريق جعفر بن محمد فلم لم نعمل به ؟؟ أنجعل رواية أبي هريرة وأمثاله في صحيح البخاري وأمثاله أصح من رواية جعفر بن محمد وأمثاله في إثبات إسلام أبي طالب ؟؟

— ٢٢٤ —

لم لنعول على أضعف الروايات ونلخص بها أصبح الروايات في سبيل الحق الذي تقر به عن محمد الباكية على عمه أبي طالب؟؟ أيغضب رسول الله أن أخذنا برواية ابنه جعفر الصادق في تنزيه أبي طالب عن الشرك ويرضى أن أخذنا برواية بعض الناس أنه من المشركين الذين لا يصح أن نرضى عنهم وأن نستغفر لهم؟؟ أصبح لنا أن نرضى عن معاوية الذي سن لعن على وأهله بعد الصلاة والذي أخذ البيعة لابنه يزيد والسيوف مشرعة على رؤس الصحابة ، حتى أباح مدينة الرسول وجاه لعنة جنوده ، ثم نوّمن بأن معاوية مأجور في ذلك لأنه مجتهد ، ونتخرج في الرضى عن أبي طالب ونعده مشركاً؟؟ فسبحانك اللهم هذا بهتان عظيم اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه يا رب .

على

لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَيَبْلُغَ غَايَاتِهِ
مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ
النَّخْلَةِ ، لِذَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ...

وغامض اختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف
والقوى والضعيف في خلقه إلا سواء »
كان كثيراً ما على أي علي : إن الأئمة يا بني في عصمة عن الخطأ كالأنبياء
لأنهم ورثتهم ، وثما أن محمداً سيد الأنبياء كذلك على فانه سيد الأوصياء ،
والأوصياء كالأنبياء في علم الغيب ، ومن أغرق في أقوالهم ير العجب من رموزهم
وإشاراتهم إلى كل ما حدث وسيحدث في العالم ، ألا تسمع قول الإمام وهو
يصف الأرض بقوله : وأسكنها ، على حركتها ، من أن تميد بأهلها » فانه يشير إلى
أن الأرض متحركة والعلم الحديث يعزو هذا الكشف إلى العلماء المحدثين .
ومن قول الإمام ما أسمعني بعض الرواة ولم أقرأه في النهج ، قوله : لو شئت
لجعلت لكم من الماء نوراً يكشف الظلم » يشير عليه السلام إلى الكهرباء وقد مر
بالقارئ في غير مكان من هذا الكتاب قريب من ذلك ، وقد قيل لي ان كثيراً
مما نسب إلى الإمام لم يسجله الشريف الرضي في نهج البلاغة لاختلاف الرواة
على صحته ، على أن الشريف ليس جامعاً محيطاً بكل ما قال الإمام ، فقد يكون
ما فاتته منه فوق ما عثر عليه ، وإذا كان ما اتصل بنا عن رسول الله خلال اثنتي
عشرة سنة قد ملأ الطوامير فكيف نحصر ما اتصل بنا عن علي ، وهو باب
علمه ، ففي نهج البلاغة مثلاً يكاد يستوعب قول الإمام عن عام واحد وقد لبث
أربعين عاماً يقول ويكتب ويخطب وهو أعلم الصحابة بعد رسول الله وأبلغهم
وأقضاهم ؟؟؟

فلنعد إلى عظمة العقل في قوله : ما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف
والقوى والضعيف في خلقه إلا سواء » فان غاية ما وصل إليه العلم الحديث في

تعليل الكائنات هو عين ما أشار إليه الإمام بقوله هذا ، فقد تحدث إلى ، وأنا في مدينة ديترويت مشغن إحدى ولايات أميركا الشمالية تحدث إلى الدكتور محمد كاشف الغطاء آنذاك ، وكان يدرس في جامعة مشغن ، قال : لقد شهدت رئيس محفل الأنوم بالأمس يلقي محاضرة في بحث الذرة ، جاء فيها قوله :

« ان العصر الأول في تقويم كل كائن والذي كان يسميه الحكماء الأقدمون بالجواهر الفرد ، هو ما نسميه الآن بالذرة ، وهي تصغر عما تراه العين ثلاثة ملايين ضعف ، ولقد كشف العلم الحديث عن أن هذه الذرة غير بسيطة كما كان يعتقد الحكماء في الجواهر الفرد ، ولكنها مركبة من نواة تلور حولها كهارب على شكل نظامنا الشمسي ، وسرعة هذه الكهارب في دورانها حول الذرة كسرعة الكواكب في دورانها حول الشمس فكل كائن حي أو جاد يقوم بهذه الذرة المركبة من نواة تلور حولها كهارب تختلف قلة وكثرة فيختلف الكائن المركب منها صلابة ولينا ، فمناصر التركيب في الماء مثلاً هي عينها في الفولاذ ، وما نأكله هو عين ما نلبسه » يقول محدثي : وفي نهاية البحث بحني المحاضر ظهره ثم يقول : آمنت أن خالق الكون واحد لأن طراز خلقه واحد .. »

وكلام الإمام جلي في إثبات وحدة الخالق من دقة الصنع ووحدة الطراز في هذه الدقة وتساوها في الأشياء والأحياء كبيرها وصغيرها كالنخل والنمل حتى كأنه ينزأ للعلم في هذا العصر أن يكون طريقاً للاقرار بواحدانية الخالق ، وحتى كأن أول من صدقت فيه نبوءة الإمام هو هذا العلامة الأمريكي الذي ألقى بحثه من على منبر الأنوم في جامعة مشغن على طلاب هذا العلم وفيهم الأستاذ العراقي محمد كاشف الغطاء ، فاعجب لعظمة الإلهام في نفس على وهو تلميذ محمد قبل ألف عام يبعث في عصر النور هذه العظمة القائمة على اكتشاف الذرة وتفجيرها في نفوس الأعلام من علماء القرن العشرين .

أجل : لا فرق بين التلة الحقيرة الصنيرة ، وبين النخلة الجليلة الكبيرة من حيث الخلق الأول ثم من حيث الدلالة على أن خالقها واحد ، فدقة الصنع والتفصيل إلى غموض الخلاف بين المخلوق والمخلوق ، يعودان إلى وحدة في الخلق سواء ، وفي ذلك دلالة على وحدة المصنر الذي كائنا منه »

هكذا يقول ، أو يريد أن يقول عليّ البتيم تلميذ محمد اليتيم ، وكلاهما تخرجنا من أرض قفر خلاء لا أثر لحضارة الإنسان تحت سماءها ، ولعلها قفر خلاء من كل ما يؤهل الإنسان لأن يتحضر ، يريد عليّ ربيب محمد وتلميذ حكمته ، أن يشير بقوله هذا إلى أن دقة الصنيع في الكبير مهما ضخمت حتى بملا فضاء العين ، وفي الصغير مهما تضاعل حتى لا تتركه العين ، يريد أن يشير إلى أن هذه الدقة تستعصي على العقل أن يدركها أو يحيط بها ، ولا سبيل للعقل في إدراكها إلا أن يخلص في إيمانه بعظمة خالقها فتتكشف بين يديه عن أسرار الحق في صميمها وحلة وجلالها كما تكشفت لأستاذه محمد وتكشفت له بعده دونما قراءة في كتاب أو دراسة لعلم .

هذا القول وأشباهه من أمالي أولى الوحي وسدنة الإلهام هو الذي جعل المفكرين في جامعة برلين يعقلون المؤتمرات ، عندما أكرموا جابر بن حيان باعث الجبر المشتق من اسمه ولم يقفوا له على مصدر العلم الذي وضعه ولم يزل أكثره رموزاً لم تبينه عقولهم ، أقول : هذا الذي جعلهم يأتزمون للتفكير في إمكان تلقي العلوم والفنون عن طريق الإلهام ، إذ ثبت لديهم أن جابراً هذا لم يدرس على غير جعفر الصادق ، وإن علم جعفر ورأى عن آبائه حتى محمد ، وقد أشرنا إلى ذلك في غير هذا المكان .

أذكر وأنا صبي ، سمعت من خطيب منبر يذكر : أن في سبي الطاغية يزيد بن معاوية لأهل بيت محمد اللواتي وردن من العراق بعد قتله الحسين على الشام ومثلن بين يديه ، كان فهم زين العابدين علي بن الحسين وهو صبي لم يراهق وقد نجا من القتل في كربلاء لأنه كان مريضاً ، يقول الخطيب : ان هذا الصبي عندما مثل السبي بين يدي يزيد وهو في مجلس حافل بأعيان الشام ، طلب الإذن في القول فأبى يزيد أن يأذن له ، فقال له بعض جلسائه : دعه يتكلم فإذا محسن أن يقول وهو في حديثه هذه ؟؟ فقال يزيد : اسكت انهم أهل بيت زُفُوا العلم زُفاً »

سألت أبي عند انتهاء الحفل ، وكان لذكرى الحسين شهيد كربلاء ، سألته عن معنى : زُفُوا العلم زُفاً فأجابني بقوله : ان يزيد يعني بقوله هذا أن أهل

— ٢٢٨ —

يبيت الرسول علماء غير معلمين بما تلقوه عن أبيهم وجدهم من علم الله بطريق
الوحي « وهذا مصداق ما جاء عن رسول الله بالسند الصحيح قوله : اتقوا
فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقوله : من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم
وهده بلا هداية وجعله بصيراً وكشف عنه العمى « وليس الزهد في الدنيا تركها
ولأنما هو الأخذ بحلالها والعزوف عن حرامها ، وهو عين الإيمان الذي ينظر
العبد من ورائه بنور الله ..

أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... إِنَّ الدِّينَ فَرَقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...

الله

مخاطب ، جل وعلا ، بقوله هذا أنبياءه من نوح إلى إبراهيم ثم إلى محمد ..
وإذا خاطب الله رسوله بحكم فأنما يسوق هذا الحكم إلى عباده عن طريق رسله ،
فكل آية في القرآن تشتمل على تشريع أو عظة يأمر بها الله أنبياءه فأنما يقصد بها
التبليغ على ألسنتهم إلى سائر خلقه ممن يعقل لئلا يكون على الله حجة في عدم
التبليغ وهو المستول عن عباده . ولقد كرر سبحانه حكمه هذا في تحذير عباده
من الفرقة في الدين فقال في موطن آخر : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً
لست منهم في شيء » ولست مع من يفسر الفرقة في كنه الدين فتختلف الأمة
في التوجه وعدمه وإنما الفرقة في الدين هي الخلاف ضمن حدوده ، وهو ما نسميه
باختلاف المذاهب ، لأن الخلاف بين التوحيد وعلمه ليس خلافاً في الدين
وإنما هو خلاف بين دين ولا دين .

فالفرقة التي ينهانا الله عنها في صميم الدين وهي عين هذه الفرقة السائدة فينا
باسم شافعية ومالكية وحنبلية وحنفية وجعفرية ، وزيدية ، وغيرها من المذاهب .
ثم بن شاذلية ونقشبندية ، ورفاعية وقادرية وغيرها من الطرق ، هذه الفرقة
التي كثيراً ما أفضت بنوها إلى التنازع والتشاحن ، وإلى التباغض والتناحر ثم
إلى التفتيق والتكفير ، فقد نقل لي السيد علي عبي الدين البقاعي وهو مهاجر في
نويرك ، نقل لي أيام نزولي ضيفاً عليه في أمريكا قوله :

لم أعرف نفسي مسلماً إلا في هذه البلاد لبعدي فيها عن تناحر المسلمين .
في أوطانهم باسم الدين تحت وطء الفرقة في المذاهب » ثم قال : أذكر وأنا صبي
سمعت ليلة ما ضجة كبيرة في بلدي فسألت بسببها فقالوا : مر بالقرية رجل
رافضى فتعقبوه خارج البلدة حتى غربت الشمس وقضوا عليه ثم واروه في
غار ، فأصبحت إذ ذاك على صغرى يمثل القشعريرة من تأثير ما سمعت على
حواسي ، ولم أزل إلى اليوم أحاسب قومي في نفسي على ذلك العمل الشنيع -

وينقل لى السيد أديب خان فى دمشق ، ونحن نستعرض الفرقة فى الدين . وما أدت إليه من ضعف فى أخلاق المسلمين ، والسيد أديب هذا هو من أنساب أمان الله خان ملك الأفغان السابق ، تحدث إلينا فى منزله بالشام فقال : شهدت ذات ليلة اجتماعاً دينياً فى مدينة كابل فطاف علينا صاحب المنزل بطبق فيه مثل حب الهال ، وكان كل منا يتناول حبة ويأكلها فكنت كذلك ولكنى إذ مضغت هذه الحبة لم أكد أسيغها طعماً وريحاً فسألت من هو بجانبى عن كنه تلك الحبة ؟؟ فقال : هذه قطعة من لحم رافضى يدين بمذهب خامس ، وأصحاب الزوايا إذا ظفروا برجل من أتباع هذا المذهب قتلوه ثم جففوا لحمه وقطعوه كما ترى ليطوفوا به على رواد زواياهم عند الذكر تقريباً إلى الله بأكله »

فليسمع من له أذنان ، وليفكر من له عقل فى المسلمين إلى أية مرحلة بلغ بهم الجهل والسفه فى الحياة من وراء تفرقهم فى الدين ، لهذا كنت معتبطاً إذ وردت مصر واجتمعت إلى نفر صالح من علمائها يديرون مؤسسة تدعى : « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ويصلرون صحيفة باسم « رسالة الإسلام » ناطقة بلسان أولئك الجماعة وحافلة بروائع الفكر الحديث فى الإسلام بأقلام مفكرين معتدلين مخلصون للحق فيما يكتبون ، عاملين على تنزيه الإسلام من أوضار الفرقة فى أهله ، وقد عززوا هذه الصحيفة بمؤسسة علمية أسموها « معهد الدراسات الإسلامية العليا » ولقد شهدت بعض ندوات هذه المؤسسة وسمعت أقوال الاعلام من رجالها .

ولقد تحدث إلى باعث هذه الفكرة العلامة الشيخ محمد تقى القمى الإيرانى القائم على هاتين المؤسستين الصحيفة والمعهد ، قال : الحقيقة أنا لم نقدم على هذه المهمة الإسلامية للتقريب بين مذاهب أهل السنة أو مذاهب أهل الشيعة ، وإنما عملنا يستهدف للتقريب أولاً وقبل كل شئ بين مذهبي السنة والشيعة على إطلاقهما لأنها المذهبان الوحيدان اللذان يتقوم بهما الدين الإسلامى ، وتباعد ما بين المذهبين لم ينشأ عن جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة ، ولا عن أبى حنيفة وزملائه من أئمة السنة ، لأنهم كانوا قلدوة صالحة فى تقدير بعضهم بعضاً ، ولكن التباعد نشأ من أتباعهم وبعد قرون مرت على زوالهم ، واعتقد أن للدخلاء على الإسلام

قبلا وبعداً كل ما أوجب الفارقة بينهم ، فعسى أن نتوفق لإزالة هذا السم الخبيث المتأصل في نفوسهم من رواسب ذلك الدس »
 أقرأ على الدوام بعض الصحف الإسلامية في القاهرة وخاصة مجلة لواء الإسلام ، وأخرج منها بأن الإسلام قاصر على المذاهب الأربعة ، إذ يجب محروها ما يلقي عليهم القراء من أسئلة تتعلق بأحكام الإسلام ، يجيبونهم بفتاوى قاصرة على الأئمة الأربعة : أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد ابن حنبل ، ولم أجد أحداً منهم يجيب السائل بفتوى جعفر الصادق وهو معلم الأئمة الأربعة ومحل تقديرهم ، فكنت إذ ذاك أتساءل ونفسي : لماذا هذا ؟؟ أليست هذه فارقة في الدين ؟؟ ثم صممت على سؤال المجلة بفحوى ما أنكرته عليها من ذلك فكتب للصحيفة ما يلي :

اخواني الأفاضل محرو ندوة لواء الإسلام
 أراكم في إصدار الفتاوى الشرعية لسائلكم من قراء المجلة تحضرون هذه الفتاوى بالأئمة الأربعة وتهملون الإمام جعفر بن محمد الصادق الذي نقلتم في مجلتكم هذه إكبار الإمام أبي حنيفة له بقوله : ما دخلت على جعفر بن محمد إلا وجدته صائماً أو مصلياً أو يقرأ القرآن وانكم لتعلمون أن فقه جعفر هذا يدين لله به من المسلمين ما يزيد على خمسين مليوناً ، ولعل أتباعه يربون على اتباع أحد الأئمة الأربعة ، وتعلمون أيضاً أن المكتبات الإسلامية مشحونة بفقه جعفر ، وأن مدارس النجف حيث يرقد بطل الإسلام على تضم عشرات الألوف من رواد الفقه الجعفري منذ قرون ، وان لجعفر هذا آراء يرتضيها بعض أهل السنة فوق ما يرتضي آراء تناقضها في المذاهب الأخرى .

وتعلمون أيضاً أن التنكر لهذا العدد الذي يناهز الخمس أو السدس من مجموع الأمة الإسلامية والذي يطلق عليه اسم الشيعة الإمامية الجعفرية ، ان هذا التنكر يسيء إلى الوحدة الإسلامية القائمة على قوله تعالى : أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ، وقوله عز من قائل : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » فلم لا تتقربون في فتاواكم هذه من الشيعة لتقربوهم إليكم ، ثم لم تتجاوبوا معهم في تجديد الفقه الإسلامي ؟؟ ولم لم تدعوا لتعزيز جماعة التقريب

بين المذاهب الإسلامية ؟ وبعد ذلك لم لم تنادوا بضرورة المؤتمرات العلمية لتعزيز
الفقه الإسلامي في الأزهر وتدعوا أعيان علمائهم ليشهدوها ويسهموا في تعزيزها
ثم يعملوا هم لعقد مثل هذه المؤتمرات في النجف ويدعوكم لتشدها وتسهموا
في تعزيزها ؟؟

اني أرى أن في الطليعة من صحف الإسلام مجلة الأزهر ومجلتكم ومجلة رسالة
الإسلام ، فلم لم تضامن هذه الصحف في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية بتوحيد
هذه المذاهب التي تتفق وأصول الإسلام ثم تختلف بالفروع التي هي إلى القشور
أقرب منها إلى اللباب ؟؟ لم لم تركوا هؤلاء الأئمة مرتاحين في مراقدهم لا يقلقهم
تناحرنا باسم المذاهب التي لم يشرعوها لنا إلا لنتحد في خطرة الإسلام وننضوي
تحت لوائه ، ألا يصح لي أن أكون مسلماً ومسلماً فقط ؟؟ دون أن أكون حنفياً
أو جعفرياً ؟؟ إذن ماذا كان محمد وأصحابه الأبرار فيما يدينون لله به ؟؟

ولقد وقفت على شواهد من هذا التناحر بين أتباع كل مذهب وأشياخ
المذاهب الأخرى مالمو شرحته في هذا السفر لخرجت من ديني ، لأن تصور
صدور هذه الأجرام التي يقترفها معتنقو كل مذهب ضد معتنقي المذاهب الأخرى
أقول : ان مجرد تصور تلك الجرائم يبرأ الإسلام منها إلى باعته ويناجيه أخيراً
كما ناجاه أولاً بقوله : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ..
وحسبي أن أنقل شاهداً واحداً هو بين سمعكم وبصركم ، ان الدكتور
على عبد الواحد وافي روى لي أنه كان في العراق يسمع بأذنيه شتم آل البيت من بعض
أهل السنة لأنهم يعتدون أن الشيعة يلعنون أبا بكر وعمر ، فمن هو هذا المسلم
الذي يلعن آل بيت الرسول ؟؟ ثم من هو هذا المسلم الآخر الذي يلعن عمر ؟؟ هل
هما مسلمان ، وهل الإسلام حملهما على ذلك أم الفرقة في الإسلام التي هي وحدها
اختلاف المذاهب ؟؟ هل أوصى جعفر بن محمد الصادق إلى شيعته بلعن عمر أم أوصى
أبو حنيفة أتباعه أن يلعنوا أهل البيت ؟؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ...

لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى
عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى
أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ..

مَحْمَدٌ

هذا كلام خليق بأن يقوله محمد لأنه وليد قول الله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ولأنه دليل على أن قائله مرسل من ربه إلى الناس كافة لا لصنف منهم دون آخر ، ومن أعجب ما سمعت قول الشيخ محمد أبي زهرة أحد علماء الأزهر ، وهو يتكلم على منبر الشباب المسلم في القاهرة ليلة الهجرة النبوية قال : أن السر في الهجرة من مكة إلى المدينة ، ومواخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار برهان على أن هذا الدين لا يمكن له ولا قومية فهو مشاع للإنسانية أينما كانت وحيثما نبتت ، ثم استشهد بالحديث الذي يدور حوله هذا البحث .
ولأنما كان هذا القول عجيباً لدى لأنى شهدت المتكلم الذي أقر هذا الحديث وحججه ، شهدته يقر الحديث المروى عن أبي بكر أنه قال في حجاجه الأنصار يوم البيعة تحت السقيفة : الخلافة في قريش ، ولأنى سألته عن مبلغ الصحة في الحديث القائل : اختار الله من العالم العرب ومن العرب مضر ومن مضر هاشم واختارني من هاشم فأنا خيار لخيار من خيار ، فأقره فكيف نلأتم بين هذا وبين ذاك ؟؟ أكرم الناس على الله أتقاهم فالخلافة ينبغي أن تكون في الأبرر الأتقى لا في قريش ، والخيرة لله في العالم لا تخص عنصراً ولا شخصاً وإلا لكان الجبر في الخلق ، فهل خلق الله الناس من طين وخلق العرب من ذهب ؟؟ وهل كانت قريش من جوهر والعرب من خزف ؟؟ أم كلنا لآدم وآدم من تراب ؟؟ وما أعظم ما قاله على وهو يجهز الرسول للدفن عنلما بلغه قول أبي بكر « الخلافة في قريش » فقال : إذن نحن أولى منه لأننا من هاشم وهاشم أقرب إلى الرسول من قريش ، وكان الإمام ينكر أن تكون هذه الخلافة في قريش وإنما يجب أن تكون في الأبرر الأتقى .

يخطئ كل من يفضل العرب على العجم ، كما يخطئ كل من يفضل قريشا على غيرها في الخلافة إذا لم يكن مناط هذه الخلافة فضيلة وتقوى سائدتين في الخليفة على فضيلة غيره وتقواه إذ يقول الله : ولا ينال عهدى الظالمين ، يقول هذا لآبراهيم إذ طلب من ربه جعل هذا العهد في ذريته ، وإن حديث : الخلافة في قريش مكشوب على أبي بكر لا على رسول الله لأن مفتريه يرمى إلى هدم الإسلام حيث انتهت فيه الخلافة إلى معاوية فأتار بالعصية العربية عصبيات الأعاجم وأطاح بروعة الإسلام في قوله صلوات الله عليه : لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »

هذا الحديث هو الذى مشى بالقرشين قادة حتى انتهوا إلى معاوية وابنه يزيد وأبنائه من بعده إلى مروان الحمار ، وهو الذى انتهى بالهاشميين قادة حتى انتهوا إلى آغاخان الذى هو الإمام الأربعون عند ملايين من المسلمين يقدسونه ويعتقلون فيه الحلول ، لو كانت الخلافة بعد محمد محصورة في قريش لما مات دون أن يصدع بها ، ولما فارق الحياة حتى أوقف على منبر الخلافة قرشياً وهو يقول : هذا هو الخليفة عليكم من بعدى ، ولوقف من الخلافة موقفه من النبوة وهو واثق من أن الله يعصمه من الناس .

ان الكتاب الكريم قد أوضح أمر الخلافة بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » وهل هناك أصرح من هذا في وجوب كون الولي لعهد الله هو أفضل الخلق بعد نبيه ؟؟ فلينظروا الأفضل ويلقوا إليه مقاليد أمورهم سواء كان عربياً أو عجمياً ، والغريب في أمر هؤلاء الذين يصححون مثل هذه الأحاديث التي وضعها بنو أمية ليعزروا دعوتهم إلى العروبة دون الإسلام ، كيف يصححون مثل هذه الأحاديث فيجعلوا العرب خير الناس لأنه خرج منهم خير الناس محمد ثم يقرأون قوله تعالى : يخرج الحق من الميث ويخرج الميث من الحق »

ولو كان طيب محمد من طيب عنصره لما علما هذا الطيب عمه أبا لهب ، ولكان هذا الطيب منحلراً من صلبه حتى نال آغاخان فحال بينه وبين أن ينفق ملايين الدنانير يوم زواجه من المؤمنة الصالحة « ريتا هايوارت » ولو كان فضل قريش هو الذى يؤهلها للخلافة لما كانت قريش أجراً الناس على تكذيب محمد

ونبله وتشريده ثم تعذيب أصحابه بالنار والحديد ، وأغرب من هذا كله أن العنصرين من العرب يفسرون قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقوله : جعلناكم أمة وسطا .. بأن الأمة هي أمة العرب ولم يلتفتوا إلى التناقض إذن في الآيات ، وبأدنى تفكير يصلون إلى الحق في أن المقصود هنا بالأمة أمة محمد التي خلفت أئمة الأنبياء قبله فان عصره خير العصور وأتمه خير الأمم ، ولم يقل أحد أبداً في التفاسير الحق أن المعنى بأمة محمد هي أمة العرب ، وأما كونها وسطا فلائها وسط بين الدنيا والآخرة إذ بعث نبيا بين يدي الساعة .

ولقد برهن العرب بعد محمد على أنهم ليسوا بأهل لحمل رسالته إذ لم يمر بهم قرن واحد حتى خذلوا هذه الرسالة ، وحتى نازع بعضهم بعضاً على الملك وتبددوا شيعاً في الأرض ، وحتى الآن نرى المسلمين الأعاجم خيراً لحمل رسالة محمد من العرب فان العرب لا يهلون إلى مائة مليون ، وقد تفرقوا إلى دول عشر بينما نجد معاصريهم من المسلمين الأعاجم كأندونيسيا والباكستان لم ينحلروا انحلالهم في الفرقة والتنازع ، ثم بعد ذلك نتساءل وأنفسنا : هل للعرب رسالة غير الإسلام ؟؟ فأين احتفاظهم بهذه الرسالة ؟؟ وكيف يضمنون لصوتهم السيادة في العالم إذا لم يضطلعوا بعبء الرسالة التي ساء بها محمد ؟؟

ومن يقول : إن العرب خير أمة أخرجت للناس ؟؟ القرآن مخاطب المسلمين بذلك لا العرب ، انه لم يقل أبداً أنها العرب وإنما يقول أبداً أنها الناس ، أنها المؤمنون ، ألكون محمد من العرب كان العرب خير الناس ؟؟ وإذا كان الله قد اختار من بني آدم العرب ، كما يرويه الحديث الأموي الموضوع : فلم خاطب الله بني إسرائيل بقوله : أني فضلتكم على العالمين ، أفلم يكن العرب يومئذ من العالمين ؟؟ ولم نفضل العرب على السكسون أو الجرمان أو السلافيين ، وها هي مدنيهم فضلت ، ألف مرة ، مدنية العرب حكمة وعلماً ؟؟ أي العرب قاد العالم قيادة غاندى ؟؟ وأهم ساسه سياسة الاسكنلر ، وأي علماء العرب فضل بعقله انشتين أو ماركوني أو أديسن ؟؟ تقولون : محمد فالجواب : ان محمداً رسول وعلمه لاهوتي ورسالته سماوية ، ولقد سبقه كثير من الرسل كانوا كمحمد في كونهم يمتازون عن البشر برسالاتهم اللابشرية .

ان محمداً أفضل البشر برسائله لا بقومه ، ورسائله هذه لم تكن وليدة الأرض التي نبت فيها ، ولا الأمة التي تحدر منها ، ولكنها وليدة خالق الأرض والسماء الذي يتعهد خلقه بنواميسه زمنياً بعد زمن على أيدي وألسنة من أهلتهم لحمل هذه النواميس عناية الله بهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته من أفراد خلقه لا من شعوب أرضه ، ففي كل أرض ينبت الصالح والفاقد معاً . والله في خلقه شؤون حيث يقول : ومن الأرض قطع متجاورات وزرع ونخل تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل »

وآخر القول : إذا كانت أمة العرب هي خير أمة أخرجت للناس فما بالها نامت تحت وطء الزمن واستيقظ غيرها ؟؟ لماذا انحدرت في زمن بلغ العالم فيه ، إلا العرب ، مبلغاً لم يحلم به مجده العرب من قبل ولا من بعده ؟؟ أفيتخيل العرب بساط الريح ، ونور الكهرباء ، ودفع البخار ، ونجى الواحى ، وتفجير الذرة وبحق ذلك كله غير العرب ثم تتشدد بأن أمة العرب هي خير الأمم ونسخر لهذا التشدد قول الله وقول رسوله ، ؟؟ إنا إذن من السفه لفي سبات عميق .

ان العالم العلوى اليوم ، وأعنى به عالم العلم ، يتنادى على رأس كل عام ليأتمر في أنيغ رجل عالمي لمنحه شهادة الشرف « نوبل » وهي الشهادة التي تحمل إقرار هذا العالم بسمو من ينالها على غيره في العلوم أو الفنون أو الآداب ، فهي كما تمنح شهادتها تلك للرجل الشرقى كتاغور الشاعر وغاندى الحكيم ، كذلك تمنحها للرجل الغربى كجورج برناردشو الأديب وأنشتين العالم ، فهل كان السر في نبوغ تاغور أو غاندى هو تفوق العنصر السنسكريتي على غيره من العناصر في الشرق ؟؟ أم هل كانت جرمانية « أنشتين » و« سكسونية » برناردشو أشرف خلقاً من غيرهما في عناصر الغرب ؟؟ أم هل نجول ونصول في حلقات القول ثم نعود فنطمئن إلى قول محمد : كلكم لآدم وآدم من تراب » إذن فالسر كله في هذا التراب .

هَلْج لِبِئْسَ الْمُتَجَرُّ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا

أول ما فتحت عيني على حياي الشاعرة ، كنت معجباً بما أستظهره من الشعر المنسوب للإمام الشافعي وهو قوله :

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكروت تبرا
همني همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
أنا إن عشت لست أعلم قوتاً وإذا مت لست أعلم قبرا
وتمر لي سنون وفي نفسي من هذه الأبيات أثر لا يزحزحه أى أثر من مكانه ،
حتى أملى على بعض أساتذتي بيتين من الشعر في عزة النفس وهما :
على ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثر
وفهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الوري كانت أجمل وأكبرا
فسألت الراوى عن قائلها فقال هو نفس الشافعي أيضاً ، فازدادت عندي منزلة
الإمام الشافعي سمواً وعلواً ، ولما قرأت نهج البلاغة ووقفت على قول أبي الأئمة
فيه : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً « ثم علمت أن الشافعي ينتسب
للإمام علي فقلت : انها بلاغة آل محمد لم تزل تتحدر في أصلابهم حتى
خاطبهم الشاعر بقوله :

ورثوا السيادة كابراً عن كابر فهم كعقد الدر جل الناظم
هذه الأبيات قصمت ظهري في الدنيا ، فما تنفس لي صبح عن بصيص
أمل في دنياي إلا عرضت لي هذه الأبيات فزوت نفسي عن ذلك البصيص ،
لأن حياة في هذه الدنيا يصيبها الإنسان عن طريق العفة والإباء لم توجد في هذا
العالم القائم على التملق والخسة والغدر والهوان ، أذكر أن حفلاً أقيم لي في ديترويت
مشغن بولايات أمريكا المتحدة عام إحدى وثلاثين وشاء القائمون على الحفل أن
يدعوا للتبرع في سبيل تكريمي ، وكان نزول الخبر على كالصاعقة إذ علمت
أنهم سيفعلون ذلك بن سمعي وبصري ، واعترضتني إذ ذاك أبيات الإمام

الشافعي فأبيت وأصررت رغم أن الحفل إنما أقيم لهذه الغاية وأنها لن تكون بغير ذلك ففضلت أن أعود كما دخلت على أن أتحمّل هوان التبرع لمساعدتي وأنا شاهد ، وعلى أن أتناسى ما أستظهره من الشعر الذى خالط لحمي ودمي في الإباء . ولقد أشرفت على أن أدخل برلمان لبنان أو أن أظفر بما يعزز دنيائى من المسيطر الافرنسي الذى لم يصل إلى برلمان لبنان أحد إلا من وراء ركوعه بين يدي ذلك المسيطر ولا يزال هذا الركوع إلى الآن سبباً أول في سيطرة هذه الفئة على الحكم والتتيل في لبنان ، لأنها لا تزال قائمة في مجالس الحكم على الرواسب في نفوس الشعب الذى أذلوه فاستخذى لهم بالجهل والفقر والذل ، لقد كنت ، وأنا أصدر مجلة العروبة وأقود حزب الإصلاح ، وأمر النادى الحسينى ، أقول : لقد كنت قريباً من كل ما أطمح إليه في سبيل حياتى الدنيا لو حملت نفسى على ما ينصحنى به صديق قريب من المسيطر الأول ، وكنت كلما فكرت في هذه النصائح وجال في خاطرى المثل السائد في أخلاف معاوية بن أبى سفيان على لسان ميكافيللى من أن الغاية تبرر الوساطة ، عرض لى قول الشافعي هذا فلفظت القلم وعفت اللواة وفرغت إلى قول الإمام : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً .

يقول لى الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، وأنا ضيفه فى لوزان من أعمال سويسرا أيام عودى من أمريكا ، يقول لى ، ونحن نستعرض جهاد الثائرين العرب على الاستعمار فى عهد فيصل بن الحسين الهاشمي ، قال : لم يحلل من نفسى محل التجلة والإكبار أحد كالسيد عبد الحسين شرف الدين الذى قاد ثورة بجل عامل على الافرنسيين سنة ١٩١٩ ، والذى ورد إلى دمشق بعد قمع الثورة متوارياً وفيصل ملك عليها ، قال الأمير : لقد بعث الملك ببدة فيها خمسة آلاف دينار من الذهب إلى السيد هذا بيد تاموسه الخاص احسان الجابرى فرفض السيد قبول البدة وقال : نحن لم نثر على العدو من أجل المال ولكنها عقيدة دينية نستجيب لها كلها خشيئنا على تراث محمد أن يصاب» يقول الأمير : ان ذلك مما أكبر هذا السيد فى نفسى ، وسأتحدث بخلته هذه ما حييت .

لقد بقى قول الأمير قلقاً فى نفسى حتى أجمع إلى السيد احسان الجابرى

وآخذ الخبر من مصلحه ، ويشاء الله أن أمر محلب وأنا في طريقي إلى العراق ، وأن يدعوني السيد الجابري إلى منزله وأن أتحدث إليه بما سمعت فقال : إن الأمير روى لك ما قصصته أنا عليه وأن السيد الجليل رفض المال بآباء ونحن نعلم أنه طريد مشرد وفقير ، ولدي أن أعدت المال إلى الملك وقف لإجلاله له ثم قال : هذا ما لم أعهد في حياتي ولم يمرر بي رجل ممن احترم في رجال الأمة من يحمل هذا الإباء ويتحلى بهذه الكرامة »

وينقل لي السيد طعان وهو من خلطاء المرحوم كامل الأسعد زعيم جبل عامل أيام هذه الثورة قال : خرجنا عندما ظفر الجيش الافرنسي بالثورة وشرد الثائرين ، خرجنا لاجئين إلى الشام حيث كان الملك الهاشمي فيصل ، وكنا قرابة أربعين شخصاً نخلق بالزعيم الأسعد ، وليس معنا من المال إلا النزر اليسير ، وقد كان الزعيم حيث حل ينتظم مجلسه وسماطه الجماعات التي لا تحلق إلا بموائد الملوك والأمراء .

يقول السيد طعان هذا : ان في الشام أسرة من آل الجارود يدعون القرني من الوائليين الذين هم أصل لعشيرة الأسعديين ، ولعل زعيمهم الجارودي أحسن بحاجة الزعيم إلى المال فجاء ببكرة من الذهب ينوء بحملها بعض خلمه ثم وضعها على المنضدة أمام الزعيم قائلاً : هذا قرض مني لك ترده عليّ لدى عودك إلى أهلك فظهرت علامات الغضب على وجه الزعيم ولكنه كبت نفسه الثائرة وشكر قريه ثم قال : ان إقدامك على مثل هذا دون أن تأخذ رأي لجرأة ما فوقها جرأة ولقد كان جزاؤك كبيراً لولا الرحم . فاحمل مالك وإياك أن تعود إلى ما فعلت » قال السيد طعان : ولما خرج الرجل كاسف البال أحلقنا بالزعيم ناقمين إذ لم يبق معنا ما يسد العوز ثم قلت له ، وكنت مُدلاً عليه ، ما يمنع عطفك من قبول هذا المال وهو قرض ، فان أيلينا صبرت من المال ونفقاتنا باهظة وقد تمتد بنا الهجرة شهوراً فإذا نصنع يا سيدي ؟؟ فنظر في وجهي محدقاً ثم قال : إلى الآن لم تعلم أني مخلوق لأعطي لا لأخذ يا طعان ؟؟ وان نفسي لتأبى أن أمد يدي لقرض أو هدية من طريق لا أطمئن معه إلى عزتها وكرامتها » ومن طريف ما أذكر في معرض الإباء وكرامته على النفس الشريفة : أن

العلامة شرف الدين السابق الذكر أسس معهداً للعلوم في جبل عامل من جنوب لبنان ، وناشد رئيس الجمهورية العون لهذا المعهد من المال المخصص للمعاهد الحرة ، فبعث إليه الرئيس بشئ ضئيل بينما أموال الدولة تتدفق على معاهد الإرساليات التبشيرية في لبنان ، فأعاد السيد إلى الرئيس هبته مصحوبة ببرقية فيها أبيات من الشعر أظنها لأحد أجداده الشريف الرضي ، قال :

أخطأت في طلبي وأخطأ في ردى ، ورد يلى بغر يد
فلأجعلن عقسوي أبدأ أن لأمد يلى إلى أحسد
فتكون أول زلة سبقت منى وأخسرهما إلى الأبد

وتتجاوب أصدا هذه البرقية في الآفاق العربية حتى صكت مسامع العاملين في المهجر الأفريقي ، فتنادوا لإغاثة المعهد الجعفرى الذى حمل السيد على تنازله بالطلب ، فتطوع المهاجرون له بمليون دينار لبنانى كانت نواة لكلية داخلية في مدينة صور لا تزال منذ عشر سنوات تضرب الرقم القياسى في رقيها وتقدمها تحت سماء لبنان .

فالإمام الشافعى والعلامة شرف الدين لم يأتيا بدعاً بالتضحية في سبيل الحرص على كرامة النفس لأنهما تحلرا من صلب من طلق الدنيا ثلاثاً وهو يقول : لبس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً .

البيت قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

يتمحك بعض المفسرين في صرف هذه الآية الكريمة عن أهل بيت الرسول تعصباً للأمويين في العهد الأول ، وعداء للشيعه المتفانين في حب آل البيت فيما تلا ذلك العهد من عهود ، فيفسرون القربى بالرحم المطلق أى أن الرسول مأمور بأن يطلب أجراً منا على تبليغ رسالته أن نجب أرحامنا ، لأن التواد في الأسرة أساس عمران المجتمع وهذا ما يدعو إليه الدين ، وأكثر المفسرين على أنه صلوات الله عليه مأمور في هذه الآية أن يطلب منا أجره على التبليغ بحبه أهله وذوى قرباه ، وقد أجمع المسلمون على وجوب هذه الحبه ولكنهم لم يفكروا في السر من هذا الغرض ، وحتى المفسرون لم يذكروا السبب الذى من أجله أمر الله رسوله أن يطلب ذلك منا .

ولقد اختلفوا في تحديد هذه القربى وفي تعيين أهل البيت الذين طهرهم الله في كتابه الكريم ، فمنهم من يطلقه على من آوى إليه النبي في مسكنه من نسائه وأبنائه ، ومنهم من قصر أهل البيت والقربى على على وفاطمة والحسن والحسين وهم الذين قسمهم بين يديه عند المبايله ، ومنهم من أبعد في ذلك فجعل سلالة الرسول من على وأبنائه جميعاً هم أهل بيته وقرباه ، حتى رووا عنه صلوات الله عليه قوله : أكرموا تقهم لله وشقهم لى ، فعلى هذه الرواية نحن مأمورون بحبه من تحلر منه شقياً كان أو تقياً .

هذه أقوال ثلاثة ، أما الأول فمن غلاة الأمويين في كره على وأهله ، وأما الأخير فمن غلاة الشيعة في حب على وأهله ، وأما الوسط فعليه يقوم هذا البحث في تعليل هذا الحب والأمر به من الله ، والقائلون به أيضاً على خلاف ، بعضهم يحصر القربى في أولئك الذين قسمهم بين يديه وهو يباهل ، وبعضهم تجاوز هؤلاء إلى ما شاء الله من أعقابهم على أن يكونوا في المنزلة الأولى من الأمة علماً وتقى وشجاعة وهم الشيعة الزيدية ، ومنهم من حصر القربى في اثني عشر إماماً

يبدوهم على ويختصهم محمد بن الحسن العسكري ، وهم الشيعة الجعفرية ، ومنهم غير أولئك كالأسماعيلية والبهرية والنصيرية وكثير أمثال هؤلاء الذين لا يستحقون البحث .

فالاعتدال كائن في الوسط وهم الشيعة الجعفرية الذين يعتبرون القرني من الرسول هم الأوصياء الاثني عشر إماماً المرضى عنهم لدى الفرقتين الاسلاميتين الكبيرتين وهما أهل السنة والشيعة الجعفريون ، هؤلاء الأئمة هم : علي والحسن والحسين وزين العابدين علي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضى ومحمد الجواد وعلي الهادى والحسن العسكري ومحمد بن الحسن ، ويعتقدون بما ثبت لديهم من النص أن لكل رسول من أولى العزم أوصياء اثني عشر يعززون رسالته من بعده حتى تتمكن من هيمنتها على العالم . هذه النقطة على ما أعتقد ، هي السر في وجوب محبتهم ، أعني أن محمداً إنما سألنا أن نحب قرياه الذين تأثروا بعد موته ، لأنهم حملة رسالته والقائمون عليها تعزيزاً وحرصاً وتلويحاً ، والذين يدفعون عنها كل غائلة تضطربهم للتضحية في سبيل تلك الرسالة بأعز ما عندهم وهو النفس ، لذلك نجد أكثر أهل البيت هؤلاء ذهب ضحية الحرص على الدين والاحتفاظ برسالته إما قتلاً أو سماً ، ولقد رأيت أسماء هؤلاء الأئمة مثبتة على دعائم الحرم النبوي مع أسماء الخلفاء الراشدين فعلت أنهم عند رضى المسلمين جميعاً ، كما قرأت تراجعهم في كتب التاريخ الإسلامى محفوفة بالتجلة والإكبار من جميع المسلمين على اختلاف نحلهم وملهم .

في عقيلتي أن محمداً أراد بأهل بيته وقرياه المفروض علينا محبتهم والصلاة عليهم في صلواتنا كما ذهب إلى ذلك كثير من الفقهاء الأعلام ، أقول : إنما أراد محمد بأهل بيته ، وهو يدعونا إلى محبتهم ، أراد هؤلاء الذين تضافروا من بعده على تعزيز رسالته ورعايتها من العبث والدفاع عنها كل من سولت له نفسه بالتنكر لها والانتقاص منها ، ولقد رشحهم لذلك إذ قال في أولهم : أقضاكم على « هذا في معرض الحكم والفصل في أحكام الدين ، وقوله : أنا مدينة العلم وعلى بابها » في معرض الفقه في الدين ، وقوله : على منى وأنا من

على « في معرض الحرص على ناموس الدين والفناء فيه ، وقوله : من كنت مولاه فعلي مولاه » في معرض السيادة والقيادة ، ثم لم يقل هذا أو مثله لأحد من الصحابة قط ، وأما ما رواه بعض المجانين من أن النبي قال : معاوية مني وأنا من معاوية فالرد عليه من الجنون ..

ولقد قام الإمام على بوظيفته خير قيام إذ راقب السير في تعزيز هذه الرسالة على عهد أبي بكر فرضى عنه وشد أزراً الخليفة بما يحفظ على الدين تأييده وانتشاره والتضحية في سبيله ، ثم راقب السير على عهد عمر فرضى عنه وشد أزره فكان الخليفة الثاني لا يأتي أمراً جليلاً إلا بمشورة على حتى روى عنه قوله : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن ، وهكذا استمر في رعايته ناموس الدين على عهد الخليفة الثالث عثمان فكان منه ما أنكر الإمام عليه كونه ، فأخلص له النصيح وبالنسبة في دعوته إلى الله ورسوله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يجد ذلك فقد عنه ولم يؤذه ولكنه لم يكن منه مكانه من الشيخين فكان آخر الأمر ما كان . أرجو أن يعتزني القارئ وأنا أستطرد في بحثي هذا إلى أشياء قد يظن معها أنني طائفني أنحز لفرقة ما من فرق المسلمين ، أقول : أرجو أن يعتزني مسلماً فقط كما اخترت لنفسى منذ فقهت الإسلام ورأيت الشذوذ من الفرقتين الشيعة والسنة على السواء وحملت عليهما معاً في عدد من مؤلفاتي كوحى الرافدين و« من يسمع » وغيرهما ، لقد أخذت على كلتا الطائفتين هنات أكبرت الأئمة الخمسة عنها فرجعت إلى ما كان عليه المسلمون قبل هذه المذاهب ، أخذ منها ما أعقل وأثق من صلوره عن الله ورسوله ، وأترك ما لا أثق به من أسانيد يربلون منا أن نعمل بها تعبداً دونما رجوع فيها إلى عقل أو إلى تمحيص نقل ، فانا مسلم فقط ، أفلا يمكن للأنسان أن يكون مسلماً وحسب ؟؟

ولنعد إلى صميم البحث . هؤلاء النفر الذين عناهم الرسول بقوله : اني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. كما رواه أحمد في مسنده وكما يرويه جعفر عن آبائه ، وفي رواية إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي الخ .. أقول : هؤلاء النفر الذين يبدأون بعلى وينتهون بالإمام الثاني عشر وهو محمد بن الحسن العسكري وقد رأيت أسماهم

مثبتة فوق دعائم الحرم النبوي المقدس كما مر فسألت متجاهلاً، الشيخ صالح الفوزان وهو القيم على الحرم ويكاد يكون أتنقى وأبر مسلم عرفته في الحجاز ، سألته عن هؤلاء الذين يشاركون رسول الله والخلفاء الراشدين في قيام أسماهم على أروقة الحرم القدسي فقال : هم أهل بيت رسول الله .

وعلمت آخر الأمر أن رسول الله لا يدعونا لمحبتهم إلا لأمر عظيم ، ولا عظمة عنده لأمر إلا فيما يدين الله به ، لذلك نجدهم في سيرهم يرقبون كل من توسد الأمر لحكم أو سلطان بعد رسول الله ، فان عدل وآمن وصلر في قوله وعمله عن كتاب الله وسنة رسوله وثقوا به وعزروه ونصروه . وإن جار وبغى واعتسف واتخذ دينه هواه ثاروا عليه كثرة على معاوية وثورة الحسن على يزيد ، أو قتلوا عنه كقعود على عن عثمان وقعود بقية الأئمة عن أعقبت معاوية ومن جاء بعده من ملك عضوض ، وخلال قعودهم كانوا عاملين على تثبيت الإيمان بالله ورسوله في صلور أتباعهم ، وتسجيل ما يفصل لإجمال القرآن بالسنة الصحيحة التي يروونها عن آبائهم وأجدادهم إلى رسول الله ، هذا هو السر في عناية الله بهم وأمره نبيه في أن يسألنا الأجر على تبليغ رسالته محبتهم والاعتصام بهم .

ولقد عجبنا ، وأنا مسلم صريح ، من أن « صحيح البخاري » ويكاد يكون الثقة الأولى في نفوس أهل السنة يتقبل الحديث المسند إلى رسول الله عن معاوية بن أبي سفيان مراراً وعن أمثال أبي هريرة صاحب الغرائب في رواياته ، ثم لا نجد يروى عن جعفر بن محمد الملقب بالصادق عند المسلمين جميعاً ، لماذا هذا ؟؟ وإلى أي مدى تردى المسلمون بعد نبيهم ولما يزل غضاً في قبره ؟؟

عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ .
لَا يَتَّبِعِي الْمُسْلِمِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ .

مَحْمَد

ذكرت بهذين الحديثين إحدى ليالى الشهر العابر من هذه السنة التى أحر فيها كتابى هذا ، كنت أجلس تلك الليلة وحدى فى مصر الجديدة وليس لى سمير غير الواحى « الراديو » إذ كان أهلى فى مصيف لبنان ، وإذا بى أسمع مذياع الشرق الأدنى يقول : لقد منحت حكومة العراق مائة فدان فى ضواحي بغداد « للآباء اليسوعيين » وهم النفر الذين يؤلفون إرسالية التبشير الافرنسي البغيض ، يقول : منحتم الحكومة تلك الرقعة لينبؤا عليها كلية للعلوم والفنون . لقد صعبت من هذا ، وكنت أقرأ قبله بأيام ، اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية بدعوة من العراق لمقاطعة فرنسا « ثقافياً » واقتصادياً وسياسياً ، وأن اللجنة أجلت البث فى الموضوع فخرج مندوب العراق وهو صاحب ثم أعلن وزير الخارجية العراقى للصحف : أن بعض الدول العربية أبت تنفيذ هذا الاقتراح وهو فى صميم العروبة » ، فليسمع من له أذنان : مندوب العراق فى الجامعة العربية يقترح مقاطعة فرنسا ثقافياً ، وحكومته فى بغداد تمنح هبة لأشد الإرساليات التبشيرية وطأ على العروبة والإسلام وأفظعها كيداً بما تدس فى تثقيفها للنشء العربى على دين محمد وعروبتة ، تمنحه مائة فدان فى بغداد ليعزز رسالته هذه القائمة على الدس والتضليل .

والله يشهد أنى أمعنت ملياً فى التفكير بما مجرى فى الأمة العربية من عن على أيدي رجالها وقادتها الأول ، ثم رحت أتساءل ونفسى : أجهل العراق أعمال هذه الفئة فى عالمنا العربى وخصوصاً لبنان الذى هو بين سمعنا وبصرنا ، فقد تخرج فيه على أيدي هؤلاء السامسة للاستعمار آلاف من شباب لبنان مسلميه ونصاراه كانوا ولا يزالون شجى فى حلق العروبة وشوكة فى عين لبنان كما كانوا ولا يزالون إلى ساعتنا هذه أداة للاستعمار الفرنسى بين عيون تجس .

وأيدت تتحسس من مواطن الضعف. الآخذ بأسباب الرق واليقظة فينا ، لا يزال لبنان وقد مر على انسلاخه من الجسد التركي المقيت عشرات السنين ، أقول : لا يزال هذا القطر الجميل مشوه الجلال بما يسود أهله من فرقة وتباغض وتناحر باسم الدين على أيدي منظمة الآباء اليسوعيين .

وعمدت صباح ليلتي تلك إلى التفكير فيمن أكتب إليه من العراق لأطمئن : حقيقة هذا أم هو خبر يحتاج إلى تحقيق ؟؟ فلم أجد أقرب إلى من سفير العراق في القاهرة وهو صديق لي وعريق في عروبتة وإسلامه ، وهو بعد ذلك مقرب من الملك الهاشمي وله شأن في قومه ، فكتبت أطلعه على ما سمعت وأستطلعه صحة النبا ، وأنكرت على العراق ، إذا صح الخبر ، فعل ذلك مهما يكن لون العذر ، فلما إلى تطهير أرضنا من القوم أحوج منا إلى سربلتها بمخازيهم التي لم تترك فينا حساً إلا وهو جريح بما تحمل إلينا من آلام وآثام .

ويجب السفير الذي لم أشأ ذكر اسمه حرصاً على كرامته ممن آثروا التجارة بالوطن والدين على التضحية في سبيلها من بغاة الحكم وعبدة السلطان الزائف ، أقول : يجيبني السفير وفي مجلسه القائد أحمد حلمي والأديب كامل كيلاني بقوله : ليس عندي ما أجيبك على غيرتك في رسالتك إلى ، إلا مثل عامي عندنا أحب أن أرويه لك : قيل : سئل الجمل عن السبب في اعوجاج عنقه فأجاب : أي عضو من جوارحي غير أعوج حتى يستقيم العنق ؟؟ ثم قال : وفهمك الختام .. .

من هو المسئول عن هذا الحدث الجسم تتعمده حكومة العراق في عهد فيصل الثاني وهي ألصق الحكومات العربية بالعروبة والإسلام ؟؟ وأنتظر اليوم تلو اليوم والأسبوع تلو الأسبوع لأسمع ضجة حول هذا الحدث فلم أسمع ولم أقرأ كأن هنالك أمراً مديراً أن لا يتصل نبا هذا الإجرام بالصحافة أو أن الصحافة متأمرة مع الحكومة على إخفاء هذا الحادث ، وكم تأملت أن لا يكون لي رفيق في إنكار هذا ، لأن الأفراد الذين تحسسوا من خفايا اليسوعيين في لبنان أقل من القليل الذي أنا منهم .

ان الفرقة التي تسود لبنان اليوم وقيل اليوم وستسودها بعد اليوم حتى يوم القيمة ، ليس لها وكر تخلق منه أو جحر تآرز فيه غير هذه الكهوف وتلك المغاور التي أسسها الإفرنسيون باسم الثقافة والدين في مدن لبنان ودساكره وعلى

قممه وفي سهوله ، حتى لم يبق شبر منه إلا وفيه ذئب يعوى أو أفعون بجار ، كل ذلك كان في سبيل القضاء على تركيا التي حمل الإسلام وزرها حين تحملت أوزار الغفلة والتعاجز عن الاضطلاع بعبء الرسالة المحمدية وانصرفت إلى السياسة الغاشمة بظلم أرحامها من العرب وسوء سياستها مع جيرانها من أهل الكتاب . يقول بعض السفهاء من المسلمين : ان الآباء اليسوعيين خدموا لغة العرب بصحفتهم ومؤلفاتهم ومعاهدتهم ومكاتبتهم « ولكن هؤلاء غفلوا عن إساءتهم إلى لبنان بالفرقة في أهله والقطيعة بينه وبين جيرانه العرب ، فان رجال الجزويت هؤلاء بتلقينهم للنشء المسيحي دروس البغض والكراهية لجيرانهم المسلمين ، وبتلقينهم للنشء المسلم دروس الإلحاد والتشكيك في دينهم أحدثوا هوة تميقة بين اللبانيين مسيحيهم ومسلمهم ، فلن نجد حياً مسيحياً يقطنه مسلم ولا حياً مسلماً يقطنه مسيحي ، ولن نجد مجلساً إسلامياً يشهده مسيحي ولا مجلساً مسيحياً يشهده مسلم ثم لا نجد لغة تسود أسرة مسلمة هي عين اللغة التي تسود أسرة مسيحية فجميعهم غرباء في بلد واحد وتحت سماء واحدة وعلى صعيد واحد .

وأما القطيعة بين لبنان وبين جيرانه العرب فلا نجد مسيحياً لبنانياً إلا ويخشى كلمة وحدة سورية أو وحدة عربية ، وقد بلغ شوؤم هذه الكلمة في نفوس مسيحي لبنان أن أصدر مطرانهم اغناطيوس مبارك سنة ١٩٤٧ كتاباً وجهه إلى المهاجرين في أمريكا يحثهم على العمل ضمن هيئة الأمم المتحدة لاحتفاظ لبنان بكيانه المسيحي وإخراج مسلميه إلى سوريا على أن محل محلهم مسيحيو سوريا ، ويقول في الكتاب نفسه ، ويشهد لي بذلك الأستاذ الفريد أبو سمرة صاحب جريدة القلم الصريح في جنوب لبنان ، إذ كنت وإياه تلك السنة مسافرين إلى شمال أمريكا وعثرنا على هذا الكتاب فقرأناه معاً .

يقول المطران المبارك فيه : إذا لم ينشأ وطن قومي لليهود في فلسطين فلا حياة لنا نحن مسيحيي لبنان في جوار العرب ، ولكننا إذا تضامنا مع اليهود نستطيع أن نعيش مطمئنين إلى حياتنا ونتفادى تنكيل العرب فينا وثوراتهم علينا « هذا قليل من كثير ذلك الكتاب ولم يكن ليصدر هذا عن كاهن عربي لولا مؤسسات الجزويت وأخواتها من الإرساليات التبشيرية باسم المسيح محب السلام وفادى العالم .

أما دسهم في مؤلفاتهم وخاصة صحيفة «المشرق» التي يصدرونها على رأس كل شهر ، أقول : أما دسهم فيها على العرب والمسلمين بل على العروبة والإسلام فهي بين سمعنا وبصرنا ، ولقد تناولت مرة وأنا مع أحد أدباء الحجاز ، وكنا في مكتبة صادر ببيروت ، تناولت من يده مجلة المشرق. أبحث محتوياتها فلم أر في الفهرس ما يشير إلى رسالتها التبشيرية ، ولكن موضوعاً لفتني إلى قراءته تحت عنوان «القضاة في أواخر العهد العباسي» فقلت قد وصلت إلى ضالتي ، لعلهم يدسون شيئاً فيه كعادتهم وإذا بالكاتب يبحث عن لباس القضاة ، ويعلق منه بالجنة فقط وأنها كانت ذات كمين يتهايان إلى بضعة أمتار طولا ومتر عرضاً وأن لكل قاض إذا خرج وصيفين محملان. كمي جبته ، ومن قرأ هذا البحث شعر بكل حواسه أن الكاتب يتنقص الإسلام في شخص القاضي عهدئذ وهو يلبس جبته ويتجنح وصيفيه .

وكم عثر المسلمون في معاهد هذه الإرساليات ، على كتب تطعن في محمد. وهي تدرس بين أيدي الطلاب من محمدين وعيسويين فتثور ثائرة المسلمين المستخذين ويتظاهرون فتعمد الحكومة إلى الاكتفاء برفع الكتاب من أيدي الطلبة ، أما رفع الحقد من صدور المبشرين «بالحق» على شخص محمد النبي الإنسان الذي قدس عيسى وأمه ، ودحض عنهما تهم اليهود ، أما هذا فلم تعمل في سبيله ولكنها تفاضت عن مدرسة المطران مبارك وتضامنه مع اليهود في وجه أمة محمد .

كل ذلك كان وليد اليسوعية في لبنان فهل حسدنا العراق حكومة وشعباً على حياتنا هذه متنافرين متقاطعين في بلد واحد ، فعمد إلى تعزيز اليسوعية في بلاده لتنشئ لهم كلية يتخرج عليها أمثال المطران مبارك في لبنان ، ويصدر عنها صحيفة كصحيفة المشرق تحت سمائه؟؟ والأغرب من ذلك أن بعض العراقيين في مصر يرر عمل حكومة العراق بأن بلدية بغداد احتاجت إلى هدم مؤسسة اليسوعيين. لأعتراضها شارعاً أجمع المهندسون على ضرورة شقه فعمدت إلى إرضاء الآباء القديسين بمنحهم مائة فدان في مكان آخر من بغداد ، ولم نسمع في العالم أن حكومة هدمت داراً أو مسجداً أو معهداً يعترض طريق الرقي والتقدم ثم عوضت.

أهله بناء أو أرضاً وإنما تعوضهم مالا ، فلم لم تفعل حكومة العراق ذلك وتنقذ شعبها من هذا الطغيان ؟؟

ان الهوان والذل والاستكانة التي شملتنا نحن المسلمين في لبنان من جهاد اليسوعيين وزملائهم الجزويت فينا بتحقير الإسلام في نفوس ناشئتنا الغضة التي لم تجد غير معاهدهم منتجعا للعلوم والفنون ، وبتعالى المسيحيين علينا في رقيهم العلمى والفنى ، أقول : ان الهوان الذى لحقنا هو في ذمة تركيا من قبل ثم في ذم القائمين على الوعظ والإرشاد فينا إذ لم يصلوا إلى أن العلم والعلم وحده هو الذى يعزز الدين وهو السلاح الذى يحول دون امتيانه وانتقاصه .

من هنا نستطيع أن نصل إلى نظرة محمد في مستقبل رسالته على أيدينا بقوله : على المسلم أن يكون بصيراً بزمانه » وقوله : لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه» وأى ذل أصاب المسلمين فوق ذلهم هذا الذى لحقهم من إقبال الأمم على العلوم واعتصامنا بالجهل ؟؟ ، وأى عى في أبصارنا وعمه في بصائرنا فوق حسابنا أن الدين هو محض صلاة وصوم دونما فقه في الصلاة لماذا وجبت وفي الصوم لماذا فرض ؟؟ وكيف يكون المسلم بصيراً بزمانه » وهو جاهل بمكن عله دينه وقوميته من عرضه ينشه ومن كرامته ينحت أثلتها ؟؟ ثم كيف يتوخى المسلم لنفسه العزة ، ويتفادى لها الذل والهوان ، وهو يضعها بين يدى عله بمعن فيها تحقيراً وتعزيراً ؟؟ فهل نحن العرب ، بتمكين لإرساليات الجزويت الغربى منا أفرنسياً وغير افرنسى ، أقول : هل نحن على بصيرة في زماننا ؟؟ وهل نحن من وراء ذلك ننشد العزة والكرامة لأنفسنا ؟؟ كلا إن أية حجة لنا في تمكينهم منا لانتفض دليلا على أنا ورثة محمد وحفظة رسالته .

عَلَى كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِسًا

دعيتي الجالية العربية في مدينة «كراند رابيدس» لزيارتها أيام وجودي في الولايات الأمريكية المتحدة سنة ١٩٤٦ ، فليت طلبها وأعددت عدتي للسفر في قطار الساعة الثامنة من صباح ليلتي ، وهو قطار «بولن» أجمل وأفخم وأسرع القطر الأمريكية ، وقد أبرقت لهم بذلك لينتظروني في المحطة إذ لم يكن لدى عنوان أحد منهم ، وفي الصباح شيعني اخواني في مدينة ديتريت مشغن إلى محطة القطار وقبل خروجه بدقائق ، وتركهم ودخلت المحطة الجبارة ، ويشاء القدر أن أصل إلى قطاري متأخراً دقيقة واحدة ، وهو يغادر أرض المحطة وأنا أراه وأتحسر على أن فاتني على غير إرادة مني .

كانت صدمة لنفسى أن لم أدرك القطار وأنى سأنتظر ساعة ليتحرك غيره ، وأن القطار الآتى بطئ ورددئ وأن لا وسيلة لإعلام المهاجرين الذين سيصلهم القطار ولست فيه وأنه يجب على أن أجلس في القاطرة التي ستجرتني بعد ساعة خشية أن تفوتني أيضاً إذا عدت إلى بهو المحطة ، وأياً كان فقد جلست متألماً متحسراً ناقماً على القضاء والقدر الذى لم ينصفني وأنا أخدم الحق في كثير من مواقف بين العرب في تلك الديار .

واشتدت نغمتي عندما تحرك قطاري الأخير ورأيت فيه نموذج القرن التاسع عشر : لا جمال ولا سرعة ولا نظافة ولا تدفئة ، وأرى الأرض والسماء من تساقط الثلوج لا تمتاز إحداهما عن الأخرى ، وقطعت فيه أربع ساعات كانت كأنها أربعة أعوام ، بينما القطار الذى فاتني يقطعها بساعة ونصف الساعة ، ويكاد يستعصى على فكرى ولسانى وقلبي ما يسوده من جبال القرن العشرين وجلاله ، وكم تساءلت ونفسي : لم تخلى الله عنى ولم أكن لأكفر به طرفة عين ؟؟ ولقد وقفت لسانى وقلمى على خدمة الحق منذ فهمت الحق ، فلماذا أرى الحق يعصف بى أحياناً فلا أعى في نفسى سبباً يستنزل بها ذلك العصف ؟؟

ومع الساعة الثانية بعد الظهر أشرفنا على المدينة وكل ثقتي بأن لا أرى في المحطة من يرشدني إلى ندوة القوم أو نلتى زعيمهم ، ولشد ما أذهلني ما رأيت ، من جموع يضيق بها بهو المحطة الرحب ، ولدى أن وطئت الأرض تدافع أبناء العرب يستبشرون ويهتفون بسلامة الوصول ، ولكنني شعرت بأن التهتة لسلامة غير هذه السلامة المعتادة إذ رأيت في وجوههم الشحوب والكليخ والرعب فسألت بالسبب فقالوا ألم تترك لنا أنك ستردنا في قطار بولن على الساعة الثامنة صباحاً؟؟ فقلت لأجل ولكنه فائتي بدقة ثم ركبت القطار البطئ في التاسعة .

فعلا هتافهم : الله أكبر .. الله أكبر .. وزاد عجبى وتسأولى فقالوا : إن قطار البولن تدهور ولا يزال رجال المكافحة ينقلون القتلى والجرحى منه منذ ثلاث ساعات ، وكنا ننتظرك أن تنزل بنا قتيلا أو جريحاً ولكن الله سلم ، وأن علينا أن نبسط لك الليلة القداء ، فأهلاً وسهلاً .. » فصحوت إذ ذاك من فكرة كانت سكرة وشعرت بكل جوارحي خطأ ظني السيئ في خالقي اللطيف بي ثم عدت أتمثل قول الإمام : كفى بالأجل حارساً »

ودعاني نفر من المهاجرين العرب في جزائر « لاص بالمص » التابعة لأسبانيا ، دعوني وأنا عائد إلى أوروبا من أفريقيا الغربية فنزلت عليهم أسبوعاً كاملاً، وكان فيهم شاب درزى متأدب لازمني وأشعري صحف هذه الجزيرة فزارني وفد منها يمثل جريدة الشعب الشيوعية وكانت الثورة في أسبانيا قد أخذها القائد « فرانكو » وبقي للشيوعيين بصيص يتبينون منه الوثوب مرة أخرى ، زارني هذا الوفد وأعدت له الزيارة مع الرفيق الدرزي في عمارة الجريدة وهي في ثلاثة أدوار .

وإشياء الله أن يكون ائثار بن أعضاء الحزب الديمقراطي لنسف بنابة الجريدة الشيوعية وأن يتضامن الحزب على تنفيذ الخطة ساعة وجودي في العمارة وأنا أمل على محرري الصحيفة حديثاً سياسياً عربياً ، وينفجر الديناميت ساعتئذ فإذا بالصاعقة تنفص فتصم الآذان وإذا بعجاجها يغشى الأبصار ، وإذا بهول الفاجعة يذهلنا عن أن نعي ما نفعل فنشعر بأن الأرض تدور من تحتنا ، وأن السماء تطبق علينا ، ثم لا نظفر بالوعي إلا ونحن على بعد عشرات الأمتار من البناية ، ونرى الإسعاف ورجال الأمن والمكافحين ينزعون الضحايا والجرحى من تحت

الأنقاض ، وإذا بنا نتساءل وأنفسنا : لم لم نكن أحد هؤلاء المحمولين على الأكتاف وفي حوافل الاسعاف ؟؟ ثم التفت إلى رفيقى أقول : كفى بالأجل حارساً .

وأعود إلى ذكريات الصبي فأذكر : ان من مصائب الحرب العالمية الأولى وباء الهیضة « الكوليرا » وأن لبنان ناله القنسط الوافر من هذا الوباء ، وقد تحملت قريتي أكثر من ألف إصابة به وتكاد نفوسها لا تزيد على المئتين بعد الألف ، وكنت إذ ذاك فى الخامسة عشرة من سنى حياتى ، وقد تولى أهل القرية الرعب القاتل إذ يرى بعضهم بعضاً ينهارون فى الأزقة ، وبين الجدران ، وعلى الطرق ، حتى امتلأت فرج الساحات بالجثث وتعفن الهواء وليس فى البلدة من يطبق مواراة هذه الضحايا ، إذ كان الشبان فى الجهاد ولم يبق إلا النساء والصبية والشيوخ .

وكان أبى فى عقده السابع يكاد ينهد إلى الشيوخوخة ، ولكنه إذ رأى ما رأى وسمع ما سمع من أن أغنياء البلدة وجنأها أغلقوا بيوتهم على أنفسهم فراراً من الموت ، قال لى : قم يا بنى نعمل لله فقمت وقادنى إلى منزل الحاج محمود أيوب ، وكان رجلاً صالحاً ، وناداه من خارج فلباه مدعماً ، وأمن على طلبه إذ قال أبى له : أنترك الموتى فى الأزقة للكلاب والطير ونحن ندعى الإسلام ، ثم مشينا الثلاثة ، نحمل هذه الجيف المتفسخة إلى الخفر حيال المقبرة فنوارىها دونما صلاة ولا غسل وتمر بنا أيام حتى لم يبق جثة إلا وهى مواراة . وهكذا كنا نطوف القرية لإغاثة من ينهار بالمبردات والشاى وغيره مما يقبض الأمعاء ويحول دون الإسهال المميت ، دون أن يشفق أبى وعى على نفسه ولا على شباب هذا الصبي الذى واساهما فى الجهاد بنفسه وهو فى غمرة من فقه الحياة ، وتنظف القرية من الوباء حيث يسودها النظافة من السكان ونحن الثلاثة فى عصمة من كل هذا ، وكلما عرتنى أو عرت عمى الحاج محمود رعدة لمنظر مؤلم أو مشهد مروع ، نظر أبى فى وجهينا ولم يزد على قوله : جاهدوا فان إمامكم يقول : كفى بالأجل حارساً »

وأذكر أنى ، وأنا فى مطلع ربيع حياتى ، غادرت مدينة بيروت بين الظهر

والعصر إلى صيداء راجلا ، إذ لم يكن لدى ما أكثرى به ركوباً يحملنى آنذاك لقلة ذات يدى ، وكنت قد وردت بروت أنشد عملاً أدفع به غائلة البؤس عن أبوى العاجزين فى غضون الحرب العالمية الأولى وأخفقت فيما نشدته .

ومررت بصيداء مغيب الشمس أجتازها إلى بلدى الذى لا أغشاه إلا بعد منتصف الليل ، وليس فى يدى ما أدفعه لميتى فى صيداء إن تفاديت وحشة الليل فى طريق وعمر لا مذهب فيه إلا للقوافل ، ولا مسلك على جانبيه إلا للوحوش الفارسة ، وصممت على المغامرة من وراء عقل يتضامل بن يدى طيش الشباب الأرعن ، حتى إذا انتصف الليل أو كاد ولم يبق لى إلا خمسة أميال على أن أقطعها فى واد تكسو جانبيه والجبال المشرفة عليه غابة قل أن تطأها قدم إنسان فى وضوح النهار فأين منها مسارب الإنس تحت هذا الليل الحالك الرهيب ؟؟

رأيتنى ، وأنا أنساب فى منعطفات هذا الوادى السحيق « وادى النيرة » ، والليل غير مقمر والسماء عارية من الكواكب يكسوها غمام الخريف ، أقول : لقد شعرت بى إذ ذاك شبحاً فاقد الحس لأعنى كيف أطأ وأين تسربى قدامى حتى كدت أطر فلا أسمع صوت قدمى ولا أبصر موطئهما ثم لا أحس فى هذه الظلمات المتراكمة بن ليل يلطم بالغم وغابة تتكاثف بالخوف ، لا أحس همساً يخرق سكون هذا الأفق الذى يحدق بى إلا ضربات قلب يكاد ينشق عنه صدر أخذ يعلو ويهبط حتى أحسست أن وراءه مقامع من حديد .

وفجأة تبدد غنى هذا كله إذ جال فى نفسى خاطر لحظت معه أنى إنما أخوض هذه المخاطر فى سبيل أبوى ، إذن فالله معى وأنا منه فى حصن يقينى من كل شر ، ولحظت أن أبى فى مثل هذه الساعة من كل ليلة ، قائم فى محرابه يصلى ويدعو لى ، ثم لحظت آخر الأمر قول إمامى أبى الحسن : كفى بالأجل جارساً « فن يصدق أن صبيلاً لم يراهق ولم تتجاوز سنه بضع عشرة سنة يقدم على اقتحام غابة يوغل فيها كل نوع من الوحوش الضارية والسباع الكاسرة ، يقتحمها هذا الصبي بعد منتصف الليل ، بينما يتحاماها الأبطال فى وضوح النهار ؟؟ إلى ، وأنا أنهى اليوم إلى الستين من عمرى ، لا أزال كلما مرت بى ذكرى تلك الليلة أرعد ويكاد الرعب يقذفنى من حائق أربعين سنة إلى حيث أنجبل وأجن .

- ٢٥٤ -

فليس الأمر أمر شجاعة أو إيمان ولكنه أجل سبق به قضاء الله أن يتجشم
 مثل الأهوال ويقتحم المخاطر ثم لا يحزمه كائن ما، وهو يعمل للحق، فلم أكن
 بعملى إذ ذاك أتلقى الهلكة عامداً ، ولكنى مرغم بطبعى على جهاد يضطرنى
 للاضطلاع به شرفى وإنسانيتى ودينى ، ذلك هو بين يدي الحق الذى يفرض
 على أن أضحى بكل ما أملك حتى نفسى فى سبيل أبوى الشاخصين إلى الله
 من أجل

الله

رَبَّنَا إِنَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكُبرَاءَنَا فَأَصْلُونَا السَّبِيلَ ،
رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا

. هؤلاء السادة الكبراء الملعونون على السنة أتباعهم يوم القيمة كثيرون بين أظهرنا منذ فجر التاريخ ، ولسنا نتحدث في ظل هذه الآية الكريمة عن سبق منهم ولكننا نعرض قبلاً من هؤلاء الذين هم بين سمعنا وبصرنا ، والذين يقرأون هذه الآية أو تتلى عليهم وهم معرضون عنها ، فليسمع قارئ هذا البحث وليفكر : سمعت أحد مهاجرينا العرب في أمريكا ، وهو من جنوب لبنان ، وقد بلغنى أنه عاد إلى وطنه بعد هجرة ثلاثين عاماً فلم يلبث أكثر من بضعة أشهر ثم رجع إلى مهجرة ، سأله السبب في ذلك فقال :

جاءنى مختار البلدة صباح يوم ما وقال : ألا تحب أن تروى معى زعيم القضاء فلان؟؟ قلت : وما شأنى وشأن زعيمكم؟؟ انى غريب عنكم وقد قطعت حياتى فى بلاد لا زعيم لها إلا العمل الحر ثم عدت لأموت بين أهلى وعشيرتى لا لأحيا حياتكم هذه القائمة على العبودية والاستخذاء ، فقال : لا بد من هذه الزيارة لأن الزعيم عرف بعودك إلى وطنك ، والعرف يقضى على كل قادم أو مقيم بزيارة سيد البلاد ، وما عليك من هذه الزيارة وأنا معك فستكون محترماً ومكرماً عنده

فاستجبت للصدى وهبطنا معاً إلى المدينة حيث يقيم الزعيم ثم دخلنا عليه قصره وإذا به مستلقياً فى البهو على ظهره يطالع إحدى الصحف ، وكان الحاجب قد آذنه بنا فأذن لنا ، وحيننا به سلام الإسلام فلم يجب بالسلام ولكنه خاطب المختار بقوله : كيف أنت أبا فلان؟؟ ولكنه قال ذلك دون أن يتحرك أو أن يحول بصره عن الصحيفة ، وعبثاً حاول صاحبي أن يلفته إلى الزائر الجديد بتلويحه وتلميحه ، وجلسنا بضع دقائق دون أن ننظر من الزعيم بضيفة أو ترحيب ، فخرجت إذ ذاك بغير إذن ثم لم يعلم بى أحد إلا وأنا أبصر من بيروت عائداً إلى مهجرى هذا .

وهكذا يتحدث إلى السيد عبد الكريم الزين أحد وجهائنا في بيروت ، أن ابن عمه جاء من مصر ليتقاضى ثلاثين ديناراً كان قد اقترضها أخو هذا الزعيم أيام دراسته في مصر ولم يردها له ، فدخل عليه نفس البهو ووجده يجلس نفس المجلس مستلقياً وحداؤه في رجله فلم يكلمه ولم يتساءل ونفسه عن الزائر بعد أن تقدم الحاجب إليه معرفاً عنه وعن السبب الذي جاء من أجله ، ولبث في الثوى صامتاً وغرمة صامت ما شاء الله أن يلبث ثم خرج ولم يشعر الزعيم بدخوله ولا خروجه « يقول لي السيد عبد الكريم هذا : لقد سألت ابن عمي لدى عودته عما فعل ؟؟ فقال : بقيت نصف ساعة في منتدى الزعيم أعد مسامير حدائه الذي استقبلني به » ثم لم يزد .

وقد تحدث إلى الطبيب شريف عسيران فقال : عندما احتل الحلفاء لبنان نزل من إحدى البوارج التي مرت بساحل صيدا بعض الضباط الانكليز وسألوا عن فلان .. وهو أبو الزعيم الآن فذكر وكان زعيماً أكبر من شبلة ، قال الطبيب ، وقد كنت حديث السن فسألت أباي عن السبب الباعث لهم على هذا السؤال ومن أين عرفوه ؟؟ فلم يجبني بما أطمئن له « ولكنني عندما دخلت الجامعة الأمريكية كان لي زميلة من طرابلس ، كنت أجلس وإياها إلى ظلال الشجر في باحة الجامعة ونتبسط في الحديث ، والحديث شجون ، فسألتها مرة أليس لك حبيب ؟؟ وهي مسيحية ، فقالت بلى وأخرجت من حقيبة يدها صورة تريني بها ضابطاً بريطانياً أحبته أيام الاحتلال حيث أرست البارجة التي أقلته في ميناء طرابلس ، وأصعبها معه إلى ظهر بارجته ثم قدم لها تلك الصورة .

يقول الطبيب : ولكنني عجبت إذ رأيت في الصورة زعيمنا هذا إلى جنب الضابط فسألتها السبب في وجوده معه ؟؟ فقالت : لقد سألته عنه فقال : هو أحد موظفي الاستخبارات عندنا في جنوب لبنان « قال الطبيب : حينئذ أدركت السر في سؤال الضباط الذين هبطوا صيدا قبل سنين عن هذا الزعيم ، من أجل ذلك لا يزال ولده هذا حتى اليوم يتقلب في وظائف الدولة الكبرى من حكومة لبنان التي كانت ولا تزال صنائع المستعمر .

وزعيم آخر من هؤلاء السادة اتحدث إلى قارئى عنه وقد كان أكبر زعيم في لبنان ، ولقد شهدت مجلسه في قصره مع أحد الوجهاء ، وكان الزعيم قد استدعى بنائين ليضيف إلى برجه العالى برجاً أعلى ، فسأله رفيقى : وهل مقر الزعيم في حاجة لتعزيز ؟؟ فقال : لا ، ولكنى أحببت أن أزيد في ضخامته ليشرف على جهات الأفق الأربع فيراه الغادى والبادى وتتحدث الركبان عن أثر فلان « يعنى نفسه ، أقول : لقد سمعت هذا وكنت حدثاً لم أجز عنفوان شبابى فسخرت في ذات نفسى من زعيم شاء أن يخلد بقصر يبنيه في عصر لا خلود فيه إلا للعمل الصالح .

وقال له مرافقى : أرى أن تلبى يا سيدى رجاء الطائفة ببناء كلية لأبناء رعيثك ، فبدا الغضب على وجهه ثم قال : نعلمهم ليركبوا ظهورنا ، أليس كذلك ؟؟ « ثم قام فاحتجب ، ولما خلوت برفيقى ونحن عائدان من حيث أتينا ، قلت له : ماذا ترى ؟؟ فهز رأسه وقال : لقد تنادى هو وبعض الزعماء والفقهاء منذ حين لبحث هذا الأمر ثم انفض اجتماعهم عن لاشئ وكنت شاهد هذا الإخفاق فلم تبرد حسرتى حتى أشعت بيتين من شعرى في الأوساط وهما :
أرى الزعماء والفقهاء طرا قد اجتمعوا لما لا خير فيه
كلا الأخوين ظراط ولكن شهاب الدين أظراط من أخيه

لقد كان هذا السيد أقوى زعيم على إصلاح قطر يسوده ربع مليون إنسان لا يمتازون عن الحيوان إلا بالعبودية لصنم متحرك هو هذا الزعيم ، ولكن الزمن بالمرصاد لكل من حاول أن يخلد بغير حق فان ذكر هذا الراحل يزداد سوءاً كلما ازداد وعى الشعب الذى أخضعه زمناً ما لجلاوزته وكلاب صيده .

وهكذا نجد زعيماً آخر في هذا القطر كان يتوفر لديه من ملكه الخبيث ما يزيد على خمسين ألف دينار لبنانى كل عام يقيم بها مأدبة فخمة يلتف حولها أعيان لبنان حكومة وشعباً وتندق حولهم الطبول والمزاهر ، على أنغام الناي والأرغل من شعب قضى الله عليه أن يكون عبيداً وخولا لهذه الفئة من طغاة الأمة يقيمون المآدب لأمثالهم من دم الشعب وعرقه بينما لا نرى في الشعب من يحلم بطعامه وكسائه ، يقيمون هذه المآدب لرجال الدولة وزبانية الحكم وهياكل التثيل ومن

لف لفهم في سبيل الوصول إليهم والانخراط في سلوكهم ليتخذوا الشعب مطايا إلى مآربهم وأهوائهم . .

ونجد في مكان آخر من هذا القطر زعيماً آخر قطع أيام درسه الحقوق في أوروبا يعيش في حدود شهواته على ما يجنيه من سرقة الأحذية في الليل عن أبواب الغرف في الفندق الذي يقطنه ، حتى إذا أنهى علومه عاد ليكون محامياً ثم قاضياً ثم رئيساً لمجلس التشريع وإذا به بعد ذلك كله يشغل أكبر منصب للدولة أجنبية في عالم البترول .

ونجد مثل ذلك زعيماً آخر ما انفك طوال حياته يشغل وزارة قيمة في مجلس الدولة يصل بها إلى أخس ما يتخلق به اللئى الخسيس في سلوكه وأخلاقه إذ شاع أنه احتجب عن الوزارة أسبوعاً ضيق ذوو المصالح من تغييه ، ثم يعود إلى عمله معصوب الرأس مهشم الوجه من لكمات فاجأها بها ضابط سكسونى وهو يغزو خليلته « الحرة » بعد منتصف الليل ، ويألفها معركة حدثت بها من رأى الوزير وهو ينهار من أعلى السلم إلى أسفله مغشياً عليه من لدمة شج منافسه بها رأسه فأطاحت به من أعلا البناية ثم لم يفق من إغمائه إلا وهو في الزقاق بين الجمالين ومساجى الأحذية .

وأعرف زعيماً آخر من هؤلاء السادة يسود منافسيه في الانتخاب لمجلس التمثيل كل عام بما يبذله من ماله الوفير لموتى الضمائر من شذاذ الآفاق فيقومون بغرائب الدعاية له من وراء التضييل والتلجيل ، فعلى كل جدار ، وفوق كل منصة ، ونحت كل شرفة ، وعلى كل عمود ، أثر من هذه الدعاية يعلنه أولئك الأوباش معلنين أهليته لتمثيل الأمة ، والأمة بأسرها تعرف من أين جاء بماله الذى ملأ به الجيوب وأشرق النفوس ، ولو سألت أياً رأيته عن مصدر هذا المال أجابك : انه من زراعة الحشيش المسكر وتهريب الأفيون المخدر . .

وهكذا عرفت زعيماً آخر كنت أزوره إبان موسم الانتخاب النيابى فأجد أوراق النقد بين يديه أكداساً يوزعها على تلك الزبانية ، فأعجب لإنفاق مئآت الآلاف من الدنانير في سبيل منصب لا يجنى منه الآلاف ، كيف يكون ؟ ومن أين يأتي بسد العجز وهو مملق ؟؟ ويجيبني من هو خير بمصادر المال

المتدقق على رعاة الأمة ، فيقول : انها الشركات الأجنبية التي تمتص دماءنا ، تغدق عليه ليفوز بالنيابة فالوزارة فالرئاسة ، وعندئذ تتقاضى هذه الشركات منه ما تستغل به الأمة وخزينة الدولة من واردات محتكرة وخالصة الضرائب . وأعرف زعيماً سورياً كان يطوف أمريكا فيخطب المهاجرين العرب داعياً للتعاون مع فرنسا ، وزعيماً سورياً آخر كان يطوف طواف زميله داعياً للتعاون مع بريطانيا . وكلاهما كان يتفانى في خدمة الأجنبي بينما كان الأول يناسب العداء للملك فيصل الأول ، والثاني يناسب العداء للملك عبد العزيز بن سعود ، وكلاهما يفضل الاستخذاء للأجنبي على التحرر من نير الاستعمار ، كل ذلك في سبيل المناصب التي يتنافسون عليها في بلادهم .

وأعرف زعيماً عراقياً مسلماً كان قد رأس مجلس الوزراء العراقي أكثر من مرة ، وقد صارخني عندما زرته لأخذ حديث عن مقاطعة العرب إسرائيل لنشره في مجلتي « العروبة » أيام صدورها في بيروت ، صارخني بقوله : أن من الخطأ مقاطعتنا اليهود لأننا في أمس الحاجات إلى إنتاجهم العلمي والعمل ، وكان مرافقي الدكتور أحمد نسيم ، فلما خرجنا حلقت إليه مستفهماً عما سمع فقال : لا تلمه انه يرأس جمعية يهودية اقتصادية ويكاد يكون نصف ثروته الفاحشة من رئاسة هذه الجمعية .

ولعل القراء يكونون أشد عجباً إن قلت لهم أن مرافقي الدكتور أحمد نسيم هذا كان يهودياً ثم دخل الإسلام ، ويكاد عقله على عليه إخلاصه لإسلامه . وهكذا نجد في كل قطر بل في كل بلد سيداً على من يسوده في قوله وعمله ما يضل به من فسق أو دعارة أو خيانة أو إسراف ثم لا يقيم وزناً للشعب الذي يتخذ مطايا شهواته في دوائر الحكم أو مجالس التمثيل ، وإذا مارست حياة هؤلاء السادة وعبيدهم تجدد كل يوم في أو في كل لحظة متمثلاً بالآية الكريمة حاكية قولهم يوم القيمة : ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ، ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً .

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْفَاقَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي
الْمُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى يُنْفِذَ فِيهِمْ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ

مَحْمَد

فى طى هذه الكلمة عبرة مارسها بنفسى فى حياتى وحياة غبرى ، ولعلى
أكون مطمئناً إلى الحق فيما أقضه على قراء كتابى هذا مما حدث لى أكثر مما أطمئن
إلى الحق وأنا أقص عليهم ما سمعت مما حدث لغبرى ، ولعل كل بصير بما
عمر به من أحداث الزمن يسجل على نفسه أو لغيره مثل هذه العبر فيطويها فى
تكيانه أو ينشرها فيبعثها إلى الأجيال عظة بالغة الأثر فى صميم التاريخ .
أنا محمد على الحوماني الذى يسجل على نفسه بين يدى الحق هذه العبر ،
أنا هذا الذى شرق فى الأرض حتى أشرف على الصين ، وغرب حتى هبط
بلاد السكسون ، ثم أمعن فى غربته حتى خاض بحر الظلمات إلى العالم الجديد
« أمريكا » شمالها وجنوبها وما بين هذين ، ثم أمعن فى طوافه حول العالم حتى
أحلق بأفريقيا وطوقها من جهاتها الأربع ، أنا هذا الشيخ الذى قطع الربيع من
حياته بحب قطراً أو يغادر قطراً ، من بلد إلى بلد ومن شعب إلى شعب ثم من
حياة إلى حياة ، أنا هذا الرحالة العالمى ، أقص على قارئى عبرة واحدة من العبر
التي مرت بى ، وهى كثيرة ، فأذنتنى بالرجعى إلى أن الإنسان مهما نضج فكره
وحصف عقله لا يزال مفتقراً إلى اكتناه ما يحلق به من أسرار .

أما هذه العبرة فنشؤها مصر الجديدة ، فى هذه الشرفة التى تطل بى على
قاهرة المعز والحدائق المنبثة حولها تنبثق من فجر النيل الخالد على الدهر ، لقد
وردت مصر هذه قبل خمسة أعوام ، وكنت قلق النفس مضطرب الفكر أنشد
الطمأنينة والاستقرار ، بعد أن لبثت عامين فى دمشق ، وأعواماً فى بغداد فى
سبيل هذا الاستقرار وتلك الطمأنينة ، فلم أقف لها على ظل ، وكنت قد يئست
من بلدى لبنان الذى يطمح إليه كل دخيل ، ويستقر لديه كل أجنبي ، ونحفق
بين يدى سمائه الضاحية وأرضه الناضرة كل من نبت على أرضه ، وتفتأ ظلاله ،
وتنسم هواه ، أقول : بعد تقليبى هذا فى آفاق العروبة أنشد السكينة والهدوء

لم يستجب لى أفق عربى إلا على ضفاف النيل وتحت سماء مصر .
هذا البلد الذى يطمئن الأديب فيه إلى أدب ، والعالم إلى علم ، والشاعر إلى فن ، وفى كل أولئك هواى ، مشفوعاً بنحو معتدل لا إلى الزمهرير ولا السموم ، قلت لنفسى ، وقد نزلت مصر ، وقالت لى ابنتى : ها هنا مهبط الروح ومسرح الأحلام ، أفلا تسكن وتهدأ وتطمئن وتستقر ؟؟ قلت بلى يا بنية ، أرى أن مصر تشبع روحى بهوائها ومائها ، ثم بالأندية والمحافل القائمة فيها على العروبة والإسلام ، ها هنا نستقر إذا شاء الله لنا الاستقرار ، وعمدنا ، ابنتى وأنا ، إلى اختيار الحى ، فكان مصر الجديدة ، ثم إلى اختيار الشارع فكان شارع السعد ، ثم إلى اختيار السكن فكان هذا البرج الشامخ من ناطحات السحاب ، نستقبل فيه الشمس وهى تشرق ، ونودعها وهى تغيب ، ولقد قطعنا من الضعف قوة فى تأثيث المنزل بما يتفق وحياتنا المتواضعة ، وكان خبر الاستيطان فى مصر نغماً يتردد على السنة الأربعة من أصدقائنا ، وفى آذان المعجبين بالأدب والشعر من محبيننا .

وتودعنى سلوى إلى لبنان لتعود بأمتها وإخواتها وألبث منتظراً هذا العود وحدى فى هذا المنزل أجلس إلى شرفى وحدى ، وأصغى إلى الواحى وحلى ، وأستلهم كواكب السماء والأرض وحلى ، ثم آوى إلى فراشى وحلى ، ذلك مما أعاد إلى خيال الشباب واستيحاء الشعر مدحاً ذكريات الشباب العارم على شاطئ بحيرة مشغن فى أمريكا ، وعلى ضفاف بردى فى دمشق ، وتحت أفياء النخيل فى العراق ، ثم على صخر شوران وتحت ظلال الصنوبر وفى أحضان الأرز ، على قمم لبنان وبين يدي شمس الضاحكة ونسيمه الليل .

على هذه الذكري عدت إلى الشعر فكانت باكورة نظمى فى الجبال «الشمس الغاربة» بعد أن مر عشر سنوات على نظمى «ديوان حواء» وكنت قد أوشكت أن أركد وأن تبخر عواطف الحب فى صدرى ، وأعود إلى التماس حياة أسمى من حياة اللعب واللهو والدعة والخيال ، حياة الجد والحزم والخلود فى ظل حقيقة لا يأتها الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، حياة العمل الباقى بعد ركود الجسد وانتفاض الروح .

لقد أفقت ساعتئذ من سكرة رانت على قلبي عشرات الأعوام لم أحسب معها للحياة حساباً غير العبث والمجون ثم تساءلت ونفسي ؟ : أيشرف الإنسان على شيخوخته ثم يفارق الحياة وهو غافل؟؟ فلو لم يكن في قلب المرء إلا ذرة من الأيمان بالحق انه حق لكان في ذلك ما يدعو له لأن يفكر ثم يحتاط لما يستقبل بعد الموت ، ألا وإن التربية التي درجنا في كنفها ، ونشأنا على الاحتفاظ بها حتى أصبحت جزءاً من حياتنا ، ان هذه التربية لتجربى في دمائنا ، وتنبض في صلورنا ، وتحقق في جوانحنا ، مهما حاول المجتمع أو المدرسة أو العشير أن يحول دون بروز تلك النواة وغلبيتها آخر الأمر .

فكرت في كثير من هذا ، وأنا تحت تأثير روعة هذه « الشمس الغاربة » التي تودعني عشية كل يوم لتستقبلني في صباحه ، وأنا م بعض ليالي مفكراً فيما آتية من غدى لأشبع به روحى الجائعة إلى الطمأنينة والاستقرار ، وإذا في أشعر ، وأنا أحلم ، بيد أبي تنحسني قبيل الفجر بأصبغه السبابة التي عودتني هذه النخسة أيام كنت حدثاً يطيب لي نوم الصباح فأقوم للصلاة مكرهاً متثاقلاً ، أما اليوم وفي هذا السحر فقد شعرت أني عدت إلى حياة أحسب العود إليها كل ما آمله من حياتي ، تلك هي حياة الطهر والقداسة في كنف أبي وتحت رعايته ، وبين يدي تهذيبه وتأديبه .

وهنا تأتي العبرة التي من أجلها حيرت هذا البحث وأرسلته في صميم التاريخ ، لا على هامشه ، إلى الأجيال التي تستقبل مثلما أستقبل ، قمت إذ ذاك أصلي وكأن أبي أمامي وكأن ذكره أعادت لي تلك الليالي الحافلة بدموعه وتسبيحه في جوف الليل وهو يصلي ، فصليت ما شاء لي الله أن أصلي ثم بكيت ما شاء الله لي أن أبكي ، وسألت الله ساعتئذ أن يوفقني إلى « الرجعي » بعمل يمحو السيئ من حياتي ويبقى على الخير في نفسي ، وغمرني إذ ذاك روحانية كشفت لي عن صدق ما أرجوه في نفسي وتحقيقه في مستقبلي ، وأن الله سامع لي ومحبيب دعائي . وكان أول ما جال في روعي أن أقدم بين يدي ، وأنا أستجيب لعقلي وإيماني ، ما قدمته بين يدي وأنا أستجيب لهواي وطيشي ، ذلك هو الفن الذي فطرت عليه ، ونهت به ، وأعرت فيه ، ذلك هو الشعر الذي سلخ الشطر

الأول من حياتي ، وأنا عايت ، أحببت أن يسلم الشطر الأخير من هذه الحياة وأنا جاد ، فسأعاقب نفسي وأنا أستقبل شيخوختي بنفس العامل الذي عاقبتني به وأنا أنهد إلى الشباب . ذلك العامل هو الفن الذي يعصر الشباب إثمًا وتعصره الكهولة بله الشيخوخة حكمة وحزمًا .

عاهدت ربى على أن أنسخ من صدرى كل هوى يحملنى على العبث فيما أجيل به فكرى ويفصح عنه لسانى ثم يسجله قلمي ، وزجوته أن يفتح السبيل أمامى بين يدى سفر أقصر فكرى على تخريجه الفن ويكون قاصراً على الإشادة برسالة محمد الذى بث أبى فى روعى محبته وتقديسه ، والذى لم أجده بعد أن فقهت الحياة ، حياً خالداً محمد إليه الفكر حديثه وقدمه ، روائع الحضارة القائمة على العلم والخلق والدين ، أقول : لم أجده بعد فقهي الحياة حياً خالداً غير محمد ، على هذا صممت وشرعت أبعث الفن فى زوايا نفسى ، وعطلت كل أداة تتصل به وتحيله إلى أى شئ من حطام الدنيا ، وكانت قصيدة « الشمس الغاربة » أول أغنية ملووية فى العالم بأعجاء محمد .

كنت إذ ذاك أتوقع مفاجأة الأسرة لى عائدة فتحول دون إغراقى فى تخريج سفرى الجديد « انت انت » ولكن الله شاء لى أن استرسل فى استلهاى هذا الأفق ، وأن أطمئن إلى وخلقى فى استيحاء جلاله وجلاله ، لذلك حال بينى وبين أسرتى سنة كاملة ، وأنا أحمد إليه تلك الحيلولة ، حتى أتممت رسالتى فى ديوان « انت انت » ولو كنت بين أهلى لأفضت بى رعايتهم إلى تعطيل فى وعجزى عن أداء تلك الرسالة .

وسألت الله بعد وفائى بالعهد له أن يتولى بفضله طبع هذا السجل الذى يرهقنى بتكاليفه إن أقدمت على تخريجه بما أملك من مال نزر ، فيشاء ربى أن أغشى ندوة الشورى وأن يكون فيها ثلة من أهل الفضل والسياسة وأن يطلب منى مؤسس الندوة أثناء المجلس شيئاً من شعري الجديد ، فأملت عليهم قطعاً من إحدى ملاحم الديوان ، ويشاء الله أن يتأثر بعض شهوده فيتطوع لطبعه وينجز الرجل وعده ، فاذا بالديوان بعد شهرين فى أيلى هواة الأدب والشعر . وهنا وقفت مطمئناً إلى ما كان ، ولكن الله الذى وفق للإخراج لم يقف

لطفه بي عند هذا الحد وإنما ألقى في روعى أن أبعث بضع نسخ من الديوان إلى سدة الحرمين في مكة والمدينة فاذا ببعض أولئك يفتح لي طريق الجو إلى روضة القدس حيث يرقد محمد صاحب ديوان « انت انت » ثم إذا بي أنزل في مهبط الوحي وإذا بالوزير السعودي الشيخ محمد سرور الصبان يتلقاني في وادي العقيق وإذا به يصحبني إلى أكثر من عشرين حفلاً تحت سماء طيبة أنشدتهم فيها من ديوان « انت انت » وإذا بمدينة محمد تطبق على من فيها بذكرى « انت انت » على لسان شاعر جديد ورد الروضة القدسية ليضع فيها أول نسخة سبّح الله بها العالم من ديوان « انت انت » .

ثم إذا بالوزير يأبى أن يغادر المدينة المنورة إلا وأنا معه في البر عن طريق « بلر » مصدر الأجماد في الإسلام ، ويأبى هذا العبقري إلا أن أصبح به إلى جدة فأنزل عنده المنزل الكريم ، وإلا أن أرافقه إلى مكة فنكث في قصره « كرامة الجود » ويأبى إلا أن أرافقه إلى مدينة الطائف ثم يأبى آخر الأمر إلا أن أكون وإياه معاً في أوفود على ملك الحرمين سعود بن عبد العزيز الذي دعاني لزيارة مقره في الرياض ، وليت الوزير إلى كل ذلك ، وأنشدت الملك إنشادي أعيان المدن الحجازية جمعاء ، ويكون عطف الملك على الشاعر ، بفضل محمد ورب محمد ، كمعطف الوزير عليه قبل ذلك ، وإذا بي أعود إلى مصر وأنا مثقل بنعم ربي من وراء تلك الرسالة التي أخلصت فيها إلى الحق ، فكانت هذه أولى بوادر الطمأنينة والاستقرار في نفسي ، تلك هي العبرة التي كنت مسروراً بها وأنا أتمثل قوله صلوات الله عليه : إذا أراد الله نفاذ أمر سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أمره . فهيئة الجو لنظم الديوان ، بوحلتي في أجمل بقعة من الأرض ، وتسخير الطابع له دونما أجر إلا تأثره برسالة محمد ، ثم التوفيق لزيارة الأماكن التي بعثت في نفسي عوامل الوحي حتى كأنى ، كلما وقفت على مكان منها ، كنت قد وقفته في عالم الغيب وأنا أنظم الديوان .

هذه الأسباب التي توفرت لدى من وراء يقيني بالله وإيماني بالحق ، هي التي وقفت بي آخر الأمر موقف الموقن المؤمن ، أليس في ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر ؟؟

ثم لم يقف قضاء الله وقدره في تعزيز « انت انت » عند هذا الحد وإنما تجاوزته إلى إحرازى بفضلها جائزة المجمع اللغوى المصرى الأولى للشعر هذا العام ، فلم أحرز بواحد من دواوين شعري الستة هذه اليد من مجمع مصر العلمى الموقر لولا ديوان « انت انت » حتى شافهنى العلامة عباس محمود العقاد ، وهو أحد أعضاء المجمع ، قال لى : مما يجب أن نفخر به أن المجمع لم يجمع على جائزة أولى فيما سبق وإنما كان بمنحها بأكثرية أعضائه ، وأما ديوانك « انت انت » فقد تجاوز الاجماع إلى الإعجاب « ذلك من فضل الله على أحببت أن أسجله فى هذا السفر وأبعث به عبرة إلى الأجيال .

مَسْتَعْرِفُونِي بَعْدَ خُلُوءِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي

عَلَى

لا أحب أن ألفت القارئ إلى بلاغة هذه الكلمة ، لأن كلام الإمام إمام الكلام ، ولكني أحب أن أستطرد إلى ما ترى إليه كلمته هذه من بعيد ثم أتساءل ونفسي ؟؟ هل عرفه أهل العراق بعد خلو مكانه ؟؟ ومن ذا الذي قام مقام الإمام بعد تخليه عنهم ، ونجاته منهم ؟؟ حقاً لقد نجا منهم بالموت الذي كان حياة له بعد موته فيهم .

هذا الذي كان يتقدمهم في الحرب ، ويعرفون منزلته من رسول الله ، وأنه مع الحق ، وأن مناوئته باغ عليه ، وأن الله أمر بقتال الباغي ، هذا الذي يعرفون جيداً أنه أول من أسلم لله مع رسوله ، وآخر من جاهد في الله بعد رسوله ، يعرفون ذلك كله ، وهو إمامهم وأمامهم في الجهاد ولكنهم أبوا رغم ذلك كله ، إلا أن يلحقوا به في مقدمة الصفوف يوم صفين ، ولم يبق بين قائده جيشه مالك الأشتر وبين مضرب معاوية إلا بضعة أمتار ، والإمام يعظهم ويمنيهم بالظفر الوشيك ، ويدكرهم بسابقتهم وخلافتهم وقرابته من رسول الله أن يثبتوا ويصبروا ، ولكنهم أبوا إلا أن يعلنوا حرباً عليه أو أن ينزل على حكم عمرو بن العاص في الاحتكام إلى القرآن ، فيأمر قائده الأشتر بالرجوع ، ويغمد هو سيفه بعد أن علموا أن معاوية قد وضع رجله في ركابه ابتغاء الهزيمة .

هذا الإمام المظلوم قد خلا مكانه فيهم بعد هذه الكارثة التي نزلت بالعراق واستمر العراق تحت وطئها مئة عام ، فمن ذا قام فيهم مقامه خلال هذه الأعوام الطويلة الآجال ؟؟ حسبنا أن نذكر اثنين فقط ممن جلسوا للحكم في العراق وتقمصوا إمارته بعد أمير المؤمنين سلام الله عليه ، هما عبيد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، أولهما يمثل يزيد بن معاوية ، والثاني يمثل عبد الملك ابن مروان ، وكلاهما أحدث في التاريخ الإسلامي حدثاً ما زال العالم الإسلامي وسوف يبقى إلى يوم القيمة حافلاً بروعة هذين العهدين وما نشأ عنهما من

تقويض دعائم الإسلام التي قامت على سواعد محمد وأصحابه في الدعوة إلى تحرير الإنسانية ووحدة العالم .
ولما اخترت هذين لأدل على مبلغ استخذاء العرب للحاكم المستبد إذا استشرى فهم ، فقد عرف يزيد أن الأباء العراقي لا يخضع إلا لمن لا يعرف للحق وزناً ، ولا يقبل الله حكماً ، من أجل ذلك كتب لعبيد الله بن زياد بن أبيه ، وزياذ هذا هو ابن سمية المجهول الأب ، وقد استلحقه معاوية بأبيه أي سفيان لأنه كان يفسق بها وشاع أنها شهدت على نفسها بأن ابنها زياد هو من أي سفيان .

فعبيد الله بن زياد هذا كان والياً لمعاوية على البصرة فكتب إليه يزيد بعد استخلاف أبيه له وخروج أهل الكوفة عليه باستقدامهم الحسين بن علي بن أبي طالب ليقوم فهم مقام أبيه ، أقول : كتب إليه يزيد يستقدمه للكوفة ليحول بين الحسين وبين قوم أبيه ، فقدم ابن زياد على الكوفة قبل الحسين ودخلها في الظلام يتشبه في مشيته ويزنه ونقبتة ولحيته بالحسين ، فتلقاه أهل الكوفة وهو متكر وهم لا يشكون في أنه الحسين بعد رسوله مسلم بن عقيل الذي بشر بقدميه ، فكان ابن زياد كلما يقوم منهم رحبوا به وقالوا : مرحباً بابن رسول الله ، وهو صامت لا يجيب والناس يزدهمون خلفه يتأثرونه إلى قصر الإمارة ، فلما دخل القصر رفع اللثام وأمر الحجاب أن يغلقوا باب القصر ويعلنوا الجاهل أن الأمر عبيد الله بن زياد يأمرهم بأمير المؤمنين يزيد أن تغلقوا عليه مبكرين بأسلحتكم ومن تأخر قطعت رأسه .

وبالفعل فقد تلحرجت الرؤس في الصباح ممن لم يمثلوا أمره ، فاذا بكوفة الجند كلها مبدجة بالسلاح تحلق بقصر الإمارة مليية أمر الأمير لا تائرة عليه ، وإذا بالأجناد تسير لقتال الحسين بن فاطمة ربحانة رسول الله ، وإذا بهذه البكتائب التي كانت بالأمس معدة لنصرة الحسين تخرج عليه فتثار ليزيد الفاسق منه ، وإذا بها لا تقف عند قتله حتى تلحق به أهله وبنيه ثم تلوس جثثهم بسنابل الخيل وتحمل رؤسهم وتسيب نساءهم إلى ابن زياد هذا الذي لم يدع كرامة في العراق إلا وضعها تحت قدميه . هذا ابن زياد الذي قام فيهم مقام علي بأميرهم

بذبح الحسين سبط الرسول الذي لقبه بسيد شباب أهل الجنة ، يأمرهم بذبحه فيطيعونه ، وأما على فكان يأمرهم بقتال الفئة الباغية فيعصونه .

وأما الحجاج بن يوسف فقد بعث به عبد الملك بن مروان إلى العراق مؤذبا لهم وكانوا يحصبون كل أمير يردهم من بني أمية ، ولكن الحجاج قبل أن يحصبوه صعد المنبر وهو متنكر فلم يتكلم حتى هموا بحصبه ، وإذا به يضع العمامة على رأسه ويقول :

أنا ابن جلا وطلاع الثنبايا متى أضع العمامة تعمسرفوني
ثم انهال عليهم بالقلد والتحفير والشتائم والتهديد حتى لم يترك في قاموس الفحش صخرأ إلا قدفهم به .

يقول : يا أهل العراق ويا أهل الشقاق والنفاق وسيئ الأخلاق ، يا بني الكيعة وعبيد العصا ، وأولاد الإمام « إلى آخر ما هنالك من قذف تندى له الجباه وهم ساكتون واجمبون ، قد فارقتهم تلك النفوس العاتية التي حاصروا بها دار عثمان من قبل ، والتي غزوا بها معاوية بقيادة الأشتر النخعي يوم صفين .
ثم قال الحجاج لغلامه : اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عبد الملك فبدأ الغلام قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، فلم يردد التحية أحد ، فقال الحجاج مخاطب القوم : أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون السلام أما والله اني لأرى رؤسأ أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بن العاثم والحكي ، والله لأخزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الأبل ، ولأؤدبنكم غير هذا الأدب ، ثم التفت إلى الغلام وقال اقرأ ، فلما وصل الغلام إلى قوله : سلام الله عليكم فلم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

وهكذا بدأ الحجاج يستر قههم ويستضعفهم وينزل بهم الضربة تلو الضربة والفجعية تلو الفجعية في نفوسهم وأموالهم وديهم وأعراضهم حتى لم يبق بيت في العراق إلا دخله الرعب وراى على قلوب أهله القلق والاضطراب ، أما الدماء التي أراقها الحجاج من أعيانهم وكرامهم ، وأما الذل والاستكانة والانكسار

الذى ساد به عروبتهم ، أما ذلك كله فحسبنا أن التاريخ لم يزل منذ ألف وثلاثمائة عام يحدثنا عن مبلغ ما وصم الحجاج به شرف العروبة وعز الإسلام . هذا هو الذى قام مقام الإمام على فى العراق بعد ابن زياد ، وتلك هى حالة العراق بعد أن خذلوا علياً وقتلوا ابنه وهتكوا حراره .

وليس هذا غريباً فى عراقنا العربى ، فان استخذاء هذه الأمة للجباية لا يزال يصمنا به التاريخ منذ كانت أمة ، فان جبروت عمرو بن هند فى الجاهلة بلغ فى قومه مبلغاً أطلقوا عليه معه لقب مظط الحجارة ، لشدة وطئه عليهم وقسوة حكمه فيهم ولم يجرؤا ولم يتقرب إلى الحق بدمه واحد منهم ، كما لم نجد فى العراق طوال ستين عاماً سادهم فيها ظلم الأمويين وعسفهم ، لم نجد مضجياً واحداً يقدم على قتل ابن زياد إذ قتل إمامهم ، ولا من أقدم على قتل الحجاج . وقد ترك بعد موته خمسين ألفاً منهم فى سجن بلا سقف تحت شمس العراق .

ويحمل التاريخ المظلم لنا عن فاجعة التتر أيام غزوهم بغداد أن المرأة منهم كانت تدخل المنزل على عشرين أو ثلاثين شاباً عراقياً قد اختبأوا فيه من هول الفاجعة ، أقول : كانت تدخل هذه التتيرة عليهم ويبيدها خنجر فتدبحهم عن آخرهم دون أن تثور فى شاب منهم حمية أو تدفعه للدفاع نفس أبيه .

وهكذا كان يحكم مكة فى العهود المتأخرة أحد الشرفاء الجبابرة حتى بلغ من عسفه أنه كان يطلق فيلاً له فى الشوارع والأسواق فيأكل ما يأكل ويتلف ما يتلف ولا يجرؤ أحد على رده ، وقد جمعهم مرة رجل مروق منهم وحرصهم على أن يتضامنوا ثم يصارحوا الشريف الحاكم فى إنكار ما يأتبه القيل من إتلاف ، فأجمعوا أمرهم وانقادوا للناصح فشى بهم إلى دار الحاكم ولما بدأ يصعد السلم بدأوا ينفضون عنه حتى دخل على الشريف وحده ، وكان قد بلغ الشريف ما أجمعوا عليه ، فلما رآه وحده صاح به قائلاً : أين عصابتك؟؟ وماذا تريدون؟؟ ولماذا اجتمعتم؟؟ فقال : جئناك يا سيلى لرجوك أن تأتى بأثنى لهذا القيل العزيز علينا خشية أن يموت وينقرض نسله »

وما أجمل أن أستطرد بقرائى إلى وطنى جبل عامل فى لبنان فقد كان هذا الجبل الذى يضم ربع مليون من اقحاح العرب الأباة ، لقد كان أول من ثار فى

وجه الفرنسي المستعمر حتى ضرب المثل للأقطار العربية في التضحية والجرأة والحرص على الكرامة ، ولما سادته أذئاب الاستعمار هانت تلك الكرامة عليه ، فكان آخر عهد الافرنسيين سبة على العروبة باستخذائه لزعماء تأنف العبيد أن تستخذى لهم ، لقد حكمهم ضابط فرنسي أعرج أعور يدعى بتشكوف ففعل بهم أضعاف ما فعله الحجاج بن يوسف في العراقيين من قبلهم ، إذ كان يطوف قرى هذا الجبل ويأمر بأن يخرج أهل كل قرية لاستقباله يقبلون يديه كما يقبلون يدى كل فقيه فيهم ، ولقد زار مرة أم القرى « بنت جبيل » فتعلوا تقبيل يديه إلى أن حملوه مع قرينته عمقعهما على عواتقهم ، فهل بعد هذا خذلان وانكسار؟؟ وهكذا كنا نرى كل معقل من معاقل العروبة أيام احتلال الأجنبي لبلادنا ، من العراق إلى سوريا إلى شرق الأردن إلى فلسطين إلى لبنان إلى مصر ، نرى كل معقل يخضع ويستخذى لزعم ساد قومه تخضوعه للمستعمر على حساب هؤلاء المساكين ، فقد كان عبد الرحمن شهنذر يسود الشام بنفوذه البريطاني ، وجميل مردم يسودها بنفوذه الفرنسي وهكذا قل حتى اليوم في أمثال هؤلاء من كل قطر ثم لم نجد عربياً واحداً ضحى بنفسه فأقلم على تضحية واحد من هؤلاء في سبيل أمته وكرامة وطنه وأعجاده بينما كانوا يترامون على الحديد والنار في ثوراتهم على الاستعمار .

وهكذا نصل إلى الطائفة النصرانية في سوريا ، وهم عرب اقحاح بلغ بهم الاستخذاء لزعمائهم أن ألثوا بعضهم وهو سليمان المرشد ، وهكذا نجد أن جيرانهم وهم الطائفة الاسماعيلية التي ترى في آغاخان بدعاً من الربوبية وتعطيه نص الآية القرآنية : لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، هؤلاء وأولئك من قادة الأمة ورعاتها هم خلفاء معاوية وابن زياد ويزيد والحجاج وعبد الملك بن مروان وأضرابهم ممن قفى على آثارهم بتأسيس الزعامة على الرجس والإفك والسحت والخيانة والكذب والتلجيل ، فالإمام إنما يعنى أمثال هؤلاء بقوله : ستر فونى إذا خلا مكافى وقام غربي بقاءى ، فكأنه ، سلام الله عليه ، قد أشار إلى أن الأمة إذا لم تستجب للهداة من قادتها فستمنى بقيادة يحشمونها أشق موارد الهول في الحياة .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

الله

إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ
بَيْتِي، مَا إِن تَمَسَّكُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا

محمد

أريد أن أخوض في هذه الكلمات المترادفة على معنى واحد : القربى ، آل
النبي ، أهل البيت ، العتره النبويه ، وغير ذلك مما يشير إلى سلالة محمد وخاصة
أهله ، أقول : أريد أن أخوض في هذه الألفاظ التي قدسها بعض المسلمين إلى
حد العبادات ، وتكرر لها البعض الآخر إلى حد السباب والشتم .

قرأت كتاباً لإسعاف النشاشيبي أسماه الإسلام الصحيح فكان فيه على أهل
بيت رسول الله أقسى من معاوية ، حتى أنه نفى كون الآية القائلة : إِنَّمَا يُرِيدُ
اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا « نفى أن يكون المقصود
بها غير أهل بيته بالمعنى العرفي الذي يتناول نساءه وبناته ومن يؤثمهم إليه ، أو
المسلمين عامة على اعتبار أنهم جميعاً أهل بيت الرسول ، هكذا قرأت فيما قرأت
لهذا الرجل الغريب الأطوار ، ثم قرأت في نفس الكتاب تهجماً على الإمام جعفر
ابن محمد الصادق الذي كان الأئمة الأربعة أول الناس تقديساً له وإكباراً ، ثم
قرأت لاشباه النشاشيبي من حملة الأقلام للتنقص من آل الرسول في الشام وبغداد
وبروت من شايخ النشاشيبي في تهجمه وصوبه في تقرير ما جاء به .

أقول ذلك لأنهم لم يكتبوا ليحققوا في التاريخ ولا ليخدموا الإنسانية في
توجيه الأجيال ، وأعجب من ذلك أن النشاشيبي في كتابه المذكور يفسر الآية
التي يخاطب بها الله رسوله بقوله : قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى :

بأن الله يأمر نبيه أن لا يطلب أجره من المسلمين على شقائه في تبليغ رسالته إلا أن يحب كل مسلم قريبه : فهل هنالك تفسير أغرب من هذا ؟؟ وهل الحيوان بله الإنسان في حاجة للحض على أن يحب أهله ؟؟ أو يحبه أهله فان في الحث على صلة الرحم غنى عن ذلك . ولقد وردت هذه الجملة بلفظ أهل البيت في القرآن عند ذكر إبراهيم ومحمد فقط ، فهل كان المعنى بهما أمة إبراهيم وأمة محمد أم نساء كليهما ومن يؤيان ؟؟ هل كانت الحكمة في هذه الآية هو أن يحب كل مسلم قريبه أو أن يحب المسلمون نساء النبي ؟؟ وهل هذا هو السر من فرض الصلاة على آل النبي في كل صلاة تتقرب إلى الله بها ؟؟

من هم أهل البيت الذين صلى الله عليهم في القرآن وطهرهم ، وفرض علينا تقديمهم في الصلاة ، وجعلهم رسول الله ثاني اثنين في هدينا بقوله في صدر هذا البحث : إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسككم بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، كما يرويه أحمد في مسنده ، وكما يرويه جعفر بن محمد في حديثه ، من هم هؤلاء ؟؟ هم بضع نساء في حجر النبي أفضلهن عائشة التي ضحت بعشرات الآلاف من المسلمين في يوم الجمل تشفياً من علي بن أبي طالب لأنه أشار على النبي بطلاقها ؟؟ من هم هؤلاء الذين يجعلون حكمة القرآن في عنايته بأهل البيت وقرنى رسوله إبراهيم أو محمد ، قاصرة على أن تطلب الصلاة إلى يوم القيمة من الله على نساء النبي ، دون أن نفكر في سبب أقوى من هذا السبب وحكمة أسد من هذه الحكمة ؟؟ وهل من الحكمة أن نؤمن بأن الثقلين اللذين يتوليان هدينا إلى يوم القيمة هما القرآن ونساء النبي ؟؟ وهل الحكمة في قولنا : اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، هي الصلاة على نساء محمد وإبراهيم فقط ؟؟ ان هذا لكثير جداً على عائشة وأم سلمة ومارية القبطية وضرائرها ، اللهم إني أشهدك على احترامى نساء رسول الله وأبرأ إليك من أن أقرن بهن اسمك في الصلاة أو أن أقرن بهن كتابك في قول رسولك .

ولماذا نصلى على نساء محمد ونساء إبراهيم ولا نصلى على نساء نوح ونساء لوط ؟؟ أفليسوا رسولين كإبراهيم ومحمد ؟؟ ولماذا لم نقل اللهم صل على محمد

وآل محمد كما صليت على نوح وآل نوح أو على لوط وعلى آل لوط ، إذا كان المقصود من أهل بيت كل نبي هو نساءه أو أمته ؟؟

ان هنالك سرّاً يفقهه المسلم الصحيح الإسلام ، والمحقق الذي لم يحل بين عقله ونقله ، هوى أو جمود ، ذلك السر هو في صميم الناموس الأعظم الذي تنزل به الروح الأمين على قلب محمد ، فليس الدين الذي يتعهد به الله عباده وحياً فقط ، وإنما هو إلى الوحي المجمل ، نبي يوحى إليه فيفصل ويبلغ ، ثم هو إلى هذين ، فئة تحصر بعد النبي على هذا التبليغ فتعززه في الصدور وتمكنه من النفوس ، وتحفظه من العلوان ، وتحول بينه وبين الجور في الحكم والجهل في التطبيق ، من أجل هذا قال رسول الله إذ نعت إليه نفسه : إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا ومضى بمهد لهذه العرة بنشدانه علياً في حجة الوداع مشرفاً على الناس وهو يعلنهم بقوله : ألسنت أولى بالموثمين من أنفسهم ؟؟ قالوا بل يا رسول الله ، فقال ممسكاً بيد علي : اللهم من كنت مولاه فعلي هذا مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . فلقد كان على الرسول أن يعلن قبل أن يموت : أن هذا الناموس القائم على ثلاثة أركانه ، وحى مجمل ، ونبي مفصل ، وإمام يعز ويراقد ، أقول : لقد كان على الرسول أن يعلن قومه بالركن الثالث بعد الإجمال والتفصيل ، ألا وهو التقرير والتعزيز على يد هذه الصفوة من أهله ، التي كانت الصفوة بعد إبراهيم ثم الصفوة بعد محمد ، وقد رمز إليها القرآن بالقرنى تارة وبأهل البيت تارة ثم في آية المباهلة آخر الأمر ، فعلى المسلمين أن يفقهوا الدين من هذه الناحية فلا يخلطوا بين السلطتين الروحية والزمنية ، فإن الله ورسوله لم يريدوا على الناس فرض السلطة الزمنية وإنما أرادوا فرض السلطة الروحية فكانت في الصفوة من أهل بيت الرسول ليكون على المسلمين أن يتدبروا فرقانهم من طريق هذه العرة الطاهرة قبل أن ينوطوها بالحاكم الزمنى .

ولذا درسنا حياة علي وفاطمة والحسن والحسين حتى الإمام جعفر بن محمد الصادق نجدهم لا يتعدون فيما يقولون أو يفعلون حدود الحرص على تراث محمد وتعزيزه في صدور المسلمين والحيلولة بينه وبين الأهواء والتوازع ، ولو أدى

بهم ذلك إلى التضحية بنفوسهم في سبيله ، هذه السلطة الروحية لم ينازع أحد بها علياً بعد محمد لأنها براء من حطام الدنيا ، وقد شهد له الخلفاء الراشدون بأنه زعيمها القل إذ جاء على لسان عمر وهو أشد الخلفاء اعتزازاً بنفسه واعتداداً بمكانته ، جاء عنه قوله : لولا على لهلك عمر ، وقوله : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن ، على أن علياً نازعهم في السلطة الزمنية ليتمكن ، بلا منازع ، من تطبيق الحياة على السلطتين معاً في شخص واحد ، ولكنه لم يستطع إذ كان غير نبي ، وإذ رأى أن الذين تولوا هذه السلطة ، أى السلطة الزمنية ، أماء على أن يماشوه في نصرة الحق وتعزيزه في العالم ، فطوى عنها كشحاً وظل يعزز ويراقب .

أما الخلفاء الراشدون الذين تولوها قبله ، فلو زهدوا فيها زهده ، وسمعوا لرسول الله في ترشيحه لها يوم الخندق ، لعرفنا مبلغ الصدق والإخلاص في قول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود صاحب كتاب « الإمام على » وهو يحلل هذه الناحية من عهد الخلفاء حيث قال : مما لاشك فيه أن علياً برهن لنا في حياته كلها أنه كان المثل الأعلى للسيرة في ركاب الدين في حياة رسول الله وبعد مماته ، فلو تولى الخلافة بعد الرسول واستمر فيها أربعين عاماً مطلق اليد معزراً من الصحابة ، لتفادى الإسلام جل الأسباب التي لم تدعه يستمر في رقيه أكثر من ثلاثين عاماً ، إذ كلنا يعلم أن تنازع الصحابة على الخلافة وتجاهل أكثرهم علياً أفضى بها إلى عثمان الذي مكن للأمويين من أحداث كانت السبب في تفهقر الإسلام وعجزه عن أن يسود العالم .

لقد صدق الأستاذ عبد الفتاح ، فان تجاهل أبي بكر لعلى وهو يتولى الخلافة ثم يلبى بها إلى عمر من بعده ، وتنكر عمر لعلى وهو يجعلها شورى ، ان ذلك التجاهل وهذا التنكر ، أفضيا بالخلافة إلى عثمان ، ثم إن ضعف عثمان بين يدي شيخوخته وعنتو عشرته ، أفضى إلى جرأتهم على الحق بتأهيل عائشة ومعاوية للخروج على على ، فكان ذلك مدعاة لأن يحرص على على ما آتمن له من تعزيز الدين والدفاع عنه ، إذ لم ير في عائشة المرأة الضعيفة ، ومعاوية الباغى على الحق ، لم ير فيهما ما يراه في أبي بكر وعمر وعثمان من فقه في الدين وسابقة في

الجهاد ، فكان عليه بعد الخلفاء أن يحتفظ بالسلطين ويقاثل دونهما حتى استشهد وخلفه في الاستشهاد أبناؤه حرصاً على الدين من خلفاء معاوية ، فكانت دماء أهل البيت حائلة دون تهادى الأمويين في محو الدين كما كان مفروضاً لهم ، إذ لم يوقوا به إلا أنه وسيلة للهاشمين يتنزعون بها إلى انتزاع السيادة منهم . من أجل هذا لم يطل عمر هذه الدولة بعد كارثة كربلاء أكثر من سبعين عاماً ثم بدأت تنهار ، وبدأ نجم الباطل في أفق أمية يميل للأفول ، ولم يبق في صدور المسلمين أثر من هذه الأحداث إلا الانتمة على معاوية وأخلافه ، وإلا المحبة لآل الرسول والعطف عليهم والرضى عنهم .

ولقد كان وما زال لإجماع المحققين من فقهاء المسلمين على أن معاوية أساء إلى الإسلام حتى ختم حياته مسيئاً ، إذ لم ينلم على سن الشتم لأهل البيت على وأبنائه قبل موته ، ولما حمل المسلمين على استخلاف ولده يزيد وهم كارهون له بذلك أخرج الإسلام وحال بينه وبين غزو العالم واستهلاكه ، ولعل ولده يزيد كان يحمل فكرته إذ عمد إلى قمع الدين من أساسه . فبدأ بالسلطة الروحية في شخص الحسن وأهل بيته فأبادها بزعمه ، وانصرف بعد ذلك إلى الكعبة فأحرقها ثم أشخص إلى مدينة الرسول جيشاً بقيادة ابن عمه مسلمة ، ففعل تلك الفعلة النكراء حتى كانت دماء الصحابة والقراء والأطفال والنساء تجري في أزقة المدينة ، وحتى وقف قائده على قبر الرسول يلطمه برجله ويقول : لعنة بلعمة يا محمد « ويزيد » هذا من أم نصرانية كانت السبب في إحفاظه على الإسلام فشاء أن يقضى عليه ولكن الله سلم ، وقد فطن إلى هذا في يزيد وأبيه ، السياسي الألماني . اللاهية بشارك حيث قال : ان على كل مسيحي في العالم أن يقيم تمثالاً لمعاوية بن أبي سفيان في داره إذ لولاه لما بقى غير مسلم في مجموعة البشر . هكذا نستطيع أن نفسر عناية القرآن بقربي محمد وعناية محمد بتعزيز هذه القربي وترشيحها للخلافة بعده ، ثم جهر على واعتزازه بقوله : نحن أهل بيته .

مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ
إِذَا أَصِيبَ عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَتْ لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ
بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى

مَحْذَرٌ

أقرأ هذا الحديث في الوقت الذي أنبأني فيه السيد علي حافظ صاحب جريدة
المدينة المنورة ، أنبأني ، ونحن في القاهرة ، أن إبراهيم شاكرونيجييب صاحبة
التاجرين السعوديين بعثا إلى ألقى إنسان ، وهما في لبنان ، يدعوانهم من أقطار
العالم العربي على تفقتهما زاداً وراحلة ، ليعقدا قران ابن الأول على ابنة الثاني ،
قلت له : لعل هذا العرس يستهلك من مالهما مالا يقل عن مائة ألف دينار ،
فقال : وأكثر ، ثم قال : ولقد احتكرا كل فنادق لبنان الفخمة لضيفاة
المدعوين ، وقد بذل الوالدان لولدهما بعد العقد مائة ألف دولار نفقات رحلتهم
إلى أمريكا يقضيان فيها شهر العسل تحت سماء نيويورك وفي ظلال ناطحات السحاب .
وفي الوقت نفسه لمعت في خاطري بارقة أطلت على بروت الجميلة قبل
أشهر حيث أقيم لمثل هذا ، حفل عقد فيه قران المارد عبد الله الجابر أحد أمراء
الكويت من آل صباح ، على إحدى جميلات لبنان من آل المرعب ، فكان
مثل هذا الجنون في الإسراف بأموال لم تنلهم في إحرازها مشقة ولا عناء ، ولقد
قرأت في صحف لبنان ، وهي لا تصدق إلا في مثل هذا الإغراق ، قرأت أن
الحفل أقيم في فندق « سان جورج » وأن مما نكبت العروبة فيه فقد العروس تلك
الليلة خاتماً يقدر ثمنه بعشرين ألف دينار ، وأن الأمير أعد للعروس قصرأ
مليون وربع المليون من دنائير البترول الذي لم يهبه الله للغرب ليصل به إلى تفجير
الذرة ، ولكنه وهبه للعرب الذين يستغلون به الحياة الإنسانية المعذبة .
وفي نفس الوقت عادت بي الذاكرة إلى بضع سنين خلت حيث أقام الإمام
المسلم زعيم الإسماعيليين الأمير علي خان ، عرساً تحت سماء أوروبا الحافلة بجبال
الحياة المغمورة بالفسق ، أقام هذا الإمام الهاشمي ، لعقد قرانه في باريس على

الممثلة « البتول » ريتا هايورت ، دعا لآليه مآت من أعيان العالم على نفقته ، وقد أجمعت الصحف أن الإسراف ، من مال الله طبعاً ، بلغ بالأمر إلى أن ينشئ في قصر الزفاف ، حوض سباحة من ماء العطور « الكالونيا » ليغتسل به العروسان ، ثم لا يعلم غير الله مصدر هذا المال الذي يتسبب عرقاً أو مجرى دموعاً من طائفة تعبد هذا الطاغوت . فزنه على رأس كل عام بما يكلفها ملايين النقود من أحجار الماس لينفقه على شهواته كما كان ينفق على شهوات أبيه من قبل . تمر هذه الخواطر بي ، وأنا أقرأ في الصحف كل يوم ما ينزل بالمسلمين في الجزائر من فظائع الإفرنسيين ، ثم أقرأ في هذه الصحف ما يقاسيه «امبون لاجئ» مشرد عن وطنه من عرب فلسطين ، فهل وعى هؤلاء الذين يفرقون المحافل والأندية بالأموال الرخيصة في عيبتهم ولهوهم ، أقول : هل وعى هؤلاء صراخ إخوانهم في الجزائر وهم يستغيثونهم تحت الحديد والنار ، أم هل غفلوا عن إخوانهم عرب فلسطين وهم يرزحون تحت وطئ البؤس ، هل وعوا ذلك فعملوا إلى اقتطاع حصة من هذه الملايين المهدورة على مذبح الشهوات ليغيثوا بها صراخ أولئك وبؤس هؤلاء ؟؟ وكيف إذن يؤمنون بقول محمد وهو يدعوهم للتعاون والتضامن ، ويضرب لهم الأمثال في أن يكونوا كالجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ؟؟

هل ساور عبد الله الجابر هم أو سهر من أجل إخوانه في الجزائر وهم يضحون بأنفسهم في سبيل عرضهم المنتهك ، وحقهم المغصوب من وراء البغي على عروبهم وإسلامهم ؟؟ وهلا ساور آغا خان ونجيب صالحة سهر أو حمى وهم يرون بأم أعينهم عشرات الآلاف من لاجئ فلسطين يقفون كل شهر على أبواب الإغاثة يستجدون الأجني فضلة من ثياب أو صاعاً من بر واليهود يمزحون في ديارهم فارحين آمنين ؟؟ هلا ساور هؤلاء أو ساور غيرهم من أثرياء المسلمين هم أو قلق من أجل إخوانهم فأشركوهم في المال الذي أنفقوه على الرقص والمجون والبذخ في خلواتهم وجلواتهم ؟؟

كنت أقرأ ، وأنا شاب حدث ، سيرة المأمون مع « بوران » بنت الحسن بن سهل في زفافها عليه ، وأنه بلغ من الإسراف ليلة عرسه أن كان غلامه يتبرون

على شهود الحفل ، رقاعاً تحمل أسماء قرى و دساكر ، فكل من تلقى رقعة ملك ما فيها ، كنت أقرأ هذا ثم أقرأ أمثاله من إسراف الملوك بين يدي شهواتهم ، فأمعن في التفكير : هل الملوك على حق في إنفاق أموال المسلمين كما يشاؤون ؟ أم هو ما لهم الذي يأخذ هذا الطريق في الإنفاق ؟؟ على أتى كنت أرجع إلى إقناع نفسي : بأن الأمة إذا كانت متوفرة على الرخاء والأمن والعزة بفضل ملوكها وقادتها فلا بأس بأن يختار هؤلاء الدنيا ثمناً لجهودهم في تعزيز الأمة .

ولكني كنت أعجب من الأمة إذ تستخذى للملك الذي لا يقودها إلا إلى الفجور والفسق بما يقول أو يفعل ، كنت أعجب لذلك حين أقرأ سيرة الملك الأموي يزيد بن الوليد إذ كان كلما طرب لجاريته « حبابة » ألقى بنفسه في حوض من الخمر أعد له في مصيفه « بنيت راس » شرق نهر الأردن فيتلف كل يوم بدلة ملكية بفعله هذا ، كنت أعجب للمسلمين إذ حملوه لدى موته في مصيفه هذا على قبر جاريته هذه ، حملوه على أكتافهم مسيرة يومين إلى دمشق ليقيموه في مدافن « الأبرار » من عشيرته .

أقول : لم أكن أعجب من إسراف هؤلاء الملوك لأن الأمة كانت في أوج غزوها ولم يكن في المسلمين من يخشى على ماله أو عرضه أو دمه ، ولكن الزمن في عهدنا اليوم يختلف عن ذلك الزمن. اختلافاً كبيراً ، فان القوة التي كانت تحولنا يومذاك سيادة العالم وفرض السياسة التي تضمن لنا هذه السيادة عليه ، هذه القوة أصبحت في قبضة أعدائنا ، وأن الرقعة الإسلامية التي لم تكن تغيب عنها الشمس أيام عزنا ، أصبحت هذه الرقعة في عهدنا الحاضر ليست أجنبية عنا فحسب ، بل علوة لنا لم تزل منذ قرن ونيف تتربص بنا الدوائر للقضاء على تراثنا ، والحد من نشاطنا وتقدمنا ، حتى كان لها ما شاءت وأصبحنا صنائع لها تهدم بأيدينا وألسنتنا وأفكارنا ، كيئناً قام فينا على مجد العروبة وعز الإسلام .

أقول : انها تهدم بأيدينا وألسنتنا وأفكارنا بقية ما نعتمد به من تراث ، أعرف رجلاً في بيروت يدعى علياً ... ثبت لنا في الحرب العالمية الثانية عن طريق الطباط المغريين في الجيش الافرنسي ، إذ كانوا يتصلون بالشيخ محمد العربي الذي هو مغربي الأصل والذي يقطن لبنان ، نقل لنا أن ظابطاً مغربياً

وقف على تقارير سرية يقدمها على... هذا أثبت أنه في سلك الاستخبارات الأجنبية ، يتجسس على الفقهاء من قومه فقط ، وقد كان هذا « العلي » أعجوبة في نعومة حديثه وحرصه على التعرف إلى كل فقيه يشغل مكانة مرموقة في قومه ، وكان فقهاء السنة والشيعة سواء عنده في تملقه لهم واعتزازه بصلداقتهم ، وقد كنت في ريب من أمره ، إذ علمت أنه فقير ولكنه يعيش في مجبوحة دون أن يكون لأحد عليه منة ، وزاد ربي فيه عندما هم أهل بلده ببناء مدرسة وانتدبوه لأن يعمل معهم فاختر لنفسه زيارة الهند في هذه السبيل ، وهو رجل أمي تماماً ، وقد كان ذلك فذهب إلى الهند وعاد بستمائة دينار ذهباً بني بها المدرسة وبني بيته ، فكيف ذهب إلى الهند ؟ ومن ذا يعرفه في الهند ؟؟

ولما نقل لي الشيخ عبد الله العلايلي بلسان الشيخ محمد العربي ما تكشف عنه خلق « العلي » أدركنا السر جميعاً فيما كان منه ، ولقد نشأ ابنه مكانه فلنس في الجامعة الأمريكية وخرج منها فدخل في صميم الحكومة ، وكان تعزيز رئيسها « فلان » يومذاك أول من اختضبه فعلمنا أن هذا الرئيس من قبيل علي وابنه ، وما أعجب أن ذاع صيت هذا الوليد وملأت شهرته الآفاق ، لأن الأجنبي عندما يتبنى شخصاً منخر له الصحافة المأجورة ، والإذاعة التي يتبناها ، والسامسة الذين يسبحون بدنانيره ودراهمه ، حتى يملأ به المجتمع ويصل من وراء هذه الشهرة إلى المنصب الذي يستطيع أن يقابل إحسان سيده به ، وهكذا نجد كل مأجور للتخيل يعمل بيده وفكره ولسانه على هلم تراثه خلعاً لسيده الأجنبي واستخذاء لشهواته .

وأعرف رجلاً كان قبل الحرب العالمية الثانية صبيّاً فقيراً نشأ يتيماً ورأى فيه بعض هذه الفئة التي تعمل « لوجه الله » ذكاء يبشر بمستقبل حسن يعمل فيه تحت إمرتهم ، فأولجوه باب الجامعة الأمريكية فلم يخرج إلا أستاذاً متفوقاً عليهم بمهارته وذكاؤه ، وكانت قد دخلت الحرب فدخل في سلطان بريطانيا ، وإذا به يذهب إلى لندن ويحیی منها مرتين في الشهر ، وإذا به يتكشف عن تاجر ماهر بين الإيراد والتصدير ، وإذا به يصبح المؤثر الأول على غرفة تجارة لبنان ،

ثم إذا بتجارته تعم العالم العربي وإذا به هو في صميم مجلس التشريع اللبناني ،
وإذا حربه الأول فيه .

ولقد كنت يومذاك خصما « لفلان » رئيس حكومة لبنان وكنت قد نظمت ديوان « فلان » وعرف التاجر به فدعاني إلى مكتبه وحاول إغرائني بطبعه وتعزيز أدنى لا لشيء سبق مني له فعجبت لذلك ووقعت في ريب من أمره ، ثم رأيت « نحمداً » بن علي الذي سبق ذكره يكثر من الدخول عليه فازداد الريب في نفسي وسألته : ماذا يصنع هذا هنا فقال : انه محرر جريدة أنشأتها له ، فصمت وعلمت كل شيء ، ثم قرأت بعد سنين وأنا في مصر كتيباً لهذا التاجر الشيط ، واسمه « اميل » يسجل في هذا الكراس الصغير ما أذكر من قوله : لنضع قضية فلسطين على الرف ونعمل في سبيل رقيتنا وتقدمنا » فقلت للحاج أمين الحسيني الذي أهدى إلى هذا الكتيب ، أتعرف صاحب هذا الكتاب ؟؟ فقال أعرفه من أوله إلى آخره ، ثم الأعجب من هذا أنا قرأنا للسيد اميل ... بعد تأميم مصر لقناة السويس وقيامه بريطانيا وفرنسا في وجهه رئيس مصر ، قرأنا له بالنص : لنضع الآن قضية القتال على الرف ونعمل على إنقاذ فلسطين ...

ولنستطرد بعد .. فان هذا الاستطراد حبيب إلى قلب السامع والقارئ ، ولقد عرفت رجلاً منذ أكثر من ثلاثين عاماً لدى ذهابي إلى العراق في سبيل دراستي الأولى ، كان هذا الرجل رفيقنا وكان قد تخرج من إحدى الجامعات الأجنبية في بيروت ، فكنا كلما استوقفنا مخفر أمن بن لبنان والعراق ، وكانت المخافر افرنسية وسكسونية ، افتقدنا صاحبنا فإذا هو مع رئيس المخفر الأجنبي يتناجيان ، وفي مدينة الموصل ركبنا القطار إلى بغداد فدخلنا محطتها منتصف الليل وإذا بنفر من الجزويت « الغرايب » يسألون عن صاحبنا ويصحبونه إلى حيث لا نعلم .

وبعد أيام سمعنا بأنه أصبح أمين سر للملك فيصل الأول ، ثم بعد سنين عاد إلى لبنان يحمل ثروة كبيرة ، ثم إذا هو اليوم في مجلس التمثيل ، وهكذا نجد أكثر هذا المجلس المبارك من هذا الطراز الطيب الأحلوة ، ولا يزال كذلك ثم لن يزال شوكة في عين العروبة ما دام الآباء اليسوعيون من الجزويت الافرنسي

يغنونه بلبانهم « الخالص » من شوائب الدس والتضليل حتى ينشأ في مسيحي لبنان من يحيله من طوائف مختلفة إلى طائفة موحدة ، ومن أديان متناحرة إلى دين واحد ، ولن يتوفر على ذلك حتى يخلط المسيحي بالمسلم لغة وجواراً وزواجاً ، فلا نرى في بيروت بعد ذلك حياً مسيحياً لا يقطنه مسلم أو حياً مسلماً لا يقطنه مسيحي ، ثم لا نسمع في حي مار نقولا لغة الافرنسيس وفي حي البسطة لغة يعرب ، وحتى نرى المسيحي في المسجد يوم الجمعة ونرى المسلم في الكنيسة يوم الأحد ، وهذا أبعد في لبنان من سمائه عن أرضه .

وبعد ، فقد شطح بنا القلم ولكنه شطح محبب إلى نفس الأبى الحر ، إذن فالزمن قد تغير من زمن كانت العروبة فيه سيادة اللغات ، ودينها سيد الأديان ، إلى زمن أصبحت العربية هزءاً في نفوس أبنائها ، وأصبح دين العرب موضع النقد والتجريح من أهله ، فلم يعد للإسراف والتبذير من المسلم عذر مشروع ، وأصبح كل قوى في المسلمين مسؤولاً عن ضعفهم ، وكل غنى مسؤولاً عن فقرهم ، كما أن كل حر منهم أياً كان من الأرض مسؤولاً عن كل مضطهد مستعبد فهم أياً كان ، وإذ ذاك فقط يصدق علينا أنا مسلمون ، وأنا في مجموعنا كالجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

عَلَى إِنَّ فِي الْقُرْآنِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا يَبْنِيكُمْ

يريد الإمام بكلمته هذه أن يقول : إن في القرآن علم ما يأتي وعلم ما كان ، وهو المعبر عنه بقوله : « حديث الماضي ، وفيه علم الحاضر ، المعبر عنه بقوله : دواء داءكم ، وهو علم الطب نفسياً وبدنياً ووقائياً ، وبقوله : نظم ما يبنيكم وهو سائر العلوم سياسية وثقافية واجتماعية ، لأن في كل من هذه تنظيماً لحياتنا الجماعية ولولا ما نعتصم به من نظام في حياتنا لكنا من غير نوع الإنسان المسيطر على ما دونه من الحيوان والنبات والجماد ، والفضل في ذلك للعقل القائم في تهذيب الإنسان على تعاليم القرآن ووصاياه ، فليتدبر قارئ ما أفضى إليه به من التدليل على هذا الحكم :

يتناقل أهل القرية التي هي مولدى وكانت فيها نشأتى الأولى ، وهي قرية « حاروف » من أواسط « جبل عامل » بين لبنان وفلسطين ، يتناقل أهلها بحيث أسمع : أن فتاة تلقب « بالكبشة » وقد رأيتها ، أصابها داء الصرعة وهي ضبية فبعثت أمها أخاها إلى عالم معروف بفقته الدين والتقوى يدعى الشيخ عبد الله نعمه ، وكان موطنه بلدة « جبع » من أعالي جبل عامل ، بعثت أخاها ومعه هدية للشيخ ليكتب « تيممة » لابنتها المريضة ، وكان أخوها لا يثق بهذا النوع من العلاج ، فتصرف بالهدية وقطع يومه في مدينة النبطية التي هي وسط بين « حاروف » و « جبع » بلدة الفقيه .

وعاد إليهما آخر النهار وقد احتال عليهما بقرطاس لقطه من الشارع وذهب به إلى الخراز فحاط عليه جلدة يوهما أنها تيممة ، ويشاء الله أن تحمل المريضة هذه التيممة الوهمية ويكون في حملها شفاء لها من داء الصرعة ، ثم يشاء الله أن يموت الفقيه بعد عام وأن يتحدث الناس بفضلته ، ومن هؤلاء الناس أم طالب ، وهي أم المريضة ظلت تشيد بفضل الفقيه الراحل على ابنتها بتيممة شفها من داء الصرعة ، ويضيق ابنها ذرعاً بحديثها فيصارعها بأن التيممة من صنعه هو وأن

للعلاج بالتأتم من خرافات العقل البائد ، فتعتمد الأم وابنتها إلى فك التميعة فيتضح صدق ابنها وتزول الثقة من نفس الأم والابنت فإذا بها تعود إلى الصرعة ثم ترافقها إلى القبر .

سقت هذا المثل الصادق الذي وقع في قريتي وبين سمعي وبصري ، وأنا على علم بالأم والبنت والابن أعرفهم جميعاً ، أقول : لقد سقت هذا المثل لأدل على أن العلم الحديث لم يخطئ بارجاع كثير من الأمراض إلى علم النفس ، وقد أصبح العلاج النفسى لمرضى الأعصاب من البديهيات ، وأن تأثير العقيدة ، والإرادة ، والاطمئنان ، والثقة ، على الجسم في رأس الأصول التي يقوم عليها الطب النفسى ، وأن العقيدة لها المكان الأول في التأثير على النفس سواء كانت صحيحة أو فاسدة ، ففي الحديث الشريف : لو اعتقده أحدكم بالحجر لأفاده وليس ذلك بضار في الدين لأن الإسلام لم يأت بخلق جديد في العقائد وإنما جاء ليصححها بالتوجيه إلى الحق ، كما أنه لم يأت بما يمحى العواطف العاصفة بالعقل وإنما جاء ليهذبها ويصرفها عن الشر إلى الخير .

من هنا فصل إلى أن العقيدة في الصنم أحالها الدين إلى عقيدة بالله ، من أجل كرامة الإنسان ، وأن هذا العقل القائم فيه لا يليق به عبادة الحجر أو الشجر ، وإنما هو نور يشق للإنسان حجب الغيب عن ربه الخلق بالدينونة والعبودية ، ففي القرآن دواء دائنا حقاً لأن عقيدة المسلم وقفت عنده واستحالت فيه من وراء عقله المؤمن به والشاخص إليه ، فكان من الطبيعى ، وهو الصلة بينه وبين ربه خالق الموت والحياة ، أن يتخذ منه وسيلة لشفاؤه من كل داء ، وقد آمن بذلك الطب الحديث وعمل به ، إذ وجدنا كل طبيب نفسى يأتى مريضه من طريق المؤثرات عليه عقلاً ونفسياً ، ثم يعالجه بالطريقة القائمة على علم النفس . والعقيدة هذه لا تؤثر على صاحبها فقط ، وإنما تتعبده إلى غيره ، فقد حدثتني أمى وصادق على حديثها أبى : أن أختاً لى ولدته قبلى وكان اسمه أسمى « محمد على » وكانت قد يئست بعده من الحمل ، وأن أبى أيقظها ليلة القدر ، وهى الليلة السابعة والعشرون من شهر رمضان ، وكان أبى يحى أكثر لياليه تهجداً ، وكان قد قرأ تلك الليلة حديث الرسول : من مات له ثلاثة أولاد وصبر فله الجنة .

وكان قد فقد ولدين ، فأوقف والبتى ثم قرأ عليها الحديث وقال لها : ان أعمالنا لا توجب لنا دخول الجنة وقد فقدنا ولدينا وصبرنا فلندع الله ، إن كان هذا الحديث صحيحاً أن يأخذ أحد هذين الولدين ، فاطمة ومحمد ، ليكون لنا بفقد الثلاثة سبيل إلى رحمته .

قالت أمى : فصمت إذ ذاك ثم بكيت وقلت له : " سأزل على حكم الله وسأصبر على بلائه فافعل ما تشاء فأنا راضية بما أنت به راض والله على ما أقول شهيد ، قال أبى إذ سأله صدق الحديث عن أمى : لقد صدقت وانى لأذكر أنى صليت ركعتين قربى لله بعد أن هجعت أملك ثم سألت الله : ان صح هذا الحديث فأنا متنازلة عن أحب الولدين وهو أخوك محمد ، فلم نصيح تلك الليلة حتى كانت الحمى تغور في جسد أخيك ولم تمهله أكثر من ليلتين ، وإذا به يفارقنا ليلة الغيد ، فلم نجزع ولعلنا كنا على العكس ، فرحين بأن أجاب الله ما سألناه وصدق ما رواه الرواة عن رسوله ، ثم لم تلبث أملك بضعة أشهر حتى حملت بك بعد يأسها وكنت أنت خليفة أخيك « محمد على »

فما قول علماء النفس في هذا الحدث الذى وعيته من أبوى؟؟ وما هو تعليلهم هذا التأثير من أب يصلى وطفل هاجع لا يعلم ما وراء هجوعه؟؟ وهل يستجيب الله لرجل يضحي بولده في سبيل الزلفى إلى ربه؟؟ هل عند علماء النفس تعليل لهذا غير أن للروح عالماً تتجاوب جزئياته في حدود كليه العام؟؟ كما أن للمادة عالماً تتجاوب جزئياته كذلك في حدود كليه القائم فيه؟؟ فكما أن الجرم المادى يتأثر من وراء اصطدامه بجرم مادى آخر كذلك نرى أن الجرم الروحى يتأثر من وراء اصطدامه بجرم روحى آخر ، وكما أن تأثير الجرم المادى بمثله يختلف قوة وضعفاً باختلاف الجرمين في الكبر والصغر ، كذلك نجد تأثير الجرم الروحى مختلفاً قوة وضعفاً باختلاف الجرمين في الكبر والصغر ، من هنا كان تأثير الإرادة القوية على الإرادة الضعيفة قوياً فما نسيمه بالعين .

فقدرة الإرادة في الأب أو الشجاع أو المظلوم فهو يتصور الموت ويستنزله لولده أو مبارزه أو ظالمه أثرت على ضعف الإرادة في الولد أو المبارز الجبان أو الظالم الغافل وهو يتصور الحياة لبقاء على نفسه ، فعجزت الروح في الفاعل له السلطان

على جزئى الروح فى المنفعل ، لذلك نرى القوى والغنى والعالم يسيطرون على الضعيف والفقير والجاهل ، ونرى هؤلاء يستجيبون لأولئك فى الخضوع لإرادتهم والاستسلام لسلطانهم .

هنا من ناحية الطب النفسانى وأما الطب البدنى فالقرآن يضم الكثير من عقاقيره ، ففى قوله تعالى : فكلوا واشربوا ولا تسرفوا « أبلغ عقار للداء الأمراض الباطنية إذ كانت المعدة وما زالت بيت الداء ، وأكثر أدوائها ينشأ عن التخم الناشئة عن إسراف الأكل فى طعامه أو شرابه . وفى تحريم القرآن لكثير من المأكول الخبيثة كالميتة والدم ولحم الخنزير وتحريم الخمر والحبائث من الشراب الآسن والطعام المتعفن ، وتحريم القنذارة وسور الكلاب والخنزير وإلزام الإنسان بالطهارة فى عبادته أو سلوكه مع غيره ، أقول : إن فى تحريم ذلك وإجباب هذا كثيراً مما يفترق إليه الطب البدنى الحديث ، فى الوقاية والعلاج . قدمنا فيما مر شيئاً من إثبات أن علم ما بين أيدينا طباً وسياسة وقضاء واجتماعاً مشار إليه فى القرآن إما تصريحاً أو تلميحاً ، فالتصريح فيما مر وأما التلميح ففى أمثال قوله عز من قائل : سخر لكم الليل والنهار والبر والبحر لركوبها وزينة . وبخلق ما لا تعلمون « فقله : بخلق ما لا تعلمون تلميح يكاد يناقش التصريح فى الدلالة على آلات البخار والكهرباء وما ينشأ عنهما من مسخرات الإنسان للركوب وغيره ، وهذا كله يشير إلى علوم حديثة لم تكن ثم كانت . ولعل التصريح بها فى ذلك العهد يعزز الأرجاف والشك فى صلور ضعيفى الايمان بالإخبار عن أشياء يستعصى تصورها على عقولهم الضعيفة ، ولذلك كان فى صميم الرسالة الإسلامية الدعوة إلى العلم والخض عليه من المهد إلى اللحد لتقوى عقولنا على تصور العلوم والفنون ولتحقق فى مستقبلنا ما كان قبلاً من قبيل الخيال .

أما أن فى القرآن علم ما كان المعبر عنه فى قول الإمام بالحديث عن الماضى ، فلا محتاج إلى تدليل ويكفى لإثباته ما يشير إليه الكتاب الكريم فى قصة ذى القرنين وقصة أهل الكهف ، وقصص الأنبياء والرسل ، فانها مشجونة بعلوم الأولين منها ما حققه العلم الحديث كبساط الريح وعرش ملكة سبأ فى قصة سليمان ، إذ كان العلم يدرك السرعة التى أوتيتها سليمان فى الطيران ، بواسطة الأثر «اللاتى»

وأما سرعة النقل بحيث يقطع الجرم في سره آلاف الأميال بضع ثوان كما فعل مستشار سلمان في نقل العرش ، أما هذه السرعة فقد أشار إلى إمكانها العلم الحديث في استخدام النرة للسلام العالمى إذ صرح أحد علماء النرة بأن في الإمكان القريب نشر الأجرام بسرعة الضوء .

وهكذا نجد أن حديث الماضي في القرآن ، لا يشعرنا بعلم ما كان فحسب ، وإنما يتعداه بالإشارة إلى علم ما يكون ، كما في قصة أهل الكهف من إغفالهم قروناً ثم بعثهم أحياء ، وفي قصة موسى وعيسى من فلق البحر وانفجار الصخر عن الماء وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وفي قصة سلمان من تكليم الطير ، وغير ذلك مما لم يصل إلى تعليقه وتأويله أهل الحضارة بالعلوم والفنون وفي ذلك ما يثبت صحة قول الإمام بأن في القرآن علم ما يأتي به مستقبل الإنسان ، فخذ مثلاً على ذلك علوم الأثر اليوم وفي طليعته فن التوجيه للطائرات والصواريخ : في سنة ١٩٤٦ كنت في أمريكا وقد جرى توجيه أول طائرة قذفاً باللاسلكى من نويرك إلى لندن كما يقذفون الأصوات مركزة على موجات الأثر بالأجهزة اللافتة في المنياع ، وذهب في الطائرة بعض المهندسين لا لقيادتها بل للإشراف على ضبط سيرها فقط ، وبعد أن أصابت الهدف بهم وهبطت الهوينا على أرض لندن قدموا تقريراً لمصادر التوجيه في أن القذف أضبط من القيادة وأنها لم تحدد في سيرها عن الخطة التي رسمت لها قط .

ففى قوله تعالى : وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول « إشارة تكاد تكون صريحة في الدلالة على توجيه القذائف بواسطة الأثر ، فكلمة أبابيل مجهولة المعنى ، ولعلها من قبيل ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وغيرها من الأسماء المضافة إلى اسمه تعالى وهو « ليل » فيكون المقصود بالطير جماعة من الملائكة تقذف هؤلاء المعتدين على الكعبة والذين هم أصحاب القيل ، تقذفهم بحجارة قيل في التفسير : إن كل حجر مكتوب عليه اسم الذى قذف به ، فكان يصيبه فيصعقه ولا يتجاوزه إلى غيره . ويفسرون التسجيل بالطين المطبوخ ، وأرى أنه من التسجيل وهو الرقم ليتناسب مع التفسير بأن اسم كل مقلوف من العتاة وجد محفوراً على الحجر

الذى قذف به ، فيكون المعنى ، والله أعلم ، : إن ملائكة أبابيل رمت هؤلاء
الطغاة بقذائف سجلت عليها أسماء المقلوفين بها لئلا تتعداهم « كما نرى اليوم في
الحروب القائمة بآلاتها المدمرة ، على العلوم الحديثة من أنها تحكم توجيه القذائف
لأعدائها بحيث لا تتعداهم إلى غيرهم من المسلمين ، وكما نرى من ضبط إرسال
الصوت في الأثير على موجات خاصة لا تتعداها إلى غيرها من الأمواج الأثرية ،
والقرآن الكريم حافل بكثير مما يفتح للأجيال المقبلة طرق الكشف والإبداع في
مجال الحياة لمن أراد أن يستقصى ويتعمق في البحث عن ذلك .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ
أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

الذي

ينقل إلى القائد أحمد حلمي ، وهو المجاهد المعروف رئيس حكومة فلسطين ، والذي لولاه لما أبقي اليهود على بيت المقدس ، يقول : عندما تقهقرت جيوشنا في العراق بين يدي قوة بريطانيا أيام الحرب العالمية الأولى ، لجأنا إلى مدينة « سلمان باك » ، قريباً من بغداد ، وكان الجيش البريطاني تحصن في كوت الإمارة ، ثم جهز فرقة كاملة العتاد للحاق بنا والقضاء على فلولنا ، وكنا لا نريد على أربعة آلاف ننتظر المدد لينقذنا من هول المعارك الساحقة بآلاتهم الحديثة ، ونحن متأخرون بكل شيء ، ولقد كان قائدنا نور الدين التركي لا ينام الليل حرصاً علينا من الهجوم المفاجئ ، وكنت مساعداً له .

ولاذ نحن في أخرج وقت نعد الأيام القليلة التي تسبق العاصفة الهوجاء ، وإذا برسول القائد يستدعيني لمقابلته ، وجئته فناولني برقية وردته من متصرف لواء كربلاء يقول فيها :

لقد أفضى إلى العلامة السيد إسماعيل الصدر وهو المرجع الإسلامي الأول في هذه البلاد ، أنه رأى في حلمه الشهيد العباس بن علي بن أبي طالب حامل لواء أخيه الحسين بن علي يوم كربلاء ، فقال له : خذ السيف المعلق فوق ضريحه وابعث به للقائد نور الدين ، ثم ليهاجم العدو به وسيقتصر بأذن الله » يقول السيد حلمي :

دفع القائد إلى بالرقية يستطلع رأي وقد رأيت في وجهه الاستخفاف بما فيها لأن العصر عصر جيوش وقيادة لا عصر توائم وأدعية ، فقلت له : أرى أن في هذا أكبر عامل معنوي يدفع الجيش المسلم للاستماتة في دفاعه ثم يدفع العشائر لمناصرة الجيش ، فتهلل وجه القائد مستبشراً ثم قال : حسناً فافعل ما تريد ، ثم أشعنا في القبائل برقية السيد الصدر وأن الجيش والأهلن سيستقبلون سيف العباس باستعراض عظيم ، وقد حددنا اليوم ، وكان فيه استقبال رائع

ثم أعلننا الهجوم في اليوم التالي ، وكان الجيش البريطاني قد توجه إلينا من الكوت
تعضده الفرق الآلية والمدمرات في نهر دجلة ، والجيش يواكب الأسطول .
يقول السيد أحمد حلمي : والله لقد رأينا عند الاشتباك أن كل جندي منا
كأنه جيش في وثوبه وهياجه وكانت صيحات : الله أكبر عز فنصر ، تدوى
في الفضاء حتى خلطنا السماء تطبق على الأرض ، ويستمر الاشتباك أربعة أيام
حتى لم يبق في نهايتها جندي بريطاني يعود نذيراً إلى كوت الإمارة ليبلغ الفرقه
المتحصنة فيها ، قال : ونستمر في الهجوم إلى الكوت فنحاصر الجيش أربعين
يوماً حتى خرج مسلماً مستأسراً ، وبعد ذلك وصلنا المدد وقد تكلفنا بالظفر ،
ولا أزال إلى الآن أفكر في ذلك النصر ثم لا أجده دافعاً غير السيف المبارك
باسم العباس شهيد الحق في كربلاء .

ولإليك حلماً آخر يتصل بهذا العباس أيضاً : نقل لي أبي ، وكنت في سن
للدراسة ، أن بعض العلماء الأعلام في النجف قال : أنا أفضل من العباس بن أمير
المؤمنين لأنني عالم والعباس شهيد وقد جاء في الحديث : أن مداد العلماء أفضل
من دم الشهداء « فرى هذا العالم من ليلته تلك في عالم الحلم ، شخص العباس
يقول له : هب أن الحديث صحيح ولكن من أنبأك أني شهيد فحسب وأنى
لست بعالم ؟؟ فأفاق العالم وهو يبكي وينيب إلى ربه .

وينقل لي ، وأنا في مصر ، أحد الذين شهلوا احتفالاً دينياً في مسجد
الحسين بن علي بالقاهرة لسنة ١٩٥٥ ، أن القائد محمد نجيب وهو أحد الضباط
الذين قضوا على عهد فاروق ، وكان هذا القائد من خطباء ذلك الحفل الديني ،
قال ، في مطلع كلمته :

عندما دعاني اخوتي الطلاب لقيادة حركتهم في القضاء على العهد البائد ،
كنت على فكر من ذلك ولكني أرجأت إجابة دعوتهم ليوم أو يومين ريثما أفكر
في المصير ، ورأيت في تلك الليلة ، وأنا أحلم ، سيدنا الحسين يقول لي : أقدم
على ما نذبت إليه ، وليت من صباح تلك الليلة اخواني فقمنا بالثورة وكانت
المعجزة في أن الانقلاب حدث دون أن تراق فيه قطرة من دم .

وحلماً آخر أختم به مجرى البحث : يقول لي الشيخ علي الغول ، وهو من

الأتقياء الأبرار ، وقد زرته في قريته « دين » من جبل عامل بعد عوده من العراق ، قال وأنا أسمع : من أغرب ما مر بي في رحلتي هذه أني أغفيت حيال ضريح الشهيد أبي عبد الله الحسين في كربلاء ، فرأيت في الحلم وقال لي : قم وخذ نصيبك » فانتبهت وقلت لنفسي : انها أضغاث أحلام ، وبقيت جالساً فخفقت خفقة أخرى فرأيت الإمام للمرة الثانية يقول لي : قم وخذ نصيبك » فانتبهت متعجباً ولم يسبق لي في هذه الزيارة ما يشير إلى هذا النصيب مما يتعلق بظروف حياتي ، ثم أغفيت أيضاً وأعاد الإمام على القول فقممت والرعب يرعدني أقول : إنه وحى .

ثم خرجت وأهبت برفاقي فركبنا المركبات تجرها الخيول وكانت ، على ما أذكر خمساً وكنا فوق الأربعين شخصاً ، ولما أجزنا حدود العراق إلى سوريا مررنا بصفين وكان الجو حاراً والوقت ظهراً فأحسست أني الوحيد فهم يقظان ، وتحسست من الوقت للصلاة فرأيت ، وأنا راكب ، على جانبي الطريق بقعاً صغيرة تلمع لمعان الكواكب في الليل ، وأمعنت في التحديق إلى هذه البقع فاذا بها دنائير من الذهب منتشرة على الصعيد الأبيض لا أول لها ولا آخر ، فأيقظت من هم معي في المركبة ، وقد أغفوا ، أقول : قوموا وخذوا نصيبكم من الدنيا فانتبهوا وأرثتهم الذهب فجئن جنونهم ثم ألقوا بأنفسهم من الحافلة إلى الأرض . ويا لها ساعة أفاق الركب فيها ينهر بعضهم بعضاً ، ويعودون إلى الورا يتهافون على الذهب المنتثر فلا أسمع إلا الصياح والشتائم ، حتى انتهوا إلى أول النثار ثم عادوا يتأثرون الخطوط الأمامية يزعم بعضهم بعضاً إلى أن أدركوا المصبر وهو كيس ضخ من القنب بقي نصفه مملوءاً وفرغ النصف الآخر في ذلك المجهل من الأرض ، وتقوم قيامة الركب حيال الكنز أيهم يظفر به حتى بلغوا حد التنازع والتخاصم بالضرب واللدن ، وخشيت العاقبة ، فوقفت وأنا في المركبة ثم صحت بأعلى صوتي : الله أكبر الله أكبر ، وإذا بهم جميعاً يشخصون إلى فقلت : أين أنتم ؟؟ ومن أين جئتم ؟؟ وكنتم تفعلون ماذا عند أمير المؤمنين أبي الحسن وأبنائه ؟؟ ثم قلت : ضموا الذهب جميعه واختاروا منكم ثلاثة أمناء عليه حتى تصلوا إلى « ديرزور » وتحسبوا ثلاثة أيام من

أصحابه ، فاذا اتصلتم بهم فأعيلوه إلى أهله وإلا فاقسموه بالعدل »
يقول لى الشيخ : وقد كان الأمر كما قلت واثمنوا على المال أشخاصاً منهم
الحاج حسين يس من مدينة النبطية ، ثم مكثنا ثلاثة أيام في دير الزور نتحسس
من أصحاب المال فلم نسمع بذكره فاقسموه وجاؤنى خمسة وأربعين ديناراً
ضممتها إلى ثم وهبتها لفقير النبطية الشيخ عبد الحسين صادق لينفقها في وجوه البر »
ذلك ما أحبيت أن أعقب به على الآية الكريمة من آثار الشهداء بعد موتهم
مما يثبت أنهم أحياء عند ربهم وأنهم يرزقون كما نرزق ، ومما هو بديهي أن
الحياة ليست وفقاً على ما نشعر من أنها طعام وشراب ونوم وبقظة ، وإنما تكون
أسمى من ذلك ولكننا لا نشعر بسموها شعورنا بانحدارها ، فما هى هذه الأحلام
التي تتحقق دونما سابق فكر عنها فيمن يراها ؟؟ هل هى إلا كعالمنا عالم ؟؟
ولعله ، وهو عالم خيالى يشير إلى أن عالمنا خيالى مثله كما حدث به بعض علماء
العصر من أن الحقائق التي تمسها قد تكون خيالات تمجرت في أدغمتنا فرأينا
ظلمة في الخارج ، وكما يشير إليه رسولنا الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم
بقوله : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ، هل الحياة في الكون خيالات متوالية
تنتهى إلى حقيقة واحدة هى الخلود في عالم الروح ؟؟...

يقول رسول الله أو أحد أهله : من رأى ، أى في الحلم ، فقد رأى حتماً
فان الشياطين لا تنزى بزينا » وهكذا نرى أن الشياطين لا يخولها الله أن تنزى بزى
عباده الصالحين لتؤذى الصالحين من عباده أو لتفزعهم ، وليس من العبث
أو من أضغاث الأحلام أن يترأى العباس لعلم من أعلام التقوى ليأمره بأهداء
سيفه إلى القائد المؤمن نور الدين ثم يكون عقبي هذا الإهداء نصراً مؤزرراً ،
ولا من صنع الشياطين أن يترأى الحسين بن على لرجل صالح ويقول له :
قم وخذ نصيبك ، فينتبه الرجل ثم يكون من أمره ما قد كان ويقتسم أولئك
المؤمنون الذين هاجروا لزيارة آل بيت الرسول وضحو بأموالهم من أجل هذه
القربى ، فتكون تلك الرؤيا سبباً لتعويض ما أنفقوه في رحلتهم هذه .

وليس كثيراً على الحق أن يعصم أهله من الفناء وقد ضحو بأنفسهم في
سبيله ، انى لأذكر وأنا صبي حديث ، : كنت أغشى مجالس المؤمنين أيام

عاشوراء وقد كانوا يعتقدون تلك المجالس لذكرى شهداء الطف من أهل البيت ، وكنت أستمع إلى الخطيب الذّاكر فلم تتأثر نفسي بشيء من ذلك تأثرها بمشهدين للعباس بن علي الذي كان يلقيه الحسين بقمر بني هاشم لجلاله وجلاله .
المشهد الأول : أن يزيد بن معاوية عندما ورد عليه السبي أمر أن ينشر متاعه بين يديه ، فكان من جملته لواء عظيم ، فسأل يزيد عن كان يحمله فقيل له : العباس ، فقام يزيد وقعد مرتين أو ثلاثاً لإكباراً للعلم ثم قال : آيبت اللعن يا عباس هكذا يكون وفاء الأخ لأخيه » ثم التفت إلى شهود مجلسه فقال لهم : انظروا إلى هذا العلم فانه لم يسلم من الطعن والضرب إلا مقبض اليد التي تحمله .

والمشهد الثاني : أنه عندما اشتد العطش بالحسين وأهله لم يجرؤ غير العباس على اختراق خمسة آلاف فارس بمحمون الشريعة من القرات عن أهل بيت الرسول ، إذ تناول القربة وخاض المعركة فأخذوا به فلم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين الماء فلأ القربة وقفل راجعاً فصاح بهم قائد الجيش بأن يحملوا حملة واحدة عليه لئلا يصل بالماء إلى الحسين وأهله فتعزز قوتهم به ، وقد كان ذلك فتكاتفوا عليه حتى قطعوا يمينه فأخذ السيف بيساره والقربة على عاتقه فقطعوا يساره ثم أصاب القربة سهم أراق ماءها فيئس حينئذ من الحياة وهوى عن ظهر جواده .
كلما ذكرت هذين المشهدين أكبرت العباس وأكبرت البطولة التي ورثها عن أبيه ، والتي كانت فيه وفي أخيه الحسين وأهل بيته تضحية في سبيل الناموس الأعظم الذي نزل على محمد والذي لولا هذه التضحية لم يقيم الله بني أمية قبل أن يقضوا على ذلك الناموس ، أقول إن الله أكبر من أن يجعل هؤلاء الأبطال في عداد الموتى ثم لا يكتب لهم الخلود بعد الموت فيبعثهم في عالم الروح يشرفون على هذا العالم فيراعون له حيناً بعد حين .

ان في الكون عوالم متداخلة لا تفصلها حدود إلا بمقدار ما يفصل الإنسان عن الإنسان من حله ، وهكذا تجد بين كل جرم وجرم حدوداً تتميز بها وصلات تجمع بينها ، فعلى مقدار ما يحاول المرء أن يتميز عن أخيه يجد بينه وبينه الحد الذي يميزه عنه ، ثم على مقدار ما يحاول الاتصال به ، يجد الصلات التي تحقق وحدته

معه في كل عام يجمع بينهما ، فهناك تحت المادة عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجهاد ، ويقابله في الروح عالم اليقظة وعالم الحلم وعالم الحمى وعالم الجنون وعالم الفكر وغير ذلك من العوالم التي لا نلصقها إلا بالعقل .

فعلى مقدار ما نحاول الإنسان صلاته في عالم اليقظة بمن يشاركه الحياة معه . يستطيع توثيق هذه الصلات ، ثم على مقدار ما نحاول هذه الصلات مع بقية عوالم الروح يستطيع أن يؤثر أو أن يتأثر بها ، من هؤلاء أولو الحكمة والشعراء والأنبياء ، وحتى السحرة والمشعوذون الذين بمعون في تطلّعهم إلى عالم الروح القائم على الشرور ، فلقد جمعني الصدف وبعض علماء الروح فسألته : هل يستطيع الراسخ في هذا العلم وهو يستحضر الأرواح أن يستخدمها كما يشاء ؟؟ فقال : نعم إلا فيما يضر الغير بغير حق ، وأما المشعوذون فأكثرهم موهون لا صلة بينهم وبين الروح فان العالم الروحي أسمى العوالم فلا يصح استخدامه لما ينحدر به من مرتبته تلك إلى مراتب العوالم الدنيا « فتأمل ..

وبعد فن زار النجف وكربلاء والكاظمية في العراق حيث قبور الشهداء من أهل بيت رسول الله ، على وأبنائه وأحفاده ، ورأى المساجد والمعاهد العلمية التي شيدت حول قبورهم تبركاً بهم وتقرباً إليهم ، ثم رأى الألوف من عباد الله الصالحين يعمرّون تلك المساجد بالصلاة ليل نهار ، ويعمرون تلك المعاهد بالبحث والدرس يتفقهون في الدين دين محمد الذي حاول بنو أمية محوه بالقضاء على أهل بيته ، أقول : من رأى ذلك في العراق ثم زار مصر ورأى الضريح الذي ووري به رأس الحسن الشهيد . ورأى المسجد العظيم الذي بنى على قبره ، ورأى معهد الأزهر الذي شيد باسمه وليدرس به فقه آل البيت . منذ ألف عام ، أقول من رأى ذلك كله ، عرف العظمة التي تتجلى له وهو وهو يتلو قوله عز من قائل : ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون « وهل الحياة غير ذلك ؟؟ بل : هل الحياة بأسمى معانيها تتجلى في غير هذا الخلود ؟؟

إِنَّ هَذِهِ الْأَرْوَاحَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ فَابْتَغُوا
لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمِ

محمّد

كنت وأنا صبي أصحب أبي إلى المآتم والأعراس وصلاة الجمع ، وكان كل هـمى أن أستمع إلى خطيب يتخير لسامعيه كل جديد ، فكنت أبتـهـج لكل حديث ، قصة كان أو عظة ، لم يدخل روعى من قبل ، وكانت محافل عاشوراء لذكرى الحسين بن على وأهل بيته ، أوسع المحافل انتشاراً ، وكان إقبال الناس ، من أعيش معهم ، على تلك المآتم إقبالا يكاد يحيلهم فى الآلام ، حتى أصبحت تلك الذكرى جزءاً من حياتهم ، فكنا نطوف على أكثر من عشرين محفلاً فى اليوم والليلة ، يتبارى فيها الخطباء علماء وأدباء ، طوال شهرى المحرم وصفر ، وكان أبرع الخطباء فينا وأحبهم إلينا من يأتينا فى كل محفل بمجديد مما يستظهر أو يبدع .

وأذكر أنى ، وأنا أدرس الفقه فى النجف ، كنت مأخوذاً بخطيبين أحدهما الشيخ حسن جلو ، والثانى السيد صالح الحلى ، لأن الأول كان محدثاً لا يكاد يسمع أو يقرأ تاريخاً إلا ويستظهر طرائقه ثم يملأها على سامعيه فى مجالسه ، فلم أشهده قط إلا وسمعت منه جديداً رائعاً ، ولأن الثانى كان خطيباً مفوهاً لا يستعرض ناحية من نواحي الحياة إلا استهوى سامعيه بتعليقها وتحليلها ، وكانت النكتة والفكاهة والنقد اللاذع للأفراد والجماعات ، رائده الأول فيما يبدع ، ولقد كان هذا الرجل عظيماً فى موقفه وارتجاله ، وفى تأثيره على سامعيه ، وقد كانت الأموال تنال عليه كالتراب من عليه القوم فى سبيل استصفائه أو استغفائه . أما الذين كانوا كالبيغاء من هؤلاء الخطباء ، يرددون الأقوال المبتذلة ، ويرجعون أنغامها الرثة على أسماعنا ، فلم يكن ليشهد مجالسهم الا عامة الناس الذين لا يفقهون من هذه المحافل إلا أنها تعقد فى سبيل الله وأن من يشهدها فأنما يرمى بذلك إلى استغفار ربه ورجاء المثوبة عنده ، ولذلك كنت أشهد هذه المجالس بدافع المجاملة للخطيب أو الميثب فى بلدى أيام صباى وفى العراق

أيام دراسي ، فلا أملك نفسي أن تستسلم لعالم الكرى ، فلا أنتبه إلا والقوم يغادرون ذلك المحفل ، وأمثالي كثيرون في هذا .

فالطرافة التي يشير إليها رسول الله في الحكمة القائمة على الوعظ والإرشاد بقوله في صدر هذا البحث ، إنما يعنى بها الجدة والروعة فيما يعظ ، ليجد قلوب السامعين شاخصة إليه قبل أبصارهم ، ولا شيء مما يقال أقوى على اقتحام القلوب وتأثرها به ، من الجديد الرائع ، فالقديم الرائع كالجديد التافه لا حظ له من إقبال القلوب عليه وتأثرها به ، وليس بحكمة أى قول لم يجمع بين هاتين الصفتين : الجدة والروعة ، لذلك نجد الألباء من فقهاء الأمة ممنعون في تجديد القديم الرائع من الوحي والكلم المأثور ، بما يسبغون عليه من جدة في التفسير أو الخطابة أو البيان ، إذ يقرأه سامعه أو يسمعه قارئه ، وأما هو عند من لم يقرأه ولم يسمعه فالجديد الرائع المعجز .

والحكمة التي هي ضالة المؤمن في قوله عليه وعلى آله السلام : الحكمة يلتقطها أنى وجدها لا يبالي من أى وعاء خرجت « هي عين الحكمة المسطورة في صدر هذا البحث ، وهي أيضاً عين الحكمة في قول الله عز وجل : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » فالحكمة في كل من هذه الجمل هي مصدر الحكم في السلطان ، والإحكام في الأعمال والأقوال ، فكل قول سديد وكل عمل مفيد صادق عليه أنه حكمة ، وكما أن الطرافة التي هي الجدة والروعة ، تنال القول ، كذلك تنال العمل ، وكما أن الروح تمل من تكرار القول على نسق واحد دونما تصرف أو إبداع ، كذلك نراها تمل من العمل المخلود المتكرر دونما تصرف أو إبداع .

من أجل هذا نرى أولى العلم والإبداع فيه ، يتناولون كل عمل بالتمهينة والتربية والترقية حتى يصبغ في جدة ما أحقق به كأنه لم يكن ، فأنت إذا جئت أمريكا الشمالية وزرت معارضها ومتاحفها ، راعك من كل عمل مخلوق لهم ، بسلسلة تمثل كل حلقة منها طرازاً من ذلك العمل ، فالقطار مثلاً نماذج لكل عام نموذج منذ خلق القطار حتى العام الذي أنت فيه ، وهكذا تجد نماذج للسيارة والطيارة والباهرة وآلات الزراعة والتجارة والحداثة والطباعة وآلات الحرب

واللهو وغير ذلك من وظائف الإنسان ، تجد لها نماذج تقفك على رقى الإنسان وتطوره عاماً بعد عام ، وعلى مقدار السرعة في هذا التطور يقاس رقى الإنسان وتطوره بتفكيره وإنشائه .

فليست طرافة القول في خلقه بمجموعه لأن عناصره لا يمكن أن تتغير ، ولكن الجلدة في التركيب والغرض المعبر عنه بالبيان ، فالجملة التي تتضمن الحكمة ، تركب من كلمات هي قدمة ، والكلمات تركب من حروف هي أقدم ، ثم إن هذه الحروف تصدر عن صوت هو أعرق منها في القدم ، وهكذا نجد أن أى عمل يأتيه الإنسان هو كقوله مركب من عناصر قديمة ، والطرافة فيه اسباغ الفن على عناصره بالتركيب والتلوين .

فالروح تبهج لكل جديد ، وتتنكر لكل قديم ، على أن يكون هذا الجديد مما تهزل له ، وهذا القديم مما زاولته حتى ملته ، فأما الجديد التافه فهو أشق عليها من القديم المرذول ، بينما ترى في القديم الغريب عنها روعة تعزف به عن كل جديد . فكم تجد الروح الأدبية أو الفنية في بطون السر من روعة الأدب القديم وفنه مالا يغنيها عن المتعة به جديد مهما طرف ، وتم في الأدب الجديد وفنه ما تزهده الروح معه بكل فن وأدب ؟؟

فليس الجديد الطريف هو كل ما لم يكن بشكله ولونه ، وليس القديم الممجوج هو كل ما كان قبل أن نكون ، وإنما الطريف الجديد هو كل أثر عبقرى لم يمرر بسمعك أو بصرك سواء كان وليد عصرك أو وليد عصور سابقة لك ، والسخيف المملول هو كل أثر تمججه روحك سواء كان وليد حياة سبقتك أو حياة تخلق بك ، فالطرافة إذن هي كل ما يبهج روحك من قديم أو جديد ، وتقابلها السخافة وهي كل ما يكبت هذه الروح من جديد أو قديم .

والروح ليست قاصرة في ضجرتها وسأمها على ما تسمع الأذن ، وإنما تتعدى ذلك إلى ما ترى العين وتلمس اليد ، فإذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان ، فهمنا أن الروح والبدن يشتركان في الملل مما ليس بطريف ، كما يشتركان بالرغبة والإقبال على كل طريف ، والحكمة

التي هي المحكم من كل ما تراه العين من عمل وما تعيه الأذن من قول ، ليست في حقيقتها مخلوقة لهذا الإنسان الضعيف عن أن يخلق ، ولكنها راسخة في حقائق الوجود المهيمن على الإنسان ، يكشف عنها ويشير إليها بلسانه أو قلمه أو يده ، فتجلى إذ ذاك طرفها أو مخافها بالعرض أمام السمع والبصر .

لهذا قرر علماء البيان : أن العبرة في بلاغة القول لا تنال المعنى ، لأن المعاني مطروحة ، على حد قولهم ، في الأزقة يعرفها الحضر والبداءة ، وإنما العبرة في البيان الذي يكشف المعاني ويؤيدها للروح عن طريق السمع فتأثر بها ، ويضربون لذلك أمثالا منها : أن الاسماع كانت تمج قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
حتى جاء سلم الخاسر فأخذ المعنى وأبرزه في ثوب آتق حيث قال :

من راقب الناس مات غمماً وفاز باللسنة الجسور
فأقبلت إذ ذاك عليه الاسماع تستسيغه وتهيم فيه .

وهكذا نجد كل عمل أحكمه العامل وأمعن في إتقانه تقبل عليه النفوس لإحكامه لا لإيجاده ، فكم كنت أمقت الطباعة إذ زاولتها ، وأنا أصلد صحيفتي « العروبة » في لبنان لسوء العامل والعمل ، وقصور الآلات عن أداء رسالتها بأحكام حتى زهدت في الطباعة ولفظتها ، ثم زرت أمريكا وتحسست من دور الطباعة فوجدت أن الشجر يسجر في فوهة من الأرض الحديد فيخرج من فوهة أخرى صحائف تقرأ وتنشر وليس بين كونها شجراً وكونها صحفاً أكثر مما بينك وبين بائع الصحف تدعوه وأنت في فراشك لتقرأ أخبار الصباح ..

وهكذا نجد آلات النجارة والحداة وآلات النسيج أصبحت من الإحكام والإتقان وسرعة الإنجاز بحيث ينهر لها العقل وترتاع بها الروح ، فإذا عدنا بهذه الصناعات إلى عهدها الأول أيام كان الحداد يقطع نهاره في صنع المنجل ، والتجار يقطع أياماً في صنع المنضدة ، والحائك يقطع أسابيع في نسج الثوب ، مللنا التفكير في الصنع والصانع بله النظر فيما يصنع ، بينما كان آباؤنا يرون

مُتعة الروح في أن ترى المنضدة أو المنجل أو الثوب مصنوعاً دونما تفكير في كيفية صنعه ، وهكذا نرى الحكمة فيما نسمع أو نبصر ، وفقاً على ملائسات الزمان والمكان من وراء التأثير بها أو السّامة منها ، فالطرافة في الحكمة التي لا تملها الروح إنما هي في عرض الأفكار مادة ومعنى ، على الأسماع والأبصار بالشكل واللون الذي لأعهد للروح به من قبل ، هذه هي الطرافة في الحكمة التي يعنها الرسول بقوله : ان هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم .

... وَأَرَسَى «سُبْحَانَهُ» أَرْضًا يَحْمِلُهَا ، الْأَخْضَرُ
الْمُتَعَجَّر ... وَجَبَلَ ... أَطْوَادَهَا ... فَأَرَسَاهَا
فِي .. قَرَارَتِهَا ... وَأَرَزَّهَا فِيهَا أَوْتَادًا ، فَسَكَنْتْ ، عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ
تَمِيدَ بِأَهْلِهَا .

عَلَى

قال ذلك في خطبة يستعرض بها عجائب صنع الكون ، والفواصل من النقط
تشر إلى أن هذه الجمل أو هذه الكلمات محتزلة من تلك الخطبة لتكون وحدها
مداراً للبحث ، يقول سلام الله عليه ذلك محققاً ما أثبتته العلم الحديث من أن
الأرض محمولة على الماء المعبر عنه هنا بالأخضر المتعجّر ، وهو من صفات
المحيط الأعظم ، ثم يتأثر القرآن في اعتبار الجبال المرساة على الأرض أوتاداً لها ،
خشية أن تضطرب وتميد بأهلها ، ثم أثبت النظرية العلمية القائمة على أن الأرض
متحركة بقوله : « على حركتها » وهذه من الهامات الوحي التي كان يتلقاها من
معلمه محمد صوات الله وسلامه عليهما ، وهما في كل ما يقولان ، عيال على
الفرقان في كونه مصدر كل علم إذ قال : وما فرطنا في الكتاب من شيء ، وكل
شيء أحصيناه في إمام مبین .

أحب أن استطرد بالقارئ هنا إلى فكاهة كان يتندر بها في كثير من المجالس
رواة فكاهيون ، تلك هي : أن حكماً أمريكياً مبشراً بمذهب البروتستانت
كان مقره « صيلاء » إحدى مدن لبنان الساحلية وتكاد تكون هذه المدينة عاصمة
« جبل عامل » وكان من وسائل تبشيره بالسيد المسيح أن فتح مدرسة للتعليم
وعيادة للتمريض مجاناً - وكان معروفاً بالنكتة ومتسماً بالخلق الفاضل حتى أحبه
كل من جالسه ، وكان له صديقان ممتازان عن أصدقائه الكثيرين في الدعاية له ،
هما السيد محمد إبراهيم وابنه من سادة قرية النيرية المسيطرين على القرية بنفوذهم

الدينى والجماعى ، وكانا يعتزان بصداقة الحكيم هذا ويدعوانه إلى بلدهما فيجمعان له سكان تلك المنطقة مرجحين به .

ويشاء الله أن يصدر للطبيب هذا ، وكان عالماً طبيعياً مضافاً إلى كونه طبيباً ، مؤلف فى فلسفة الطبيعة يثبت فيه كروية الأرض وحركتها المزدوجة على نفسها وحول الشمس ، وقد كان التندر يمثل هذه النظريات فى أواخر القرن الثامن عشر حيث كان الحكيم هذا يزاوئ عمله فى ساحل صيداء أقول : لقد كان الجهر بتلك النظريات محتاج إلى جرأة من العلماء الغر على رسالة العلم ، ويشيع فى جبل عامل نبأ هذه « الخرافة » منسوبة إلى حكيم أولوه ثقهم وأصبح ذكره عندهم بالمكانة السامية من ذوى الفكر ، ويتصل هذا النبأ بصديقيه السيدين محمد ابراهيم ونجله فينكران كل الإنكار على الراوى أن يكون صديقهم الطبيب الحكيم قد أصبح من ضعف التفكير بحيث يتهافت فى تفكيره إلى هذا الحد ، ثم يزعمان السفر إلى صيداء ، وهى منهم على بعد عشرة أميال ، ليتحققا من صحة هذا النبأ الذى وقع فيهم وقوع الصاعقة ، بينما يدعوان له فى سمو العقل ونضج الفكر ، وأين هذه النظرية من عقل الحكيم الذى عرفوه حصيفاً متزناً فيما يقول ويفعل ؟؟ ولما أطلا عليه ، وهو فى مجلسه الخافل بأعيان صيداء ، رحب وهلل وأدناهما منه ، ورأى فى وجوهها الحرص على القول والجذفيه فاستنطقهما فقالا : أتيناك نتحقق من صحة ما شاع فى كتاب أصدرته ، وحشوته بنظريات أشاعت الدهشة عندنا وحالت دون الإمعان فى الدعوة لك ، قال ماذا ؟؟ فقال السيد : لا نخامرنا شك فى أنه نبأ مكلوب يريد المرجفون من ورائه أن يشوهوا الحق ويطفئوا النور ، إذ يدعون أنك تقول بحركة الأرض وأنها تدور على نفسها كالخلروف أو أسرع حركة منه ، وهذا مالا تراه عين ولم يتحسس منه وجدان ، إذن لأصاب اللوار كل مخلوق على وجه الأرض ، فقال : لم أقل شيئاً من هذا ولكنى قلت : إن الأرض كانت متحركة ولما ولدتما على ظهرها سكنت وقرت ، فعلى ضحكهما ثم قال : نحن لانتاب قط فى أنك إن كنت قد قلت شيئاً من هذا فأنما صدر عنك من قبيل الدعاب كما هو شأنك ، ثم ودعاه مطمئنين إلى عقل الحكيم كما عرفاه .. »

هذه صورة من عقلية الأمة التي تدين بالإسلام وتذهب فيه مذهب الإمام علي بن أبي طالب فتضع « نهجه » المشتغل على خطبه وأقواله ورسائله إلى جنب القرآن وسيرة الرسول ثم تعتنق فكرة العقيدة بأن الحكمة قاصرة على هذه الكتب الثلاثة ، وتجد بعد ذلك هذين السيدين وكثيراً غيرهما من الموالين لعلي ، يجهلون أن علياً أنبأنا قبل ثلاثة عشر قرناً بما يثبت العلم الحديث ، ويتنبأ به أعلام العصر الحاضر من كروية الأرض وحركتها ، ثم يزعم هؤلاء البله أنهم شيعة علي وأنهم أحق الناس به ، وأنهم واردون على حوضه يوم العطش الأكبر .

فمن أولى من الحكيم الأمريكي هذا بالإمام علي ، وهو يفقه قوله ، ويصدق نظريته ، ثم يسخر من شيعته ، ويأسف لأن يكونوا قاصرين ، وهم في عصر النور ، عن فهم آرائه وهو في عصر الظلمات ، ؟؟ وشد ما كان هذا الحكيم يتألم بما يسود هذه المنطقة « جبل عامل » التي قطع حياته فيها ، كان يتألم لما يسود أهلها من تأخر ، فقد نقل الرواة في عهده : أنه كان يطيب مرضاهم مجاناً ، فيقابلون عمله بأسوأ جزاء ، إذ كانوا لا يتورعون من أن يبولوا على باب العيادة ليلاً زاعمين أنه كافر وهذا جزاء الكفار ، وكان يقابل عملهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا ينتهون ، أو لا يزجرون من لا ينتهي من جهالهم . وإذ علم أن من يبول من المسلمين لابد وأن يستجمر أي أن يحفف مصلر البول بحصى أو جدار ، طلى باب العيادة والجدارين اللذين يكتنفان بابها بمادة سامة تحدث التورم في آلات البول ، فكان لابد لهم بعد ذلك أن يعودوه لعلاج هذا التورم إذ لا طيب غيره في البلدة ، فكان يأخذ من هؤلاء فقط ثمن العلاج ليستأجر به من يغسل باب العيادة صباح كل يوم من أثرهم السيئ ، وبذلك قضى على أخطائهم وحال بينهم وبين صنعهم هذا إذ علموا أن مصلر التسم كان جزاءهم على ذلك .

ويؤلمني أن لا أرى حتى اليوم ، من لا يفقه قول الإمام من شيعته ولا من أمته ، فقد سمعت ممن أثق به أن أحد الفقهاء قد أصدر كتاباً أسماه : « البازي المنقض على من يقول بكروية الأرض » وكان لابد له أن ينكر حركة الأرض في هذا الكتاب لأنه من البديهي للمتحرّك أزلياً أن يكون كروياً ، فان حركة

— ٣٠٢ —

الجرم بالدوران على نفسه ثم حول غيره يستلزم الاحتكاك بالتيارات الأثرية التي
تجذب به من هواء وماء وكهرباء ، وهذا كله يحقق كروية الجرم المتحرك فيه
لاستلزام زوايا وأضلاع. غير الجرم الكروي إذا تحرك أزلياً وبالسرعـة القائمة
في حركة الأرض ، أقول : إن تلك الزوايا والأضلاع تستلزم احتكاكاً بما يضغطها
مما تتحرك فيه ، أكثر مما يستلزمه سائر الجرم المتحرك ، وذلك ما يجعلها في النهاية
كروية ، وأما فجوات الأودية والوهاد ، ونبوء الجبال مما يؤهم عدم الكروية
فيها فهو من قبيل التعاريج في التفاحة إذا ضمرت من اللبول ثم لا يخرجها ذلك
عن كرويتها .

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

الله

بين الأحد والصمد هنا تداخل وهو لإحدى الكليات الأربع ، في اصطلاح علماء المنطق ، أى أن كل صمد أحد وليس كل أحد صمداً ، وبيان ذلك بوضوح فيما يأتى :

الأحد يقابل المتعدد ، وأما الصمد فهو فضلاً عن الوحدانية يقابل الأجوف ، وليس هذا مأخوذاً في مفهوم الأحد ، فرب فرد أجوف لا صمود فيه ، اللغة تفسر الصمد بأنه مالا جوف له ، فالأبريق مثلاً يقال له أحد ولا يقال له صمد ، وهكذا الإنسان ولعل كل كائن لا يصدق عليه لفظ الصمد حقيقة ، لتغلغل الماء أو الهواء أو الروح فيه ، وإذا أطلقنا لفظ الصمد على قطعة الفولاذ مثلاً فهو من قبيل التجوز على معنى أن جوفه أقل خلاء من الحديد أو الحجارة بله الخشب ، وبرهان ذلك أن الانحلال يعرف كلا من هذه ، فلو لم يكن الفولاذ وغيره ذا خلايا يتقوم بها كيانه لما تسرب إليها الفساد المفضى به إلى الانحلال .

ومن وراء نظرة بسيطة نلقها على أبحاث اللثة في العلوم الحديثة ، ندرك البرهان على أن كل ما يقع تحت إدراكنا من كائنات ، هو مركب من خلايا ، وخلاياه هذه مؤلفة من ذرات يدور في فلكها كهارب حول نويات تصغر ملايين أضعاف ما تراه العين بالمجهر ، إذن ليس هنالك فيما يصدق بنا من كائنات ، جرم منها كبير أو صغير يصدق عليه لفظ الصمود إلا تجوزاً ، ضرورة أن في كل كائن نظاماً كالنظام الشمسى الذى يهيم على وجودنا ، وهذا النظام لابد له من فراغ يدور فيه ليؤدى رسالته في تقويم ما كان له .

من هنا ندرك أن إطلاق لفظ الصمد على خالق الوجود إنما هو إطلاق لغوى لا تجوز فيه ، فالصمد والصامد في صميم اللغة يطلقان على الأحد الأزل الذى لا خلاء فيه ، ومن البديهي أن الشئ الذى لا يتخلله هواء لا يتسرب إليه فساد ، وقد عنى العلم بتعقيم الأشياء القابلة للانحلال لتثبت على الزمن معصومة من التلاشى

فالعصر الفرعوني لا تزال علومه قائمة منذ آلاف السنين في معجمات الحيوان والنبات ،
والعلم الحديث بدأ منذ نصف قرن يزاول التعقيم ، وهذه آثاره بن سمعنا
وبصيرنا أصبحت من ضروريات حياتنا كالفواكه والخضر المجففة أو المعقمة ،
وكاللحوم والأسماك المعقمة في آنية تعصمها من تسرب الهواء الغني بالجراثيم
المفضية بما تغلغل فيه إلى الفساد والانحلال .

على أنى قرأت نظرية للعلامة « أنشتاين » يثبت فيها أن الأثير الذى نتقوم به
ونعبر عنه بالفضاء أو الخلاء أو الهواء ، كما نرى ونشعر ، هو مادة كونية
صلبة لا نقوى على التحسس من صلابتها لأننا جزء منها « وفي ذلك ما يحملنا على
التفكير فى أن حركاتنا ضمن هذا الأثير يجب أن تكون موضع بحث : هل هى
قائمة فيه أم منفصلة به ، أم نحن بمادتنا شئ منه والروح القائم فينا إشعاع خارج
عنه وموثر بواسطتنا فيه ؟؟ وبعبارة أوضح : هل الأثير كما يراه « أنشتين »
هو المادة والقوة التى نعبر عنها بالروح ، يتأسكان متفاعلين فينشأ عنهما هذا
التيار الذى نطلق عليه لفظ الكون ؟؟ أم هو مادة فقط يتفاعل بإشعاع الروح
المهيمن عليه من كون آخر بصلات لا يزال العقل البشرى يجهل الكنه الذى
تتقوم به ؟؟

وهل القوة شئ والمادة شئ آخر يتضافران على إنتاج ما نسميه بالأثير أو
الحياة كما يتضافر الجسد والروح فى تكوين ما ندعوه إنساناً ، أم هى مادة فقط
بعضها لطيف والبعض الآخر كطيف لها تركيبها الخاص بها حيث تنتج الحياة ،
أم هى قوة فقط تتكاثف أحياناً بانفعال مجهول لدينا فيظهر فيها ما نحسه من
أجرام ؟؟ وهل هذا الأثير الذى تتساءل به فى هذا البحث ، هل هو الكون كله
أم جزء منه ؟؟ وعلى فرض كونه كلاهما هو مصدر نظامه القائم فيه ؟ هل هو
خارج عنه ومهيمن عليه أم داخل فيه ومتقوم به ؟؟ وعلى فرض كونه جزءاً من
الكون ، هل هو متصل به اتصال جزئياته به أم مستقل عنه استقلال الجزء
عن كله ؟؟

هكذا تتوالى على الفكر أسئلة مما تحسه الروح ، ثم يجيب نفسه عنها بما
لا يقنع هو بها ، ولا تشبع الروح من تحليلها ، ذلك هو السر الذى من أجله

- ٣٠٥ -

يمتاز الكل عن الجزء ، ويتعالى به الكلى على جزئيه ، ولو أدرك الجزء كنه كله ،
أو أحاط الجزئى بأسرار كليه ، لما كان بين الجزء وكله أو بين الجزئى وكليه
فرق بينهما ، ولما كان للجزء والجزئى حدود تتسع لهما فى حدود الكلى والكل
اللذين هما ظرف يحدق بتلك الحدود .

= ٤٣٦ =

لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي أَهْلُ الْبِدْعِ
كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ

مَحْذَرٌ

البدع جمع بدعة ، والبدعة في أصل اللغة ما يأتيه الإنسان من قول أو فعل لم يكن ، فالإبداع هو الإنشاء ، والمقصود بها في الحديث الشريف هو أن يحدث المبدع في الدين ما ليس منه فعلاً ولا قوة ، أى لم يرد فيه نص صريح من كتاب أو سنة أو إجماع ، وليس في طوق العقل الواعى تطبيقه على الدين قياساً أو استنباطاً .

وإذا أطلق الرسول كلمة البدع هنا ثم لم يقيد بها بكونها خارجة عن الدين ، فانما وكل ذلك إلى عقل الفقيه ، وإلا لما أجمع أعيان المحققين من علماء الفقه على أن البدعة السيئة هي المقصودة من قوله صلى الله عليه وسلم في صدر هذا البحث ، كما أجمعوا على أن البدعة الحسنة لم يخرج بها مبدعها على الدين وإنما دخل بها في صميمه ، ولعل الإبداع في الدين هو المقصود من قوله عليه السلام : يبعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد أمر أمتي في دينها « والتجديد أعم من أن يكون كشفاً أو إبداعاً ..

أما التجديد الذى هو كشف ، فأن يعتمد الفقيه المجدد إلى إحياء ما أماته من الدين جمود الفقهاء وجحود الملحدين ، وأما التجديد الذى هو إبداع فانه ينشئ المجدد ، فقيهاً أو حكماً ، ما لم يكن في العصور التى هيمن عليها الدين ، من ضروريات الحياة أو كمالياتها ، فانه يدخل في حيز الدين بما يحمل في جوهرة من نفع الإنسان وتعزيز الحياة ، وفي صميم الدين كل ما يعود على الإنسان بالنفع من خير أو جلال ، ففي القرآن الكريم : قل من حرم زينة الله التى أخرج للناس والطيبات من الرزق ؟؟.. وآية زينة أسمى مما أخرج تبارك وتعالى ، على أيدي وألسنة العلماء والحكماء مما هو ملء سمعنا وبصرنا من بدائع العصر الحديث ؟؟ فهل نعد المخترع المعروف كامل الصباح خارجاً عن الإسلام بما أبدع من عشرات الاختراعات في علمي الأثير والكهرباء لأنه من أهل البدع ؟؟ وهل

— ٣٤٧ —

نعد التلفزيون الذى هو إحدى بدعته مع غيره ممن كان يزامله فى هندسة الكهرباء ، أقول : هل نعد بدعته هذه خارجة عن الدين ، ومحرمًا علينا-استعمالها ؟ ولقد قرأت له فصولا ، وأنا فى جنوب أمريكا ، نشرتها له الصحيفة « السورية اللبنانية » التى تصدر فى « بونس إيرس » عاصمة الأرجنتين تشتمل تلك الفصول على أبحاث لاهوتية يثبت فيها وجود خالق وكون ذلك الخالق واحداً عن طريق العلم الحديث ، وهكذا كان العلامة أحمد رضا العاملى وهو خاله ، كان يقرأ على رسائله المتبادلة مع ابن شقيقته كامل الصباح ، وكانت تلك الرسائل حافلة بدينه الصبيح ومدنيته السامية ، فهل نعد هذا خارجاً عن الدين بما يبدع ؟؟

فليست البدع فى قوله الشريف على إطلاقها وإنما هى البدع فى الدين ، بأن يزيد المبدع فيه ما ليس منه أو ينقص منه ما هو داخل فيه ، والزيادة أو النقصان يقررهما عقل الفقيه المخلص لربه الناضج فى تفكيره ، على هذا يجب أن نحمل قول الرسول ، وبهذا يجب أن نعلل قوله ، وكل ذلك قائم فى صلب اللغة ، فقد يطلق اللفظ على المعنى العام ويراد به الخاص ، كما قد يقيد به معنى خاص ويراد منه العام ، ومن شاء تفصيل ذلك فليرجع إلى كتب البيان .

أما الكلام على البدعة ، وهل هى مخلوقة لله قبل خلق الإنسان لها ، وإنما يكشف عنها المبدع الثانى الذى هو الإنسان بطريق الإلهام بعد أن طواها الزمن فأنسى العقل البشرى حلقها القائمة فى سلسلة الحياة محتضنها الوجود الأزل ، أما هذا البحث الذى يتناول البدعة فى فكر الإنسان ، فقد أتينا عليه مفصلاً فى كتاب « بلاسم » وليس له موضوع فى هذا السفر فن شاء الوقوف عليه فليلتبس به فى ذلك الكتاب .

عَلَى إِنَّ فِي السَّمَاءِ مَدُنًا كَمَدُنِكُمْ هَذِهِ يَرْبِطُ بَيْنَهَا عُمُودَانِ مِنَ نُورٍ

سمعت هذه الكلمة على أفواه الثقات ثم تحررتها في الكتب المأثورة فلم أقف عليها بنصها ولكني قرأت في كتاب مجمع البحرين للعلامة فخر الدين النجفي من علماء القرن الثاني عشر ، قرأتها في مادة « كوكب » بلفظ لا يختلف معناه عما سمعت من شيوخنا الثقات حيث يقول عليه السلام : هذه النجوم التي في السماء مدائن كالمداين التي في الأرض ، ترتبط كل مدينة منها بعمودين من نور طول كل عمود مسيرة مائتين وخمسين عاماً في السماء « فكلما القولين يفيدان معنى واحداً ، كما أن كليهما تخليق بأن ينسب إلى الإمام لأنه ينطوي على علوم شتى وليس في أصحاب رسول الله من يقتبس عنه مثل ذلك سوى ربيبه علي ، سيما وهو يقول إذ يذكر معلمه : لقد مر علي سمعي بكل شيء .. »

من أدري علياً ، لولا إلهامه ووحى رسول الله ، أن الأجرام السماوية قائمة في سيرها ونظامها على السير والنظام اللذين يقوم عليهما كوكبنا الأرضي ؟؟ ألا تقوم أرضنا هذه في نظامها الطبيعي الذي يضمن بقاءها ، على تيارين أولهما الجاذبية التي تصلها بالشمس ، وهو تيار خاص بالشمس وفلكها الذي تدور فيه السيارات التي يثبتها علماء الفلك ؟؟ وثانيهما التيار الروحي الذي يتقوم به الكون وهو خاص بالنور الكلي المهيمن على الشمس التي تدور في فلكه بما يدور حولها من أجرام ؟؟

ان أنظمة الكون متداخلة لا حساب لها في دائرة الفكر الإنساني ، ولذلك يروى بعضهم قول الإمام هذا بلفظ أعمدة لاعمودين ، والأعمدة هذه التي نعب عنها بالأنظمة أو التيارات أو الأنوار القائمة في حركة الوجود وخلوده ، أقول : ان هذه الأنظمة تبدأ في أعظم جرم كوني لانقوى على الإحاطة بكنهه ، وتنتهي في أصغر جرم كوني أيضاً لا طوق لنا في اكتناه سره ، وهو الذي نعب عنه اليوم بالليرة .

ولقد بدأ العقل الإنسانى فى عصرنا الحاضر يفكر بتأويل قول الإمام على هذا ، ولعله بدأ يفكر فى تحقيق قوله لا تأويله فحسب ، ان معظم علماء الفلك اليوم مجلسون بوجود عالم كعالمنا فى الزهرة والمريخ ، وبدأوا يعلنون العدة لإرتياد القمر الدوائر فى فلك الأرض ثم ارتياد غيره من الكواكب السيارة التى يربط بينها وبين كوكبنا تيار الجاذبية الشمسية التى ينتظم هذه السيارات الدائرة حول الشمس ، وإذا كان حدسهم قائماً على العلم أو الظن القريب منه فى أن بين هذه السيارات شركة فى الحياة ، ثبت أن عوالمها تشترك فى طبيعة الحياة ونظمها ، وفى ذلك ما يؤيد قول الإمام من أن فى السماء ، ويعنى بها الأجرام السيارة ، مدناً كمدننا تربط بينها لتستقيم فى سيرها ونظمها ، أعمدة من نور وهى التيارات المهيمنة على الكون .

فما الذى أدرى علياً بهذا ؟؟ وهو ربيب محمد ومحمد أى أنبتته أرض قفر جرداء من كل ما يشير إلى حياة ؟؟ ان علياً نفسه يجيب عن هذا التساؤل حيث يقول : « الذى بعث محمداً بالحق ما أبقى شيئاً . . . إلا أفرغه فى أذنى وأفضى به إلى . » كما مر فى غير مكان من هذا الكتاب ، ولذا كان يجرؤ على القول بالمأثور عنه : سلونى قبل أن تفقدونى ، فانى بطرق السماء أخبر منى بطرق الأرض « إذن فالذى أدرى علياً بذلك هو محمد والذى أدرى محمداً هو الروح الأمين جبريل ، وجبريل هو الذى كان ينزل بالوحي على قلبه من لدن لطيف خبير . صدق الله ورسوله

ويريد الإمام بقوله : ان فى السماء مدناً كمدنكم هذه « يريد : أن فى تلك المدن أناساً مثلكم » وهو ما يستلزمه كون المدن كمدنكم ، لأن هذه المدن هى وليدة تفكير الإنسان فى كوكبنا الأرضى فيجب أن تكون هناك أيضاً وليدة تفكيره وإلا لما قال : مدناً كمدنكم ، ويريد بالأعمدة الروابط بين تلك المدن وبين ما تعتمد من بقاء كالأعمدة التى تربط بين السقف والأرض فى بيوتنا ضرورة كونها بيوتاً واستقامتها كذلك ، ويريد بالنور العنصر الذى تقوم به تلك الأعمدة وهو من الشمس مثلاً بمنزلة الجوهر منا الذى نعر عنه بالروح تارة وبالحياة أخرى ، وهذا الجوهر هو الذى يربط بعضنا بالبعض الآخر فاذة

= ٣١٠ =

فقدناه افترقنا إلى الأبد ، ثم على مقدار الكمية التي تتوفر في الجرم من هذا الجوهر يكون ارتباط غيره به وانجذابه إليه ، واعتماده به ، ولهذا نرى الخاصة من الناس ، علماء وحكماء وزعماء ، هم مدار الجاذبية في الناس .

وهكذا نصعد إلى الروابط الكونية ، فالشمس إنما تربط بين الكواكب الدائرة في فلكها ، لما توفر فيها من الجوهر الذي نعب عنه بالنور الذي تتقوم به تلك الكواكب ، وقد تكون هذه الشمس مع شمس أخرى تدور في فلك جرم أعظم يتوفر فيه من الجوهر أضعاف ما تتقوم هي به ، فالنور إذن كلمة تعني أكثر مما نشعر من أنها ضوء يكشف لأعيننا غشاء الظلمة عن المراتب ، وإنما هي قوام كلي يتقوم به الوجود ، وتنبثق عنه جزئيات تتقوم بها أجزاء هذا الوجود ، ولهذا عبر الله تعالى عن ذاته بأنه نور السموات والأرض »

بقي شيء يجب أن يقال تعقيباً على قول الإمام في الكلمة الثانية المروية عن « مجمع البحرين » وهو قوله : طول كل عمود مسيرة مائتين وخمسين عاماً في السماء ولعل القارئ ، إذا رجع إلى أقوال علماء الفلك في تقدير المسافات بين الشمس وبين الكواكب التي تدور في فلكها ، لعله يعثر على تقرير المسافة التي ذكرها الإمام بين النجوم وبين أقطابها التي تدور حولها من الشمس .

الله

نَحْنُ قَدَرْنَا يَتَنَكَّمُ الْمَوْتِ . وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ،
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ، وَنُنَشِّئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ

ان هذه الكلمات « لا تعلمون » ولا يعلمون ، ولو يعلمون « التي يحتم بها الوحي الكريم كثيراً من الآيات ، حافلة بالأعجاز فيما تشير إليه من علوم كقوله عز من قائل : ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » وقوله : مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون » وسياقى الكشف عن أسرار كل منها « أقول : إن هذه الكلمة حافلة بالإعجاز وتشير هنا إلى التطوير والتحويل وكلا هذين كان ولا يزال هدفاً لعلوم الكيمياء في تحويل المعادن من نوع إلى نوع ، ولقد أصبح من السهل اليوم هذا التحويل بعد أن كان حليماً قبل ألف عام عندما كان عمر العقل المبدع بهذه الآيات ونبوءاتها فيمعن في العمل على تحقيقها فيفلح حيناً ويخفق أحياناً ، حتى جاء العصر الحديث فأظهر العجائب في تحقيق ما تشير إليه تلك الآية الكريمة .

ولنعد إلى الخوض في إعجاز هذه الآية بدفعها الفكر وراء الكشف والإبداع . وفيها الكثير من تصديق الإمام على إذ يقول في وصف القرآن : ان فيه علم ما مضى وما يأتي » وقد مر القول على ذلك في غير مكان من هذا الكتاب . فقد يستطيع الفكر أن يجمل تفسر هذه الآيات الثلاث بقوله مخاطباً نوع الإنسان بلسان ربه : لقد قضينا عليكم الموت ولا يسبقنا أحد في تبديل هذا الشكل الذي فطرناكم عليه وفي إنشائنا إياكم مرة أخرى بشكل آخر . ليس في طوقكم أن تعلموه . أقول : قد يستطيع الفكر إجمال القول في ذلك ويستطيع أن يضرب لذلك مثلاً في أن جبلة الإنسان كالمعدن الخام ، حديداً أو فضة أو ذهباً ينشئ الحداد والجوهرى من هذه المعادن ما يشاء مما يحتاج إليه في حياته من زينة ومتاع ، وكلما تطور الفكر في ترقية الحياة أعاد هذه المنشآت من المتاع والزينة سيرتها الأولى بالصهر معادن أولية ثم أخذ في إنشائها بأشكال أخرى ، وهكذا دواليك يحيي الإنسان ويميت هذه البلوغ من المعدن والنبات الذي خوله الله التصرف به .

في خلقه الثاني وحال دون خلقه الأول القائم على إنشاء المعدن ذاته ، فالمادة الأولى من كل شيء ، قاصرة في وجودها وعلمها ، على قدرة الخالق الأزلي الأول . قد يستطيع المفكر أن يتصرف هذا التصرف وهو يحيل فكره فيما تشير إليه تلك الآيات ، ولكنه يتقهقر وينكسر ثم يخسأ إذ يحاول الكشف عن الصورة التي ينشئها عليها المبدع الأول بعد أن يصهرنا في بوتقة الخلق والإنشاء ، ويخسأ الفكر أكثر من ذلك إذ يحاول اكتناه المعدن الخام الذي تفرعنا عنه إلى أمثالنا هذه ، واكتناه الأمثال التي سنتفرع إليها عنه مرة أو مرات أخرى في مستقبلنا ونحن نمر ونكر بن يدى حياة أزلية لا تقوى على التفكير فيما كانت منه بأكثر مما تقوى على التفكير فيما تول إليه .

فاذا صح لديك تفكير الحديد بكنهه ما تفعل ، وأنت تحيله من معدن خام إلى أرائك وسرر ، وصح لديك تفكير الذهب والفضة بكنهه ما تفعل ، وأنت تحيلها من معدن خام إلى حلل وآنية ، ثم إذا صح لديك تفكير هذه الأرائك والسرر والآنية والحلل بكنهه ما تفعل وأنت تصهرها فتعيد لها سرتها الأولى معادن خام ، لتنشئها مرة أخرى فيما لا تعلم هي ، إذا صح ذلك لديك صح إذن تفكيرنا فيما نشأ منه ونوئل إليه من أمثال وأشكال بن يدى سلطان الخالق الأول الذي يبدئ ويعيد ويحيى ويميت وينشئ ويحيل قائماً في كل ما يفعل على الوحدة بالذات ، والاستقلال في الخلق والإبداع .

فكلمة « قدرنا بينكم الموت » في الآية تعلمنا أن لكل شيء نهاية حتى يستمر التطور والتجديد ، لأن الفن الأزلي في الكون على ترق دائم لثلاث يشترك مع خالقه الأول في الخلود . فالفن خالد بكلية أى بنوعه من حيث هو فن ، ولكنه زائل بجزئيه أى بشخصية أفراده ، فالإنسان مثلاً الذى هو عنوان الفن الإلهي في دقة صنعه ، هو خالد بنوعه لأن الإنسانية لا تفنى ، وإنما الفانى جزئيه : أنا وأنت مثلاً ، وهذا الزوال الذى هو فناء الجزئ في كليته ، أحد مظاهر العظمة في الفن إذ لو جمد جزئياً لما كان للفكر الذى يبدعه روعة الخلود في عالم الروح . ولقد أشرنا في كتاب « بلاسم » إلى أن اختلاف الألوان وتطورها عريق في صقل البصر ، وإلى أن اختلاف الأصوات وتطورها عريق في تقويم السمع ،

ثم أن اختلاف الآراء والأفكار وتطورها عريق في صقل الروح « ولعل بقاء هذه الأنواع التي هي العين والأذن والفكر ، لعل بقاءها بكليتها وقف على اختلاف تطور ما نعمل فيه من حياة ، فالموت إذن ضروري لتجديد الحياة في نوع الإنسان لئلا يجمد ويركد فيفضي هذا الجمود به إلى فناء النوع الإنساني ، لأن حياة هذا النوع قائمة على تطور أجزائه ، وأما الخلود الذي يعدنا الله به في الجنة فيجب أن يهيمن عليه حياة تقوم بخلود الروح في جزئياته لا كلياته .

وكلمة « لسنا ممسوقين على أن نبذل أمثالكم » تشير إلى اعتداد الخلاق الأول بربوبيته واعتزازه بوحدايته وأن لا يسبقه أو لا يقوى على سبقه خلاق غيره ، لأنه مصدر الخلق وعلة الإبداع الأولى ، من أجل ذلك وهب الفن لمخلوقه الإنسان ناقصاً بتفاوت أجزائه ، إذ لا نرى فناً كاملاً حتى ينشأ بعده فن أكمل ، وكل الفنون ترمى إلى غاية في الكمال لا يزال العقل البشري قاصراً عن إدراكها .

ويشير ، عز وتعالى ، بقوله : وننشئكم فيما لا تعلمون « إلى ذلك النقص في إدراك الإنسان كنه الفن في خلود نوعه ، لأنه قائم فيه ، أي أن تطور الفن قائم في ذات الإنسان ، وإذا قام الشيء في ذاتك أي كان من عناصرك التي تقوم أنت بها ، استحال عليك إدراك تعليله حتى تتجرد عنه ، فيمكنك أن تعلل أو تدرك علة التطور في نوع الحديد والخشب لأنك لم تقوم به ، ولأنه دونك في شرف الذات وتقومها ، وكل ما انحدر عنك في قوامه وكنهه كان مستجيباً لك في اكتنازه والهيمنة عليه ، وأما ما يعلو عنك أو يساويك فيعجزك أن تفكر فيه أو أن تصل إلى كنهه ، فعالمك والعوالم التي تتصورها بعقلك كالملائكة والآلهة ، هو أبعد العوالم عنك تحليلاً وتعليلاً .

أما العوالم التي هي دونك كالنبات والجماد فتستطيع أن تجيل فيها عقلك ، ثم تعلل وتحلل عناصرها بنوعك لا بشخصك ، لأن النوع الإنساني أثبت في مجال العصور هيمنته على ما دونه من العوالم كلياً وإن قصر عنها جزئياً ، فما من معجز علمي أو فني قام بكليه على فكر إنسان جزئي ، وإنما قام ذلك المعجز على نوع الفكر الإنساني موزعاً على كثير من أفراد الإنسان ، فكل علم

أو فن قام في بروزه وظهوره على أدمغة أناسي قد تبلغ الملايين في مجاهل ومعالم التاريخ .

فأله ، تعالت عظمته ، يعلمنا بقوله « وننشئكم فيما لا تعلمون » ان علمنا لا يزال ناقصاً إذ نعلم تطور ما هو دوننا ونجهل تطور أنفسنا فيما نستقبل كما نجهل أصلنا الذي تطورنا عنه فيما مر ، ثم يعلمنا أن كل شيء قابل للتطور والإشياء من جديد ، إما من حسن إلى أحسن أو من سيئ إلى أسوأ ، فهو يعدنا ويهددنا بهذه الكلمة ، كما تعد وتهدد تلميذك وأنت تعطيه الأمثلة وتفرض عليه إدراكها ، فاما أن يجيدها فتصعد به إلى صف أعلى ، وإما أن يسيئها فتهبط به إلى صف أدنى .

وبذلك يشير إلى التربية المفروضة علينا في تصفية نفوسنا بين يدي الرقي ، فان الدين إنما جاء لفرض هذه التربية ، نبدأها بتطويع النفس على محاسن الحياة ، وطبعها بطابع الإخلاص للحق تدرجاً حتى ينتهي هذا التطويع للأفراد ، بترقية النوع وإمكان العصمة بعد ذلك للفرد عن ترديه في أخلاق العوالم الدنيا ، وهي العوالم التي نتعالى عنها بفضل العقل القائم على ذلك التطويع وهذا الطبع المعبر عنهما بالتربية .

مَحَرَّ جَنَّبُوا مَسَاجِدَ كُمُ الصَّبِيَّةِ وَالْمَجَانِينِ

كتبت فصولا مطولة في كتيبي « وحى الرافدين » « ومع الناس » عن مبلغ ما يسيء به المسلم الشيعي إلى إسلامه في مساجده الكبرى القائمة في جوار قبور أهل البيت على وأبنائه على ضفاف دجلة والفرات تحت سماء العراق في النجف حيث يرقد الإمام على ، وفي كربلاء حيث يرقد ولده الشهيد الحسين وأهل بيته ، وفي الكاظمية حيث يرقد الإمامان على الرضا ومحمد الجواد من عترة الإمام الكاظم عليهم جميعاً صلوات الله وتسليمه .

أقول : لقد كتبت فصولا مطولة في النقمة على الشيعة المخذلين بهذه المساجد والقائمين لله فيها بين ركوع وسجود أيامهم ولياليهم ، ثم يغفلون عن الصبية والمجانين الذين يعيشون فساداً في جوار أئمتهم وبين جدران هذه المساجد الحافلة بعلامكة العرش ، ولقد كنت أغشى هذه المساجد مع الفجر فأجد الصبية والمجانين والجهلة يتغيطون فيها دون أن يغضب الله زائر لها ومهيمن عليها .

ولقد كادت تقوم قيامة نكراء بيني وبين السدنة في هذه الأضرحة ، تعرضت فيها لخطر عظيم ، ولكنني إذ كنت واثقاً من أن هذا النداء على تلك المساوئ واجب على كل متحسس أوتى حظاً من الشعور الحي في أمة محمد ، وظللت أقيم النكير بلساني وقلمي على أولئك السدنة الذين أثروا وفسقوا ثم أورثوا أعقابهم الثروة والفسق وسيورث هؤلاء الأعقاب أخلافهم تلك السبة إلى يوم القيمة بفضل ما يتقل بطونهم وخزائنهم من نذور هذه الأضرحة التي تبلغ ملايين الدنانير على رأس كل عام .

وعيناً كنت أحاول فيما أكتب وأخطب من حمل السدنة والفقهاء وأولى الأمر من الحاكمين على العناية بنظافة هذه المساجد وتنزيهاها عن عبث الجهال وقذارة الصبية والمجانين ، كما حاولت عيناً أكثر إذ دعوت لتنزيه شوارع مدينة النجف من قاذورة أهلها الذين لا تعرف بيوتهم المراحيض إلا في الأزقة ،

والنجف هذه تكاد تكون عاصمة ستين مليوناً من المسلمين الشيعة ، وإليها تهوى أفئدة المسلمين ، ويقصدها للسياحة كثير من الغربيين لمشاهدة ما يعلو ضريح الإمام علي من غرائب الفن في هندسة البناء ، وما يشتمل عليه من عجائب التحف ونفائس الجواهر .

ولقد تحدث إلى خبير من أهل النجف أن في خزانة الإمام من نفيس هذه التحف ما يبلغ ثمنه عشرات الملايين من الدنانير الذهب محجور عليها أن ترى الشمس وأن تراها الأعين ، بينما تضم مدينة النجف التي تضم جسد الإمام علي ، ستين من كل مائة نفس مرضى بالسل فقط وليس فيها مستشفى ولا مستوصف ، فهل يرضى الإمام عن هذه البدع وهذه الدنيا الحافلة بزخرف الحياة وطرائفها بعد موته وقد كان أبعد ما يكون عنها في حياته ؟؟

وهكذا زرت قبيل وضع هذا الكتاب مدينة الرسول محمد صلوات الله عليه ، ودخلت حرمة القدسي للصلاة فاذا الوضع في مسجده هو عين الوضع في مسجد أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب ، صبية يعثون ويفسلون على مرأى من المصلين وفي رعايات أبائهم وأمهاتهم ، ولقد تغوط أحدهم في المسجد وأنا أراه وكأن لم يفعل أمام أبيه ومن حوله إلا معتادا ، ولكنني خنقت وغضبت لله فخرجت وحبرت كلمة بعثت بها لإمام الحرم أذكره فيها بالحديث الشريف : جنبوا مساجدكم صبيتكم ومجانينكم » ورجوت منه أن يستطرد إليه في خطبة الجمعة فان أفاد وإلا فليستعن على آباء الصبية بالشرطة المنبثة في زوايا المسجد وعلى أبوابه لحماية الأمن ورعاية النظام .

ولبثت أنتظر يوم الجمعة ، وأنا موقن بأنه سيفعل لأن فعله هذا من صميم عمله وفي صميم الإيمان ، ولشد ما كان عجبي بالغاً إذ سمعته يوم الجمعة مخاطب في تشديد النكير على زائري الحرم النبوي أيام رجب لأن ذلك غير مشروع في عهد الرسول ، وعلمت من ذلك أنه يعرض بمن كتب له يستعديه على الصبية والمجانين الذين يعثون في المسجد ، وقلت لمن حولى ، وقد أعلمتهم بكتابتي له ورجائي منه ، قلت إذ ذاك : إن زيارة رجب وهو الشهر الذي عرج فيه رسول الله إلى السماء ليأتينا بالوحي ، ان هذه الزيارة بدعة وأما خراء الصبية

والمجانين في الحرم فهو مباح إلى حد يدعى له الإمام فلا يستجيب دعاء الداعي ، والله إنني لشاكبه إلى أمير المدينة فإن لم يستجب شكوته إلى رسول الله الذي هو مشرف على كل ما يحدث بنا من حياة .

وذهبت من غدى إلى أمير المدينة ، وأعرفه الصالح المصلح ، وكان معي صديقاي علي وعثمان حافظ أو أحدهما على ما أذكر ، ثم قصصت عليه ما رأيت من أحداث الصبية في المسجد على مرأى منا وذكرته له الحديث الشريف ، فقال : سأرفع هذا إلى مجلس العلماء ويكون مرد ذلك إليهم وتبعته عليهم .

ولكن العلماء لم يجيبوا ، والأمير لم ينكر عليهم صمهم وهم يعلمون علم اليقين أن محمداً لم يشرع لهم الدين إلا وفي صميمه الدعوة إلى الحق وإجابة الداعي له .

أفلم يدخل محمداً مسجده يوماً ما ، والمسجد لم يكن أكثر من تراب وحصى ، فرأى بصقة إنسان فثارت حفيظته فعمد إلى حفر الأرض ووارى النخامة وهو مغضب محقق يقول : إن كفارتها دفنها؟؟ فإذا غضب محمد لنخامة في أرض مسجده الذي لا تفارقه ملائكة السماء ، أفلا يغضب لتغوط الصبية والمجانين في المسجد نفسه على مرأى من إمام المسجد والمصلين فيه؟؟ ان هؤلاء الصبية يتغوطون ويبولون في مسجد رسول الله كل يوم دون أن يلقوا زجراً من الحرس المنبئين في المسجد وهم يرون هذا المنكر ويأتمرون بأمر إمام المسجد فماذا يقول هذا الإمام يوم يلقي محمداً وهو شهيد عليه يسأله عن مبلغ حرصه على حرمة محمد في مسجد محمد؟؟؟

ذلك ما أحبيت أن أذكره في سياق الحديث الذي هو مصلح هذا البحث وأنا واثق من أن تقدم المسلمين رهن بأمور أهونها عند الله والعالم هذا الذي نراه من عبث البنين وغفلة الآباء عن رسالة محمد .

عِلْمُ الْعَالَمِ مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلْمٌ وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ

يشير الإمام بكلمته هذه إلى المثل الأعلى في الإنسان والمعبر عنه في الشرق بالإنسان الكامل وفي الغرب بالسوبرمان ، ففي هذه الكلمة تحديد للإنسان الكامل ، وقبل أن نكشف عن هذا التحديد ينبغي لنا أن نقول شيئاً نعهد به لهذا الكشف فنقول :

ان لكل أمة لسانا ، وكل لسان له لغتان أولاهما لغة العلم ، وقد يعبر عنها بلغة العقل أو المنطق أو الحقيقة ، والثانية لغة الأدب ، ويعبر عنها أحيانا بلغة العواطف ولغة البيان ولغة المجاز ، فاللسان ، بلغة العلم والحقيقة ، هو خاص بأهله ، وهو بلغة الأدب والعاطفة ، عام يتجاوز أهله إلى غيرهم من أمم العالم . فكل لغة من لغات العالم قسمان قسم حقيقي يختص بأهله ويتناول التعبير عما وضعت له تلك اللغة عينا ، وقسم مجازي عام يتناول التعبير عما تشير إليه تلك اللغة بلوازمها ومقتضياتها ، وسيتوضح ذلك فيما نسوقه من أمثال .

ان الأدب الذي هو ترجان العواطف ، هو اللغة الجامعة لبني الإنسان ، بخلاف العلم الذي يحده الكلام في إعرابه وتصريفه واشتقاقه ، فانه لغة أمة أو شعب تواطأ على التخاطب والتفاهم بتلك اللغة ، لذلك كان الأدب أسمى من العلم إذ كان لغة الإنسان الأزلية في الوجود بينما نرى العلوم التي هي لغة العقل دونه في السمو إذ كانت لغة الإنسان المتحضر فقط دونما حس تحقق به الروح في عالم الإنسان باديه وحاضره وأبيضه وأسوده .

لذلك كان لا فرق بين بني الإنسان في مثار العواطف وبناء ثورتها على انفعالات النفوس ، بينما نجد هذه الأفراد تختلف بعقولها تحت أحداث الزمن ، لأن العقل الذي هو مصدر العلوم ، هو وليد المجتمع ، والعواطف التي هي مصدر الفنون ، هي وليدة الطبيعة ، من أجل ذلك كان الفن أخلد من العلم ، ومن شاء الوقوف على بحث هذه النظرية بشكل أوسع فليرجع إلى كتابنا «بلاسم»

أوردت هذه المقدمة لأصل بالقارئ إلى أن اللغة ليست قاصرة على الحقيقة وإنما تتعداها إلى المجاز القائم على الخيال الذي يتقوم به الأدب ، فاللغة إذن حقيقة ومجاز ، والمجاز وحده هو الأفق الذي يتسع للفكر فوق اتساع الحقيقة له .

فالحقيقة في قول الإمام لا تعطي لفظ العالم أكثر من أنه لا بس صفة العلم عمل أم لم يعمل ، وكان عمله موافقاً علمه أم لم يكن ، كما أن الحقيقة في من يعمل أن يطلق عليه لفظ العامل لا العالم سواء علم بما يعمل أم لم يعلم ، هذه حقيقة المعنى اللغوي لتلك الجملة . وأما مجاز هذا المعنى فأبعد من ذلك وأوسع ، فإن الإمام أراد أن يشير إلى شرف العلم وما يجب أن يترتب عليه من نتائج وذلك في صميم اللازم له واللاصق به ، ولهذا نجد الكلمة المأثورة : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، قائمة بروعتها في نفس كل متأدب .

فالبيان في قول الإمام عظيم ، إذ شاء ، رضوان الله عليه ، أن يجعل في حدود العلم نتائجه ولوازمه وأهدافه ، فالبيان فيه أبعد من أن يشير إلى حقيقة معناه الذي لا يقوم على حدة الفكر وقوة العارضة في بناء الأدب الرفيع ، البيان في هذه الجملة إذ يحقق : ان المرء حيث يعلم غير خليق باطلاق صفة العلم عليه حتى يعمل به ثم يكون عمله وفق علمه حرصاً على شرف العلم الذي هو سلاح العالم يقيه من التردى والانهيار أقول : ان البيان في هذه الجملة البالغة يعلمنا فنوناً من السمو في الأدب يذهب معها الفكر مذاهب شتى في مجال العبقريّة والخلود .

ومن هذا القبيل في مجال البيان القول المأثور : لا صلاة لمن جاره المسجد إلا في المسجد ، فان صلاة المرء في بيته وهو جار للمسجد ، لا يخرجها في حقيقة اللغة عن كونها صلاة ، ولكن الشارع أراد بها المجاز الذي هو أبلغ قسمي لغة العرب القائمة في بيانها الرائع وأسلوبها الحلي على المجاز أكثر مما تقوم على الحقيقة ، إذ جعل هذا الشارع البصير كمال الصلاة وشرفها مأخوذاً في مفهوم حقيقتها ، إشعاراً بسمو الغاية منها .

ومن هذا القبيل أيضاً ما ينسب إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب من قوله : الرجال ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لارجل ،

فأما الرجل الرجل فهو من كان ذا عقل واستشار ذوى العقول ، وأما نصف الرجل فهو من كان ذا عقل واستبد بعقله ، وأما اللارجل فهو من ضعف عقله ولم يستشر ذوى العقول « ففى مجمل هذه الكلمة وتفصيلها كثير من الأدب القائم على روعة البيان ، وتكاد تتضاءل الحقيقة اللغوية فيه إلى جنب المجاز .

فليس الإمام بخارج على اللغة إذ يحدد معنى العالم بأنه الرجل الكامل فى فكره وقوله وعمله ، أى أنه يعلم ويعمل ثم يحسن تطبيق العلم على العمل ، لأنه أخذ العمل فى مفهوم العلم ثم جعل الإحكام والإتقان فى مفهوم العمل ، فجرد العلم فى تحديده عن التصور المطلق وجعله مركباً من ثلاثة : التصور والصورة ثم التصوير ، ولا يخفى على القارئ ما فى هذه الثلاثة من صلات تربط بعضها ببعض الآخر ، وهذا داخل فى صميم اللغة من قسمها المجاز الذى هو تصرف بالوضع لا من الحقيقة التى هى فى اللغة وضع بغير تصرف .

فدلالة شجاع مثلاً على الرجل الجرى القوى كدلالة لفظ الباسل عليه ، ولكن الباسل بمعناه الحقيقى هو الكريه المنظر وإنما أطلق على الشجاع لأن منظره كريه لمن يارزه ، فهو فى اللغة مجاز من قبيل إطلاق اللازم الذى هو الكريه هنا ، وإرادة المألوم الذى هو الشجاع لأن من لوازم الشجاعة الكره القائم عليها بين المتنافسين فى فنون الحرب .

ومن هذا القبيل روعة البيان فى قوله تعالى : وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحه « لأن التسبيح فى الحقيقة إنما يطلق على العاقل المتكلم ، كما نفهم ، وأما إطلاقه على الجماد والنبات فهو من قبيل المجاز فى اللغة ، وتوضيح ذلك : أن الزهرة الجميلة ، إذ تروى بلونها وعطرها ، تضطرك لأن تقول : تبارك الله ، والبدعة الحارقة فى الطبيعة إذ تروى بشوذاها ، تضطرك لأن تقول : سبحان الله ، والآية الخيفة فى أحداث الأرض والسماء إذ تروى بقوتها ، تضطرك لأن تقول : أعوذ بالله ، فلست إذ ذاك أنت المسيح والبارك والمستعبد ، ولكن هذه الأشياء هى فاعلة ذلك فى نفسك ومعربة عنه بلسانك . فتخريج الآية الكريمة على هذا الوجه ليس بخارج عن قواعد اللغة ، وإنما

- ٣٢١ -

هو في صميمها لا من حيث وضعها العيني المعبر عنه بالحقيقة ، ولكن من حيث وضعها البياني المعبر عنه بالمجاز إذ أسند التسييح الذي هو معلول فيك ، إلى علته التي هي الجمال في الزهرة ، وإطلاق المعلول على علته فصل قائم بذاته في علم البيان الذي هو أصيل شائع في لغة العرب .

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ
أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ،
تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

لنفسك في صدر هذا البحث ، أرضنا الخاصة بنا نحن نبات الإنسان ،
ألا وهو الرحم ، ولنفكر كيف نبت فيه ٢٢ كيف تتكون ثم نتلون ٢٢ فالرحم
قطعة واحدة من الأرض لا قطع متجاوزة فيما نحس ، نبذر فيه زرعنا المعهود
ثم يسقى بماء واحد فينشأ مختلف اللون والشكل والعقل .

فالتوائم التي تولد من رحم واحدة من اثنين إلى خمسة في الإنسان ، ومن
خسة إلى عشرة في الحيوان الأليف ، ثم من اثنين إلى مآت أو آلاف في بعض
الحشرات والحشاش والهوام مما ندرك كالجراد والنحل والنمل وما لا ندرك
كالحسوس بالعقل من وراء العلم .

هذه التوائم التي يينرها في الرحم شخص واحد من نوع واحد نشأ في
صلب واحد ، ثم تغذيها ذات الرحم من ماء واحد وتنشأ بعد ذلك مختلفة اللون
والشكل ، ثم نراها بعد ذلك مختلفة اللون والفكر ، فكل من هذه التوائم يحمل
في كيانه ألوان الأصول التي تحدر منها منذ الجلد الأول حتى الأب الأخير ،
يحمل هذه الألوان في خلقه وخلقه ، حتى إذا غادر الأرض التي نبت فيها رأيناه
يختلف عن أخيه بكلا لونه المادى والمعنوى فكيف يكون ذلك ٢٢

ان البيرة التي يلقيها الذكر في رحم الأنثى قد تحمل الملايين من جراثيم الحياة
الخاصة به ، ولكن أقوى هذه الجراثيم على البقاء في هذه الرحم هو الذي يملك
الحياة فيه ثم يتلاشى ما ضعف من هذه الملايين عن تنازع البقاء ويتحول إلى عالم

آخر ، أما سر هذه القوة التي أمكنت بعض الجراثيم من البقاء دون البعض الآخر فيدق على أفهامنا تحليله وتعليله .

وهكذا نجد بعد احتضان الرحم هذه الجرثومة الفضة أو الجراثيم التوائم ، أنها تحمل خصائص الآباء والأجداد منذ الأزل القائمة فيه حتى نشأتها الأولى في الرحم ، ثم نرى أقوى هذه الخصائص التي نعر عنها بالألوان تارة وبالصفات أخرى ، نرى أقواها على البقاء هو الذي يستأثر بالحياة في الوليد الناشئ وهو يترعرع في الرحم قبل خروجه ، وتدق أفهامنا كذلك عن سر تلك القوة التي أمكنت بعض الصفات دون البعض الآخر على البقاء في الناشئ .

لهذا نرى بعض التوائم يختلف عن أخيه بعد نشأته في خلقه وخلقه أو في أكثر هذين العاملين على تكوينه ، بينما نجد هذين التوائمين أو هذه التوائم متحدة النوع في البذرة الأولى ومتحدة الأرض في المنبت ثم هي متحدة الغذاء بالماء الذي يسقيها في ظلام الرحم ، فما هو السر في ذلك ؟؟

وهكذا نصل من بحث الحياة الخاصة بنا إلى بحث الحياة في عالم النبات الذي يشير إليه المكون الأول في قوله تبارك وتعالى : ونفضل بعضه على بعض في الأكل ، وفي الآية عظة جديرة بتسفيه الإنسان إذا مر بها ، وهو يعقل ، ثم لم يتأثر بروعتها وهي تشير إلى عظمة الخالق في تكوين هذا العالم وتكوينه ، وأعنى به عالم النبات المعجز بين يدي ما يسود الحياة من عظام وعبر لا حصر لها ولا حد ، وأعظم ما تشتمل عليه الآية من معجز هو ضخامة المعنى وسمو البلاغة في الإفصاح عنه بأبين ما يؤديه القول ، وأوضح ما يشير إليه .

انك لتحمل بينك الواحدة قبضة من خليط هذه البلور ، نجما وشجراً ، ثم تنثرها في بقعة من الأرض ويتعهلها الله أو تتعهلها أنت بالماء الذي هو مصدر الحياة ، فإذا بك تشرف منها بعد حين ، على خليط من الأشكال والألوان ، ثم تراها بعد حين آخر تنمر خليطاً من الأشكال والألوان ، وتجنح منها خليطاً من الأطعمة والأذواق .

قطعة من الأرض لا قطع تغرس فيها التين واللوز والمشمش مثلاً ، وتزرع فيها الشقيق والبنفسج والرجس ، فيخرج ذلك الشجر وهذا النجم مختلف الشكل

واللون والطعم ، فمن أين جاء هذا الخلاف بين ذلك الطلع في شكله ولونه وطعمه والتراب الذى ينبت فيه واحد ، والماء الذى يسقيه واحد ثم نرى أن الشمس التى تشرق عليه واحدة ، والأفق الذى يحدق به واحد ؟؟ كيف احمر هذا الشقيق ، واسمر ذلك البنفسج ، وابيض هذا النرجس ، ثم كيف استدار ذلك التين واستطال ذلك الموز وتدل هذا الشمس ، وكيف كان بعضه حلواً والبعض مراً وبعضه الآخر دسماً ، وهكذا نستطيع أن نفرق بين الزهر الأحمر أو الأصفر أو الأبيض أو الأزرق بالشدة والضعف فنه الأحمر الناصع والأصفر الفاقع والأبيض الساطع ، ومنه الفاتح ومنه المزيج على أنواع في المزج بين لون ولون وشكل وشكل .

فهل السر في هذا التلوين وذلك التكوين من التراب أم من الشمس أم من الماء ؟؟ وإذا كانت الشمس تسبخ ألوانها السبعة أو توزعها على النبات فماذا يفعل التراب وماذا يصنع الماء ؟؟ وأى هذه العناصر يبدع الشكل وينوعه ويعلو بالشجر ويهبط بالنجم ، ثم ينوع الطعم ويؤلف بين الأذواق والأبصار في تذوق الطعم وتمييزه ، وفي تبين اللون وتحديد ٢٢ تبارك المبدع الأول الذى أخرج من التراب والماء في النبات والحيوان والجماد ، شكلاً ولوناً يتقوم به البصر وطعماً يتقوم به الذوق ، وريحاً يتقوم به الشم ، ثم أبدع في كل ذلك تداخلا وتفاوتاً وتناسقاً يتقوم به العقل .

ان اللون إذا توحد زاغ البصر ، والطعم إذا توحد فسد الذوق ، والريح إذا توحد بطل الشم ، وكان من وراء ذلك الاتحاد ركود الفكر وجمود العقل ، وهكذا نجد أن في اختلاف الأصوات صقلاً للسمع وتقويماً له ولو توحد الصوت لساد الصمم ، فكما يصقل اختلاف اللون والشكل عنصر البصر كذلك نجد أن اختلاف الطعم والريح يصقل الذوق والشم ، ثم نجد بعد ذلك كله تقويماً للعقل وصقلاً للفكر في تمازج هذه العناصر وتمييزها واكتناها ما صدرت عنه وآلت إليه فسبحان الله الذى يقف عند الخوض في أسرار خلقه كل فكر ، ويعجز عن تبين واكتناها تلك الأسرار كل عقل مخلوق .

محمّد

إِذَا أَحْرَزْتَ التَّقْوَى قُوَّتَهَا اطْمَأْنَنْتَ = قِيلَ : وَمَا قُوَّتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْرِفَ اللَّهَ

كنت أيام دراستي للفقہ فی النجف الأشرف ، أغشى مسجد الإمام علی علیه السلام مساء کل يوم للصلاة وکنت أرى أحياناً أحد المصلين إلى جنبي معروفاً بصلاحه وتقواه ، كان يقف للدخول فی الصلاة فيرفع يديه لتكبير الاحرام فأسمعه يقول : الله .. ال .. ال .. الله .. الله .. الله .. الله .. أک .. أک .. ثم يلتفت يمينا وشمالا قبل أن يتم ، وهو يقول زيد عمرو .. زيد عمرو .. ويجلس لحظات ثم يقف لينشئ صلاته من جديد وعمضى فی قوله مكبراً : الله .. الله ... الله أک .. أک .. الله أكبر .. الله أک .. الله أک .. بررر ... ثم يعود فيفسد هذه التكبيرة متلفئاً وهو يقول : زيد عمرو .. زيد عمرو ..

ثم يعود بعد هذا كله إلى الجلوس وقد كظله العرق وهو مجهود ، ولعله أحياناً يبکی ثم مخاطب نفسه قائلاً : يا ويلي من شقائي وسوء أعمالي ، واحيائي من ربي ، كيف أقابله بأثامي ؟؟ وكيف أتوسم الخير بين يديه من وراء هذه الآثام ؟؟ ثم يقف فيعود سيرته فی استئناف الصلاة ، وينتهي به الأمر إلى ما كان من قبل حتى نخرج من صلاتنا ونتركه فی وساوسه .

سألت عن شأن هذا الرجل فقيل لي أنه موسوس فی الصلاة ، كثير الشك فيها ، قد يقطع الساعة أو الساعتين لانهائه من تكبير الإحرام والدخول فی الصلاة ، وقد يفعل ذلك مردداً ومكرراً فی كل آية أو كلمة كما ترى ، وقد لا يقبل نصيحة أحد فی أن يصلي كيفما اتفق له أن يصلي والله أكبر من أن يعاقبه علی سهوه ونسيانه فلم يستجب للناصح ولعل هذا الناصح من المراجع فی الفقہ والأصول .

وأعرف شخصاً آخر كان يجلس للوضوء عند الظهرة ويستمر فيه ساعة ولعله يزيد علی الساعة وهو يكفي الماء علی فیه ورجليه ، وكلما أفرغ أبريقاً صاحبت به زوجته فرجها أبريقاً آخر وهكذا حتى يأتي وقت العصر فيصلی الفرضين معاً ،

وقد سأله مرة عن سبب هذا الاسترسال في غسل الفم والوجه والرجل ، فقال :
النظافة من الإيمان ...

وأعرف رجلاً فقيهاً تقياً إمام جماعة يجلس للوضوء عند الظهر والمصلون بين يديه ينتظرون فراغه للشروع في الصلاة فيشرع في التحدث إليهم وهو في مجلس وضوئه والماء بين يديه فيقطع نصف ساعة أو ساعة ثم يتوجه إلى المحراب فيؤم الناس أكثر من ساعة للفرص الواحد ، إذ يقرأ في كل ركعة سورة كبيرة من أمهات السور في القرآن كسورة يس أو العنكبوت مرتلاً آياتها ، وقد يعيد بعض الآيات لعدة قرات ، وأراه بعد الصلاة مزهواً بما فعل ، وكل من هؤلاء المصلين الثلاثة يعتم بعمامة خضراء وهي شعار من ينتمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل منهم فقيه .

وأعرف رجلاً فقيهاً تقياً كان يسأل ابنه عند التسبيح في قوله : سبحان الله كلما سبح الله شيئاً ... يسأل ابنه ، وابنه شاعر متحرر ، عن معنى « شيئاً » في الجملة السابقة فيجيبه : بأنها أحد الأشياء التي تسبح بحمد ربها ، فيقول له أبوه : اسمع وافهم أن « شيئاً » هذه اسم الملك في السماء له ثلاثون ألف رأس في كل رأس ثلاثون ألف فم ، وفي كل فم ثلاثون ألف لسان ولا عمل له إلا التسبيح ، أفهمت ؟؟

وهكذا لو أردنا أن نعدد أعمال كثير من المتقين بغير قوت يغذون به تقواهم لضاق مجال البحث بما نرى إليه في عقب هذه الأمثال ، ففيمن يتقى الله حقاً ثم لا يفقه الله الذي يتقيه كثير من العبرة والعظة لمن يفقه الله حقاً ولا يتقيه ، أعرف أناساً غر قليل إذا خطبوا أو كتبوا في ذات الحق تعالى يصورونه للسامع والقارئ حتى يكاد يريانه رأي العين ، ولكن هذا الخطيب أو الكاتب لا يتورع إذا خلا ونفسه من أن يستجيب لشيطانه ، إما لضعف إرادته عن أن يعصم نفسه أو لشدة طمعه في عفو ربه .

فالتقوى الصالحة هي ما كانت مقرونة بالعلم في ذات الله ، فالتقوى ليكون مطمئناً إلى تقواه وأنه على حق في التوجه بها إلى الله ، يجب أن يعرف

الله الذى من أجله يقوم ليله ويصوم نهاره فى عبادته ، والذى من أجله يكفى الناس شر يده ولسانه فى معاملاته ، فان لم يعرف ربه كانت تقواه قلقة غير مطمئنة إلى ثبات ، وكان هو قلقاً بها غير مطمئن إلى حياة ، فليست حياة الإنسان قائمة على الطعام والشراب وغيرهما من وسائل العيش ، وإنما الحياة قبل هذا كله ، هى تفكير الإنسان فى وجوده ومصدره ومصيره ثم الإخلاص فى هذا التفكير لينتهى به إلى اكتناه ذاته المفضى إلى اكتناه ربه وذلك هو العنصر الأول فى تقويم تقواه المطمئنة ، مضافاً إلى العنصر الثانى الذى هو الإيمان ، فصحة الإيمان وصحة التفكير هما أساس الدين الذى هو قوت التقوى .

فالدين ليس مجرد إيمان ، وإنما هو علم وإيمان ، على أن يكون العلم مأخوذاً فى مفهومه العمل ، وأن يكون العمل مأخوذاً فى مفهومه موافقة العلم كما قال الإمام على : العالم هو من عمل بما علم ووافق عمله علمه ، فكم جبر على الدين من نكبات هؤلاء الذين حسبوا أن الدين تقوى بغير قوت ، فانصرفوا إلى تعزيزه فى نفوسهم حتى تقوست ظهورهم من الركوع وخشنت جباههم من السجود ثم إذا بلوهم فى أمر وجلتهم لا يعرفون من يتوجهون إليه فى ركوعهم وسجودهم ، وتملكهم الغرور بعد ذلك فلم يروا بأساً من أن يفرضوا نفوسهم على الأمة أئمة يعلمون ويوجهون حتى حال تزمهم وتعتهم دون المصلحين ممن عرفوا الله أن يدعوا إليه من وراء العلم .

ولقد حذر النبي فى كثير من مواقفه بين أصحابه من أن يحسبوا الدين عبادة محضة دون أن يشفعها العابد بالعمل الصالح والعلم القائم على فقه الحياة إذ قال : المؤمن من كان بصيراً فى حياته ، وقوله : مجلس العالم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وقوله من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فان الباحث فى هذه الكلمات يصل إلى أن الدين قائم على العلم فوق ما يقوم على التقوى ، وفى هذه الكلمات إشارة إلى أن العلم المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ليس قاصراً على الفقه وإنما يتجاوزه إلى علم الاجتماع بالكلمة الأولى وإلى علم النفس بالكلمة الأخيرة ثم إلى مطلق العلم بالكلمة الوسطى .

ولقد جاء فى السير أن النبي قال لمن بالغ فى مجلسه بعبادة عابد يقوته الناس :

ان الذى يقوته أشد عبادة منه ، ولم يعبر النبي عليه السلام عن الدين بأنه تقوى خالصة أو عبادة محضة ، وإنما عبر عنه بكلمات كثيرة تشعرنا بأن الدين هو الحياة العملية التى نحيها إذ قال : الدين المعاملة وقال ، المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، المسلم من أحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه ، وقال : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » فالدين فى قول محمد وما أنزل عليه، عمل مشفوع بتقوى الله ، وهذا العمل هو الحياة ، والحياة تأبى أن تجصمنا من الموت إلا بالعلم ، والعلم يأبى أن يضمن لنا الحياة إلا من وراء البحث عن الله .

عَلَى لَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطْرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبُؤْسَاءِ فَسِدًّا

يذكر لي السيد علي محي الدين ، من مهاجرين العرب إلى أمريكا أيام وجودي هناك ، يقول : لقد كنا أيام هجرتنا الأولى إلى هذه الديار ، مستضعفين لجهلنا واستطالة النصارى العرب علينا وهم مواطنونا قبل الهجرة ، سيما أيام الحرب العالمية الأولى ، إذ كنا ننتصر لتركيا بدافع الإسلام ، وكان هؤلاء ينتصرون لفرنسا بدافع المسيحية ، وكانوا يحملون علينا في صحفهم حملات هوجاء مستخفين بنا وبديننا ، وليس لنا إذ ذاك حول ولا طول نرد بهما كيدهم لفرط الجهل فينا وقلة المال بين أيدينا .

وبإشاء الله أن يرسل إلينا شاباً سورياً من عمان يدعى محمد المحيسن رأيناه مثقفاً يتوقد غيرة على دينه وقوميته فأمددناه بالمال الذي يضمن حياته ، وأما سكنه ، ثم أنشأنا صندوقاً لتغذية الصحف التي تفتح أنهارها في وجه دعايتنا ، ومثني المحيسن بقلمه الجبار ، ولما انتهت الحرب لم يبق حاجة إلى الدعاية ، واستمر هذا الشاب في عمله الأدبي يخدم الجالية بلسانه وقلمه ، والجالية تتعاهده بإحسانها إليه وعطفها عليه .

وكان كلما وفد على نوريك تاجر من الداخل يبادره السيد المحيسن بعرض خدماته عليه ، وينشر اسمه في الصحف ابتغاء العيش ، وكنا جميعاً في عوننا لأنه المثقف الوحيد الذي نفاخر به غربنا ، وقد كان أدبه يدر عليه المال الوفير ، فيصل إنتاجه أحياناً إلى خمسمائة دولار في الشهر بينما لا يفتقر المرء يومذاك إلى أكثر من خمسين دولاراً لتأمين حياته في الشهر ، ثم يقول السيد علي محي الدين : ولكنني كنت ألحظ عليه أحياناً مظاهر البؤس والشقاء من ثياب رثة ، وحذاء بال ، ووجه كالح متغضن ، بينما أراه في بعض الأحيان على خير مظهر من جدلة الثوب والحذاء ونظارة الوجه ، ثم أسمع عنه حيناً آخر أنه يجلس في فندق نوريك الذي يقتضى من المسافر ما يعجز أحدنا عنه أجر ليلة واحدة

- ٣٣٠ -

لطعامه ومنامه ، فكنت أعجب لسيرة هذا الرجل الغريب الأطوار .
وينزل على وقتاً ما ، ضيوف أثرياء وإذا به يأتيني من أجلهم ، وهو رث
الثياب كاسف الوجه ، فعرفتهم به وأغدقوا عليه ما طمأنني باستغنائه وتحسين
حاله شهراً ، وما كان أشد عجبى إذ دخل على بعد أيام قليلة على حالته الرثة ،
فصدمته وقرعته ثم قلت له : مالك ؟؟ ألم أساعدك بالأمس من ضيوفي بمائتي
دولار ، وهذه تضمن لك حسن الحال أشهراً ، فما بالك تعود إلى اليوم على هذا
الشكل المزرى ؟؟ »

فضحك وقال : اسمع يا علي ، أنا لست ممن يدخرون المال ، ولا ممن
يحسبون له حساباً ، ولكني أحب أن أعيش كل شهر أو كل عام ، يوماً واحداً
في شخص ملك أو أمير ، فأنا كما تراني شقياً بائساً ما كانت يدي صفرأ من المال ،
حتى إذا أحرزته غبرت حالي بكل ما أنا عليه من حياة وغادرت مبيتى الحفير
إلى فندق نويرك وأكثريت أجمل غرفة ، وملأت نخدعها بالخمر وجمعت
حولى الفتيات والغلمان ، ولبثت معهم ما استطعت أن ألبث ، تاركاً كل ما يفصله
الناصح الحكيم مثلك ، وراء ظهري ، فأنا إذ ذاك أمير أو وزير فقل في ماشئت ،
حتى يشاء الله فراغ يدي غادرت الفندق إلى كوخى أتلفع بومسى ثم أخرج على
شكلي هذا أفتش عن مطية أركبها إلى الفندق مرة أخرى ، فالعمر قصير وجمع
المال ثم الحرص عليه ليس من مقومات الحياة عندى ، أفهمت ؟؟ تلك هي
فلسفتي في الحياة ... »

هكذا أعادت كلمة الإمام في صدر هذا البحث إلى ذاكرتى هذا الحديث
الذى أفضى به إلى أبو أنور الصديق على محى الدين وأنا في منزله ببروكلن من
الولايات المتحدة ، وأعرف رجلاً آخر حدثني : أنه كان أيام دراسته الفقه
في النجف يجاور شيخاً إيرانياً يقطع الأسبوع أخشن ما يكون عيشاً في طعامه
وشرا به ولباسه ، يقتات فتاة الخبز الجاف طوال أيام الأسبوع حتى إذا كان
يوم الجمعة إذا به في مظهر من يقبل العيد فيما يلبس ، ثم إذا به ينزل السوق
ويعود بجمال قد أوفر ظهره باللحوم والخضر والفواكه والرز والسمن ولباب

الجوز واللوز وكل ما يقتضيه الطعام الطيب لغداء نفر من الأثرياء أو أسرة حافلة بالسعادة والعز .

فكنت أعجب له أشد العجب إذ ملاً القدر الراسية ، وهو بنفسه ، وكأنه يعدها لوليمة ، حتى إذا نضج الطعام أكتفأه في الجفان وجلس إليه بمفرده فمسحه عن آخره ، وفي يومه التالي عاد إلى تقشقه وبؤسه في طعامه ولباسه ، وقد تحدث إلى زملائه عنه فلم يزيلوا في اكتناه نفسه على أنه مجنون « قلت : الله في خلقه شؤون ، فلو اعتدل هذا الرجل ووزع طعام نعمائه في يومه على شظف عيشه طوال أسبوعه لكان إنساناً وسطاً ، وهو الإنسان الكامل .

لقد سمعت أن أحد الأئمة قال : نحن قوم إن وسع الله علينا وسعنا ، وإن قتر قترنا « وذلك لا يعني أنه إن وسع أكلنا حتى ننفلق ، وإن قتر سففنا التراب ، وإنما يعني استغلال الحكمة في الحياة بين الرخاء والشقاء ، لا أنا إذا استغنينا كنزنا المال وإذا افتقرنا لفظنا الحياة ، وهكذا نجد العاقل الحكيم يوسع في العيش على أهله ويتفقد غيره من البؤساء بما أفاض الله عليه من الرزق ، ثم هو يقتصد فيما يعول إذا أملق لأن الإنسان لا بد له في حياته من غيظ وفيض ، والشاعر الحكيم يقول :

حياتك يومان بؤسى ونعمى ودهرك ما انفك حرباً وسلياً

هذا من ناحية المادة ، وأما أدب هذه الحكمة التي تجلت فيها بلاغة الامام فتعني أن روح الإنسان كجسمه في احتمال نعيم الحياة وبؤسها ، وفي اعتدال هذه الروح السامية وهي تمارس الحياة تحت بؤسها أو نعيمها .

أعرف بعض الناس كان إذ خلطه الحوار العلمي بزملائه ومحتدم الجدل ثم ينجلي عن صوابه وخطأهم ، كأن يدل معجباً برأيه فيقول : هذا هو الرأي الذي لا يخطئ ، ويشاء الله أن يقع حيناً آخر فيما وقع زملاؤه به من الخطأ في الرأي فيستكين ويلوى عنقه ثم يقول : العصمة لله ... « ولقد كان في غنى عن تبجحه أولاً واستكانته أخيراً فلا يبطر وهو يصيب ثم لا يفشل وهو مخطئ . وأعرف صديقاً لي كان يصدر صحيفة يومية ، وكان قد بلغ بها الشأو

قيمة وقدرأ في المجتمع ، حتى كان رئيس وزراء البلد الذي تطالعه الصحيفة فيه صباح كل يوم ، كان هذا الرئيس معنياً بالصديق وصحيفته ، وكنت أجلس إليه أحياناً وهو يدل بمكانته وبلوغ صحيفته الأوج الذي تستحقه ، فقلت له ناصحاً : أرجو أن تعتدل في تفكيرك وأنت تحرر صحيفتك التي هي مرآة نفسك وسجل قومك ، فلقد بليت بالصحافة قبلك ، وكنت في ريعان شباني مثلك وكان رأسي حافلاً بالغرور ، وقلبي خالياً من الهموم لأن النعمة أبطرتني ، فاتخذت من صحيفتي مقرعة لمن لم يستجب لندائي ، ويتعظ بسماي ، وكنت أنا نفسي صاحب النداء والسما لم أتعظ بنصيحتي ولم أستجب لندائي .

وهكذا قطعت سنين أبذر مالى ، وأقتل وقتي ، وأضيع شباني ، وكانت النهاية المؤلمة أن فقدت شباني ، وأضعت مالى ثم لم يسمع أحد نندائي ، ولم يقبل أحد نصائحي ، فوقفت صحيفتي ، وكثر أعدائي ، وقل أصحابي ، ولم يتعظ أحد آخر الأمر بنصيحتي غيري ، فاتخذ من هذا درساً ، وأشفق على نفسك وعلى مالك بالاعتدال ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

فنظر إلى نظرة شاكر يشوبها شيء ضئيل لا يكاد يلمحه في عينيه غيري ، ذلك الشيء هو الاستخفاف برأى أن خلطت بينه وبينى في العمل ، ثم قال : أحسب أن صحيفتي تقف مهما تقلبت الأحداث ؟؟ لا يا صاحبي انها لن تقف ، وان عروقتها متصلة « بقرن الثور » فما الذي ينتزعها من هذا « القرن » ولكني مع ذلك أشكر لك هذه النصيحة الغالية »

وبمر بنا على هذا الحديث عام أو بعض عام ، وإذا بقرن الثور يتزعزع ، وإذا بالصحيفة تطير ، ثم إذا بصاحبي يمني بالتشريد على أيدي أناس هم أشد من العصبة التي شردتني أيام جنوني في الدعوة إلى الحق واعتصام أعدائي بالباطل ، واستمر صاحبي في تشريده أعواماً ثم عاد إلى صحافته بشكل آخر كما عدت أنا بعد تشردى إلى صحافتي بشكل آخر ، ولكن الشكلين كانا متشابهين في الاعتدال والهدف الذي فات أوانه بفوات القوة في المال والشباب وسبحان من يعطى ويمنع ويعز ويلذل ، وبقينا أنا وهو مشردين نسأل الله العفو على أن نجونا من الزلازل القائمة على اهتزاز « قرن الثور »

ولم تثبت صحيفتي أخيراً كما لم تثبت صحيفته ، لأن النكسة أشد من المرض ، والثورة الأخيرة أقل حرارة ووثوباً من الأولى ، والجرح الأول قلما يندمل حتى تتغير معه الحياة ، والصحافة يجب أن تبني أول الأمر على موهبة في النفس تتوفر لها إمكانيات تقوم على المال والصبر والعقل ، مضافاً ذلك كله إلى المثقافة والاقتصاد تلك هي أسس الصحافة الأولى .

فالذي أحرزته أنا وصاحبي هو المال والمثاقفة ، والذي فقدناه هو الموهبة الفنية في الصحافة والصبر على احتمال الضيم ، والاقتصاد المهيمن على إدارة الصحيفة ، ثم العقل الذي تعوزه الحكمة في توجيه الإنسان ، لذلك نفد المال ، وطفى الجزع فلم يفد بعد ذلك العقل ولا الاقتصاد ، وكانت النكبة ، فوهيتي كانت الشعر وموهبة صاحبي الأدب ، لذلك عدنا بطبعنا إليهما وأراني مع ما اختصني الله به في أيام هذه مطمئناً إلى عملي ، متوفراً على حياتي ، وأما صاحبي فلا أدري أين هو الآن ولا ماذا يصنع ..

هكذا يصدق قول الإمام عليه السلام فينا ، فلم ننفاد البطر والنعمى سابعة علينا ، ولم نستطع تفادى الفشل والبأساء قائمة فينا ، وإذا كنا نحن الموغلين في الحياة إيغال خبر ماهر وقفنا خاشعين أمام هذه الحكمة ، فما هي حال من هم دوننا في الفكر والتجارب ؟ فليتعظ من شاء أن يتعظ فان في هذا البحث عظة صادقة ، ونصحاً قائماً على الحكمة والاخلاص .

لقد أردت بطيشي أن أصلح لبنان بمحاولتي إصلاح القائمين على الحكم في لبنان فأخفقت وعدت مكسور الأصابع ، وأراد صاحبي إصلاح العراق بمحاولته إصلاح القائمين على الحكم في العراق فأخفق وعاد مكسور الظهر ، ذلك لأن الشعب إذا فسد بفساد حكامه وأغرق الفساد فيه فلا يستطيع المصلح تقويمه بنفسه حتى يكون مؤيداً بالملائكة يقول له الله : اصدع بما تؤمر .. والله يعصمك من الناس »

الا أن يتضامن مع أفراد من نوعه على الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقطعوا على ذلك زمناً عصيباً مرأً، يسنون فيه خططاً لمن بعدهم في سبيل إتمام رسالتهم فيكون مجموعهم في أزمته المتعاقبة رسالة كاملة توجه الإنسانية إلى الحق .

على أنى لا أنكر أن ثورتي وثورة صاحبي كان لهما أثر قيم في بعث النفوس من سباتها العميق إلى يقظة كشفت عن أعينهم غشاء كثيفاً كان لولا هذه الثورة مديد الأجل ، وأصبح من تأثير بهذا البعث قوى البصر حتى الضمير بين يدي ما يقترفه لصوص الأمة من زبانية الحكم ، وأصبح كثير من الناس على حذر إن لم يعصمه من جور الحكام فقد يجنبه طغيان هذا الجور ...

ولقد هزت ثورة « العزوبة » التي أنشأتها في لبنان ، مشاعر أهل الجبل الذي أفتخر بانتمائى إليه وهو موطن الحبيب « جبل عامل » فوجهت العلماء والزعماء بنقلها اللاذع المر إلى أن يتفادوا قسوتها وسلطان من يتأثر بها عليهم ، بأن خرج الأولون من جمودهم ، فأسس العلامة السيد محسن الأمين كليته في الشام ، وأنشأ العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين كليته في صور .

وخرج الآخرون ، وهم الزعماء ، من جمودهم وغطرسهم ، فعمل الساسة منهم على إصلاح مجتمعهم بالماء والكهرباء ، وتحسين الصحة وتعميم المدارس الحكومية ، بينما لم يكن قبل إنشاء العروبة ، شئ من ذلك ، وقد يكون الزمن باعثاً على هذا كله بتطوره ووعى أهليه ، إلا أن العروبة وصرخاتها عجبت بانبعاثه ودعمت بناءه ، وثبتت أركانه ، فكانت هي الباعث الأول على لإرسال البعثات إلى المهاجرين العاملين في أفريقيا وأمريكا لجبي الأموال في سبيل الثقافة ونشرها على ربوع الوطن الأول لهم ، ثم كانت العروبة وصاحبها آخر الأمر هما كبش الفداء على أيدي المرقعة من زعماء الجبل ، فكادوا لها وتربصوا بهما الدوائر .

هذه نفثة بعثتها الذكرى الأليمة في نفسى لذلك العهد المظلم الذي قطعته أيام شباني وأنا أحمل لواء النهضة مع إخواني من شباب « الإصلاح » في بيروت ، ثم لم يكن كل ذلك إلا موجة من البعث سادها كثير من الإخلاص والتضحية مشوباً بشئ من الطيش والرعونة ، أسأل الله أن يكون فيما أفضت فيه وأنا مخلص ، حسنات يذهبن بسوء ما كان منى وأنا طائش ، على أنى أحمد الله ، إذ بطرت في نعمائه ، أنى لم أفشل في بأسائى ... وأعوذ بالله من أن أكون هلوغاً ، إذا مسنى الخير منوعاً ، وإذا مسنى الشر جزوعاً .

... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا

الله

أحب أن أنقل للقارئ حول هذه الآية الكريمة ، نادرين سمعت إحداهما على لسان العلامة السيد علي فحصى العاملى رحمه الله ، وكان فقيه بلدتنا زمناً ما ، فقد روى لنا فى بعض مجالسه نقلاً عن بعض أئمة أهل البيت سلام الله عليهم ، لا أذكر اسمه ، قال :

كان يدخل على الإمام ... وهو فى أصحابه ، شاب مطاع فى زملائه ومرموق منهم ، فكان الإمام يقربه ويحترمه وقد يجلسه إلى جنبه على ما فيه من تحرر الشباب كخلق اللحية وإطلاق الأشارب وغير ذلك من الهنات المعبر عنها باللمم ، فكانت تأخذ الغيرة بعض أصحاب الإمام على أن واساهم أو آثر عليهم جاهلاً متحرراً ، وقد أحس الإمام بذلك منهم ولكنه لم يعاتبهم عليه حتى يحين الوقت الذى يشعرون معه بخطأهم فى الغيرة منه .

وفى وقت ما ، دخل على الإمام وهو فى مجلسه مع هؤلاء ، فقهر بادية العوز ، فحرض الإمام أصحابه على إغوائه ، عملاً بالكلمة المأثورة : إذا أعطيتهم فأغنوا . وتبارى الجلوساء فى العطف على المسكين ولكن هذا العطف لم يكشف عن أكثر من حفنة دراهم معلودات ، فوضعتها الإمام بين يديه ثم كتب رقاً لذلك الشاب الذى آثره عليهم فى مجلسه يوماً ما ، وقال للفقير : اثنى بما يعطيك دون أن تتصرف بشئ منه ، فذهب الفقير وسلم الرق للشاب فقرأه ثم قبله وعمد إلى صنديق فأخرج منه بلرة مملوءة بالدينار عاد بها الرسول ووضعها بين يدي الإمام ، ففضها على مرأى من جلسائه ثم قال مشيراً إلى المال ومعرضاً : هذا هو الدين ، وتلا عليهم قوله تعالى : ... ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً .

وسمعت الثانية من أخى المرحوم الشيخ حسن الحوماني وقد كان من خطباء

الذي كرى الحسينية في بلدتنا حاروف ، وفي مفهوم خطيب هذه الذكرى أن يستطرد إلى عبر التاريخ مما فيه عظة للسامع لتكون الذكرى حافلة بالعلوم والآداب ، وهذه النادرة التي سمعتها من أخي ، وكان بالغ التأثير في نفوس سامعيه وهو نخطب ، أقول : ان هذه النادرة هي مقتل سعيد بن جبير على يد الحجاج ابن يوسف .

وسعيد بن جبير هذا هو من أجلة الفقهاء الورعين في العهد الأموي ، وقد كان صاحب الرسالة الأولى في الجراءة بين يدي ألحق أيام عبد الملك بن مروان وهو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان سعاة بني أمية يلازمون رواة الحديث عن النبي ليتقربوا إلى الولاية بمن يروى عنه في فضل أهل بيته على وأبنائه ، وكان سعيد بن جبير لا يندخر وسعاً في نشر فضائلهم فسعى به إلى الحجاج بن يوسف وكان والياً لعبد الملك على العراق ، والحجاج هذا كان ولا يزال التاريخ يضربه مثلاً للعالم في ظلمه وقسوته ، يقول أخي : استدعى الحجاج سعيد بن جبير التابعي المحدث وقد كان في تقواه الله كالحجاج في جرأته عليه ، فلما حضر بين يديه قال : ما اسمك ؟؟ فأجابه : سعيد بن جبير ، فقال الحجاج : بل أنت شقبي بن كسبر ، فأجابه : أن امي أخبر منك إذ سميتني ، قال الحجاج : ما تقول في علي وأهل بيته أي اللجنة هم أم في النار ؟؟ فقال سعيد : لو دخلتهما لعرفت من فيهما »

يقول سعيد ذلك تفادياً من القتل لأنه علم أن الحجاج قد أصر في نفسه قتل كل من وإلى أهل بيت الرسول في سبيل ولائه لآل مروان ، وإنما بعثه عبد الملك الأموي إلى العراق ليوطد له الملك وهو يعلم أن ملكه لا يستقيم في العراق إلا على يد الحجاج وأمثاله ممن يبيعون دينهم بالدنيا .

واستمر الحجاج يستلجج سعيداً ليوقعه في الفخ الذي نصبه له ، وهو حمله على الاعتراف بموالاته أهل البيت وأن الخلافة في المسلمين لا تصلح إلا بهم ، فلم يظفر منه باعتراف ليدينه أمام من شهد قتله ، فان الناس فطروا على الجبن وأتلق بين أيدي الحكام ، إذ لو جهر سعيد بموالاته لأهل البيت وصدع الحجاج بالحق لأخذ جلساؤه سعيداً باللائمة وقالوا : ماله وللتصريح المفضي به

إلى القتل؟؟ أفلا يأخذ بالتقية القائمة على كتاب الله؟؟ وهم يعلمون أن أعظم الجهاد : كلمة حق بين يدي حاكم جائر »
وهكذا كان أولئك في مجلس معاوية يطعنون علماً وفي مجلس يزيد يطعنون حسيناً ليقرهم ذلك الطعن على النبي وآله زلفى إلى الرجس والإفك والسحت في سبيل هذه الدنيا التي لا يفرق العقل فيها بين من تواليه وتعاديه إلا بفضل من طعام أو لباس يؤلان إلى الزوال . وحتى يومنا هذا نرى خلفاء أولئك المتملقين لدوى الدنيا والمتهاوتين على حطامها بنيلهم من الرسول وأهل بيته يجرأون بذلك على تخطئة على في حرب معاوية وتخطئة الحسين في الخروج على يزيد .

يقول الحجاج الفاسق لسعيد التقي البار : بلغنى أنك تكثر البكاء وتمتن الكتابة والحزن في وعظك فلماذا؟؟ هل حرم الله الضحك على يدك؟؟ فوجم سعيد ولم يجب ، فقال له : اضحك ، ولتضحكن أو أعاقبك على أن لم تفعل ما أحله الله ، فقال سعيد : أضحك امرؤ لغير ما سبب مضحك؟؟ فأمر الحجاج بعزف الموسيقى وضرب المزاهر بين يدي سعيد ليخلق له سبباً يضحك من أجله فبكى سعيد وقال : إنما الحياة الدنيا لهو ولعب » فأمر الحجاج بقتله فلما أخذ للقتل ضحك فأبلغ الحجاج بذلك فأمر برده وسأله عن سبب ضحكك ، فقال : لقد عجبت لحلم الله عليك وجرأتك عليه فضحكك :

فثار الحجاج مغضباً من قوله ثم أمر بقتله بين يديه ، فلما أضجعه الجلاد للقتل توجه إلى القبلة وقال : وجهي للذي فطر السموات والأرض ، فقال الحجاج أديره لغير القبلة فأدير فقال سعيد : أينما تولوا وجوهكم فم وجه الله ، فقال الحجاج كبوه على وجهه ، فقال سعيد ووجهه إلى الأرض : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ثم فصل الجلاد رأسه فانتفضت الرأس قائمة وهي تقول : اللهم لا تسلطه على أحد يقتله من بعدى ...

ويجمع أهل التاريخ على أن الحجاج لم يقتل أحداً بعد سعيد إذ مات بعد أربعين يوماً من قتله وهو يعاني مرضاً صريح فيه باضطراب نفسي على أثر قتله لسعيد ، وقد حكى بعض الأنقياء أنه رأى الحجاج في الحلم فسأله عن مصيره

بعد موته فقال : لقد قتلني الله بكل من قتلته إلا سعيد بن جبير فاني لا أزال أقتل به كل يوم » والأحلام معها يكن أمرها في الحكم على الحقائق فانها إنما تتولد مما تشعر به النفوس في يقطتها ، فلولا اقتناعها بإيمان سعيد وكفر الحجاج لما أدانت الحجاج في الأحلام ..

أذكر أن مات من المستمعين في حفلة الذكرى إلى الخطيب وهو يقص عليهم حادثة الحجاج هذه مع سعيد ، أقول : ان مات المستمعين ، وأنا فيهم ، خرجنا من مجلس الذكرى والدموع تحرق أجفاننا ، ثم لا أزال ، وأنا أقرب منهم جميعاً إلى الثقة بأن سعيداً ينعم بعد موته والحجاج يشقى ، لا أزال إلى يومى هذا أشعر بالكبت الذى يضغط نفسى ويضيق به صدرى من ذلك الحادث ، أفلا تصدق الآية بعد ذلك على أن من أمات نفساً فقد أمات الناس جميعاً ؟؟ صدق الله العظيم .

والعجيب أن كثيراً من حملة الأقلام وخطباء المنابر أسمعه وأقرأهم يشيرون بأعمال الحجاج هذا في سلطان عبد الملك بن مروان ، وبأعمال زياد ابن أبيه وابنه عبيد الله في سلطان معاوية وابنه يزيد ، ثم يتمحل هؤلاء الكتاب والمتكلمون في تبرير أعمالهم ، بأن توطيد الملك دائماً يفتقر إلى الحزم والقوة دون التردد والضعف ، فكانت هذه الأعمال بطولة من أولئك الرجال ، وينسى هؤلاء الذين هم أعظم وصمة على الإنسانية ، ينسون أن الملك الموطن بغير حق يؤل إلى هدم العقل البشرى وتدمير الحياة الإنسانية فيما نسمع ونبصر .

مَحَرَّ

الدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ

« أصبحتُ اللهم معتصماً بدمامك المنيع الذي لا يحاويل ولا يطاول ، من شر كل غاشم وطارق ، من سائر ما خلقت ومن خلقت ، من خلقك الصامت والناطق ... »

ما أسرع ما كنت أنهض صباح كل يوم أو فجره من فراشي وأنا أسمع صوت أبى يردد هذا الدعاء في عقب صلاته الوسطى بين ليله ونهاره ، وما أسرع ما استظهرت هذا الدعاء غيباً وأنا في حدثي وقبل أن أحسن الكتابة والقراءة ، وهو دعاء طويل ينتهي بقول أحد أئمة أهل البيت : حجرت الأعداء غنى ببديع السموات والأرض ، « انا جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيانهم فهم لا يبصرون » .

ولما قرأته على أبى تهلل وجهه فرحاً وقال : احتفظ بهذا الدعاء يا بنى فانه عصمة لك طوال نهارك ، فاذا أمسيت اقرأه وضع مكان « أصبحت » أمسيت ، فانه سيكون عصمة لك طوال ليلك .

وكنت لأشك في قول أبى ، لذلك نزلت على حكمة في ترجيع هذا الدعاء صباح مساء ، وكنت بعد قراءته أطمئن إلى لطف الله بي في نهارى وأنا أعمل ، وفي ليلى وأنا أستجم ، وكنت أستمع إلى أبى وهو يقنت في صلاته ويقول : إلهى : ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ، ولكنى وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

كنت أسمعه يقول ذلك فأعجب وأتساءل مع نفسى : كيف لا يخاف من ناره ولا يطمع في جنته ؟؟ ثم أسأله سر ذلك فيقول : هذا من كلام إمامك على وهو يعلمنا يا بنى بقوله هذا : أن أسمى أنواع العبادة لله ما كان قائماً على معرفة الله ، لا على الطمع في ثوابه أو الخوف من عقابه ... »

وكان هذا الأب الصالح ، الذى إن كنت أشعر بلطف الله بي وعطفه

على ففضله ، أقول : كان هذا الأب الذى علمنى الحياة وهو يستلهمها من تهجده فى ليله ، وتورعه فى نهاره : دون أن يدرس فى جامعة أو على معلم ، وإنما هى أيام درس فيها القراءة الأولى على شيخ كتّاب فى قريته الضاوية البعيدة عن كل علم ، لقد علمنى هذا الشيخ أن أحيا مطمئناً إلى دينى ودنياى ، ثم علمنى كيف أفرض على الناس محبتى واحترامى حيثما كنت ، بثقوا وزهده وتعقه فى كل ما يعيه من قول ، ويقوم به من عمل .

يقول لى : أكثر من الدعاء يا بنى ، فان فيه القرى إلى ربك ، والبعد عن الشيطان ، واحفظ ما استطعت حفظه مما كان يدعو الله به نبيك والقائمون على رسالته من بعده ، فان أقوالهم خرجت من أفواه لم يدنسها الإفك فيما تعلن وقلوب لم يتسرب إليها الشك فيما تسر ، ألا وإن فى دعاء « كميل » لإمامك على ، وفى صحيفة حفيده السجاد ، ما يغنيك عن أن تقول من عندك ، فانك غير بالغ بما بلغوه فى ذات الله .

وكنتم أعمد ، وأنا لا أزال فى الكتاب ، إلى دعاء الأمام على وهو الذى أملاه على صاحبه كميل بن زياد ليقراً عليه ليلة كل جمعة من كل أسبوع وهو ساجد ، فلا ينتهى من سجوده حتى ينتهى كميل من قراءة الدعاء ، وحتى يبتل مسجده من دموعه ، أقول : كنت أعمد إلى قراءة هذا الدعاء الطويل فأقرأ فيه قوله : اللهم اغفر لى الذنوب التى تهتك العصم ، اللهم اغفر لى الذنوب التى تنزل النقم . فأسأل أنى : أليس الإمام على معصوماً يا أنى ؟ فيقول لى : أجل انه من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فأسأله : وكيف يدعو الله أن يغفر له الذنوب ... وأى ذنوب للإمام مع افتراض عصمته ؟ فيجيبنى بقوله :

« ان الأنبياء والأولياء يعلموننا بالسنتهم كيف نقول : ؟؟ فليس قول الإمام : اللهم اغفر لى ذنبي ، برهاناً على أنه مذنب وإنما قوله هذا تشريع لنا نحن المذنبين ، وصورة من القول نتقرب إلى الله بها ، وسبيل نسلكها إليه ، أو لعل الإمام يشعر بتضاؤل حسناته بين يدى ما يتركه من عظمة خالقه فى نفسه ، حتى يرى تلك الحسنات حقيرة جداً أمام تلك العظمة فيعتبرها سيئات لقصورها

عن إيفاء تلك العظمة حقها من التقدير والتقدير «
لا أزال إلى ساعتي هذه أفكر في قول أبي وتخرج بالدعاء على هذا الوجه
الأكل ، اللاتق بالنبي ووصيه ، فلا أجد في نفسي التي رضىها عشرات السنين
في درس الحياة نظرياً وعملياً ، بينما أجد ألى في مستوى من العلم لا يتجاوز الدراسة
الأولى ، أقول : لا أجد في نفسي تأويلاً أو تعليلاً للدعاء الإمام أسمى من ذلك .
التعليل التام عن فكر حاذق وعقل حصيف ..

كان أبى هذا مجلس بعد الصلاة صباح كل يوم ومساءه على فراش متواضع
وتحت شجرة من الأزدرخت كثيفة الظل في الصيف ، في منظره تشرف من
بيتنا على طريق القرية العام إلى الحقول ومصادر المياه ، وكنت أجلس إلى جنبه
إذ كنت أصغر اخوتي الذين تفرقوا في البلدة بعد استقلالهم في الحياة ، وبقيت
وحيداً مع أبوى في منزل قروى هزيل .

كنا نجلس ، والطريق أمام بيتنا مكتظ بالمارة يغادرون القرية بأبقارهم
وآلات حصادهم ، والنساء تحمل الجرار لتستقي بها ، والرعاة الأحداث
يتغنون خلف المواشى منذ طلوع الفجر ، وكان أبى كأنما مجلس لاستقبال هؤلاء
جميعاً فلم يمرر بنا شيخ أو كهل أو شاب إلا وأسبغ التحية على أبى وترك بتقبيل
يديه ماتمساً دعاءه ، فلا تسمع إلا باسم الشيخ أبى الحسن يردد في أفواههم .
وهكذا كان أبى مجلس مساءه على هذه المصطبة ويفد عليه جل أهل القرية
وفي طليعتهم الأدباء والشعراء ليقضوا معه سمر الصيف حافلاً بأذكار الليل
وأوراده ليالى الجمع والأشهر الحرم ، وليالى الصيام وعشر الحرم ، فإذا انفض
العامة منهم عمر المجلس بالخاصة من إخوتى وزملائهم الأدباء يستمرون في
مساجلة الشعر ومطارحة الأدب حتى ساعة متأخرة من الليل .

هكذا كان أبى من وراء تقواه محترماً في أهله وعشيرته وقومه ، لا يقطعون
أمراً دون مشورته ، ولا يزعون سقراً أو يؤوبون منه إلا بادئين بوداعه وختامين
بالسلام عليه ، حتى لم يخرج من دنياه إلا وقد ترك في نفس كل منهم حسرة على
أن لا يظفروا بأمن على تراهم الدينى بعده ، وحتى ترك بينهم من آثاره الدينية
والعلمية مسجداً ونادياً ومدرسة يذكرونه فيها كلما اجتمعوا لعلم أو عبادة ،

- ٣٤٢ -

فيسبق كل قول منهم النداء بالرحمة على روحه واستغفار الله له ، فهل هنالك ثروة للإنسان يتمتع بها في حياته ويدخرها لنفسه ولأهله من بعده ، اسمى أثراً وأجل قدراً من هذه الثروة؟؟

لقد مات إخوتي وهم مغمورون بعطف قومي عليهم من وراء ذلك الشيخ ، ولا أزال أنا مرموقاً فيهم وقريباً من قلوبهم ، ومبثوثاً على ألسنتهم من وراء ذلك الشيخ ، بينما لأجد في ذاتي ما تمت بي إليه في تقوى نزيهة ، وصلاح خالص من شوائب الحياة ، فهل يطمح الإنسان في رواجه وغدوه ، في مسائه وصباحه ، في حله وترحاله ، في حياته كلها ، هل يطمح إلى نعم أبقي من هذا النعم ، وخلود أبقي من هذا الخلود؟؟ تلك هي الإنسانية الكاملة من وراء الدين .

لقد قطع أتي شبابه يعمل في بناء الدور ليستغني عن الناس ، فلما أجاز شبابه إلى الكهولة ضعف عن البناء ، فانصرف إلى زخرفة البيوت بالمخادع والمخامل ، ثم ضعف عن هذه فانصرف مع زميل له ، يدعى أمين أحمد ، إلى فتح كتاب لتعليم النشء قراءة القرآن وتعلم الخط ومبادئ الحساب ، مضافاً ذلك كله إلى صنع الأحذية ليتوفرا على الكسب المغني عن الفقر ، ولما علمته الشيخوخة جلس للوعظ والإرشاد والإصلاح بين الناس ، فما اختلف اثنان إلا كان ثالثهما في الفصل بينهما ، فلم يفتقر في حياته قط ، ولم يكن من الغنى إلا حيث كان أصحاب رسول الله الذي كان من دنياهم مكان الماء الجاري من التراب والحصى يكسوهما نظرة الحياة وهو في سبيله إلى البحر أو إلى السماء ... فهل يطمع الجاد منا في دنياه ، ليله ونهاره ، بأكثر مما نال هؤلاء من وراء الدين؟؟

إني لأذكر أن بيتنا ذلك الهزيل كان لا يخلو يوماً من الألبان والأجبان والأسمان ، هدايا تراكم على أبي ، أما اليوم ، وأنا في قصر شاهق ، والأموال تتدفق على ، ثم تطوف خادى القرية في سبيل كوب من اللبن بالغاً ثمنه ما بلغ ، فلا تظفر به ، ذلك لأن ثمنه على عهد أبي كان من الدين ، وأما ثمنه على عهدى فكان من الدنيا ، فهل بعد هذا كله نتساءل : عما ذا يفعل الدين ، وبماذا يفيد أهله؟؟ ان الدين هو الحياة ، يحجب أهله للناس ، ويعصمهم من شرور الناس ويغنيهم عن الناس . أفليست هذه هي الحياة؟؟ ثم أليس الدعاء من العبادة

— ٣٤٣ —

بمنزلة الرأس من البدن ؟؟ لقد صديق رسول الله إذ قال : الدعاء مخ العبادة .
وإنما كان الدعاء من العبادة هذه المكانة لأن الدعاء هو الصلة الأولى بين
العبد وربّه في العبادة ، فكل دعاء عبادة ولا عكس ، إذ يكون غير الدعاء
أحياناً عبادة كحسن المعاملة بين الإنسان والإنسان فإنها صلة بين العبد وربّه
ولكنها غير مباشرة لأنها صلة بين الإنسان والإنسان أولاً ثم هي صلة بينه وبين
ربه ثانياً ، وفي الكتاب الكريم : قل ما يعبدكم ربّي لولا دعاؤكم .

عَلَى أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا ، وَأَذْكَى وُقُودًا ، وَأَبْطَأُ حُمُودًا

قالها الإمام إذ شعر بأن قوماً يقول قائلهم : إذا كان طعام ابن أبي طالب قاصراً على القدر ولباسه قاصراً على الطمر ، فقد ضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان »

وهي من كتاب بعث به إلى عامله على البصرة وقد بلغه تلبية هذا العامل لولمة أقامها الخاصة من قومه ، فأنكر عليه الإمام هذا التهافت فقال : « ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو ، وغنيهم مدعو »
والبحث هنا يلور حول هاتين الكلمتين اللتين تكتنفان هذه المقدمة بدءاً وختاماً ، أما أولاً : فقد كنى بالشجرة البرية عن الحياة البسيطة التي هي قاصرة على هواء نقي ، وماء طاهر ، وغذاء نزيه ، فالهواء النقي هو الخالص من جراثيم الأفق الذي تتخلله ، كالجو الموبوء بالجراثيم المتصاعدة من حظائر الإنسان والحيوان ، والماء الطاهر هو ماء السماء الذي يغذى الحياة بغير واسطة الإنسان الملوثة بأقداره وأوضاره ، والغذاء النزيه هو البرئ من الترف البالغ ، لشدة وطئه على المعدة ، وثقل تركيبه على الدم الهاضم ، فكلما كان بسيطاً سهل هضمه ، وكلما ثقل عسر نضجه ، فقوام الحياة هو عملية الهضم لا كثافة المواد القائمة عليه ، فبساطة العيش مع راحة الجهاز الهضمي يفضي إلى نقاء الدم وقدرته على مكافحة الجراثيم النافذة إليه من الجو الموبوء .

كل ذلك يعطي الحياة في النبات والحيوان قوة لا تتوفر فيهما مع الهواء الفاسد ، والماء الملوث ، والغذاء الثقيل ، فينشأ النبات في هذه الحياة صلب العود لا يكسر ، وذكي الوقود بطيء الحمود ، ولا فرق في الحى القائم على هذه الصفات بين الحيوان والنبات لأن العناصر المقومة لهما واحدة ، موثقة من الهواء والماء والغذاء ، وعلى صلاح هذه العناصر تتضاعف قوى الحى ، وعلى فساده ينشأ الضعف المفضي به إلى الهزال فالتلاشي آخر الأمر .

يرمى الإمام سلام الله عليه من وراء ذلك إلى نفسه الجبارة القائمة في قوتها على بساطة العيش ، كما تقرم قوى الشجر البرى على بساطة الغذاء من التراب الزيه الذى لم يلوته سهاد الحيوان ، ولا عبث الإنسان ، فبساطة الغذاء تفضى بالجهاز الهضمى إلى الراحة فيستغنى عن كثافة الدم لتوليد الحرارة الهاضمة فيه ، وبذلك يتسنى للدم أن يصرف قواه إلى تنمية العصب الذى تقوم عليه صلابة العود وقوة الإرادة في الحى ، بينما يفقد هذا العصب كثيراً من قواه بما يصرف الدم عنه إلى الجهاز الهضمى لإنضاج الغذاء الكثيف من أطائب الحياة .

فالأعصاب هى مركز الإرادة ، والإرادة هى مصدر القوة في الحى ، ولقد أبدع وأسهب علماء النفس في أن كل قوة خارقة في الإنسان مردها إلى قوة الإرادة ، كالعين والسحر والشجاعة والعبقرية في أى تبريز ، وعلى هذه القوة في الإرادة البشرية نحمل شجاعة الإمام الجبارة وقوته المسيطرة على أعصاب من يناجزه حتى قال إذ قيل له : ان درعك قاصرة على الصدر فما تصنع بمصارعك إذا اغتالك من الخلف ولا درع لك ، فقال : ان تمكن عدوى من ظهري فلا أبقي الله عليه إن أبقي على .. »

وكان يقول ، إذا قيل له : بم تصرع كل مبارز لك ؟؟ يقول : أبصره بأنه يثق كما أثق من أنى سأصرعه ، فهو معين لى على نفسه ، وأنا ونفسي عليه ، وهذا ناشئ في الإمام عن قوة إرادته وتصميمه وثقته بنفسه ، وقوة هذه الإرادة ناشئة عن قوة أعصابه التى هى مبعث الإرادة ، وقوة هذه الأعصاب صادرة عن قوة الدم القائم على تغذيتها وتنميتها دون أن يحول بينهما حائل من جهاز الهضم الذى يستعين بحرارته كلما أجهدهته التحم ليجرق سمومها بكثافة الدم المتدفق إليه من بقية الأعضاء .

وأما ثانياً : فلقد من الله على بأن فتحت عيني على أدب الإمام وأنا صبي حدث ، إذ درست ابن أبى الحديد المعتزلى في شرحه لنهج البلاغة وتعليقه عليه ، وإعجابه به ، فكان ذلك باعثاً لشعورى العميق بعظمة هذا الأدب ، وسحر بيانه . وكان من بلاء الله لى قوة هذا الإحساس الذى منيت به منذ حداثتى في النعمة على ما يستفز الإمام في خلقه الرفيع ودينه القويم ، من جشع الإنسان

وبغية على الحق ، وطغيانه بين يدي نفسه الأمانة بالسوء .
فقد تلخص ثورة الإمام في كلامه وخطبه ورسائله ، بنقمته على هذا النوع من بنى الإنسان : جاهل متنسك ، أو عالم مهتلك ، أو حاكم جشع في سلطان جائر . ولقد تأثرت بأدب الإمام هذا قبل أن أفقه الحياة ، ويشاء الله أن أنشأ في فقهها متأثراً خطاه ، فاذا بكل ما يصدر عني من أدب أو فن بلساني أو قلمي ، متسماً بهذا الطابع المشبع بروح النقد اللاذع والسخط البالغ على كل وضع جائر في الحكم ، وكل فقه قائم على التدجيل والتضليل .
ومن قرأ شعري كله ونثرى جلّه ، يدرك مبلغ هذا التأثير ، ثم من وقف على المجلدات الأربعة من مجلتي « العروبة » يعلم إلى أى مدى خضعت في هذا التأثير بين يدي نعمتي على المجتمع العربي العام ، والخاص بي في وطني الأول « جبل عامل » فهو خلاصة ما شحنت به الطبيعة والوراثة والدراسة صدرى من آلام وآمال في الحياة .

وعوداً على بدء أقول : كم يلمس القارئ لقول الإمام وهو يؤنب عامله بقوله : ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنهم مدعو » أقول : كم يلمس القارئ في هذه الجملة من حقد على العادات الخسيسة التي طبع الإنسان الفاشل في حياته عليها ؟؟ فاسمع ما يتحدث إلى به صديقي حسنى تلو أيام وجودي في دمشق وأنا ضيف عليه ليلة ما ، يقول :

« كنت أزور مصر بدعوة من الأمير « يوسف كمال » أحد نبلاء الأسرة المالكة على ضفاف النيل ، وهو من الإقطاعيين الذين يفوت الحصر ما يملكونه من مال وأطيان ، وكان ينفق هذا النبل على مائدته من ماء « الفبيجة » المستورد من فرنسا ، ثمانين جنياً في الشهر ، إذ لا يعجبه أن يشرب أو يسقى ضيوفه من ماء النيل المبارك ، وكان سباطه كل يوم بمد لبضعة عشر نفرأ على شاكلته ، ولكنك إذ تراه تحسبه قد امتد لمآت من الآكلين ، وتكاد عينك تحار في التثقل على المائدة بين الخراف والطيور وغيرها من أطائب الطعام والشراب »
« وليس الغريب فيما أنقله لك هو هذا ، ولكن الغريب هو أن المائدة بعد فراغ الآكلين تباح للكلاب التي يقتنها « البرنس » من أجل الصيد ، ثم بعد

ذلك يرفع الطعام ويكفأ على عروق الشجر في الحديقة ليستحيل سهاداً لها ،
بينما كنت أرى عشرات الخلم والحشم ينظرون إلى الطعام بأعينهم ولا تناله
أيديهم ، وكنت أعلم أنهم لا يحلمون بتلوق مثله لأن أجر العامل المصرى في
الشهر لا يتجاوز بضعة جنيهات قد تقصر على تبليغه الخبز والماء »

« ولقد كان ذلك يؤذيني ويدعوني إلى الفضول بسؤال الأمر عن السبب الذى
من أجله يطعم الكلاب ويحرم هذه النفوس الخاضعة له والمؤمنة بالله ؟؟ فكان
جوابه لى : أنهم قد اعتادوا على أكل الفول فاذا أضحنا لهم هذه الأطائب أفسدنا
عليهم حياتهم ، أفلا يكفى أنهم يعيشون ، وماذا يريدون وراء ذلك ، فان
أمامهم الجنة فيها ما تشتهى أنفسهم وتلذذ عيونهم ، وإذا اعتادوا في دنياهم على
ما يؤملونه في آخرهم فما الذى يقف بهم عند الطاعة والقناعة ، وقد نشقى
معهم آخر الأمر .. »

ويقول لى أحد أصدقائى في العراق ونحن محققون بخوان بعض الإقطاعيين
وهو يحمل الحرفان على مدى ما ترى العين من قريب ، وقد تلباعى أهل البلدة
خارج المضيف ينتظرون فراغنا من المائدة ليتكأكوا حولها ، فيدفعنى ذلك إلى
شكر الله على أن كنت السبب في إغاثة هؤلاء البؤساء ، فيقول لى ذلك الصديق :
انهم لا يطعمون بغير فنجال من قهوة البن ، قلت والطعام ؟؟ قال : انه يكفأ
في ضاحية البلدة حتى يربو كالثلل ويكون إعلاناً على مكارم الشيخ ، ولا
يجرؤ على النيل منه أحد ثم لا نجد أهل بيت المضيف يتبلغون به بعد فراغ الضيوف ،
لأن في ذلك سبة عليهم ويكتفون بأكل الخبز فقط ، على أن هذه العادة السيئة
بدأت تنقلص بفضل الوعي الجديد، وإن كانت لا تزال مرعية في بعض القبائل
من عشائر الجنوب »

أنا اليوم ، وأنا أسجل هذه السطور بين يلى هذا الفجر من يوم الجمعة
الواقع فيه ٣ من شهر رجب لسنة ١٣٧٦ الموافق ٤ يناير كانون الثانى لسنة
١٩٥٧ ، أقول : أنا اليوم أقطن مصر الجديدة وهى إحدى ضواحي القاهرة
وأفكر في صدق الإمام بقوله ، وهو يعنى الطبقة الثرية من الناس أينما كانوا ،
يقول : ان عائلهم يحرقو ، وأن غنيهم مدعو .

أفكر وأمعن في التفكير بهذا الصنف من الناس كيف لم تدل دولتهم هذه منذ ثلاثة عشر قرناً ولعلها كانت كذلك منذ خلق الإنسان وكان فيه مثل أولئك ، نوع بشري يتعالى على نوع آخر ، فلا يشعر بشعوره ولا يحيا حياته ، ماذا فعل الإسلام ، وقد قام على الطبقة الدنيا من أهله ، ليكافح الطبقة العليا منهم عن مجده وخلوده ؟؟

هذا الصنف من الناس لا يزال إلى اليوم ، يستغل الصنف المنحدر عنه بالعيش السابغ ثم يتعالى عليه ولا يخالطه مخالطة الإنسان للإنسان ، وإنما يعامله معاملة السيد للعبد بل معاملة الإنسان للحيوان ، وقد أحس محمد بهذا فقال قولته قبل ألف عام : ان الناس كأستنان المشط لافرق بين أحد وأحد إلا بالعمل الصالح ، فإذا يقول محمد إذ يراهم اليوم ، وقد أصبح الفرق بينهم أوضح ما يكون بالعمل السيئ لا العمل الصالح ؟؟

طبقتان من الناس الذين ينتمون إلى محمد في دينه الذي لا طبقات فيه ، إحداهما ، وهي الفاجرة الفاسقة عن أمره ، تقول ويقول معها الناس : إنها الطبقة العليا ، والثانية ، وهي المؤمنة الوادعة ، تقول ويقول الناس معها : إنها الطبقة الدنيا ، تتعالى الأولى على الثانية في كل ما تقول وتفعل ، حتى كأنهما في عالمن يفصل أحدهما عن الآخر حاجز من حديد ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

لقد أصبحت من هذه الطبقة المسماة بالعليا ، لا من حيث الغنى ولا التعالى ، ولكن من حيث التفكير والتقدير الذي يجاملونني في خلواتهم وجلواتهم من أجله ، نحشون من وراء تفكيري سلطان قلبي وصولة لساني ، يدعونني كل شهر بل كل أسبوع ، وقد ادعى كل يوم إلى مادهم في أفراحهم وأتراحهم ، فلا أجد حول تلك المآدب إلا زهو النفس بخيالاته ، يتبجح ويتحذلق ويتفهب ثم يتمطى وقد يعفط ، ولا وسيلة له إلى ذلك إلا أن الله أعطاه فلم يشكر وحرم غيره فلم يكفر .

كلنا في هذه المآدب نعالج البطون من التخم ، فلا نفكر في الحاجب على الباب ، والساكن في الكوخ ، والمتلفع بالمراقيع ، وهم يكدهون في سبيل أولئك

ليظفروا بالخبز ولو من غير إدام ، طبقة الناس هذه منقطعة عن تلك حتى لتكاد تتميز عنها بالدقيق والجليل من الحياة ، فالغنى الذى يعيش بين الرياش فى حجرة نومه واستراحته ولهوه ولعبه ، ثم إذا خرج ركب سيارته وإذا دخل بيت غره ، كأنما خرج من بيته إلى بيته ، وأوى من ماخوره إلى ماخوره .

أقول : هذا الذى يسرح ويمرح فى مقصورته ومقاصره من هم على مسلاخه من الطبقة « العليا » بين قصفهم ولهوهم ومجونهم وعيهم بالحياة ، هؤلاء لا يشعرون بالطبقة الدنيا كيف تعيش وكيف تحيا ؟؟ إذ خلت منها مسارجهم ومسارهم ، وخلت منهم أكوأخها المظلمة وخصاصها الواهية ، فلا يرونهم وهم أكلداس مكبله مهملة فى المزارع وحول المصانع ، أكلداس تجوع ليشبعوا ، وتعزى ليلبسوا ، وتظما ليرتوا ، وتشقى ليسعلوا ثم تحيا لموتوا .

طبقتان : هذه تلبس الحرير والدمقس ، وتلك تتوارى خلف أطمارها البالية ، هذه تركب الحمول المظلمة والسيارات الفخمة ، وتلك تحملها أرجل حفاة متآكلة ، هذه تأكل أطائب العيش ، وتلك تأكل التراب ، فكيف تشعر تلك بهذه ، وكيف لا تفكر هذه بمصيرها مع تلك فتعتنق أسوأ مبادئ الشيوعية التى تنتقم لها منها وترد حقها فى الحياة عليها ؟؟

ان الشيوعية اليوم أصبحت هدف الطبقات الدنيا والوسطى للانتقام من الطبقات العليا بما امتازت به هذه عن تلك من حياة بالغة فى الترف والقصف واللهو ، لم تفكر معها مجامع الإنسانية بينها وبين هؤلاء المساكين الذين يشاركونها بؤس الحياة ولا تشاركونهم فى نعيمها ، ان الطبقة العليا منا تقيم على أكتافنا قصورها ، وتنسج من أعصابنا أثأها ورياشها ، ثم هى تنحت من قلوبنا أكوأها وأباريقها لتشرب وتأكل من دماثنا ودعومنا ، فكيف لا نفكر فى الشيوعية التى تنهج فى شريعته نهج محمد الذى يخاطبه الشيوعى الشاعر بقوله :

حاشاك أن ترضى وأنت محمدُ أن تستغل جهود ألف يدٍ ، يدُ

.. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكَمِ وصَايَاكُمْ بِهِ،
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

الله

صراط الله مستقيم لاريب فيه ، وأمره إيانا باتباعه واضح لاريب فيه ،
ولكن الريب واقع في تحديد هذه السبيل والنهج في اتباعها ، فالفرق في الإسلام
كثيرة وإن تقلصت وضاق نطاقها في الزمن الأخير حتى أصبحت معدودة بعد
أن كانت واسعة النطاق حتى جاوزت السبعين ، ثم بدأت تنكمش بانكماش
الحكم الإسلامي والسلطان في أهله ، لأن الدين يزداد تشعبه كلما اتسع سلطانه ،
ويقلص كلما ضاقت رفقته ، والسبب في ذلك سلب السياسة عن الدين ، فان
الدين إنما نزل على الإنسان ليسوسه ويوجهه وجهة الحق في كل ما يقول ويفعل ،
فاذا قصر عن ذلك كان من عمل الإنسان لا من عمل ربه .

والأمة إذا رأت الدين هو كل شيء ، تضافرت على تحديده ، وأما إذا
جبرته في المعابد وحالت بينه وبين الحياة ، لعبت به النفوس ، وعبثت فيه
الأهواء ، لأنه أصبح فضولاً في دنيا الإنسان ، إذ كانت السياسة التي هي
قوام دنياه معزولة عن دينه ، وبطل أن يكون هذا الدين هو المدرسة التي تؤهل
الإنسان لسياسة الإنسان ، ولهذا نرى تعاليم الدين أبعد ما تكون عن رجال
السياسة ، ولعل الجهر والتظاهر أو التفاخر بالتحلل من الدين أصبح خلقاً في
السياسة القائمين على توجيه العالم .

وانصراف السياسة عن الدين إلى الدنيا ، ثم انصراف الفقهاء عن الدنيا
إلى الدين ، هو العلة الأولى في العبث بالدين والدنيا معاً ، لأن العصمة لم تكتب
لأحد من الناس ، والنفوس أماراة بالسوء ، ذلك ما يبعث السياسة المتحللين من
دينهم ، على اغواء الفقهاء العابثين بالدين من وراء جمودهم أو جحودهم في
سبيل حياتهم الدنيا ، من أجل ذلك نرى في تاريخ الإسلام أن معاوية بن أبي

سفيان قد استقدم مات من أصحاب رسول الله إليه وأغلق عليهم فاستجابوا له في جل ما يريد من التحكم بالناس ، حتى استوزر بعضهم ، وولى البعض الآخر على الحكم بينما أجمع حماة الدين يومذاك على انحراف معاوية وخروجه على الخليفة صاحب الحق في السلطان وهو على بن أبي طالب ، وبهذا حصل أول صدمع في الدين ، باختلاف أهله إلى فرقتين عثمانيين وعلويين .

وهكذا بدأت الشقة بين السياسة والدين تتسع وبدا الخلاف بين حملة الكتاب والسنة يتسع أيضاً تبعاً للسياسة ، وأخذت الفرقة تتشعب في الإسلام باضطراب السياسة المارقين للفقهاء المنافقين أن يمنعوا في تضليل العامة وحملها على تأييد سلطان وخذلان سلطان آخر ، فكان من وراء ذلك تعزيز الفرقة في الدين وتعديد المذاهب والسبل المؤدية إلى الدينونة به .

أما الذين لم يتأثروا بالسلطان ، ولم يستجيبوا للسياسة المارقين فأقل من قليل ، لأن الدنيا أقرب إلى الناس من الآخرة ، ولأن النفس المادية أقوى تأثيراً على الإنسان من العقل الروحاني ، لذلك كان تأثير هؤلاء المتخرجين ضعيفاً على الناس ، ومع شدة إيمانهم وتخرجهم في الدين لم يسلموا من الانحراف بتأثير الماضي المظلم عليهم ، فان عهد عثمان ومعاوية ، ثم العهود الأموية والعباسية التي سبقت هؤلاء الأئمة ، قد ضللت تاريخ الإسلام بما دسه الدعاة لهم في صميم الدين من فرية على الله واقتراء على رسوله .

فكان لا بد للبعيد عنهم أن يزل بما حملة التاريخ له من أقوال ضلله بها رواة مأجورون بحطام الدنيا ، حتى رأينا بعض هؤلاء الأئمة يتسامح في الدين إلى حد الترحم على يزيد بن معاوية والرضى عن أبيه ، ويتشدد البعض الآخر في الدين إلى حد النقمة على علي لأنه قبل التحكيم في حرب معاوية ، وعلى ابنه الحسن لأنه خرج على سلطان يزيد ، وحتى رأينا الإمام البخاري في صحيحه المعتمد عند المسلمين يقبل الرواية عن السياسة المارقين من بنى أمية ، ويرفضها عن أهل بيت رسول الله ، فأية فرقة في الإسلام أشد نكاية للحق من ذلك ؟؟ وهل كان هذا إلا بفصل السياسة عن الدين ؟؟

فلو أن سياسة الدين سادت المسلمين لسادوا العالم إلى نهاية العالم ، ولما

وجدنا فرقة باسم الإسلام تخرج على الإسلام ، والدين مصدر الوحدة لمعتنقيه في العقيدة واللغة والآداب والسياسة . أما وحدة العقيدة فرب واحد ، وأما وحدة اللغة فلسان واحد ، وأما وحدة الآداب فطراز حياة واحد ، وأما وحدة السياسة فقانون واحد ، وقوام الإنسانية هو هذه الأربعة لا تفتقر معها إلى عنصر آخر .

فاختلاف العقيدة كان سبباً في تعدد الأديان وهو اختلاف السبل في تصور الخالق الذي هو مصدر تفكير المخلوق ، واختلاف اللغة كان سبباً في تعدد القوميات ، وهو اختلاف السبل إلى تعايش سلمى واحد ، واختلاف الآداب كان سبباً في تعدد الأفكار ، وهو اختلاف السبل إلى تصور حياة واحدة ، ثم نرى أن اختلاف السياسات يقضى إلى تعدد القوانين وهو اختلاف السبل إلى انتهاج حكم واحد ، وعلى ذلك كله بنى التنافس والتناحر ، وقامت العصبية ، واستفحلت الأنانيات فردية وجماعية ، وكادت الحياة فوضى ، وحال ذلك دون السير بالإنسانية إلى الأفق الكوني الرحب الذى يخلطها بغيرها من عوالم الوجود . فتأخر الإنسانية وتقهقرها ، ثم استمرارها على هذا التقهقر حتى انحدرت إلى مستوى الحيوانات ، هذا التأخر وذلك التقهقر إنما نشأ عن تعدد السبل في التماس الحياة ، وتعدد هذه السبل ناشئ عن تعدد الأديان ، فالفكر الإنسانى يطمح دائماً إلى ترقية الحياة وتنميتها ، فاذا وقف دون طموحه تعدد السبل إلى التماس الحياة ، قطع شطراً من قواه فى اكتناه تلك السبل وتخبر الصالح منها ، ولعل هذا الاكتناه هو كل أجل ذلك الفكر ، فإينتهى من تعليل السبل واختيار الصالح منها حتى يكون قد فقد الصالح من قواه .

فالله يريد لنا الحياة ، ونحن نريد الموت ، لأن الحياة ليست زمناً محدوداً وإنما هى خلود ، فاذا أنزل علينا الشرائع من لدنه ، فأنما يريد لنا الوحدة النوعية التى كانت سبب أزليته فى وحدته الفردية ، وهذه الوحدة فى النوع إنما تقوم على الرقى المستمر الناشئ عن وحدة الدين القائمة على وحدانية العقيدة واللغة والآداب والسياسة ، فاذا اختلت عناصر هذه الوحدة ، حال ذلك دون استمرار النوع فى الرقى ، فكان ذلك سبباً للتقهقر الإنسانى المفضى بنوع الإنسان إلى

افتقاره لحياة يشارك فيها العوالم الدنيا كالنبات والحيوان والجماد .
ولهذا كله نرى الإنسان يصعد في بعض العصور إلى حيث يشرف على
الخلود أو يتنسم ريحه ، ثم نراه في بعض عصوره ينحدر إلى حيث يشارك الحيوان
في حياته ، ذلك لأنه أفنى قواه العقلية في الحيرة بين اختلاف السبل المفضية به
إلى الحياة ، فلو سادت الوحدة هذه السبل لما كانت الحيرة ، ولتوفرت قواه
على استمراره في الرقي المفضى به إلى الخلود النوعي فالخلود الفردى آخر الأمر ،
لأن خلود النوع هو الطريق إلى خلود الفرد المنشود .
فالم يرق النوع لا يرق الفرد وإذا لم يرق الفرد لا يصل إلى الخلود المعبر عنه
بالجنة حيناً وبالفردوس الأعلى حيناً آخر ، ورقى النوع الذى هو أساس لرقى
الفرد ، إنما يقوم على وحدة الدين في العالم ، فان اختلاف الأفراد التى تشكل
النوع في مصيرهم إلى الحق هو الحائل الأول دون بلوغهم ذلك الحق ، وكما أن
تشعب الطرق إلى الهدف يستهلك حياة السالك إليه قبل بلوغه ، إذ المفروض
في تخير الطريق المستقيم إلى الغاية ، البحث والتفكير وقد يقطع السالك حياته
في هذا التفكير وذلك البحث قبل أن يشخص إلى الغاية من بحثه وتفكيره .
فليتنظر ألفكر إلى أى مدى تذهب جهود الإنسان في طلب الحياة من وراء
اختلاف العقائد واللغات والآداب والسياسات ؟؟ المعبر عنها باختلاف الدين ،
وكم يفصحى الإنسان من وقته في عالم متعدد اللغات والقوميات والآداب والعقائد ،
ولننسى هذا الفرد العربى الذى يلتمس الحياة ، وكيف يصلها ؟؟ فقد يصرف
الخطر الأكبر من حياته في دراسة لغة غير لغته ليتعلم أدباً غير أدبه أو فناً غير
فنه أو قانوناً غير قانونه في سبيل تخرجه أديباً أو فناناً أو محامياً أو طبيباً ،
وكم تحتاج كل أمة إلى إمكانيات تستطيع معها تثقيف أبنائها تثقيفاً كاملاً
يضمن لها الحياة ؟؟ وكم يحتاج كل فرد من كل أمة إلى توضحية بماله ووقته في
سبيل هجرته إلى أمريكا أو أوروبا ابتغاء ذلك ؟؟ فلو كان الدين واحداً لكانت
اللغة واحدة ولزالت العصبية فزالت القوميات بزوالها ، ولسادت الوحدة
العالم آخر الأمر ، فكان من وراء ذلك كله رقى يضمن للإنسانية خلود النوع
المفضى بأفرادها إلى حظيرة الخلود .

كم تبذل كل أمة من جهود في ترقية لغتها من وراء تعدد اللغات في العالم ؟؟
وكم تبذل كل أمة من جهود في سبيل قوميتها من وراء العصبية القومية ؟؟
ثم كم تبذل من جهود في المحافظة على هذه القومية ؟؟ أفلا نسمع ونرى هذا
التناحر الذي يهدد العالم في كل لحظة بالدمار والفناء ؟؟ أفلا نسمع ونرى وقف
الجهود العقلية في نوع الإنسان على تدمير الإنسان من وراء تعدد القوميات الناشئة
عن عصبية الإنسان لقومه أو لغته أو بلده ؟؟ فلو كان العالم كله وحدة دين لكان
وحدة لغة وعقيدة وسياسة وآداب ، ولوفر على العقل البشري جهوداً كثيرة
يكرسها مع الوحدة للعمل على رقي الإنسان إلى عالم الخلود .

ويتمثل صدق هذا البحث في الأمم التي عملت بهذه الوحدة كالولايات
المتحدة وكالاتحاد السوفياتي ، فانهما حققتا في رقيتهما وحدة العقيدة ووحدة
السياسة ووحدة اللغة ووحدة القومية ، فكانتا بذلك سيدتي عالم الأرض اليوم ،
وقد أخفقت بريطانيا وفرنسا وأسبانيا قبلهما في تلمس أسباب هذه السيادة عن
طريق وحدة اللغة والسياسة إذ فاتها وحدة العقيدة والقومية ، فلم تواس بين
البريطاني أو الافرنسي الأصيل وبين غيره من رعاياها الطارئين ، وإنما جعلت
ممالكها اتحاداً لا وحدة ، وجعلت الأصيل من رعاياها مبرة على الطارئ تكاد
تمثل السادة والعبيد ، بينما نجد أمريكا حتى الآن تكافح هذه الفروق بين رعاياها ،
ونجد فرنسا وبريطانيا حتى اليوم تمنع في توثيق هذه الفروق ، فكانت عاقبة
هؤلاء الانحلال وعاقبة أولئك التماسك والصمود .

إن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله
صدق الله العظيم .

مَحَرَّرُ اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ

كنت أيام وجودي في العراق أواخر الحرب العالمية الثانية ، كنت أختلف إلى معاهد التدريس بين بغداد والمدن الثلاثة التي تضم رفات أهل بيت الرسول : النجف وكربلاء ، ثم الكاظمية ، أقول : كنت أختلف إلى معاهد العلم في هذه المدن لأضع نواة كتابي : « وحى الرافدين » عن حركة العلم في العراق قديمه وحديثه .

ولقد راعني في أحد هذه المعاهد من إحدى تلك المدن شيخ جليل وقفي الخوض فيه على سمو في الشخصية لم أجدها في غيره من زملائه في تلك المدينة ، كنت مأخوذاً منه قبل كل شيء ، بسمو البيان وهو يقرر بحثه ، ثم بطلاقة الوجه وسحر الابتسامة ووداعة الروح وهو يتحدث إلى جلسيه ، وكنت طوال أيامي في هذه البلدة الحبيبة إلى نفسي برفات من تضم من أهل البيت ، لا يفوتني صباح أطلع منه جمال تلك الشخصية وجلالها في مسجد الإمام ، أو في منتدى هذا الرجل الذي يملك النفوس بشخصيته هذه .

ويا لتينك العينين كم كانتا توثران في نفسي وهما تشعان على من نور الإيمان ، ودماثة الخلق ، ورقة الطبع مما جعلني أطمئن إلى أن مادة الكتاب الذي أنا في سبيل وضعه ، غنية بالحق من سيرة هذا الرجل ، ولقد كنت مطمئناً حقاً إلى ما نقلت عنه وقلت فيه ، وكان شخصه أحد الأعلام التي قام عليها الجزء الأول من كتاب وحى الرافدين .

وكان يأسرني في مجلسه أحد أنجاله وهو يسترسل في الحديث عما رأى في العالم الغربي من غرائب حيث كان يدرس للدكتوراه ، وكان هذا الشاب مبدعاً في حديثه ، صريحاً في حكمه على الأحداث ، متحرراً من كل ما يقيد به العرف من مجاملة أو رياء ، وكان حسن النكتة خفيفاً على روح جلسيه ، حاذقاً فيما

يقص ويستطرف من فكاهة أو نادرة ، حافل القلب والوجه واللسان بكل ما تمت به إلى ذلك الشيخ الجليل من نسب .

وكننت طوال أعوام الخمسة التي أزور فيها العراق لإخراج كتبي الثلاثة : وحى الرافدين ، وبين النهرين ، ومن يسمع ، كنت كثير الذكرى لهذا الأب وذلك الابن ، وأود لو أن بينهما روح القدس لتتم عناصر اللاهوت المهيمن على العالم ، وكننت أول ما أطأ شاطئ دجلة أجعل همى النزول في تلك البلدة التي أصبح فيها وأمسى جليس هذا الشيخ وإلى جنبه ذلك الشاب ، دونما سبب إلا أنني أحبيتها لما فطرا عليه معاً من مزايا تتصل بنفسى ، جلال القدم في الشيخ وجمال الجدة في الشاب ، وقد كنت ولا أزال مقتوناً بهاتين الخلتين أطويهما في صلبي ما حييت .

ومر بي عام بعد إنجاز هذه الكتب فاذا بي أسمع ، ويا هول ما سمعت ، ان هذا الشيخ الذي أسر نفسى بجماله وجلاله ، يعاني سكرات الموت في لبنان ، وقريباً من بلدى فاهرع إلى حيث يتولى تمريضه صديق له من كبار الفقهاء الذين زاملهم أيام دراسته الأولى ، وأدخل عليه حجرته وهو مسجى في فراش احتضاره ، وقد سبقني إليه من أعلمه بي ففتح عينيه ولكنه لم يكدر يرانى ، فاضطربت لمنظره الخفيف بسواد وجهه ، وتقلص شفتيه ، وانطفأ عينيه ، كأن لم يرعنى فه أمس بتلك الابتسامة ، ولم تأسرنى عيناه بذلك الإشراق ، وعبتاً حاولت أن أملك عبرتى ونشيجى بينما كنت واثقاً أنه لم يشعر بي ، وأنه مشغول عنى بهول ما يقدم عليه ، ثم لم تمرر بي تلك الليلة حتى علمت بفراقه الحياة . وبعد عام أو أقل أو أكثر قليلاً سمعت بأن ذلك الشاب الطريف الغصن ، والعذب الحديث ، والذي كان يطارحنى إلى جنب أبيه الشيخ روعة الأدب ، وحصافة الرأى ، وسحر النكتة ، سمعت بأن داء أعبى الأطباء قد نزل به ، فأفقده وعيه وليث أياماً لم يهجع في لياليها طرفة عين وهو يصيح ويستغيث ولم يقو طبيب على تشخيص دائه ، كما لم يدرك طبيب قلبه علة أبيه ، حتى لحق به ، فلم أكن للنبا الأخير بأقل ذعراً ورهبة منى للنبا الأول ، وبقيت سنين ثلاثاً على ذكرى أئمة الهدى الحادين للدين لم يسبقهما حدث ترك في نفسى ما تركاه من أثر .

وتدور الأيام فاذا بي على ضفاف النيل في مصر مع ثلة من الأصدقاء العراقيين وفهم الدكتور عبد الرزاق محي الدين ، ويكون حديثنا هذه المأساة إذ قلت له : ألا تنبئني عن سبب هذه الفاجعة التي أذعرتني زمناً ليس بالقصير ، كيف كانت ؟؟ وفيم حدثت ؟؟ فطوت شيخاً لم يجز كهولته ، وقصفت شاباً لم يجز عنفوانه ، ولما يزل في أيام عرسه ؟؟

أفهم أن لكل موت سبباً ، ولكني لم أفهم لموت هذين بهذا الشكل من سبب ، لا الطبيب أدرك العلة ، ولا المريض أفصح عنها ، ولا العائد خرج من عيادتهما وهو مطمئن إلى أن موتهما كان بقضاء وقدر ، فهز صديقي رأسه ثم قال : أتحب أن تسمع السبب في موت هذين ومعها عقيلة الشيخ لماذا فاجأهما الموت في غير أجل ، وعلى غير انتظار ؟؟ فقلت : أي والله اني لأرجو أن أسمع ذلك منك . فقال :

لقد علق هذا الشاب أول صباه فتاة كانت تخدم أهله ، وكانت ، كما سمعت ، على قسط وافر من الجمال والفتنة ، وحاول الشاب أن يغويها فأبت عليه ، وأصر فاستعصمت واعتصمت بعفافها فكان ذلك أدعى لأن يتهالك الشاب عليها ويتلذذ في حبها ، وصارحها أخيراً بأنه يجد في حبها ولا يضر لها السوء ، فصارحته هي أيضاً بأنها ليست متعة ولكنها فتاة حرة تريد أن تكون زوجة فان شاء كانت له كذلك .

فتهيب الشاب وعدّها بالزواج لأنه يعلم أن ذلك يغضب أهله فستوى أسرة الفتاة ينحدر عن مستوى أسرته ، وعبثاً حاول أن يتزوجها سرّاً ويترك إعلان الزواج لظروف المستقبل ، فلم تستجب له إلا أن نخطبها أبوه وأمه ، ويكون عرسهما عرس زوجين كريمين متكافئين ، ثم عبثاً حاول بعد ذلك أن يصبر عنها حتى أشرف على التلذذ في حبها فعمد إلى مصارحة أبيه وأمه ، وأعمل قواه الفكرية ، وأسلوبه المقنع في استرضائهما فلم يفلح ، وأخيراً أعمل الوساطة من خارج الدار متلججاً بأصدقاء أبيه وأمه حتى نجح في أن يكون القران قاصراً على أسرته الاديين دون إعلانه في المدينة ، وقنعت الفتاة بذلك وكان العرس ثم كان الزفاف ومر بالعروسين سنون أغدقت عليهما بنين وبنات نشأ معهم للأبوين أسرة جعلت

الأب على الاستقلال عن أبويه فاستقل بزوجه وبنيه .
ويقيم أبو الأسرة الجديدة ، بعد أن جاز القمة من شبابه أو كاد ، على أن
زوجه لا تشبع نهمه الجنسي ، وأنه في حاجة ماسة إلى تجربة ثانية يتذوق بها فتاة
الخلد والقصر بعد أن ذاق فتاة الكوخ والفقر ، والمرأة إذا انكشفت عن عدة
بنين أفل عنها الجمال الذي تأسر به قلوب الرجال ، فأحست ذلك منه وعرفت
أن زهرتها قد أشرفت على الذبول ، وأنه لم يبق عندها ما تغويه به من لون ولا
عطر ، وأنها لم تغلح في استهوائه بما أثمرت منه ، صبية كحب الجمان يتلأأ
بن يديه . فطوت كشحها وأغضت على مضض تسبخ حناها على فلذ كبدها
وتعاشره بالحسنى دون أن تخرج صدره أو تثير حفيظته .
ورجع هو إلى أبويه يصوبهما فيما رآياه من قبل إذ حاولا جهدهما أن يقنعهما
بالعدل عما فكر فيه من الزواج بمن لا يدينها منه شرف النسب ولا نبيل المحتد ،
فأقر نخطأه وعهد إلى استعانتهم على الزواج من فتاة نبيلة تنجب له أولاداً نبلاء ،
فنزلاً على حكمه واستعرضا بيوت الأسر الرفيعة حتى وقفوا على أسرة في لبنان
عريقة النبل ، كأستهم أو قرينة منها ، ويذهب الشيخ بنفسه ، على جلالته
قدره ، لإنجاز الخطبة مستجيباً للأم وللنصرة القائمة على العصبية الجاهلية .
يذهب هذا الشيخ بنفسه تاركاً جماعته الذين يأتمون به في الصلاة كل يوم ،
وتاركاً تلامذته الذين يدرسون عليه فقه آل محمد ، للسعى في أمر أقل ما يقال
فيه ، أنه تشريد أسرة مؤلفة من أولاد صبية لا يزالون كزهر الروض المطلول ،
ومن أم يصفها نساء البلدة بأنها خير أم عرفها جلالاً وكمالاً ، وتم الخطبة على أن
يكون القران مشروطاً بطلاق الزوجة الأولى ويجرى الطلاق في ندوة الشيخ ،
وتؤمر الأم بأن تخرج من البيت دون أن ترى زوجها أو أن تصحب ولدها ،
أو أن تزود بشئ من المال مقابل مهرها الذي تنازلت عنه يوم زواجها حباً
بالزوج واسترضاء لأمه وأبيه ، فخرجت هائمة على وجهها لا تدري أين تذهب؟
ولكنها وهي تمسح دموعها ، وتفكر في مصيرها إلى حيث لا أب ولا أم ،
ولا قريب ولا عشي ، أنها شريدة وريية فقر وبؤس ، أوتحت على صغر ،
والثقلها أبوا زوجها لتخدم فتأكل ، فاطمأنت ونجبت آنذاك ثم أنجبت وكان

لها هذا المصير المحتوم ، ذهبت تفكر فهداها تفكرها إلى المسجد الذى يضم رفات الأئمة من أهل البيت ، لتشكو إلى ربها ظلامتها ، وما أسرع ما لبثت هذه العقيدة الراسخة فى النفوس المطمئنة المؤمنة الحية ، حتى إذا دخلت المشهد ، وقفت حيال رأس الإمام تستقبل الكعبة ودموعها تغشى عينيها من أن ترى ، وقلها يسبق لسانها بالدعاء ، والله قريب من داعيه ، وسامع شكوى المظلوم المؤمن به والمقبل عليه .

وتغادر المسجد فتلقى إحدى صواحبها خارجة فتنبأها حزنها وترثى صديقها لها فتصحبها إلى منزلها ثم تبحث شأنها مع أسرتها على أن يسعوا بها إلى أهل الزوج فى سبيل إغايتها ، وأنها تتنازل عن زوجها على أن تضم أولادها إليها وتكون خادماً لهم لم تحلب عليهم وتعيش معهم أبسط العيش ، فرفض الأبوان ويعلمان تعاليمهما على تربية الزوجة هذه لأولادهم إذ ليس لها ما يؤهلها لأن ينشأ فى حجرها ولد منهم .

وتستعين بعد ذلك بصديقتهما على اكتراء حجرة فى بيت متواضع تعمل فيه بيدها ما أتقنته فى صباها من حياكة القلانس والجوارب ، ثم انقطعت إلى البكاء ، وهى تعمل ، دائبة على بث خزنها وشكواها إلى الله فى مشهد الإمام صباح مساء . ويتحدث عنها نساء البلدة أنها قطعت ذلك العام وهى تنسج وتنسج لم ترقأ لها عبرة ، ولا جف لها جفن ، حتى انتهى العام بموت أم الزوج ، وقد كانت أقسى أهل البيت عليها ، ثم تبعه موت الأب كما رأيت ، وتبعها موت الابن الشاب بعد أن عقد وأعرس وأولد السنة الأولى ، فكانت هذه الفاجعة بعلم كل من عرف الزوج وأهله ، أنها نشأت عن ظلمهم لتلك الفتاة الشقية البائسة ، وأن الله قد شاء رد ظلامتها . وعرف حتى من بقى من الأسرة سر هذه المأساة فأعاد هذه الأم إلى أولادها وأجرى عليهم من مال الزوج ما يضمن لهم الحياة »

وما إن أنهى صديقى حديثه حتى شخصت ببصرى إلى السماء قائلاً : اللهم لاتأخذنا بظلم ، وتول بنفسك دفع الظلمات عنا ، اللهم إنا نشهد مع رسولك : أن ليس بينك وبين المظلومين حجاب ..

... إِنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي
تَرَكَهٗ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى
تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمْسُكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ .

عَلَى

كنا ، ونحن أغرار نستقبل الحياة بقلوب فجأة وعقول هوج ، كنا نتساءل
إذ نمشي بظلم أو هضم على يد قاس جبار ، وإذ نصاب من بلاء في فقر أو سم
في طعام ، وإذ نساء بضيق أو حرج من جليس ثقيل أو عدو لا بد من صداقته ،
أقول : كنا إذ ذاك نتساءل ؟؟ لماذا ألزم الله نفسه وأرهب عباده بخلق الجبارة
والثقلاء ، ثم لماذا فطر بعض الناس أو الأشياء على الضرر وأنشأهم من جبلة
السوء ؟؟ كنا نتساءل بذلك ونعجز عن إدراك السر من خلقه ذاك ، ثم نفرض
على مضض ونسر في أنفسنا الجهل بذلك والسخط منه .

حتى إذا وردت أمريكا للمرة الثانية ، وأنا في مطلع كهولتي أودع الشباب
العارم وعهده الحافل بالغرور ، والغنى بالآلام والآثام ، وتفتحت أبواب المعرفة
بين يدي ، وشخصت مفاتن الحياة أمامي ، وبدأت أتحسس من أسرار الوجود ،
وأشعر بواجب الإنسان تجاه نفسه وغيره ، واستجابت لي الدنيا ، وواتاني من
العيش ما لم أكن أحلم به ، أدركت فجأة إذ ذاك أنني كنت أغلف القلب ،
مظلم النفس ، مغلق الفكر ، فعمدت ، على ضوء حياتي الجديدة ، إلى تطهير
نفسي من أوضاع الحياة ، وبدأت أشعر بالرسالة الملقاة على عاتقي فيما أقول
وأفعل ، .

وكان الدين همي الأول فيما أفكر ، فعدت إلى الإيمان في اكتناه الحياة
وما تحمل من أسرار ، فجاشت في صدرى عوامل التربية الأولى في بيت أبي
وبين إخوتي وعشيرتي وقومي ، كيف كان القرآن دستورهم في معاشهم ، وقفه
أهل البيت مذهبهم في الحياة ، مطمئنين إلى أعمالهم مهما شقت عليهم ، وإلى

معادهم معها بعد عنهم ، يرون أنفسهم غرباء في دار لم يخلقوا إلا ليغادروها ولو مكرهين ، أقول :

.. لقد جاشت في صدري إذ ذاك ، وأنا في نعيم سابغ ، عوامل تلك الحياة البسيطة ، وكيف كان أُنِي يعيش ونعيش معه في هذا الأسلوب الدامي من عناء العمل بن يدي طعام تتلغنه أو لباس نتلفع به ، أو شهوات نطفئ معها حرارة النفس الأماراة بالسوء ، ثم لا نجد فسحة من العمر نلتفت بها إلى الورا فنفكر فيما كنا منه ، وإلى الأمام فنمعن في التفكير بما كنا له .

لقد عدت أفتح صفحات حياتي الأولى ، بعد أن طواها الزمن أعواماً كنت خلالها أهبط سلم الحياة دركة دركة حتى بلغت الدرك الأسفل منها فوقفت أشخص إلى أعلى السلم بقلب واع وأذن سمعية إلى همس الحقيقة ينساب إلى أذني من خلال الضجيج المادي الذي طغى على سمعي فأصمه وعلى بصري فأعماه . أقول : لقد عدت إلى طلائع صحيفتي الإنسانية ، أقرأ وصايا أُنِي فيها بارزة واضحة ، فأراه وهو يروح ويغدو بذكر ربه ، ثم هو يقوم ويقعد بذكر ربه ، ويأكل ويشرب بذكر ربه ، لا يغفل ساعة أو لحظة إلا وهو ذاكر ربه بالحمد والسبحان ، على أن هداه إلى الحق بغير علم ، وجنبه الباطل بغير حرمان .

وأراه ، وهو في حشد من أهل قريته ، نمعن في العظة ويتخير لهم النصيحة ، ويحذروهم الهلاك بالمرور من الدين أو الشك فيه ، أو التهاون به ، ويقرر في نفوسهم قوله صلى الله عليه وسلم : من زهد في الدنيا علمه الله تعالى بلا تعلم ، وهداه بلا هداية ، وجعله بصيراً ، وكشف عنه العمى « ثم أراه وهو مسجى على فراش موته نمعن في النظر إلى وجهي ووجه أمي فتقول له : أوصي محمداً في يا أبا حسن ، فيقول لها : انه لا يحتاج إلى مثل هذه الوصية ولكني أوصيه بالصلاة ... »

كل هذا بعث في نفسي ، وأنا أجوز الشباب إلى الكهولة ، أن الحياة صلاح وتقوى ، وأن العلم تفكير وإخلاص ، فعزفت إذ ذاك عن كل ما يهر عيني من زخرف الحياة ، وأمعنت في اكتناه جوهرها فرأيتها نوراً لا يتبينه إلا من فكر فيها وأخلص في تفكيره . فكنت كلما تعرضت لقول أو عمل لا علم لي

بما يفضي إليه ، أسررت في نفسي الإخلاص فيما أقول وأفعل ، ثم سألت الله أن يعصمني من التهافت ، فما ختمت مقالاً ولا أنهيت عملي إلا وأنا مطمئن إلى أني كنت فيهما على حق .

ولقد سألتني بعض المهاجرين العرب في ولايات أمريكا الشمالية المتحدة ، ولعل ذلك كان في مدينة ديترويت مشغن ، وفي منزل الشيخ عبد الله برى ، وهو أديب عاملي ، سألتني عن الشر لم يخلق الله ثم ينهي عنه ؟؟ وكانت مفاجأة لي عمدت في الجواب عنها إلى طريقي الخاصة بي ، وهي التوجه إلى الله ثم الإخلاص فيما أقول : فأجبت فوراً : إنما خلق الله الشر من أجل الخير ، قال : وكيف : قلت لولا الشر لما عرفت الخير ولولا القبح لما عرفت الجمال ، ولولا الغباء لما أدركت الذكاء .

وكنيت أحسب أني بذلك فتحت باباً لم يفتحه أحد قبلي حتى إذا وقفت على كلام الإمام في صلب هذا البحث فإذا به يسبقني إلى معناه أكثر من ألف عام ، وهكذا كنت .

في مدينة « بونس ايرس » عاصمة الأرجنتين في جنوب أمريكا : أصعد المنبر للخطابة في نادى جمعية التعاضد الإسلامى لأبنائنا المهاجرين العرب ، كنت أصعد على رأس كل أسبوع لأعظهم دون أن أعد في نفسي شيئاً من القول أو الفكر ، معتمداً على هذه الطريقة وهي نية الإخلاص للحق فيما أقول ، فأبدأ القول بما يحضرني ساعتئذ من آية في القرآن أو حديث في السنة أو بيت من الشعر ، أستحضر واحداً من هذه لدى صعودي المنبر واستوائى عليه ، فإذا بالمعاني التي تتدفق على قلبي والبيان الذي يزخر به لساني ، تملأ نفوس المستمعين عظة وعبرة ، و تملأ قلوبهم محبة وإعجاباً .

وكنيت أحسب أني مبتكر لهذه الطريقة حتى قرأت مقدمة للرئيس ابن سينا في أحد مؤلفاته يقول ما مضمونه : كلما استعصى على بحث علمي شائك معقد عمدت إلى الصلاة فإذا بي أخلص من ذلك التعقيد إلى الحل الذي يقره العلم » فأوقن إذ ذاك أن ليس لي بكر هذا الفكر وإنما سبقني إليه غيري أكثر من

ألف عام ، فأعود مردداً قول القائل : لاجديد تحت الشمس ، وقول الآخر :
ليس في عالم الفكر جديد إلا ما غاب عنك قدمه .. »
لعل منكراً علينا يتساءل ؟ كيف يخلق الله الشر فيما أجبنا عنه آنفاً ؟؟
والقول على ذلك يستدعى تبسطاً في البحث أفضنا فيه بين الفصول التي يتألف
منها كتابنا « الأصفياء » وما سبقه من كتب كبلاسم ووحى الرافدين ، على
أن اقتضاء البحث هنا لشيء من هذا التبسط لازم ، ولعله أدعى إلى الخوض في
الشر والخير مما سبق عليه القول .

إن الشر المنسوب إلى الخالق تعالى إنما هو العنصر الأول الذي يقوم به الخير
والشر معاً ، فاليد الذي تقتل بها وأنت مسيء هي عين اليد التي تتصدق بها وأنت
محسن ، واللسان الذي تكذب أو تشتم أو تغتاب به هو عين اللسان الذي ترشد
وتعظ وتدعو الله به ، وهكذا قل في السيف الذي تعدل به وتظلم ، وفي القلب
الذي تقسو به وترحم ، كل هذه الوسائل من خلق الله مباشرة ، فيكون الشر
أو الخير الناشئ عنها من خلقه تعالى ولكنها بواسطتك .

هكذا نستطيع أن نعلل نسبة الشر والخير إلى الله ، وأما نسبتها إلى الإنسان
فعلى اعتبار أنه مختار ، والاختيار صفة تحول صاحبها السلطة على ما يختار إن
كان في مقدوره وإلا كان الجبر الخارج عن موضوع البحث ، فلم يكن الله
ليجبر ولكنه يحر ، والله إنما وهب الإنسان صفة الاختيار ولم يجبره على ما يحب
لأمرين : أولهما إشعاره بالحرية التي هي أسمى صفات الإنسان ، والتي يمتاز بها
عن غيره من خلق الله الذي يشاركنا في الحياة على هذه الأرض .

وثانيهما : إشعاره بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها على ما يقول
وفعل وهو مختار ، إن خيراً فخير وإن شراً وشر ، لأن الجبر الذي هو نقيض
الاختيار لا يوجب هذا الحساب ، ولأن الله تعالى إنما يعاقب أو يثيب على
ما يفعله الإنسان باختياره لا على ما يجبر عليه ، من أجل ذلك أعطاه الله صفة
المختار المسلط على الخير والشر يختار منهما ما يشاء دونما جبر أو إكراه ، فهي
من الصفات التي يشارك الإنسان فيها ربه ، كالإحسان والكرم والعزة والخبرة
واللطف وغيرها من أسماء الله الحسنى .

من هنا يتبين لنا بوضوح ما يعنيه الإمام بقوله : لن تعرفوا الرشداً حتى تعرفوا الذى تركه ، وهو الضلال ، فتتركوا الميزة بين الضلال والرشد ، فكان إذن من الضرورة خلق الضلال لمعرفة الرشد ، ثم يقول الإمام : انكم لن تأخذوا بميثاق الكتاب الذى هو القرآن حتى تعرفوا الذى نقض هذا الميثاق ، بماذا نقضه ؟ وماذا جنى من نقضه ؟؟ وكيف انحدر من وراء هذا النقض عن أبناء جلدته الذين إنما خلق ليحيا معهم فى هذه الدار ؟؟ ثم يقول : لن تمسكوا بهذا الميثاق حتى تعرفوا الذى نبذه « وهو إمعان فى تقرير القول السابق ، وهو غنى عن البيان .

يعجبني من ضروب التمثيل بين يدي هذا البحث : ما يرويه التاريخ لنا من قصص الماضين تحت عنوان : سوداء العروس ، انهم كانوا إذا زفوا عروساً بيضاء ، أجلسوا إلى جنبها امرأة سوداء لتمتاز بما وهبها الله من جمال اللون ، وقدماً قال الشاعر : وبضدها تتميز الأشياء « وهكذا يقول المؤمن إذ يرى فعل الكافر الخارج به عن إنسانيته : أحمد الله على أن هداني للإيمان « ويقول الصحيح إذ يبصر المريض وهو يتململ تحت آلامه : الحمد لله الذى عافاني مما ابتلى به غيري «

فخلق الشر ضرورى لمعرفة الخير كما أن خلق البغض والقبح ضرورى لمعرفة الحب والجمال ، وأشد ضرورة من هذا وذاك تقويم الإنسان بالاختيار الذى نجوله السيطرة على الخير والشر معاً لئلا يكون له الحجة على الله فيما يقول أو يفعل .

إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا ...

الله

في مطلع هذا البحث أحب أن أسوق للقارئ حادثاً مر بي وأنا أمتن التدريس
إبان شبابي في قرية شقراء من « جبل عامل » ، لا يزال ذلك الحادث موضع
غربة و غظة وتفكير مني ، ولا أزال أتمثله في كل سر من أسرار الطبيعة التي
تمر بي في رحلاتي ، ذلك الحادث هو :

أن صديقاً لي كان يملك الأمر والنهي في هذه القرية ، وكان سيداً مطاعاً
في أهلها ، وكان زقيقاً بهم ومحسناً إليهم ، وكان يبتغى محبة الضيفان ومنتدى
الأدباء والعلماء ، ولم يكن لي مفزع غيره في غربي ووحشتي ووحلتي ، ذلك
الصديق هو المرحوم عبد الحسين الأمين ، ولقد ألفت بيني وبينه خلال تلور
حول الأدب والشعر العريقين فيه ، وكانت أيامي عنده حافلة بروعة شبابي وأبهج
أيام حياتي ، ولا تزال ذكرياتها زادا لتغذية روحي وتنمية أفكاري .

يدخل علينا هذا الصديق يوماً ما ونحن في نديبه ، نتنلر ونستعرض غرائب
التاريخ فيقول : اسمعوا ما تعجبوا له مما لم أصدقه أنا نفسي لو تحدث لي به
غيري ، فشخصنا إليه منصتين فقال : ان من عاذق ، وأنا في فراش نومي
أن أطلع في كتاب أضعه إلى جانب رأسي بضع دقائق قبيل النوم ، وتعلمون
أنى لا أستطيع القراءة نهراً بغير منظار فكيف بالليل ، ويشاء الله أن أنسى
نظاراتي ليلة أمس في جيب المعطف والمعطف على المشجب وقد تدرت في
الفراش والبرد قارس فتعاجزت عن النهوض لجلب المنظار وحاولت المطالعة
عنباً دونه ، كما أنى عنباً حاولت النوم بدون مطالعة »

« فتحاملت على نفسي ونهضت إلى المعطف وعدت بالنظارة وطالعت
ما شئت حتى أغفيت ، وما أروع ما دهشت له في صباحي إذ رأيت إطار
النظارة بغير زجاج ، ثم عمدت إلى جيب المعطف فوجدت الزجاجتين قد سقطتا
فيه من النظارة دون أن أشعر ، وكانت مطالعتي قبيل النوم قائمة على اليقين بأنى

إنما أتصفح الكتاب من وراء الزجاج ، فاقولكم دام فضلكم في معجزات الحياة التي لا يقوى العقل على تبين أسرارها مهما فكر وقدر ؟؟

وقضية أخرى : تحدث أبي إلى عن نفسه أو عمن يثق به ممن لا يعتقدون بالمشعوذة ، انه أقبل يوماً ما على ساحة القرية فرأى لمة من الناس قد سادهم الهرج وبينهم جمل ، فسأل بما حدث ؟ فقيل له : ان ساحراً يدخل من فم الجمل ويخرج من دبره ثم يدخل من دبره فيخرج من فمه ، قال الراوى : فدخلت في الجماعة وقد شأهت وجوههم وجحظت أعينهم وران العجب على نفوسهم فكأنهم في غيبوبة ، ثم أثبت بصرى في عمل المشعوذ فاذا به يدخل بين يديه البعير ويخرج من بين رجله ثم يرتد معكوساً فيدخل بين رجله ويخرج من بين يديه وقضية ثالثة : كنت ، وأنا صبي ، أسمع بغرائب القصص تتحدث بها العجائز عن عين الحاج حسن ، وما أدراك ما عين الحاج حسن ؟؟ انها بئر نابعة عميقة في وادٍ يحيط من بلاد الشقيف في جبل عامل ، عمرها المسافرين من الساحل إلى الجبل ، يتحدثون عنها : ان فيها جنناً يتمثل بأشكال ، وكل من نزها رأى هذا الجان على شكل خاص ، ولما بلغت رشدى مررت بذلك الوادى وشربت من ماء تلك العين ، وكان معى رفاق تطارحت وإياهم حديث هذه العين في ماض من الزمن ، فقال بعضهم :

لقد كان مارووه حقاً من أنها كانت مشهودة بساكن غير انسى . ولقد نقل لى من لا يصرفه عن الحقيقة وهم ولا خيال : قال ، مررت ليلة ما في ذلك الوادى وأنا أجتاز في عودى من الساحل إلى الجبل ، ولما حاذيت العين وكان حر الصيف لاهباً والظلمة نال منى ، قلت لنفسى : أنزل وأشرب ، وأنا أعلم ما يتناقله الرواة عن أحاجى هذه البئر ، ولكنى إذ نزلت بضع دركات من سلمها الصخرى ، والظلام دامس ، تنهى إلى سمعى صليل في غيابة البئر ملك على وعيى فعدت أدراجى حتى فم البئر ورأيت حمارى يتطلع إلى بغرابه كأنه أحس بما أحسست « ثم قال :

ولكنى بعد أن ملكت روعى ، رجعت إلى صوابى وتساءلت ونفسى : أهنالك حقيقة ما تفنن به الرواة أم هى خرافة كما أعتقد ؟؟ لا بد لى من كشف

هذا السر ، ورجعت الكرة إلى البئر فنزلت دركاته وأنا أشعر كأني أطأ اللبد
مما أتمسس وألهث ، ولا أكنم سامعي أني كنت مرتاعاً ولكني أغالب هذه الروعة
بالتماس عقلي وثقتي من أن جنأً له سبيل على الإنسان لم يكن في قاموس العقل »
ولما وصلت الماء وحاولت أن أغترف منه عاد الصليل كما تتحرك سلسلة
من الحديد بين يدي فرس شمس ، فعاد إلى الذعر ولكني ملكت إرادتي واغترفت
الماء لأشرب فأعجلني عنه صوت كالزمزمة لم أتبين مصدره لشدة الظلام ، ثم
تبع الصوت جلجلة ، ثم إذا بي أشعر أن شيئاً كالكتابوس انقضض على كتفي وأدلى
رجليه حول عنقي ، فسكنت غير واع وقد أصابني رعدة أفقت منها ويدي
على رجلي هذا الشيخ الذي أصبح بعد لمسي رجليه المكسوتين بالشعر حقيقة
لا ريب فيها ، ولم أتخاذل برغم ذلك كله ، ثم نهضت لأصعد وهو على منكبي
أحس بثقله وبشيء تلي منه على عجزى لا يزال صليله يقرع سمعي »

وصعدت الدرج حتى أرض الوادي ولما أزل أقبض رجليه بكل قوتي لئلا
يشرد ، ثم أنزلته وتبينته على ضوء الكواكب فاذا به قد قد أفلت من قائده
منذ زمن واتخذ الوادي مرعى والعين مورداً ومأوى ، وفهمت إذ ذاك جميع
ما رواه لنا القصاصون وما افتنوا فيه من غرائب القصص عن هذا الوادي
وساكنيه من الجن ، ولما عاد إلى روعي ربطت القرد بسلسلته إلى رجل الحمار
ثم عدت إلى البئر فرويت وأرويت حمارى واستأنفت السفر إلى حيث أقص على
الناس حديث الجن في عين الحاج حسن .. »

وقضية رابعة نسوقها في هذا المجرى : أن رجلاً في قرية مجاورة لقرتي
أصيب بمس في عقله فكان يخرج كل ليلة إلى منخفض من الأرض في ضواحي
القرية ويمكث ليله بن هرج ومرج كأنما هو في نفر من الناس حتى يصبح
فيعود إلى منزله ولم يتناول طعاماً منذ أصيب حتى عاد إلى رشده ومدة الإصابة
كانت بضعة أشهر .

ولما قيل لي إنه ثابت من غيبوبته ذهب مع بعض أصحابي إلى تلك القرية
لمشاهدته والوقوف على هذا الحدث الغريب ونزلت ضيفاً على وجيه البلدة ثم
استدعيت ذلك الرجل فجاء وسألته عما تراهي إلى من أمره فقال : كنت إذا أقبل

المساء أسمع أناساً خارج منزلي بهزجون ويغنون ثم يدعونني باسمي فأخرج إليهم ثم نمضي معاً إلى ذلك المكان ، وأشار إليه بيده وهو قريب من بيت مضيقي ، ثم تابع حديثه قائلاً :

وهناك أرى كثيرين يتقاطرون من طرق شتى ويكون لنا جميعاً مشهد حافل باللهو واللعب والرقص والغناء حتى منتصف الليل ، وإذا بسباط بمد وطعام شهى يعلوه فتنداعي للأكل كما لو كنا في عالم الوعي ، الناس هم الناس واللعب هو لعبنا والطعام كطعامنا ، ولكني لا أعرف أحداً منهم ، ولم أكن أذكر أنني غريب فيهم وأهم بعيدون عن قومي ، فاذا أصبحنا تفرقنا وذهب كل منا إلى حيث كان في أمسه .

وآخر حدث أعرضه بين يدي هذا البحث هو : أنني كنت أنام في صغري قريباً من أبي ، وكان ينهض للصلاة مبكراً فاذا أشرفت الشمس على الزوغ وكزني بأصبعه في رأسي ينهني للصلاة ، وأذكر أن مسه كان ونزراً رقيقاً ، وكنت أرى هذا المس أثقل شئ علي في حياتي أيام الصيف لقصر الليل وطول النهار الخافل بلهو الصغار أمثالي ، وذلك ما يقتضي طول المهجوع والاستجمام بالنوم الطويل .

وأياً كان فقد كنت في تلك السن التي لم تبلغ المراهقة ، كنت أتناقل من من مس تلك الأصبع ومن التلبية للصلاة ولكني مضطر لهذه التلبية وإلا حلت العصا محل الأصبع وكان الغضب مكان الرضى ، لذلك كنت أحياناً أحاول أن أنام إلى جنب أبي بحيث تكون الفاصل بيني وبينه فأقطع ليلى خائفاً من الجانب الخلاء لأنهما إنما كانا يكتنفاني في النوم ، وأنا وحيدهما إذ ذاك بعد أن خلا المنزل من اخوتي ، أقول كانا يكتنفاني ، بغية راحتي واطمئناني وحرصاً علي من برد السحر إذا انحسر الغطاء عني .

ولقد كنت أحياناً أوطن نفسي على الخوف إلى جانب أبي فتادياً من أصبع أبي العاصفة بي عند الصباح وفي أحب أوقات نومي ، ولكنه كان إذ ذاك يستعيف عن أصبعه بصوته الذي يصعب بي موقظاً ومهدداً فأقوم إلى رياضتي وأنا أجرر أذيال الخيبة فيما كنت أرجوه من سهوه أو تغاضيه عني فأعود من

غدى إلى سرتى الأولى تحامياً من الخوف وتحملاً لأهون الضررين .
 هذه بعض سرتى مع أبى فى حدائى ، ويشاء الله أن أفارق هذا الأب
 البار فى فراقاً أبدياً وأنا أتهد إلى السابعة عشرة من سننى حياتى فاذا بى مطبوعاً
 على كل ما كان يطبعنى به حتى اليقظة مع الفجر ، وما كان أحب إلى وأعذب
 لى وأخف على روى من تلك اليقظة التى تذكرنى بأبى ، ثم يطوح بى الزمن
 إلى الهجرة فى سبيل العلم بين العراق والشام ، ثم إلى الهجرة فى سبيل العيش بين
 أمريكا وأوروبا حتى تبدلت حياتى واستحال الأفق الضيق الذى كنت أفحص
 فيه إلى أفق رحب يمتد بصرى فلا يبلغ مداه .

فهل طراً على بعد ذلك ما أحال ذلك الطابع إلى طابع آخر فى حياتى ؟
 انى لأشهد بين يلى الله ، وأنا أكتب هذا البحث فى مصر الجديدة قبيل الفجر ،
 أشهد أن هذا الطابع قد أصبح جزءاً من حياتى المشرقة بى فى صباحى هذا على
 الستين من عمرى ، ومكان الشاهد من هذا الاستطراد إلى حياتى مع أبى هو
 ما أعرضه بين يلى القارئ بما يتصل بالبحث فيما يلى :

لقد مرت بى فترة غير قليلة وأنا أطوف العالم الجديد « أمريكا ، شماله وجنوبه
 وقلبه ، وكان لهذه الهجرة التى بدلت كثيراً من حياتى ، كان لها ولمثلها فى
 أوروبا أيام دراستى فى لندن ، تأثير بالغ على عقلى وتفكيرى وطرز حياتى ،
 فكان لا بد لى من أن أتأثر الغربيين فى كثير من عاداتهم وتقاليدهم حتى ظهر
 ذلك فى جل ما أنتجت خلال تلك الفترة من نظم أو نثر .

ولقد أنكر على أخيراً من عرفنى أولاً كل شئ من شكلى وعقلى ، إذ كنت
 معتماً ملحئاً أيام دراستى الفقه فى العراق ، وكان جل همى ، وأنا أمتهن الشعر ،
 أن أتأثر المتنبي وأبا تمام والشريف الموصى فى كل ما أنظم ، فأصبحت بعد
 الثلاثين من عمرى ، حاسر الرأس حليق الذقن متأثراً فيما ألبس وأكل وأنام ،
 حريضاً على التحسس من مواطن الإلهام فيما أنظم وأكتب ، ناثراً النفس وراء
 كل ما يسبغ على قوى جديد حياة ، ناقماً عليهم بلسانى وقلمي كل ما يتأثرونه
 من قدم راكد أو جديد تافه ،

أقول : لقد مرت بى فترة كادت تأكل الشطر الأخير من حياتى وأنا معن

في تأثرى هذا ، وكذلت أنسلخ من كل ما يخلق لي من تراث إلا شيئاً واحداً لم أكن أقوى على دفعه والتنكر له والانسلاخ منه ، ذلك هو الصلاة عامة وصلاة الفجر خاصة ، ولقد تعاور وتضاfer على في الحيلولة دونها كل ما ألفتته من حياة جديدة في عهد يستخفي معه كل بهرج وزخرف مغريين تحت سماء تستهوى بشياطينها ملائكة الروح القدس .

من يصدق أني كنت أستجيب أحياناً للسهر المضني بين أخوة وأخوات ، فيغلبني كرى الصباح وأشعر بكل حواسي أن أصبع أبي تلك تخزني من رأسي فأهب مذعوراً لا يثني شئ عن الوضوء فالصلاة ؟؟ ، من يصدق هذا ؟؟ أقول : لقد كنت ، إذ تأسرني خفقات الفجر أشعر بكل ما في من عصب حي ، لا حالماً ولا مهووماً ، كنت أحس إحساساً حقاً لا وهماً ولا تهووماً ، أن تلك الأصبع التي فارقتها منذ عشرين عاماً ، تخز رأسي وأسمع من ورائها صوت أبي ينهرني قائلاً : قم للصلاة يا بني « فأنفص ولا هم لي إلا إدراك هذا الوقوف بين يدي ربّي قبل بزوغ الشمس ، من أجل ذلك وثقت أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر ، وأنها الوسط بين الليل والنهار ، مهما ضعفت روايتها وقل الراوون لها .

أوردت هذا الحديث المستطرد في سياق البحث عن إمكان أن يعود الأعمى بصيراً كما يمكن أن يعود الأصم سمياً والأبكم فصيحاً لا عن طريق الإعجاز بأن يتولى الله ذلك بنفسه ، ولا عن خرق في النواميس الطبيعية ، ولكن بما حققه العلم الحديث من إمكان أن تتحكم إرادة الإنسان بناموس خلقه المفطور عليه ، والموكل تحكمه به إليه .

فلقد أحكم حب يعقوب ليوسف إرادته بمناط البصر من روحه فردت عليه هذا البصر ، كما أحكم اعتقاد صديقي الأمين إرادته بمناط بصره القاصر على المنظار فرده عليه من غير منظار ، وكما أحكمت عقيدة أبي إرادته بأن لا يصدق أن مشعوذاً يخرق نواميس الحياة ، فكشفت له عن حقيقة ما يفعل المشعوذ ، وكما أحكم إيمان ذلك الرجل بأن لا سبيل للجن على الإنس إرادته في أن تلك الصلصلة التي وعّاها وهو يهبط إلى العين ليست خارجة على الطبع الإنساني .

وهكذا نستطيع تعليل ما انحرفت به إرادة ذلك المجنون الذى كان يأكل ويشرب فى عالم غير عالمه ثم يغنيه ذلك الطعام والشراب عن أن يأكل ويشرب فى عالمه ، كما نستطيع تعليل إحساس من تأثر بأبيه أول ما تفتحت عيناه على الحياة ، وأمعن فى تربيته بارادة قوية وإخلاص بالغ ، حتى إذا نشأ الابن وهو يحمل هذه الرسالة ويقررها فى نفسه ، كانت إرادة أبيه جزءاً من حياته وهو يستقبل الحياة ، وللتربية الأولى أثر بالغ فى الحى إذا كشفت له الحياة عن صدق هذه التربية وتمكنها من صميم تلك الحياة .

وكذلك نستطيع أن نعلل قوة تأثير الحب فى نفس المحب إلى حد يعجز العقل معه عن تعليل تلك القوة ، وللإرادة ، فى علم النفس ، قوة لا تقوى على دفعها المادة إذا عصفت تلك الإرادة بها ، ففى كيان العائن ، من قوة الإرادة ما ينهار بين يديها المعيون من أقوى صنوف المادة ، وكم رأينا صاحب هذه الإرادة الجبارة يلحظ بعينه الكاشفة عن تلك الإرادة ، جالاً أو جلالاً راعه من مرئى له فى حيوان أو نبات أو جراد ، فيتصدع ويتفطر أمام لحظه كأنما تعرض هذا المرئى لأقوى عاصف به من حديد أو نار .

عرفت شخصاً من قريتى ، وهو عائن ، كان إذا تأثر بمنظر إنسان صرعه ، وإذا تأثر بمنظر حيوان قتله ، ثم إذا تأثر بمنظر جراد صدعه ، إذن فللإرادة تأثير قوى على المادة ، وهكذا نصل إلى أن الإرادة نفسها هى التى ردت على يعقوب بصره لدى فرحه ، وهى التى أفقدته ذلك البصر لدى حزنه ، لأن الإثبات والسلب فى إنشاء الحركة أو إعدامها سيان فى استهلاك قوى المحرك ، فقوة تأثير يعقوب بمحبته ولده يوسف هو الذى أفقده البصر لدى فراقه ، وهو الذى أعاد عليه البصر عند لقاءه ، ومن شاء ازدياداً فى تحرير هذا البحث وتحقيقه ، فليرجع إلى فصل تربية الإرادة فى نهاية هذا الجزء من الكتاب .

الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُسِرَ فِي
زُمْرَتِهِمْ

محمد

من أحب قوماً أشركه الله في عملهم « تتوالى على الألسن هذه الجملة مرفوعة إلى الرسول عليه السلام ، بعضها صحيح السند والبعض حسن والبعض الآخر ضعيف ، وأياً كان فهي متقاربة المفاهيم ، وجليلة بالصلور عن صاحب الرسالة الأعظم ، لأنها قائمة على الحب والحب في صلب محمد وفرقائه ، عنصر أول في تقويم الحياة ، ومادة أولى في ناموس الخلق ، ولعله البند المهيمن على قانون الطبع الإنساني ، والعلم الحديث يثبت أن الكائن حياً كان أو جاداً ، إنما يقوم في بقائه وصموده وأداء وظيفته على التجاذب وهذا هو الحب ، فاللذة في أى كائن ، قائمة على تماسك ما تتقوم به من نويات وكهارب ، وعلى تماسك الذرات يقوم الكائن ، وذلك ما يفسر قوله عز من قائل : وجعل بينكم مودة ورحمة .

وإذا كان الحب هو المخلوق الأول في تقويم الإنسان كما قال الحق وأثبتته العلم ، كان من الطبيعي أن تتقوم به عناصر الكائنات المسخرة للإنسان في تقويم حياته ، ولقد مر بالقارئ في هذا الكتاب كثير من أقوال العلماء المعنيين بطبيعة الكائنات الأرضية ، يثبت أن طراز التكوين واحد جاداً كان أو حيواناً ، لذلك أقرروا بأن خالق الوجود واحد لأن طراز الخلق في كونه واحد ، فإذا كانت الصلة بين الخالق ومخلوقاته هي وحدة الطراز ، كان بلا ريب توحيد هذا الطراز معلولاً بوحدة خالقه .

وهكذا نصل إلى أن الإنسان معلول بما كان له ، إذ هو وليد ما يخلق به من طبيعة كانت له ، وكان له التحكم بها والهيمنة عليها ، فالتجاذب الذي تماسك به عناصره ، يجب أن يكون مناط التجاذب الذي تماسك به عناصر مقوماته مما يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ، وما تتقوم هذه المقومات به من جاد ونبات وحيوان ، هكذا يثبت لنا العقل الباحث أن الحب الذي هو تجاذب

وتجاوب وتماسك وتضامن وتكافل وتعاون بين الكائنات هو العنصر القائم على تكوينها وتلوينها .

إذن ، ليس في تأويل هذه الكلمات الشاخصة للقارئ في صدر هذا البحث . ليس في تأويلها كبير عناء على الفكر ، ولا هو بالسهل بين يدي من يحاول تأويلها ولم يوث حصافة الرأي وعمق التفكير . فالى أين يصل بنا القول على فكرة محمد في قوله : المرء مع من أحب ؟؟..

كيف ؟؟

وأين ؟؟

كيف أكون مع من أحب ؟ أكون معه بروحى ؟ أم بجسدى ؟؟ أو أكون معه في دنياى ؟ أم في آخرتى ؟؟ ثم ، أأكون معه ولو لم يجيبني هو ؟ أم كوني معه مشروط بأن يكون هو محباً لي فتتحقق المعية بين المتحابين ؟؟ أم يكفى الحب من جانب واحد ليجتمع بين الطرفين ؟؟

وأين تكون هذه المعية ؟؟ أفي هذه الدار بالروح والجسد ؟؟ أم في الدار الآخرة ؟؟ وهل أكون معه إذا أحبته حقيقة أم مجازاً ؟؟ وهل ذكرى إياه وذكراه إياي تحقق تلك المعية سواء كان حياً أو ميتاً ؟؟ وهل يتأثر كلانا بعمل الآخر في هذه المعية ؟؟ أم أن العمل شيء والمحبة شيء آخر ؟؟

ان الحديث المرفوع إلى نبينا صلوات الله عليه والقائل : ان الله يحب العبد ويكره عمله ، ومحب عمله ويكره بدنه « أى شخصه » ، ان هذا الحديث يدل على أن الحب شيء والعمل شيء آخر ، فقد أحب من لا يشركني في عملي ، ومحبي من لا أشركه في عمله ، وعلى هذا يتخرج معنا صديق مصححي هذا الحديث بلفظه الأولين في صدر البحث ، ومضعفيه بلفظه الثالث بعد العنوان .

وإن لا يكن ذلك : فما هي الفائدة من المعية في الحب ؟ بل ما هي الفائدة في الحب من هذه المعية إذا لم أفد من عملي وأنا معك ومحب لك ، وإذا لم تفد أنت من عملي وأنت معي ومحب لي ؟؟ وما هذه المحبة التي جمعت بيننا ولم توحد عملينا ؟؟ وعما ذا صدرت ؟؟ أفليس وراءها تجانس بيننا في كنه تركيبنا الجسدى ، أو تأليفنا الروحى ؟؟

ومحال أن أحب من يغايرني في روحه وبدنه وأناقضه بروحي وبلدى ،
ان الفطرة الأولى تدعو الإنسان لأن يحكم على أن الألفة والمحبة بين كل اثنين
من كل كائن ، ناشئة عن تجانس طبيعى فيهما ، حتى أن التاريخ يروى لنا :
أن رجلاً رأى غراباً وحامه واقفين معاً فعجب لذلك مع عدم تجانسهما وأحب
أن يتأكد من السر في هذا التجاوز فأثارهما وإذا هما أعرجان ، فقال : من
ها هنا اجتماعا »

إنما أحب من فكرت فيه مليا ، ومن سلخت جزءاً من روحي في الحنين له
والهيام به ، وهل يحب المرء اعتباراً دونما سبب مجذبه إلى من يحب ؟؟ كلا ،
فالحب أسمى من أن يكون سهلاً إلى درجة المهانة ، الحب نفحة قدسية وهبها الله
الصالحين من عباده ، فلم نسيخ لقباً كريماً على شخص إلا من وراء الحب ،
ويكاد يكون الحب عنصراً أول في كل مهنة إنسانية خالدة ، فالفنون بأسرها أسرة
حب ، والآداب من ولادته ، وأما العلوم فتدله في حب الحقائق .

فاذا اشتقت إلى من أحب فأنا معه ، وإذا فكرت فيه فأنا معه ، وإذا
خلوت إلى ذكره فأنا معه ، ثم إذا حاولت الوصول إليه أو البعد عنه فأنا معه
في صميمه وهو معي في صميمي ، أفليست روحي إذ ذاك تجول في روحه أو
تجول معها في أفق واحد ؟؟ أفليس ما يوله يؤلمني وما يسره يسرنى ؟؟ أكان
الشاعر هذى إذ قال : أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا ؟؟
أفلم يشعر أنه مع حبيبه وهو يشعر ؟؟ وإذا لم تتحقق المعية في ذلك فأين تتحقق ؟؟
ثم ألا أحب أن أعمل عمل من أحب لأجله ؟؟ فقد كان أبو اسحق الصابئي
صديق الشريف الرضى يصوم رمضان من أجله ، فكيف لا يكون المحب شريكاً
لحبيبه فيما يعمل ؟ ولعل ما يسوء به الحبيب محبه من عمل ينزل من محبه منزلة
الرضى به والصفح عنه ، أفما يصدق الشاعر بقوله : وحبيبي مر التجنى ولكن
كل ما يفعل الحبيب حبيب « وفي شرع الصوفيين : لا يصدق حب العبد لسيده
حتى يكون عذابه له عذبا » إذن فالمرء مع من أحب حقاً ، وشريكه في عمله
حقاً ، وبحشر في زمرة حقاً .

وحتى الحجر في البناء ، لا يجاوره حجر آخر ليستقيم عليهما البناء ، إلا أن

يكونا شريكين في الطاقة على تقويم ذلك البناء ، وهذه الطاقة في الجبر هي عين عمله وإن كانت مخلوقة فيه من تحت البناء وتوجهه ، أفلسنا كهذه الأحجار يقوم علينا بناء الإنسانية بعد أن نتضامن في تقويم ذلك البناء بفضل الطاقة التي بها فينا الباني الأول ؟؟

وصفوة القول على هذا كله : أن الشركة في الحب بين المتحابين لا بد وأن تنتج عملاً مشتركاً لأنها صادرة حتماً عن عمل مشترك ، لضرورة الصلة بين الغاية والعلة في الكائن ، على أن الشركة في العمل بين المتحابين لا يمكن أن تكون كلية إذ لم يكن التجانس بينهما كلياً ، وإنما يشتركان في بعض الأعمال كما يشتركان في بعض التكوين ، فالحب والبعض بين المتحابين والمتباغضين ناظر إلى اشتراكهما أو اختلافهما في أهم مواد البناء الذي يتقومان به أو يقوم عليهما ، فلا يمكن أن يتحدا في العمل كلياً إذ يستلزم ذلك فهما أن يتحدا في التكوين وذلك محال لأن التباين الشخصي بين الكائنين ضروري لتحقيق الإعجاز في الخلق باختلاف الألوان والألسن ..

فالوحدة كلياً بين كل اثنين من كل نوع بل من كل جنس كائنة بيته ، والخلاف جزئياً بينهما كائنين . والتفاوت في هذه الوحدة وذلك الخلاف يقوم على مراحل يندق تفصيلها عن الفكر الحائر في كنه تلك المراحل ، وإنما يشير إليها من بعيد أو قريب إشارة من يرى البصيص فيشعره بالنور ، ويشم العطر فيشعره بالزهر .

اللهم إني أحبك لأنك خلقتني ووهبتني التفكير الحر في خلقك ثم حلت بيني وبين التفكير في ذاتك لتشعري بنقصي من وراء كمالك ، فاجعلني معك ولا تتخل عني يارب .

اللهم وإني أحب عبدك ورسولك محمداً لأنه أخلص في أداء رسالتك إلى عبادك فعلمني بذلك أن أخلص في أداء رسالتي ، فاجعلني معه يوم أريد عليك يا رب .
اللهم وإني أحب علياً وزير نبيك ووصيه ، لأنه حفظ عهدك وأدى أمانتك وضحي في سبيل رسالتك ، وعلم بني من بعده التضحية في سبيل هذه الرسالة ، فاجعلني معه يوم أقف بين يديك يا رب .

بَعْدَ لَيْسَ بَلَدٌ أَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ.

زرت هذه السنة بلدى لبنان بعد سنين خمس أقمتها في مصر متوالية دون مبارحتها إلى بلدى الأصيل ، فاجتمع إلى أخوة الشباب وعشراء الصبا وأمعنوا في اللوم والتفريع لى على أن هجرت وطنى ونسيت اخوانى ، وأن ذلك ليس من الوفاء ، ثم طلبوا إلى أن أعود ويعود معى ذلك المرح الذى كان يلفنا برده في الأندية والمحافل ، وفي مجالس كنا نعقدتها صيف كل عام في الحدائق وعلى قمم الجبال ، وأن العذر قصير والحياة أوشكت أن تودع ، وليس لنا في دورها الأخير خير من العود إلى أن نأثلف مرة أخرى ، فان أروع الحياة سمر الأحياء وهى تدبر عنهم .

يقولون لى ذلك ، وقد علموا أنى قطعت ثلاثين عاماً وأنا أغرس الحق بين قوى ثم لا أحصد إلا الألم والهم ، أول ما فتحت عيني على الحياة في بلدى وأنا أبصر المنكر في رؤس قوى فأسررت في نفسى جهاد هؤلاء الطغمة ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فامتهنت الشعر ولما أزل في السادسة عشرة من سنى حياتى فكان شعري قائماً على النقد السياسى اللاذع ثم لم أنس باللدع فقهاء الشعب الذين يدرسون فقه محمد ولا يعملون به في شعب يحترمهم ويرزح تحت وطء البؤس من زعماء سيطروا عليه باسم السياسة حيناً وباسم السيادة الموروثة حيناً آخر . ويشاء الله أن أهجر وطنى إلى العالم الغربى « أمريكا » ثم أعود حافلاً بما يؤهلنى للجهاد من مال وجاه فأصدر مجلتى « العروبة » في بيروت وأنقصت بها على هذه الهياكل المعبودة وشفعت المجلة بتأسيس حزب الإصلاح ونادى الحسين بن على فلم يمرر بضعة أعوام على جهادى حتى لم يبق بيت في « جبل عامل » إلا وصوت العروبة يلدوى فيه، ولم يبق سمع من شعب هذا الجبل إلا وصكته صرخات الأحرار من « طلائع » حزب الإصلاح . ثم لم يبق صدر عاملى في عاصمة لبنان إلا وقد ضم جوانحه على قلب يأكل الحديد في طريقه إلى الحياة .

وفي غضون عشرة أعوام مرت على تأسيس هذه المنشآت كان المسيطر في الجبل ، سياسياً ودينياً ، يفتش عن طريق يسلكه إلى النجاة من لدغ العروبة ومقتها ، وإلى السلامة من لوم الشعب وتقريعه ، ثم لم تمض برهة حتى رأينا الفقهاء يتبارون في تشييد المعاهد والمعابد بين دمشق وصور والنبطية على أيدي المخلصين من دعاة الحق ، ورأينا الزعماء يتبارون كذلك في تشييد مثل هذه المعاهد وتلك المعابد وأسالة المياه وتعبيد الطرق بين جنوب لبنان وعاصمته على أيدي الساسة المنيين بعد شلوذ وإباق .

ولقد مر بقراء هذا الكتاب شيء من هذا النداء وعلم كل من له قلب أن العروبة هي التي عصفت بهذه الفئة أن تخرج من جمودها وجحودها إلى حركتها وإيمانها ، والعروبة هي التي أهابت بالشعب العامل أن يتنبه من سباته ويفيق من غفلته ويشخص إلى رجاله . وصاحب العروبة هو الذي كافح وناضل في سبيل ذلك كله ثم لم يطمع بأجر ممن بكى عليهم إليه وجاهد فهم نهاره . وقد تحمل ذلك وصبر سنين طويلة معتصماً بالحق الذي خلمه والإيمان الذي سده ، ثم ما إذا كانت عقبة في قومه وتحت سماء بلاده ؟؟

انه ذاق على أيدي العتاة من زعماء قومه الذين لم تحوّلهم نفوسهم الشريرة أن يستجيبوا لداعي الحق ، فقاوموه بالسنتهم وأيلسهم حتى هشموا رأسه ليخملوا جذوة فكره ، وكسروا أصابعه ليعطوا جهاد قلمه ، إنه ذاق على أيدي هذه الطغمة ، من زعماء قومه بلاء لم يذقه مكافح في سبيل أمته وبلاده . ثم لم يجد من شعبه الثورة التي تتأثر له من أولئك ، وعلى العكس لا يزال هؤلاء الظلمة الغاشمون يحكمون رقاب الأمة ويتصلرون المحافل والأندية ثم يرأسون المعاهد ومجالس التشريع . فهل في هذا الوطن مطعم لي أفزع إليه من آلامى وأعلق عليه آمالي ؟ لقد صدق الإمام : إن خير البلاد ما حملك « فلقد نبذنى وطنى أيام بوئسى وأنا أمتن الشعر في سبيل تحريره ، ثم جنى على . ولفظنى أيام سعادنى وأنا أمتن الصحافة وأغلق عليه من مالى ودمى ، لقد لفظنى يومذاك ولم يحفظ لى حقاً ولا رعى لى حرمة ، فكيف أعود إليه وهو لا يزال يرزح ويئن تحت وطء الأحداث من بغى هذه الفئة ورعونة المتبجحين من أدعياء العلم والدين ؟؟

ليس في العالم بلد أحق بي من بلد آخر ، فلقد لفظني بلدي لبنان بعد أن أنشأت ما أنشأت وأخرجت من نتاج قلبي ثمانية عشر مؤلفاً خدمت بها العلم والأدب والفن ، لقد لفظني هذا البلد مسلموه وهم يتكالبون ويتناجشون ونصاراه وهم يستغلون ويستأثرون ، فكيف أهتم به وأحن إليه ولم يسلفني هذا البلد حناناً أفيه به حتى من عشيرتي وأهلي الاذنين ، ويكاد أهل هذا البلد لا يشعرون بي منذ كنت وحيث حلت ؟؟ فهل هم خليقون بشعوري وحنيني ؟؟ كلا فما أنا إلا شاعر بتأثر الشاعر القائل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم
إذن فأنا غريب في بلدي إذا عدت إليه ، وقد ثبت ذلك إذ زرته بعد خمسة أعوام فاذا الأجنبي فيه لا يزال على الرأس وإذا الوطنى لا يزال مطأطأً بين يديه
يمسح ثوبه ويلعق حذاءه ، فهل هذا هو بلدي ؟؟

لفظني بلدي أيام كانت أول ثورة فيه على الافرنسي المستعمر سنة ١٩٢٠ وهي ثورة جبل عامل فخرجت مغضوباً على من سلطانه إلى شرق الأردن فكانت منزلي عند أمره عبد الله بن الحسن أسمى منازل الأدباء الأحرار ، وكان يتلقاني بصلره الرحب ووجهه الباسم كلما هزه الأدب لشعر أو نثر وكنت الأديب المرموق عنده والشاعر الأثير لديه حتى غادرت إمارته إلى أمريكا بعد أن أخرجت فيه ديواني شعري « الحوامي » ونقد السائس والموس .

ولفظني بلدي لبنان مرة ثانية بعد عودى من أمريكا أيام الحرب العالمية الثانية إذ شاء سلطانه غلّ يدي وكمّ في فهجرته إلى العراق فكانت الزائر المكرم والوافد العزيز فأخرجت كتيبي الثلاثة وحى الرافدين وبين النهرين ، ودوى ذكر هذه الكتب في أنحاء العراق حتى لم يبق إقليم بين دجلة والفرات إلا وللحوماني فيه كتاب يقرأ أو ديوان يرتل .

ولفظني لبنان أيام بلغت القسوة في نقد العروبة أشدها على رياض الصلح وسياسته بعد الاستقلال إذ ضاعف سلطة المستعمر بغياً وقسوة على الأحرار من أهله ، فأصدرت ديوان « فلان » العاصف بأحداث لبنان الجائرة بعد تنفس أهله من جور المستعمر ، وكان حظ هذا الديوان من القمع والتدمير دون حظي

من هول ما قاسيت في عهد « بطلى » الاستقلال بشارة الخورى ورياض الصلح ،
لفظنى وطنى إذ ذاك ففررت إلى أمريكا ثم عدت إلى سوريا. وكنت فيها لولب
الأندية الأدبية وحركتها الدائمة سنوات كانت نهايتها خاتمة حياة الزعيمين رياض
الصلح وبشارة الخورى ، وأخرجت فيها للعالم العربى « بلاسم » و « من يسمع »
حافلين بالأدب والتاريخ .

وهكذا كانت السنة الثانية والجمسون آخر مرحلة من مراحل علاقتى الوطنية
بليبنان إذ لفظنى إلى مصر فيها فكانت ضفاف النيل الخالد مسرحاً لأفكارى
ومهباً لعواطفى أنظم وأكتب وأخطب مرموقاً لكل عين وقريباً من كل قلب
حتى لم يبق في مصر أديب أو عالم أو شاعر إلا وأنزلتني من نفسه منزلة الأخ
من أخيه فأسست فيه ندوة الأصفياء من خيرة علماء وأدباء العالم العربى، وأخرجت
كتاب « الأصفياء » لسنة الندوة الأولى ، وديوان النخيل وديوان « انت انت »
الذى نال الجائزة الأولى للشعر في مجمع مصر العلمى ، وكان السبب الأول في
بلوغى القمة من سعادتي في الحياة .

فصر الجليدة هذه أحبر فيها وأحرر كتابي الأخير « دين وتمدين » تحت
سمائها والتي أحبي شمسى الغاربة فيها أصيل كل يوم وأنا على مكنتي أحبر
وأحرر ، أقول : ان مصر هذه هي خير بلادى لدى الآن إذ حملتني خير
ما تحمل وأنجبتني من جديد خير ما تنجب ، إذن صدق الإمام أبو حسن إذ
يقول : خير البلاد ما حملك وليس في العالم بلد أحق بك من بلد ...
فكل مكان يلبث العز طيب وكل أناس أكرموني هم الأهل

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ

يجول في رأسي منذ سنين بحث مستفيض عن الإرادة وتربيتها في كيان الإنسان ، ولقد مررت بها في بعض مؤلفاتي من « وحى الرافدين » إلى « بلاسم » ولكنه مرور لا يشفى الغليل ، وفي غير مكان من هذا السفر أشرت إليها إشارة عابرة ، ثم طلب إلى الشيخ محمد تقى التمى مؤسس المعهد العالى للدراسات الإسلامية في القاهرة ، وهو مؤسس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في هذا البلد ، يتأثر بمشاريعه الحية سلفه السيد جمال الدين الأفغانى ، أقول : لقد طلب إلى هذا الرجل تحبير سلسلة من الدراسات الإسلامية لإلقائها في معهده على الشباب الجامعى ، فذهب في الفكر هذا المذهب الذى يجول في خاطري منذ أعوام وهو مذهب « تربية الإرادة » في الإسلام وكنت أعمل لإنجاز كتابي هذا « دين وتمدين » وكانت الآية العليا في هذا البحث مجال فكري ، فعزمت على أن يكون بحثها قائماً على الموضوع الذى أشرت إليه في الإرادة والذى سأمليه على شبابنا الجامعى الحر في كلية الآداب بجامعة القاهرة . وتمهيداً للخوض في هذا البحث النفسى الشائك المعقد أقدم بين يدي القارئ رؤسا لأبحاث فرعية تتصل من قريب وبعيد بهذا البحث العام ، ليسهل ضبطه على السمع وضبطه على الفهم ثم ضبطه على التفكير فيه ، فان أى بحث علمي يجب أن يشتمل على هذه الأصول لضبط قواعده وتسهيل فهمه والتصرف به عن طريق الفكر ، وإجمال هذا التفصيل يكاد ينحصر في :

- ١ — ماهية الإرادة
- ٢ — تقسيم الإرادة
- ٣ — قوة الإرادة
- ٤ — تأثير الإرادة
- ٥ — نتيجة الإرادة

١- ماهية الإرادة أعتقد أن لفظ الماهية نسبة إلى « ماهي » كما أن هبولى عند الأقدمين من فلاسفة المنطق مركبة من « هي أولى » ولا يزال العامة إلى اليوم يعبرون عن سجل النفوس الكاشف عن شخصية كل إنسان وجنسيته بلفظ « الهوية » نسبة إلى ضمير الغائب « هو » ويفسر المنطقيون لفظ الماهية والهبولى بالحقيقة الأولى لما يطلقان عليه ، فماهية الماء وهبولا تعنى حقيقته الأولى وعنصره الذى يتقوم به ، وماهية الإرادة هنا نعنى بها حقيقة الإرادة وكنهها ، ولعل الكنه أيضاً مأخوذ من « كانه ويكونه » على اعتبار أن أعيان الأسماء لأشياء الحياة منصوص على أنها ثنائية حكاية عن أصوات هذه الأشياء لدى الإنسان فى نشأته الأولى .

فما هى حقيقة الإرادة ، وعلماء اللغة لا يزيلون على كونها مصدر أراد بمعنى شاء وطلب ورغب ، وما أشبه ذلك ، على أن البحث هنا يستدعى الخوض فى معنى الإرادة ، فما هى حقيقتها وما الذى تعنيه ؟؟ إذا عضنى الجوع فأردت أن أكل ، أو كظنى العطش فأردت أن أشرب ، أتمكن هذه الإرادة إذ ذاك فعلا منى أم تكون انفعالا فى ذاتى ؟؟ وهل أنا فى إرادتى مختار أم مضطر لأن أريد ؟؟ وإذا كانت الإرادة فعلا منى فما هو فاعلها ؟؟ ثم إذا كانت انفعالا فى نفسى فكيف أكون معها مختاراً وعليها يقوم حسابى فى ثوابى وعقابى ؟؟ كل هذا يفتر إلى مزيد من البحث .

إذا جعت أو عطشت ذكرت الماء والطعام فأردتهما لمجرد هذه الذكري ، وهى لا تتجاوز اللحظة بين الإحساس والإرادة ، أما بين الإرادة والحصول على المراد فقد يتجاوز اللحظات وقد تمتد إلى دقائق فترات ، فلماذا يقول الجوع والعطش لإرادتك : كوفى فتكون ولا تقول الإرادة للمراد : كن فيكون ؟ الجوع أو العطش غريزة ، والإحساس بهما غريزة ، ثم الإرادة غريزة ، لذلك تتداخلت فى ذات الإنسان وأتحدت حتى كأنها شئ واحد لا فاصل بين إحداها والأخرى إلا كالفصل بين يديك وإضاءة المصباح الكهربائى إذ تلمس مصدر التيار المعبر عنه « بزر الكهرباء » فلماذا لا يكون الفاصل بين الإرادة والمراد كالفصل بين الإحساس بالجوع وبين إرادة الأكل ؟؟

هل لأن الغرائز الثلاث من مقومات كياني الداخلى ولأن المراد هو من مقوماتى الخارجية؟؟ أم لأنها مقومات روحية والطعام مقوم مادى؟؟ والروحيات أسرع فى التجاوب من الماديات؟؟ أم لأن الأولى خاصة فردية والأخير عام جماعى والصلة بين الفرد وذاته أقوى وأقرب من الصلة بينه وبين شريكه فى الحياة؟؟ أم لأن تربية الروح للغرائز التى يتقوم بها كيان جزئها فى الفرد أسبق من تربيتها لمقومات كيانها الكلى فى الجماعة؟؟ أقول : هل لهذا كله أو بعضه نرى الفاصل بين الإحساس بالجوع وبين الإرادة أدق وأخص من الفاصل بين الإرادة وبين المراد أو بالأحرى بينها وبين تحقيق المراد؟؟

وماذا أعنى بكلمة أردت؟؟ أهى تعبير عن كل ما فى كياني من روح فتكون الإرادة هى الإنسان كلياً؟؟ أم هى تعبير عن حالة خاصة من حالات الروح القائم فى ذاتى فتكون الإرادة هى بعض الإنسان أم هى إياه جزئياً؟؟ ولتحقيق هذا نتساءل : أيمكن عندما أريد ، شئ من الفراغ فى هذا الكيان مملأه شئ آخر من الروح غير الإرادة فأفكر بغير ما أريد؟؟ أم تملأ الإرادة فراغ الكيان كله فلا أشعر بغير الإرادة؟؟ فيكون لسلطانها الجبار المسلط على المراد فعل الروح المحزون فى كياني كله؟؟

وإذا كانت الإرادة هى مجموع الروح الجزئى فى ذاتى المتصل بالروح الكلى الذى هو من أمر ربي ، ألا تكون إرادتى الجزئية هذه إذ ذاك جزءاً من إرادة الله التى يتقوم بها سلطانه فى إدارة الكون؟؟ فتكون لإرادتى تلك قابلية الرقى والتقدم إلى حد تستطيع معه أن تفعل ، وهى جزئى ، فعل كليها العام فى خرق الطبيعة أو خرق النظام الاجتماعى على الأقل؟؟

وإذا كانت الإرادة مسببة عن الإحساس ، أأكون انفعالا نفسياً ويصح إطلاق الجبر على ما تأتبه إذ ذاك ، فإذا حركنى الجوع كنت مضطراً لأن أريد الأكل وليس فى طوقى كبت هذه الإرادة؟؟ أم أن إرادتى هذه فى حيز اختياري إذ أستطيع الهيمنة عليها مهما بلغنى الجوع؟؟ أم أن الإرادة غير المراد فهى إنما تتصل بإحساس الجوع كرهاً لا اختياراً وإنما الاختيار يتصل بتنفيذ المراد لا بالإرادة نفسها؟؟

ومهما يكن من أمر. فإن هنالك إحساساً باطنياً ينشأ عن تفاعل خارجي ، ثم إرادة تنشأ عن ذلك الإحساس ، ثم قوة تنشأ من الأعصاب لتنفيذ تلك الإرادة في خلق المراد أو إخضاعه لها . ومثلاً على ذلك : أن اضطراب السياسة المعبر عنه بالفوضى والذي هو تفاعل خارجي أى خارج الذات ، يوجب إحساس الحر بالتدمير والخوف والألم والنقمة على الحكم ، وهذا الإحساس هيب بالإرادة أن تنشأ الطمأنينة ، وإرادة ذلك تستدعي الثورة في النفس لقمع الفوضى .

فعل مقدار شدة الفوضى هذه تكون قوة الإحساس بدفع الإرادة ، وعلى مقدار اندفاع هذه الإرادة تكون قوة الثورة في الأعصاب لقمع الفوضى ، ثم على مقدار التحكم بهذا القمع يكون الظفر بالطمأنينة ، فالتربية التي نحن بصدها تنال الإحساس والإرادة معاً ليقوم العصب الذي هو مصدر التنفيذ للإرادة في إخضاع المراد .

فربية الإرادة قائمة على تربية الإحساس الذي يبعثها ، وتربية العصب قائمة على تربية الإرادة في قوته التي ينفذ بها الأرادة ، واستجابة المراد لقوة العصب قائمة على توجيه تلك القوة وتسديدها نحو الهدف المنشود للإرادة بأمر الإحساس الثائر من وراء الخافز الذي يثريه من تفاعل الحياة في صميم الكيان الفردى أو الكيان الجماعى . ووراء هذا كله عقل يركز أعمال هذه الجماعة ويوجه أفرادها إلى حيث تحيا مجتمعة متضافرة .

فما هي إذن هذه المجموعة التي يتألف منها كيان الإنسان الباطن ؟؟ هل هي متعددة أم متحدة متلونة ، أى أن ما يقوم به الروح الجزئى القائم في كيان الإنسان الفرد ، هل هو واحد يتلون فنضج له أسماء باعتبار ألوانه ، أم هو متعدد يتألف منه ذلك الروح كما تتعدد أعضاء الجسم التي يتألف منها كيان الإنسان الظاهر ، فنضج لها أسماء باعتبار تعددها ؟؟

٢- **تقسيم الإرادة** كيف نقسم الإرادة ؟؟ هل نقسمها باعتبار ذاتها ؟؟ أم باعتبار موردها ؟؟ أم باعتبار مصدرها ؟؟

أما لذاتها فهي إما قوية وإما ضعيفة ، وقوتها تقوم على ثقل الروح الذي تصدر عنه ، فكلمة عظمت كمية ذلك الروح كان نفوذ الإرادة في المراد وسيطرتها عليه أشد وأقوى ، وكانت استجابة هذا المراد أسرع ، لأن الروح الذي عبرنا عنه آنفاً بلفظ العقل ، إذا تضخم واستد ، كان الإيمان ، الذي هو الصلة بينه وبين المهيمن على الوجود ، أقوى على دفع الإرادة لتحقيق المراد واضطراره للخضوع بين يدي هذه الإرادة .

فالعقل يزن الدفع الإرادي وقابلية المراد للخضوع أمام هذا الدفع ، فإذا اطمأن إلى العدالة في الدفع والقابلية في الاستجابة ، عزز سلطة الروح في الاندفاع لبعث الأرادة ، وتعزز من وراء ذلك إيمان المريد القائم على الحق ، بالفوز في إخضاع المراد واستجابته لحكم العقل آخراً الأمر .

على أنا إذا تساءلنا عن كمية هذا الثقل في الروح الدافع للإرادة ، من أين مصدره ؟؟ عدنا بالأوهام والظنون على النفس المتسائلة بذلك ، هل الروح الجزئي في هذا الجسد الحي ، إنساناً وغير إنسان ، هل هو متفاوت بطبعه ، أم هذا التفاوت عارض عليه ؟؟ ولماذا يكون التفاوت طبيعياً بحيث تلدني أي أكبر روحاً منك أم تلدك أملك أكبر روحاً مني ؟؟ ثم لماذا ، على الفرض الثاني ، يكون التفاوت كسبياً وكيف يكون هذا الكسب الذي تنشأ أنت معه أقوى مني روحاً أو أنشأ أنا معه أكبر منك روحاً وأقوى عزيمة ؟؟

أعتقد أن التفاوت على كلا الفرضين ضروري ليتسنى للإنسان أن يخلد بنوعه ، فإن التفاضل في كل عنصر من عناصر الأحياء باعث على الكفاح وانتافس والجهاد في الحياة ، ولو لم يكن التفاضل طبعاً لما كان كسباً فإن الطبع هو الذي يتحول إلى تطبع وليس التطبع سوى ظل للطبع لأنه ناشئ عنه وبه ، فما لم يكن موجود في الأصل لا يتوفر وجوده في الفرع لأن الكسب في الحياة إنما يقوم على الموهبة التي يبثها الخالق الأول في الحي وهذا هو الطبع .

ذلك هو تقسيم الإرادة لذاتها ولمصدرها معاً فإن الله إذ خلق ذات الحي

قسم لها الحياة ، فهي ، على ضوء هذه القسمة تسعى وبنورها تبين ما يضمن لها الوجود في حظرة الحياة ، فما تكسبه إذن هو بصيص مما تستوهب ، وهذا الكسب فيها هو فرع لأصل ثابت في كيانها الأول .

وأما تقسم الإرادة باعتبار ما ترد عليه فهي سيئة وحسنة ، لأن مرادها إما أن يكون مباحاً لها فهي إرادة حسنة ، وإما أن يكون محظوراً عليها فهي إرادة سيئة ، وإباحة المراد أو حظره قائم على تنازع البقاء الجائر في الحياة ، فقد يكون مباحاً لإرادتي أن تعصف بالظلم فهي حسنة ، وأما إذا تعمدت العصف بالعدل فهي سيئة ، ومن هنا نشأ الثواب والعقاب في تشريع القوانين الإنسانية والنواميس الطبيعية والأديان السماوية .

أقول : نشأ الثواب والعقاب مركزين على تصرف الإرادة بما تريد ، فاما أن تتوجه بالعقل الذي يحظر عليها ما يضرها أو يبيح لها ما ينفعها فهي إذ ذاك نفحة من الروح القدس ، وإما أن تتمرد على العقل فتأتمر بالنفس الحيثة الأنانية ، فهي إذ ذاك إحلى همزات الشيطان .

فالثواب والعقاب إنما كانا ليحدا من طغيان الإرادة ويدفعا بها إلى تعصيد الخير في العالم ، ولعلهما سبب أول بعد العقل في تربية الإرادة الحسنة ، كما أن طغيان النفس الأمار بالسوء من وراء الأنانية والكفر بالحق في الوجود ، هو سبب أول في تربية الإرادة الشريرة في العالم ، وعلى تعزيز هذا التشريع تقوم حياة الإنسان بنوعه في هذا الوجود ، وبشخصه في الوجود المنشود من عالم الخلود . والإرادة من حيث المصلر أيضاً : عاقلة ومؤمنة ، فالأولى ما كانت قائمة على تربية العقل وتوجيهه ، فقد كان الإنسان قبل بضعة عقود من الأعوام ، إذا أراد إنارة المصباح عمد إلى كثير من الوسائل لتنفيذ إرادته ، أما اليوم ففي لحظة يضغط بها زر الكهرباء ينير مصابيح تضيء حجرة أو بيتاً أو بلداً ، وهكذا سمعت وأنا في شمال أمريكا : أن شجراً يقصف ويلقى في هوة مصنع فيخرج بعد لحظات وجيزة من هوة أخرى ، صحائف تنشر وتقرأ ، تلك هي الجريدة العالمية الكبرى « نوريك تايمس »

ذلك فضل العلم القائم على العقل في تربية الإرادة وتنميتها ، وتلك هي

الإرادة العاقلة ، وأما الإرادة المؤمنة فهي التي تقوم في تربيتها وتنميتها على الإيمان ، كإرادة الأنبياء والأولياء ممن راضوا أنفسهم بالرياضة الروحية فجعوا بالمعجزات في تحكيم إرادتهم بنواميس الطبيعة ، وإلهم ناظر قول الله في الحديث القدسي القائل : يا عبدى أطيعنى تكن مثلى ، أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون »

فالإيمان أقوى من العلم في تربية الإرادة وتحكيمها بالنواميس الطبيعية ، لأن العلم يتنزع بالمادة للسيطرة على المادة ، وأما الإيمان فيتنزع بالروح للهيمنة عليها والتحكم بها ، والروح أقوى من المادة لأنها تيار الحياة الأول المهيمن على الوجود .

والإرادة من حيث المصدر مرة ثالثة ، فردية ونوعية وتفصيل ذلك نرجئه إلى بحث تأثيرها في نهاية الفصل لأسباب تستلزم ذلك سيلم بها القارئ فيما بعد إنشاء الله .

ليس لقوة الإرادة حد تقف عنده ، فعلى مقدار انفعال
٣- قوة الإرادة الروح بما نحس من خارج كيانها ، يكون دفعها للإرادة ، وعلى مقدار هذا الدفع يكون تأثير الإرادة في المراد قوة وضعفا .

وقوة الإرادة قائمة على ضعف ما تريد ، فعلى مقدار ضعف المراد واستجابته لإرادة المريد تكون قوة هذه الإرادة ، إذن فنشأ القوة في الإرادة قائم على عنصرين هامين تتقوم بهما ، أولهما انفعال روح المريد بروعة المراد وشهوة السيطرة عليه ، وثانيهما ضعف المراد واستخداؤه لتلك الإرادة ، أما إذا ارتاعت الروح المريدة بما تريد ، ثم لم تجد في ذاتها القوة التي تعصف بالمراد ويتأثر هو بها فيستكين بين يدي قوتها ، فقد تتأثر هي به معكوسة ، أى أن المراد إذ ذاك يعصف بها فتصطدم به وتتصدع من وراء ذلك الاصطدام ، كالألة التي لا تقوى على تنفيذ سلطة العامل بها في المعمول ، فترتد حاسرة كليلة .

وبين يدينا على ذلك أمثلة من حواسنا كالعين التي تستخدمها الإرادة في تبين المرئى ، فعلى مقدار استجابة المرئى للعين تكون قوة الإرادة في الابصار ، بحيث ينسجم النور الذى هو آلة البصر في تبين المرئى مع العصب الحساس في

جهاز العين الباصرة ، فاذا اختل هذا الانسجام قوة أو ضعفاً خسئت العين في تنفيذ الإرادة بالسيطرة على المرئى .

فقدرة النور فوق طاقة العين كضعفه في عاجز هذه العين عن تنفيذ الإرادة في تبين المرئى ، وهكذا القول في بقية الحواس كالأذن والأنف والفم التي هي آلات يستخدمها المرید في التحسس من المراد سمعاً وشمّاً وذوقاً ، فلتؤدى هذه الآلات وظائفها في تنفيذ الإرادة يجب أن يكون بينها وبين المراد انسجام في الذوق يمكن الفهم من اكتناه المنوق ثم يمكن الأذن والأنف من تبين المسموع والمشموم ، فان اختل ذلك الانسجام فقدت الحواس سلطانها في تنفيذ الإرادة بالسيطرة على المراد كما مر في القول على العين آلة البصر .

هذا في الإرادة العادية ، أما في الإرادة الخارقة والتي هي وليدة التربية بالعقل من وراء الإيمان فالقول يكاد يخالف ذلك تماماً إذ نعكس هذا الغرض في الحواس فنقول :

على مقدار تربية الروح إرادتها في إبصار المرئى تكون قوة العين في التأثير على تبينه والإحلاق به مهما ضعف النور الكاشف للعين أو اشتد ، ولذا نرى التفاوت في الإبصار ناشئاً ، بعد الثقة بصحة العين ، من قوة الإرادة في استخدامها لتبين المرئى ، وتربية الإرادة هنا أكثر ما تقوم على الإيمان بأنك سترى ، وإلى هذا ناظر قوله صلى الله عليه وسلم : ان المؤمن يرى بنور الله وعلى هذا التحليل قام إيماننا بصدق الكلمة المأثورة عن الخليفة الثاني : يا سارية الجبل الجبل .

ولقد ذكرت في غير مكان من هذا الكتاب مثلاً على ذلك ، حادثة السيد عبده المحمود في أنه كان لا يقرأ بغير منظار ، وأنه قرأ ليلة ما حديثاً به فلما أصبح رأى المنظار إطاراً بغير زجاج ، فكانت رويته قائمة على إيمانه بصحة الآلة ، حتى إذا تبين ذلك عاد ليقراً فلم يستطع إلا بالمنظار إذ فقد الإيمان به ، فالإرادة القائمة على تربية العقل والروح من وراء الإيمان ، هي التي تصنع المعجزات وتخرق العادات ، ويكون تأثيرها في المراد معجزاً إلى حد الحيرة في الفكر العادى وهو يعنى في اكتناه ذلك المعجز ، كيف كان ؟ وما هو مصدره ؟ والعلة التي يقوم بها ؟ ثم ما هو الناموس الطبيعي الذى يقوم عليه ؟؟؟

٤- تأثير الإرادة : كان أبي يجيبني كلما ، تعاجزت عن عمل ما ، بالكلمة العقل واعزم ثم توكل على الله تفلح » وكان يعلمني كيف أريد وكيف أنفذ إرادتي ، فكنت ولا أزال كلما أردت شيئاً أستعرض وصاياها في ذاكرتي فأفصح . ومثلاً على ذلك : كنت في صباى ، أصوم شهر رمضان ولما أبلغ رشدى ، وكان موسم الصيف يضطرنى أحياناً للنوم في كروم العنب والتين مع أمى دون أبى الذى كان لا يفارق المنزل صيفاً ولا شتاء ، وكان شهر الصوم يغشانا في ذلك الموسم فأخشى أن لا أنتبه للسحور ، والسحور أكبر حافز للصبيحة الاحداث على الصوم ، فأشكو ذلك لأبى فيعلمني كيف أنتبه للسحور قائلاً لى على ما أذكر : توضأ قبل النوم وصل ركعتين ثم اقرأ سورة القدر ثلاثاً وأنت في الفراش ، ثم اضغط فكرك وأنت مغمض العينين وردد هذه الجملة : يجب أن أنتبه في وقت « كلنا » ولست حريصاً على تثبيت ذلك في نفس القارئ وإنما أدعوه ليفعل فعلى عند نومه ويصم ، بأقوى ما يفكر ويريد ، ، على أن سينتبه في وقت يشاؤه ، فسيجد صدق هذه العزيمة لإنشاء الله ، وقوة الفكر أو ضغطه الذى أشرت إليه في وصية أبى ، يعنى : تصور الانتباه في الوقت المعين والعينان مغمضتان والحدقتان مصعدتان إلى أعلى محجرتين بشدة ريثما ينتهى الضغط على الفكر ، مكرراً ذلك ثلاث مرات ثم يلتبس المهجوع ابتغاء النوم .

وأكثر من ذلك ، فقد علمني أبى أنى إذا شئت أن أرى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، في الحلم ، أن أتوضأ قبل النوم ثم أصلي ركعتين واضطجع فأضغط فكرك وأنا مغمض العينين على مثال ما مر ، ذاكرراً رؤية النبي خلال هذا التصور ، فسيكون ذلك سبباً لرؤيته في الحلم ، ولقد فعلت ذلك فرأيتته يركب جواداً ويلبس من طرازنا الحديث ، أعنى ثوباً غريباً وعلى رأسه طربوش ، وإنما رأيته كذلك لأنى كنت أرى هذا الزى ، وأنا صبي ، هو المثل الأعلى في لباس الرجل لشدة تأثرنا ، ونحن أحداث ، بالغرب وفنونه .

ولقد مر بالقارئ في هذا السفر أن أبى هذا قرأ الحديث المرفوع إلى رسول الله في قوله : من مات له ثلاثة أولاد ولم يجزع دخل الجنة ، وكان قد فقد أبى

ولدين فتوضاً وصلى ركعتين ثم سأل الله إن كان هذا الحديث صادقاً فهو يتنازل
عن أحب أولاده إليه وهو أصغرهم ، وكان ذلك في ليلة القدر من رمضان ،
فأصبح والصبي مريضاً واستمر مرضه حتى فارق الحياة .
ولقد رأيت بعيني شخصاً من أهل قريتي يدعى السيد سلامة وهو رجل
عائن ، فكان يقول لجلسائه إذ تمر بهم قافلة من الجمال : أتأكلون لحم الأباغر ؟؟
ثم يتخير خير القافلة ويصبوب إليه بصره العائن فإذا به صريعاً وإذا بالراعى
يأدر نحره ، ويكون اللحم ثم الشواء ، وإذا بالأكلة بعد ذلك متكأ كئيب فوقه .
وأعرف زعيماً كان عظيم السيطرة على أهله وولده ومن يخضع له ، كان
إذا غضب قتل ، من أجل ذلك عظمت هيئته في صدور ذويه فكان إذا خرج
عن أمره أحدهم ومثل أمامه ، يصبوب إليه نظره ويعمن في الإحداق به ، ثم لم
يزد ، فإذا بالمغضوب عليه يتهالك بين يديه مغمى عليه أو صريعاً محموراً لشدة
تأثره بالهيبه له والخشية منه ، فعل الفريسة بن يلى الأسد قبل افتراسها .
وقد رأيت في بعض الكتب الحكيمة تعليقاً على قوله تعالى إذ يصف الجنة :
فما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين « يقول في التعليق : ان المؤمن في الجنة إذا
اشتتهى فأكهه تلدت له غصون الشجر ، فإذا مد يده ليقطف كان له على الغصن
ما يشتهى ، وقد يشتهى حورية من الثمر فإذا بالبراعم تفتق عن حور عين «
قد يبدو في هذا للقارئ الخالي الدهن من أوصاف الجنة على ألسنة الغالين
في الدين أو المتصوفين بين يدي ربهم ، أقول : قد يبدو له في ذلك أنه إبداع
خيال ، ولكنه إذا أمعن في تحليل الخيال وصل إلى إمكان تحجيره وتحوله إلى
حقائق محسوسة ، كما نبصر في كثير من العلوم والفنون الحديثة ما كان منها قبل
بضعة قرون خيالاً ، كالراديو والتلفزيون والرادار والإشعاعات الخفية ونحو ذلك .
وبن أيدينا اليوم ، ما يسبق عرض الأفلام من القصص الرمزية تمثلها
صور كاريكاتورية من مخترعات « والت ديزنى » المعروف ، هذه الصور
تظهر بأشكال وألوان مختلفة ، وبحركات ساخرة ماجنة ، يخرج الشخص منها
أحياناً على شكل حيوان غريب نسيج عليه أسماء الجن والعفاريت ، فزى ،
مثلاً ، شجرة غريبة الشكل في مكان غريب الشكل تفتتح فروعها عن بضعة

أشخاص من تلك الجماعات ، وأحياناً نرى قطع الحلوى أو الفواكه ، أو الآلات تتفتق عن تلك الأشكال البديعة في ألوانها وأحجامها وحركاتها ، أفلا نرى ذلك عالماً نحسه ؟؟ فلم لا يكون هذا خيالاً سوف يلبسه العلم والفن ثوب الحقائق فيما نستقبل من حياة ، كما مر بنا من قبل أخيلة حالت بفضل العلم إلى حقائق ؟؟

أفما كنا نعد من الخيال قول الشاعر قبل ألف عام :
أسرب القطا هل من يعبر جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير ؟؟
وقول الآخر قبل مائة عام :

يا برق «وجرة» هل فطنت لما بي فأتيت تخبرني عن الأجباب ؟؟
أفما كنا نعد ذلك من الخيال ثم أصبح اليوم حقيقة قائمة على علمى البخار والكهرباء ؟؟

وفي لبنان على السنة العامة يطلقون لفظ الخيال ويعنون به الظل ، ويكاد يكون هذا المعنى سائداً في « جبل عامل » الذى يكاد يكون أقرب الاقطار العربية في لغة العامة إلى الفصحى ، فكلمة « ظل » لا يكاد يفهمها العامة إذا أضيفت إلى الإنسان ، وإنما يطلقونها مضافة إلى الشجر أو الجبال ، وأما كلمة « خيال » فيطلقونها مضافة إلى الإنسان وقد يطلقونها مضافة إلى غيره ، فيقولون : ظل الشجر وخیال الرجل — يعنون به ظله .

إذن فاطلاق لفظ الخيال على الظل يشعر بأن الخيال يرمز إلى الحقيقة في مفهوم العقل ، أو لعله يحكيها في هذا المفهوم ، يحكيها في الشكل بحيث يعسر على الفكر الخاذق أحياناً تمييز الحقيقة عن الخيال فيما إذا وقف الشخص خيال مرآة ، فان الظل إذ ذاك لا يحكى الحقيقة شكلاً فحسب وإنما يتجاوز ذلك إلى اللون والتشخيص في إبراز أدق الأسرار الحية في الأصل .

فالخيال من وراء هذا كله ، يشعنا على السنة العامة أنه ظل الحقيقة ، وأنه يشر إلى وجودها بوجوده ، وأنه قابل لأن يتحجر فيصبح حقيقة بنفسه ، ولهذا أطلق بعض الفلاسفة على الكون أنه ظل الله ، أما كيف يتحجر هذا الخيال فرد ذلك إلى العلم الذى أصبحنا معه لا نملك الحكم في استحالة شئ أو

إمكانه ، لما هو بين سمعنا وبصرنا من حقائق كانت أخيلة ، وأخيلة تشير إلى أنها ستتحقق ، ثم يدور الزمن فيطمس هذه الحقائق حتى تنسى فيتخيلها الفكر الخازن لها من وراء الأزل مرة أخرى فيعيد العلم سيرتها الأولى ، وهكذا نحن نحن دواليك ، بين السالب والموجب من عوامل الحياة ، نتقلب من خيال إلى حقيقة ثم من حقيقة إلى خيال .

وتأثير الإرادة في المراد تارة يكون مادياً صرفاً ، كتأثيرها بواسطة العين على المغيون جماً أو نباتاً وحيواناً ناطقاً وغير ناطق ، كما مر بالقارئ من تأثير العائن على البعر ، وقد رأينا في التواليد الموروثة ، وضع توائم على أبواب القصور وفي رقاب الحيوانات والأطفال ، يتقى واضعوها الإرادات العائنة وهي التي تعصف بمرادها عن طريق العين الجبارة ، وكثيراً ما نرى أن هذه العين تغلق الصخور وتفلح المعادن وتصرع الحيوانات .

على أنا قد تساءل بالإرادة عن طريق العين : هل هي اختيارية أم اضطرارية ؟ المعروف أن للعائن إرادة في التأثير على المعيون ، ولهذا نراه لا يعصف إلا بمن يتأثر هو به من جبال أو جلال يثير في نفسه لدى رؤيته إياه ، غريزة الفتك والاستيلاء ، فالعائن الذي أعرفه والذي مر بالقارئ ذكره ، كنا نسأله فيجب بأنه يتأثر بما يرى فيشعر إذ ذاك بالقوة الهائلة التي تزخر في نفسه فيسلطها على ما تأثر به فيدكه إن كان جماً ويصرعه إن كان حيواناً كائناً ما كان .

فهو إذن يريد مختار لا مضطر ، على أن الإرادة في العائن غيرها في غيره من حيث التربية وعلمها ، فانا نراها فيه وراثية لا تربوية ، من أجل ذلك نعرف العائن بشخصه ثم نعرف أن تربية الإرادة لا تعرف شخصه ، وإنما اتسم بها في طبعه ، ذلك ما يدلنا على أن قوة الإرادة منها ما هو كسبي بالتربية ، ومنها ما هو طبيعي بالوراثة .

وبرهان كون الإرادة تربية لا طبعاً ، ان الشرع الخفيف بحث على تنميتها في سبل الصلاح ، ففي قوله صلى الله عليه وسلم : القال حق والطيرة ليست بحق ، يشير بذلك إلى تربية نفوسنا على إرادة الخير وأن نحول دون تربيتها على

إرادة الشر ، فلو لم يكن للإرادة قابلية كليهما بالتربية لما حث النبي على التفاؤل ونهى عن التشاؤم .

فتأثير الإرادة على المراد المادى ثابت فيما أوردناه آنفاً من إرادة العائن ، وإرادة أئى فى دعائه ليلة القدر وتأثيره على أخى الطفل بالمرض حتى الموت ، ومن الحديث الشريف : اتقوا دعوة المظلوم « يشير إلى أن دعاء المظلوم الذى هو إرادة من الله ، مجاب فى التأثير على الظالم ، وفى الانخيار : أن أحد شهود مجلس الإمام على وهو مخطب أنكر عليه حديثه فزجره الإمام فأصر على إنكاره فجهر الإمام بالدعاء عليه إن كان كاذباً فلم يبرح المجلس إلا وهو أعمى »

وأما تأثير الإرادة على المراد المعنوى فتأثير أيضاً فى محاولة رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وقد مر القول على ذلك فى تحقيق الإرادة إذ تتحكم بالسيطره على العقل الواعى فى النوم فيوقظ النائم فى الوقت الذى أراده قبيل النوم بالصلاة وضغط الفكر والتصميم على الانتباه ، وقد حصل ذلك معى بالتجربة مراراً لا مرة واحدة ، فالعقل الواعى هنا ظاهر فى تأثيره بالإرادة ، أما ما هو هذا العقل الذى يتأثر بها بينما نجد الإرادة موجهة بالعقل كما مر ، فإن العقل الموجه غير العقل الواعى ، ولعلنا نبهته فى مكان آخر من هذا الكتاب لأن بحثه هنا خارج عن موضوع الإرادة .

البحث عن أثر الإرادة يستلزم استعراض الأثر المطلق
٥- **أثر الإرادة** وذلك بأن نتساءل : هل يمكن للمخلوق أن يصدر أثراً بالذات وبدون واسطة ؟؟ وهل يستطيع إيجاد هذا الأثر من لا شئ ؟؟ أم تلك صفة قاصرة على المالمق ممتاز بها عن مخلوقاته ؟؟

فاذا أردت الكتابة مثلاً ، هل تحدث هذه الكتابة لمجرد الإرادة خلقاً وإنشاء ، أم لابد من وسيلة أو وسائل تتقدم حلولها وتتملأ فراغ ما بين الإرادة والمراد ، كاحضار الطرس والقلم واستخدام اليد والعين والفكر والكبرى والمكتب أحياناً ؟؟ وإذا أردت الأكل هل يحدث لمجرد إرادتى إياه أم يستلزم الطاهى والمائدة والآنية ثم اليد والفم وغير ذلك من وسائل الأكل وتبليغه الإرادة ؟؟ أعتقد أن هذه الإرادة قابلة للترقى إلى الحد الذى يستجيب المراد للإرادة

معه مباشرة وبدون واسطة ، وبرهان ذلك ترقى الإرادة منذ كان الإنسان حتى يومه الراهن ، فانا نرى أن الفراغ بين الإرادة والمراد كان شاسعاً في عصور الإنسان الأولى إذ كان يجوع فيريد الأكل فيضطر للقنص بالحجر في سبيل طعامه ، وأصبح اليوم ، إذ يجوع فيريد الطعام لا يحتاج إلى أكثر من دقائق يدخل فيها المطعم فيجد الطعام رهن إشارته .

وهكذا نعود إلى الصحف كيف كانت تنشأ قبل قرن من الزمن وكيف أصبحت اليوم ، فقد كان الفراغ بين إرادة الصحفي وبين إخراج الصحيفة المراد يمتد شهراً ، ثم ترقى إلى أن أصبح يمتد أسبوعاً ، وهكذا أصبح قبل خمسين عاماً يمتد يوماً ثم نجد هذا الفراغ الآن بين إرادة الصحفي وبين إخراج صحيفته الجبارة لا يفتقر إلى أكثر من دقائق ، وفي مفهوم العلم أن ما تفاوت في تقدمه كان قابلاً لرقبه حتى ينتهى إلى حد لا يدركه العلم قبل انتهائه إليه .

فاذا تهذبت وسائل الكتابة أو الطعام قربت الزمن بين الإرادة والمراد من أيام إلى دقائق ، فلماذا لا تستمر في تهذيبها إلى أن تصبح هذه الدقائق ثواني ثم لحظات حتى تتعلم الوسيلة ويصبح في مقلود الإنسان الذى هو مخلوق أن يريد شيئاً فيكون دونما فراغ بين إرادة ذلك الشيء وكونه كما أن في مقلود خالقه ، إذا أراد شيئاً ، أن يقول له كن فيكون ، تصديقاً لقوله عز من قائل في الحديث القدسي : يا عبيدى أطيعنى تكن مثلى أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون » والحديث القدسي الآخر الذى يقول : ما زال يتقرب عبيدى إلى بانوافل حتى كنت عينه التى بها يبصر وأذنه التى بها يسمع ويده التى بها يبطش ... وهل في ترقية الإرادة وتهذيبها بعد ذلك مذهب ؟؟

فقد لا تتعلم الوسيلة ولكنها تضعف وتتضاءل باختزال العلم وتهذيبها لها حتى تصبح من دقائقها كأن لم تكن وكأن لم يكن بين الإرادة والمراد معها فراغ ، فيتحقق بوجودها الدقيق الذى يعنى إدراكه الحواس كما تعنى النيرة إدراك العين بالمجهر ، أقول : يتحقق إذ ذاك الفرق بين الخالق ومخلوقه في الإرادة ، وهل المخلوق إلا نفحة قدسية تتجلى بها روح الله على الأرض لتدل على وجوده وعظمته كونه ؟؟؟

أما متى تصبح إرادة المخلوق نافذة نفوذ إرادة الخالق ، دونما واسطة قريبة أو بعيدة ، فذلك موكول إلى العلم ومبلغ ما يصل إليه من سمو وتهذيب ، وحسبنا أن نقول : إن الإنسان أصبح في آخر مراحلها التي يشرف بها العاقل من أفق العلم على صلة الإرادة بالمراد مادة ومعنى ، وعلى تهذيبها وتربيتها بحيث أصبح الإنسان مهيمناً على ملكوت هذا الكوكب الأرضي بما فيه من حيوان ونبات وجماد ، ولعل المستقبل القريب يكشف لنا ، بفضل العقل الجبار عن معجزات علومه وفنونه بما يتثبت انا صحة هذه النظرية التي نشير إليها من وراء الخيال .

ولنعد إلى أثر الإرادة الإنشائي الذي يختص به الخالق وهو إيجاد الشيء من لا شيء ، فهل يمكن لنا أن نتنبأ بأن الإنسان قد يجتاز أدواره في الحياة إلى دور يريد شيئاً فيه فينشأ من لا شيء ؟؟

من العسير على الإنسان ، وهو جزئي من كون كلي ، أن يفكر في إيجاد شيء من لا شيء ، إذ ليس في محيطه الفكري « لا شيء » وإنما كل ما يحيط به ومهيمن عليه ثم يتقوم هو به ، أشياء متداخلة ، ولقد قرأنا لمن هو أسمى إدراكاً منا آراء تثبت أن لا فراغ في الوجود ، وأن الأثر الذي يتقوم بنا ونتقوم به عوالم متداخلة لا فراغ فيها بين جزئي وجزئي ولا بين كلي وكلي ، فأين للفكر أن يتصور شيئاً من لا شيء فزيده ليكون ؟؟ وهل للفكر المحلود محيط مطلق أن يترك ما ليس بكائن ليريده فيكون ؟؟ وإذا صح لنا أن نقول بإمكان تهذيب الإرادة من وراء العلم أو الإيمان وتسلطها على المراد الكائن لا المعلوم ، أقول : إذا كان بإمكاننا هذا التهذيب حتى تتصل الإرادة بالمراد مباشرة فنشارك بذلك خالقنا ، فن الصعب ، ولعله يستحيل ، تصورنا إمكان مشاركة الخالق في إرادة الشيء من العلم .

بقي علينا قبل الختام أن نبحت ما أشرنا إليه آنفاً من أن الإرادة فردية وجماعية ، وأن تهذيبها وتنميتها قائمان على النوع لا الفرد ، فارادة اثنين أقوى تأثيراً من إرادة واحد وإرادة ثلاثة أقوى من إرادة اثنين وهكذا دواليك حتى نصبل إلى إرادة الأمة أو العالم وهي الإرادة التي يستجيب لها القضاء المبرم من

لدى باري الكون ، وإلى هذه الإرادة يشير العبقري الملهم من شعرائنا بقوله :
إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
والإرادة الجماعية تنشأ إما عن تكاتف أو توارث ، فالأول هو ما نراه من
تضامن الأفراد وتعاونهم في إرادة شئ ، كتضامن الشعب في طلب استقلاله ،
وجريته ، فعلى مقدار هذا التضامن تكون قوة الإرادة فيه ، وعلى مقدار هذه
القوة يكون التنفيذ سرعة وإنجازاً ، وهكذا قل في تضامن العلماء والحكام والأدباء
وكل جماعة تختص بمهنة ما ، إذا تضافروا على تنفيذ إرادة يكون هذا التنفيذ
أبلغ أثراً في المراد وأسرع زمناً في إنجازه .

وأما الإرادة الوراثية فهي ما كانت وليدة أجيال تعاقبت على تهذيبها وتربيتها
حتى أصبحت من القوة بحيث يستجيب لها القدر في تنفيذها ، ويبدأ هذه الإرادة
فكر في دماغ فرد يعمل على إنجازها في جيله ويحرز بعض النجاح ثم يتولى تعزيز
هذا العمل فرد آخر أو أفراد في أجيال تلي ذلك الجيل حتى يتم تنفيذها كما نرى
في مكتشفات العلوم والفنون التي تبدأ في عصر ثم تعززها عصور تتوالى على
تحقيق تلك المكتشفات بإرادة حية خالدة فاذا بالقرن العشرين مثلاً ينفذ في الكهرباء
إرادة كاشف لها في القرن السادس هو على بن أبي طالب حيث يقول : لو شئت
لأخرجت لكم من الماء ناراً تنير الظلمات « فقد أشار إلى الكهرباء واستمرت
بعده العقول تعمل على توجيه تلك الإشارة وتحقيقها حتى عصرنا الحاضر إذا بها
تنير علينا الظلم وتتوفر بها على كثير من شوارد الحياة وغوامضها .

ولنبداً الآن بخاتمة البحث فنلقت مرة ثانية إلى الإرادة المادية التي هي وليدة
العمل والإرادة الروحية التي هي وليدة الإيمان ، فالأولى هي التي يختلف المخلوق
بها عن خالقه إذ لا يستجيب لها المراد إلا بواسطة ما ، سواء كانت هذه الوسيلة
بعيدة أو قريبة ، وأما الثانية أي الإرادة الروحية فهي التي يشارك المخلوق بها
الخالق دونما واسطة لأنها عين إرادته وهو المريد لها في نفس مخلوقه لما مر من
قوله : يا عبدي أطيعني تكن مثلي ، وقوله : ما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل
حتى كنت عينه وأذنه ويده ... »

ولسنا بصدد التبسط في بحث الإرادة المادية ، وإنما سقناها في عرض البحث

عن الإرادة لنستعين بها على عرض الإرادة الروحية بين يدي العلم وهو يبحثها ويعلمها ويوجه الفكر الحديث إلى اعتناق المذهب الروحي في إثبات هذه الإرادة وأنها أقوى في التأثير على المراد من الإرادة المادية القائمة في تأثيرها بالمراد على العقل لا الإيمان .

أقول : ليست الإرادة المادية هدفاً لبحثنا هذا وإنما هي إحدى وسائل البحث في الإرادة الروحية وأثرها في الوجود ، من أجل ذلك نحرر الهدف من بحثنا هذا في محيط الروح القائم على الإيمان ، والإيمان كان ولا يزال عنصراً أول في تقويم الرياضة الروحية التي يقوم عليها بناء الدين ، وبفضلها يعتصم الأنبياء والأولياء والمتصوفون في الوصول إلى الحق والفناء فيه والإتيان بما يعجز من خرق نواميس المادة في الحياة .

فإرادة الحى المادية أوجدت هذا الكون المخلوق بنا ، فان ما تراه العين وتعيه الأذن من ولائد العلوم والفنون ، هو أثر الإرادة المادية في عالمنا البشرى ، وليس هذا موضوع بحثنا ولكنه عرض في الطريق إلى الهدف الذى هو عالم الروح القائم على إرادة الحى من وراء الإيمان ، فنحن الآن في خلاصة البحث حول الإرادة التي يدفعها الإيمان لتكوين حياة خلقة بالإنسان في عالم الخلود .

تقدم في البحث : أن الإرادة المادية المسيرة بالعلم والعقل والجوارح قاصرة عن الإنشاء وهو إيجاد الشيء من لا شيء ، لأن العلم وليد العقل والعقل وليد تواطؤ المجتمع ، وهذا كله مخلود بكون لا حده له ، من أجل ذلك يستحيل على الإرادة المدفوعة بالعقل والعلم أن تترك اللاشيء لأنها في حيز الشيء الذى هو وجود بينما اللاشيء عدم مطلق وهو محيط بالوجود المقيد ثم لا يحيط بالعدم المطلق إلا الوجود المطلق القائم في ذات الله الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء ، والعدم الذى هو لا شيء في محيطنا الفكرى ، هو أحد الأشياء في محيط الله الأعظم .

أقول : تقدم البحث في الإرادة المادية وأنها عاجزة عن إنشاء كون تتمثل فيه ولكنها تؤثر فيما هو كائن ، فيريد الإنسان بعقله أن يسكن مثلاً فيعمد إلى الوسائل التي بفضلها ينفذ إرادته ، فإذا هو بعد حين ، قصر أو طال ، في بيت ، ويريد أن يأكل فإذا هو بعد حين ، قصر أو طال ، أمام خوان يطعم منه ،

ثم هو يريد أن يشرب فاذا هو بعد حين ، طال أو قصر ، يحمل كأساً أو يرد على حوض ، فلا أثر الإرادة هنا موضوع هو المادة التي يبنى منها البيت ويبسط المائدة ويتناول الماء .

أما أثر الإرادة التي يدفعها الإيمان فهي ، إلى ذلك كله ، تنشيء المراد لإنشاء ، كما يقول ابن عباس في حديث يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الجنة : فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، وكقوله تعالى في وصف الحور العين : انا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ، فإرادة الله هنا خلقت حور الجنة خلقاً وأبدعن إبداعاً لا أنها تلذعت إلى إيجادهن بوسائل كمل تفعل في تنفيذ ما يريد .

فكيف نخلق إذن بآرادتنا الروحية المؤمنة كوناً ووجوداً تمسنا الحاجة إلى الحياة فيه ؟؟ وبماذا يكون هذا الإنشاء ؟؟ ثم لماذا نضطر إليه ونؤمن به ونعكف عليه ؟؟؟

أما كيف نخلق كوناً ووجوداً بالإيمان فهو سبيل الدين الذي نخلق هذا الكون بالرياضة الروحية ، فعل الأنبياء والأولياء ، لذلك نراهم في كون غير كوننا يدفعوننا إليه دفعاً ، وهو عالم الآخرة الذي يعملون له ويحملوننا على هذا العمل . ونرى عبثاً ما يحاوله علماء المادة اليوم لاكتشاف التيار الروحي المهيمن على الأثير الذي أمدهم بتيار الكهرباء ، وقد مر بقارئ هذا السفر قول الدكتور أحمد زكي المصري وهو يترجم لأستاذه في جامعة برلين إذ يقول : يا أبناء إذا سمعتم أن الأنبياء والرسل كانوا عمشون على الماء ويصبغون في الهواء فصدقوا ، لأننا بفضل الرياضة الكهربائية وصلنا إلى هذه المعجزات فكيف بنا لو أوتينا حظهم من الرياضة الروحية ؟؟ وإلى أين يصل بنا تيار الروح ؟؟؟

أقول : من العبث أن نحاول هؤلاء اكتشاف عالم الروح بالعلم المادى ، لأن الضعيف لا يهيمن على القوى ، واللطيف لا يتأثر بالكثيف ، فالعوالم الكونية المخلوقة تخضع جميعها لعالم الروح بينما لا تخضع هذا العالم إلا للعالم الحق المهيمن على الكون وهو عالم اللاهوت الأعلى ، فالعلماء إنما يكتشفون أسرار الطبيعة بعلمهم المادى ، وأما الأنبياء والرسل وكهنة الروح فيكتشفون أسرار الطبيعة بآرادتهم

الروحية ثم يبدعون فوق ذلك كوناً جديداً تمسهم الحاجة إليه في عالم الروح الخالد فوق هذا العالم الذى نحن فيه نيام نلتمس اليقظة منه في ذلك العالم وهو المرجو من وراء الإيمان .

فالعالم متطورة كالأجيال ، فكما أن كل جيل هو مخلوق للجيل الذى قبله ، كذلك نجد أن كل عالم مخلوق للعالم الذى سبقه ، وعلى مقدار إيمان الجيل البشرى في تهذيب نفسه ، يكون رقى الجيل الذى يخلقه في الحياة ، كما أنه على مقدار إيمان العالم الكونى في تهذيب نفسه ، يكون رقى العالم الذى يخلقه في الكون ، وكما أن كل جيل يتمثل بتهذيبه في الجيل الذى يليه حتى كأنه هو ، كذلك نجد أن كل عالم يتمثل بتهذيبه في العالم الذى يليه حتى كأنه هو ، فهل يكون عالمنا في أخراه ، أى بعد الموت ، مثلاً لعالمنا اليوم ، أم يكون صورة عنه طبق الأصل ؟؟ هذا ما سنحققه في خاتمة هذا البحث لإنشاء الله .

لا شك في أن عالم الأحلام نسخة مصغرة أو مكبرة عن عالم اليقظة ، أما مصغرة فلائها خيال لعالم اليقظة ، والخيال معلول للحقيقة فهو إذن نسخة مصغرة عنه لأنه منبثق عنها وكل منبثق عن الشئ يعتبر جزءاً منه ، وأما أن عالم الأحلام نسخة مكبرة عن عالم اليقظة فلائنه أوسع أفقاً منه إذ ليس في عالم الحلم مادة تتقيد بها الروح ، لذلك يجد المرء نفسه في حلمه طائراً دونما وسيلة لطيرانه ، وقد يجد نفسه شاباً وهو في يقظته شيخ ، كما يجد نفسه قوياً وهو ضعيف وغنياً وهو فقير ، وهكذا نجد الروح تتصرف كما تشاء في عالم الأحلام ولا مشيئة لها إلا من وراء القدر في عالم اليقظة .

وعالم الحلم لا يخرج عن كونه خيالا ليقظة كانت أو ستكون ، فهو كعالم الخيال الذى نمارسه بالفكر فزاه ظلاً للحقيقة كانت في عالم سبقنا أو ستكون في عالم سبقناه ، وكما يصدق على كثير من عوالم الحقيقة أنه خيال متحجر ، كذلك يصدق على كثير من عوالم اليقظة أنه حلم متحجر ، أفلا نرى بالحس كثيراً من الأحلام تتحقق فيما بعد ، كما نرى بالفعل أن كثيراً من الخيالات يتحقق ؟؟ إذن في مقلور هذا الإنسان العبقري على هذه الأرض أن يخلق بإرادته ، وهو مادی ، عالماً من الخيال ، كما أن في مقلوره أن يخلق بهذه الإرادة ،

وهو روحى ، عالماً من المادة ، إذ نرى كما تحقق لدينا فى سياق هذا البحث ، أنه بارادته وهو فى اليقظة خلق كوناً ندعوه حلماء ، وأنه بارادته ، وهو فى الحلم خلق كوناً دعواناه باليقظة ، وهكذا أراد ، وهو حقيقة تتخيل ، فتحجر خياله حتى أصبح حقيقة ، ثم تبخرت هذه الحقيقة بفعل التطور حتى عادت خيالاً ، وهكذا الحياة دواليك فى الحى بين خيال وحقيقة ثم بين حقيقة وخيال .

من هنا نصل إلى إمكان خلق الإنسان بارادته ما لم يكن إذا عني وأمعن فى تربية هذه الإرادة عن طريق الدين والدين فقط ، لأن الدين الذى هو أقوى عامل فى نفس الإنسان للهيمنة على الروح ، هو وحده القادر على تربية إرادة المؤمن فى نفسه إلى حد إمكان الخلق بها ما يكون مما لم يكن ، فبارادتي وأنا إنسان مطلق ، آمنت بالدين أم لم أومن ، أستطيع أن أحقق ما أريد عن طريق غير مباشر كما مر من أنك إذا أردت أن تكتب استجابت لك الكتابة عن طريق اللوح والقلم ، وإذا أردت أن تقرأ استجابت لك القراءة عن طريق العين والكتاب .

أما إذا أردت شيئاً ، وأنا إنسان متدين ، فإن المراد يستجيب لى مباشرة بلون واسطة ، إلا ما كان من تربية الإرادة بقوة الإيمان ، فإن إرادتي الجنة بما فيها من متع الحياة الأخرى ، وتربية هذه الإرادة فى نفسى بقوة الإيمان ، وصدق اليقين ، والعمل للحق ، ثم استحالتي فى ذلك روحياً ، ان هذه الإرادة خالقة ، بلا ريب ، وفى الوقت الذى أحدهه لخلقها ، أقول : ان هذه الإرادة هى التى تخلق لى ما أومن به أنه كائن فى آخرتى من نعيم خالد كما أشتهى وأحب ، فالجنة إذن هى من خلق المؤمن بتربية إرادتها فى نفسه عن طريق الدين ، فكل فكرة دينية فى قلب المؤمن هى لبنة يتقوم بها مأواه فى الجنة ، وكل رغبة صادقة تراوده فى الخضوع للحق هى عضو تتقوم به الحوراء التى يحلم بها فى الجنة ، وكل دعة يريقها بن يلى ربه فى حياته الأولى ، هى خلية يتقوم بها كل غذاء يشبهه فى الجنة ، إذن فالجنة التى أريدها فى آخرتى تتقوم بارادتي وأنا مؤمن فى دنياى ، وهكذا نصل فى ختام هذا البحث إلى أن المؤمن يستطيع بامانه أن يكون مصداق الحديث القدسى : يا عبدى أظعنى تكن مثلى : أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء : كن فيكون ... صدق الله ورسوله ...

الله

صفحة	
١١	الله .. لا إله إلا هو الحى القيوم ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ... شهد الله أنه لا إله إلا هو ..
٢٥	خلق الإنسان علمه البيان ، علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ...
٣٩	يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما
٥٢	ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات ...
٦٣	قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به ...
٧٤	الله نور السموات والأرض ...
٨٦	ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ...
٩٩	ألم تركيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد ... إن ربك لبالمرصاد .
١٠٩	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ..
١٢١	فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون
١٣٧	سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ...
١٥٠	ومن الناس من يشتري لهو الحديث ...
١٧١	ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟ ..
١٨٤	وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟؟ ..
١٩٩	إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ...
٢١٦	أولئك الذين هدى الله فبهماهم اقتده ...

صفحة	
٢٢٩	أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ..
٢٤١	قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى
٢٥٥	ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ...
٢٧١	إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ...
٢٨٨	ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أموالنا ...
٣٠٣	قل هو الله أحد ، الله الصمد
٣١١	نحن قلرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فما لا تعلمون
٣٢٢	وترى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ...
٣٣٥	من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ..
٣٥٠	.. وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ...
٣٦٥	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ...
٣٨٠	إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون

مختار

صفحة	
١٧	لا يشكر الله من لم يشكر الناس
٣١	إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له اشعاركم وابشاركم ...
٤٢	لا تعاملوا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ...
٥٤	بدئ الدين غريباً وسعود غريباً كما بدئ
٦٦	إذا وضع العبد في قبره وانصرف أصحابه حتى ليسمع خفق نعالهم ...
٧٩	أخرج متاعك إلى الطريق ...
٩١	شر الطعام الوليمة ، يدعى إليها الأغنياء ويترك المساكين
١٠٢	ليس منا من غش ، المسلم من سلم الناس من يده ولسانه
١١٢	اثنان لا يجتمعان : الغنى والزنا ، بشر الزانى بالفقر ولو بعد حين ...
١٢٦	لو تعلقت همة أحدكم بالثريا لناها
١٤١	إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلاً من نين ما يخرج من فيه
١٦١	لا ينظر أحدكم إلى من هو فوقه في الخلق أو الخلق أو المسال ...
١٧٥	تربت ميمتك فم يشبهها ولدها ؟؟
١٨٨	ويح عمار تمتله الفتنة الباغية ، الحق مع عمار ما لم تغلب عليه دلهة الكبر
٢٠٢	إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد
٢٢١	اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ...
٢٣٣	لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ...
٢٤٥	على المسلم أن يكون بصيراً بزمانه .
	لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه
٢٦٠	إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول ...
٢٧١	إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ...
٢٧٦	مثل المسلمين في توأدهم وتراحهم كمثل الجسد ...

صفحة	
٢٩٤	ان هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان ..
٣٠٦	ليس من أمتي أهل البدع .
	كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار
٣١٥	جنبوا مساكنكم الصبية والمجانين
٣٢٥	إذا أحرزت التقوى قوتها اطمأنت
٣٣٩	الدعاء من العبادة بمنزلة الرأس من الجسد
٣٥٥	اتقوا دعوة المظلوم فليس بينه وبين الله حجاب
٣٧٢	المرء من أحب ،
	من أحب قوماً حشر في زميرتهم

عَلَج

صفحة	
٢١	سلوني قبل أن تفقدوني
٣٣	أول الدين معرفة الله ، وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده ...
٤٦	لقلنا أدبر شيء فأقبل
٦٠	إن وراءكم الساعة مخلوكم فتخففوا تلحقوا
٧١	اندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم ...
٨٣	يا أيها الأغنياء أكثروا من الحسنات ...
٩٣	إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق ...
١٩٦	لا تتحدث الناس بكل ما سمعت به فكفى بملك كذباً ...
١١٦	ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ ...
١٣٢	من وثق بالماء لم يظمأ
١٤٥	والله إن امرأاً يمكن علوه من نفسه ...
١٦٥	أشجع مني من شرب بآناء مغطى
١٧٩	إن أعظم الخيانة خيانة الأمة ...
١٩٢	أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى ...
٢٠٩	والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ...
٢٢٥	لو ضربت في مذاهب فكرك ليلغ غاياته ...
٢٣٧	لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ...
٢٥٠	كفى بالأجل حارساً .
٢٦٦	ستعرفوني بعد خلوي مكاني ...
٢٨٢	إن في القرآن علم ما يأتي ، والحديث عن ...

صفحة	
٢٩٩	...وأرسي أرضاً يحملها الأخضر المتعرج ...
٣٠٨	إن في السماء مدناً تملكنكم هذه ...
٣١٨	العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله ...
٣٢٩	لا تكن عند النعماء بطراً ، ولا عند البأساء فشلاً
٣٤٤	ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً ...
٣٦٠	إنكم لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه ...
٣٧١	ليس بلد أحق بك من بلد ، خير البلاد ما حملك

